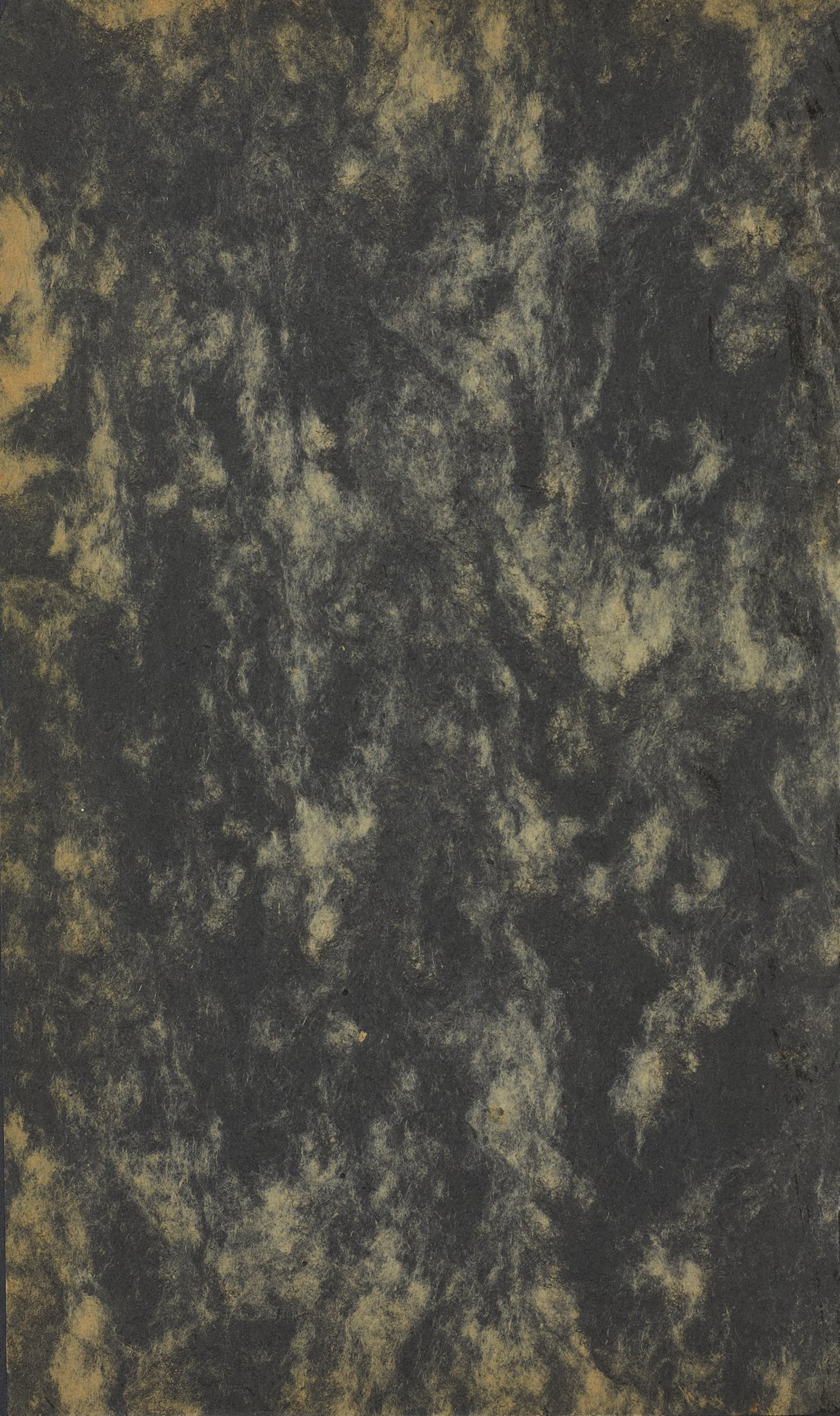
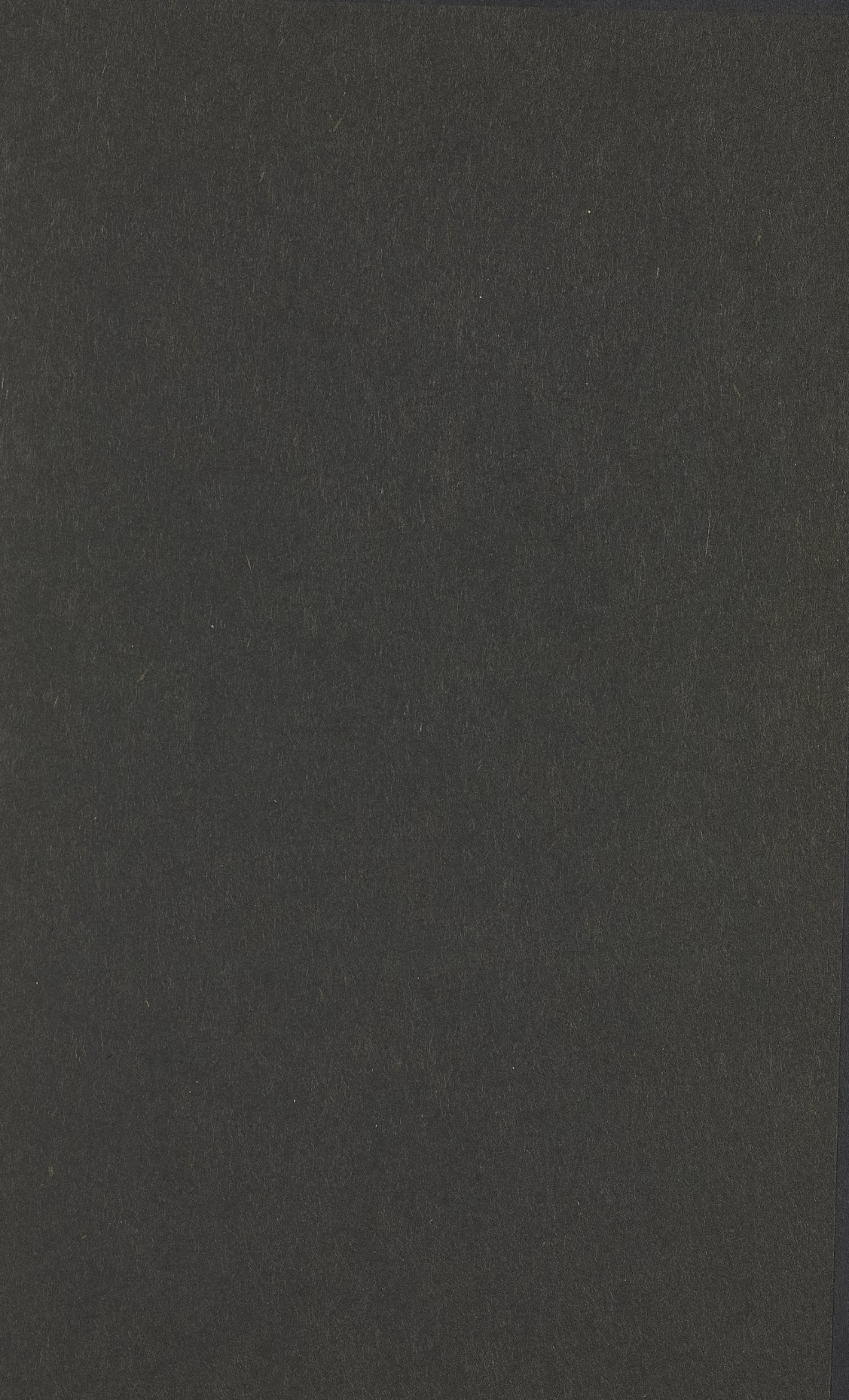


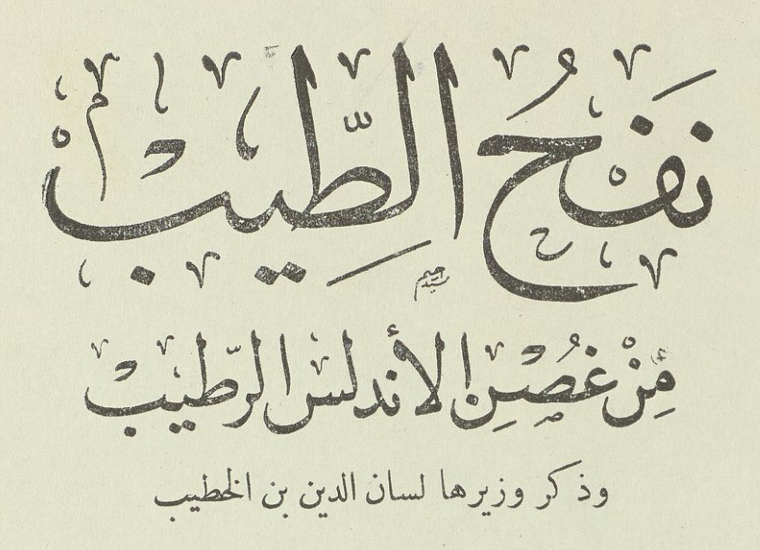

SIGILLVM · COLLEGII · COLVMBIAE · NOVI · EBORACI
IN LVMINE TVO VIDEBIMVS LVMEN
יהוה
I·PET·II·1·2











وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

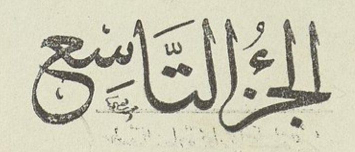
أديب المغرب وحافظه الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمساني

المتوفى فى عام ١٠٤١ من الهجرة

حققه ، وضبط غرائبه ، وعلق حواشيه

محمد محيي الدين عبد الحميد

عفا الله عنه !



الطبعة الأولى

فى عام ١٣٦٩ هـ — ١٩٤٩ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى ، بشارع محمد على ، بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رُسُلِ الله ، وعلى آلهم وأصحابهم .

خاتمة كتاب المحبة للسان الدين

وقال ـ رحمه الله تعالى ! ـ آخِرَ بعضِ تراجم هذا الكتاب ماصورته : خاتمة تشتمل على إشارات ، وتختال من الحق فى شارات ، قال بعض مَنْ يطأ بمطية السلوك ، حِمى الملوك ، و ينقض زوايا الغيوب ، عن المطلوب ، ببصر بصائر القلوب : شهدت أصناف المحبين والعشاق ، على اختلاف البلاد وتباين الآفاق ، لا أدرى أقال كشفا وشهوداً ، أو فرضاً ووجوداً ، أو يقظة أو هجوداً ، وقد رَكَضُوا مطايا الأشواق ، وضربوا آباطها بِعِصِىِّ المشارب والأذواق ، وتزودوا أزواد الحقائق ، وودعوا أحباب العوائد والعلائق ، وتساهلوا فى المحبوب اعتراض العوائق ، وتفاضلوا فى احتيار الجوادِّ[1] واقتحام المضايق ، والطرق إلى الله تعالى عدد أنفاس الخلائق ، فمن خابط عَشْوَاء[2] ، ومسقط أهواء ، يقول :

يا ليت أنى أوقد النــارا فإنــ مَنْ يهواك قد حارا

فيجيبه الصدى :

ومن طلب الوصول لدار ليلى بغيرا طريقها وقع الضلال

ومثبت بحيث لا يبدو عَلَم ، ولا يقتص خف ولا قدم ، فى مفازةٍ وجودُ من حَلَّهَا عَدَم ، وهو يصيح :

بأبى وأمى والذى ملكت يدى أفدِى الذى يهدى الطريق اللاحبا

ثم يقول :

ولقد سَرَيْتُ إليك لكن حين لم يكن الدليل أجل قصد السالك

ومن طاو نفد زاده ، وفرغ مزاده ، قد استسلم ، وعجز أن يتكلم ، ولسان حاله ينشد :

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدا ندمت على التفريط فى زمن البذْر

وراكض يقطع الدوّ ، و يعزف [فى] الجوّ[3] ، يثبت الأعلام الخافية ، و يقصد الموارد

---

(١) الجواد : جمع جادة ـ بتشديد الدال ـ وهى الأرض الواضحة التى يسهل فيها السير . (٢) العشواء : الناقة التى لا تبصر ليلا ، فسيرها لا يكون على الجادة ، وتضرب مثلا لمن لا يهتدى فى سيره . (٣) يعزف : يصوت .

الصافية والظلال الضافية ، حاديه أمله ، ودليله علمه ، والراحلة عمله ، ينشد بأعلى صوته :

قَرُبَ اللقاء فكيف لا ترتاح للقاء سكان الحمى الأرواحُ

ومرافق يركض البريد ، ويصحب التفريد ، بلغ الطّية ، وأناخ المطية ، قبل وصول الرفقة البطية :

سرى سلخ شهر فى فُوَاق حلوبةٍ فلله ما أنأى سُراهُ وما أدْنى

(لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رُعْبا) .

وقلت :

نَهَضُوا وقد جن الدجى وتخالفت سبل الردى فمسدّدون وضُلَّلُ

سلنى عن المنبتّ حين تقطعت أسبابه تيهـاً ولا من يسْأل[1]

قوم سطت بهمُ السباعُ ، وفرقة عطشوا ، وأين من الظّماء المَنْهَلُ ؟

لفح الهجير وجوهَهم بسعيره فتهافتوا ببلالة وتعللوا

وجماعة ركبوا المفاوز دائما عثروا على أثر فشَطَّ المنزلُ

وركائب جعلوا الدليل أمامهم وسَرَوْا ففازوا بالذى قد أملوا

والليل متلمة ، ومدرجة الهوى لا يستقل بها المطىُّ الذلَّلُ

والواصلون هم القليل وكيف لا قفر ومَسْبعة وليل ألْيَلُ

يا رحمة للعاشقين تقحّمُوا خطر النوى وعلى الشدائد عوّلوا

طارت بهم أشواقهم فعقولهم معقولة عن شأنها لا تعقل

عذرا لكم يا أهل عُذْرَةَ شأنكم سَلِمْتُ فيه لكم فقولوا وافعلوا[2]

حتى إذا خرجوا إلى قضاء القدر المشترك ، وأفلت من أفلت من الشَّرَك ، وسلم

---

(١) المنبت : الذى يعمل متواصلا من غير استجمام ، فيؤول أمره إلى الانقطاع ، وفيه ورد قوله صلى الله عليه وسلم : « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » .

(٢) عذرة : قبيلة اشتهرت بالحب ، وإليها ينسب الحب العفيف الطاهر ؛ فيقال « حب عذرى »

من قتيل المعترك ، وأشرفوا بركاب الآمال ، على ثنية الجمال ، زعقوا بإزاء الباب ، ونادوا من وراء الحجاب :

كُلٌّ كَنَى عن شوقه بلغاته ولربما أبكى الفصيحَ الأعْجَمُ

وأوصلوا رقاع شكواهم ، بسرائر هواهم ، وبرزوا صفا ، واستظهروا بشفعائهم التى ظنوا أنها لا تخفى (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى) وقد تعينت الأوصاف وتميزت ، وانتَبَذَت الأصناف وتحيزت ، والعشاق نجت وسلمت ، مذ علمت ، منهم الصفوة والمجان ، والحرافيش والبهلوان ، ممن يعوّل على ذراعه ، وملاكمته وصراعه ، وطول باعه ، وصلابة طباعه ، وسَلاطة لسانه ، وامتزاج إساءته بإحسانه ، شأنه البحث عن المحبوب ، مع الشروق والغروب ، والتوصل إلى وَصْله المطلوب ، بالحركة الشريفة واللفظ الخلوب ، ومن اتَّسَمَ بإذاعة الأسرار ، وصحبة الشرار ، واللسان المهذار ، حسب من الأغيار ، ومنهم بُذاة ، ليس لهم إلا المُنَادمة أداة ، تعذر عليهم تميز المحبوب فغلطوا ، وعكفوا على تنزيهه فأفرطوا :

ربما ضر عاشقٌ معشوقا ومن البر ما يكون عقوقا

وغلبت على سجيتهم السلامة ، ولم تنلهم لعدم الموصِّل والمعرِّف الملامة ، وليس للقبول عليهم علامة ، ومنهم من شعاره الحشمة ، ولزيمه العفاف والعصمة ، أولو الحياء والوقار ، والكتم للأسرار ، ومخالطة الأبرار ، والتوسل إلى المحبوب بالافتقار ، وصفاء الضمائر من الأكدار ، لا تختلجهم الشواغل ، ولا يطرق شرابهم الواغل [(1)] ، أغنتهم الشواهد عن الدعوى ، وأصمَّهم [(2)] الرضا عن الشكوى ، وتقسمت معاملاتهم الآداب ، وصح منهم إلى مراتب المراقبة الانتداب ، والناقد بصير ، وكلام النيات قصير ، ومنهم المغلوب الحال ، المحمول من فوق الرحال ، رقص

---

(١) الواغل : الذى يدخل على القوم وهم على الشراب ، من غير أن يدعى إلى ذلك ، وقال امرؤ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

(٢) فى ب « وأصمتهم الرضا »

وشطح ، وسكر فافتضح ، فهو باخ الرفقة ، وملوع الحرقة ، دعنى وعبدى بلخ ، فإنه يضحكنى سبع مرات فى اليوم ، ومنهم من لم يأخذه نعت ، ولا تعين له فوق ولا تحت ، ولا حمد ولا مقت ، ولا حين ولا وقت ، لو نطق لقـال : أنا المعدوم الموجود ، والشاهد المشهود (ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود) .

قضى وصلها لى ، وابتلاكم بحبها وهل يأخـذ الإنسان غير نصيبه[1]

ولم يكن إلا أن خرجت الرقاع ، وفضلت البقاع (ووفيت كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون) .

فكان فى رقعةٍ طائفةٍ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء) قلدتم العقل وله طور ، ورأيتم الحركات لا يتناهى لها دور ، وعالم الجزئيات لا يُسْبر له غَوْر ، وحور المعاد فى بعض الفروض لا يكون له كور ، ويا شرَّ ما أصبحتم فى المعاد الأول تعتقدونه ، أن جعلتم التصرف فى عالم الملك لمن دونه ، قفوا مكانكم ، ولوموا أنفسكم ودعوا شأنكم .

وكان فى أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً) أساطينَ الحـكمة المشرقية ، وفَرَاش الأنوار الحقيقية ، دعونا من استكثار الأنوار ، واحتشاد الأطوار ، الحق نور إرشاد لا يطيق حسنَ ذاته ، إلا من ركب ظهر شَتَاته ، فارفعوا الـكلف ، واذكروا مجرى من تقدم وسلف .

وكان فى أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (قل الله ، ثم ذَرْهُم فى خوضهم يلعبون) لَمْ تتركوا البراهين على أصلها ، ولا ناسبتم جنسَ هذه الموضوعات بفصلها ، وآثرتم شغبا طويلا ، وأوسعتم المُتَشَابه تأويلا ، ولم تعتمدوا من العقل دليلا ،

---

(١) هذا عكس قول المجنون :

قضاها لغيرى ، وابتلانى بحبها فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيا

ولا وقفتم فى مجازات العقول قليلا ، وهَوَّلتم باصطلاح غيركم تهويلا ، وادعيتم الشهود ولم يجعل الله تعالى فى الاحتجاج به إلا للأنبياء سبيلا ، و بنيتم الحقائق على قياس ونظر ، من غير عين للعقل والنقل ولا أثر :

رب خل أدار فىَّ اعتقادا لم أكن قبله عَرَفتُ بفنِّه

حكمت نفسُه على علم غيبي جعل الله باطنى عند ظنه

وعسى أن تكونوا ممن أخطأ فى اجتهاده فأثيب ، واستغفر فسمع «لا تَثْريب» ، فثمرتكم صحيحة ، والمقاصد من التبعة مريحة ، إذا كانت صريحه ، ولولا الافتيات ، لوضحت فى ميدان السبق لكم الشِّيات ، لكن شأنكم الهذيان ، وقلبت منكم بضعفائكم من المتأخرين الأعيان ، كابن قسى وابن برْجان ، فتبرؤا من أتباعكم المُطيفة ، وأحزابكم المخيفة ، وأخلصوا فعل الأنصار يوم قتال بني حنيفة ، وحبذا الحكم المقتدى ، ومن يهد الله فهو المهتدى ، واكْبَحُوا الألسن عن طلاقتها وذَلاَقتها ، ولا تكلفوا العقولَ فوق طاقتها ، فلابد من توقيف وتسليم ، وفوق كل ذى علم عليم ، و إذا محيتم فأثبتوا ، أو نطق الناس فاسكتوا ، ولا ترضوا أن تكبَتُوا مع الذين كبِتُوا ، ولكم الحظ السنى ، والوصل الهنى .

وكان فى أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (وماخلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق) ذهب بوجودكم العدم ، وابتلع حدوثكم القدم ، ورضيتم بالاشراف ، فى الاستشراف ، والتوغُّلُ لَزِيمُ الانحراف ، ومن جعل الحس وَهْما ، فقد كابر العيان ظلما ، والعقل الذى غلطكم هو آلة حكمكم ، وأداة علمكم ، والعوالم أوثق من أن تكون تمويهَ راقش ، والوجود المطلق أبسط من أن يصير أبا بَرَاقش (١) ، ثم مالكم والتبجح والتشبع ، والتعقب والتتبع ، ولم يغن

---

(١) أبو براقش — بفتح الباء والراء جميعاً — طائر صغير كالقنفذ ، إذا هيج انتفش فتغير لونه ألوانا شتي ، وفيه يقول الشاعر :

وأبو براقش كل لو ن لونه يتلون

ويضرب مثلا للرجل المتلون المتقلب

العراك ، ووقع فى ثمرتكم الاشتراك ، فالفيلسوف يتَّحد بالعلة القريبة من الخلق ، ثم يتلاشى فى ذات الحق ، والحكيم يَجُوز إلى عين الحق رتبة الفناء المطلق ، والمتشرع قد عضده ونصره ، « كنت سَمْعه و بَصَره » ، و إن كان معظم القول الهذر ، ففيكم بعدُ نظر .

وكان فى أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، و إن الله لمع المحسنين) أنتم الأحباب ، ولكم يفتح من الجِنان الأبواب ، ركبتم ظهور الأعمال ، وركب غيرُكم ظهورَ الآمال ، وفزتم بسَحْب الأذيال[1] ، ومَنْ دونكم يحرك مناكب الخيال ، فبِدايتكم الأساس الوثيق ، الذى يبنى عليه التحقيق ، ونهايتكم إليها ينتهى الطريق ، وبها يحط فريق الله تعالى ونعم الفريق ، أولكم المقرب المدرَّب ، وأوسطكم الفرد المعرب ، وآخركم الولى المقرب ، حضرتم بذكر محبوبكم حتى غبتم ، فهنيئا لكم طبتم ، حواسٌ مسدودة ، وخيوط أفكار كلها ممدودة ، ومشاهد مشهودة ، ومغلطات تتجاوز حُرَّاسها ، وقواطع معترضة بحل مِراسها ، إلى أن لا توجد تَقيَّة ، ولا تبقى بقية ، عند تجلى المعالم الخفية ، لو اشتمل العلم على عملكم ، لكان الكل من هملكم ، بحيث تتعين المراتب وتتميز ، وتتفرق المشارب وتتحيز ، فلا يعترض قاطع إلا وقد علم شانه ، وتعين وقته ومكانه ، ولا تمثل غاية إلا ودرجها محدودة ، ومراحلها معدودة ، ومشاهدها قبل دخول الطريق مشهودة ، فهناك تُطْوَى المراحل ، و يلوح فى أَلمحة القريبة الساحل ، ويأمن طولَ الطريق الواصل .

وكان فى رقعة المحبين الذين قربوا قبل هذا اليوم وأدخلوا ، من بعد ما تخيروا للاصطفاء وانتخلوا[2] : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم) أنتم

---

(١) سحب الذيل : كناية عن مشية الخيلاء .

(٢) انتخله ، واجتباه ، وانتخبه ، وانتجبه ، واختاره ، كلها ألفاظ بمعنى واحد

الأحباب ، ولباب الألباب ، و بواسطتكم اتصلت بين النفوس و بين الحق الأسباب ، لولا كم لم يفتح الباب ، فلا يصل إلا من أوصلتم ، ولا يحجب إلا من قطعتم وفصلتم ، أنتم الرعاة والخلق الهمل ، وأنتم الدعاة لمن يريد نَيْل الأمل ، مهدت[1] لكم سُرُرُ القرب تمهيداً ، و بعثتم إلى الناس ليوحدوا الله توحيداً ، ولتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا ، فطوبى لمن أصاخ[2] منكم إلى نِدَا ، واستضاء بنور هُدَى ، صلوات الله عليكم أبداً ، أنتم أولو الأولوية المعقودة ، والعساكر المحشورة المحشودة ، ورؤساء أهل المحبة ، وأدِلاَّء مبتغى الوسيلة والقربة ، ومسالككم قد بينتها الصحف المُنْزلة ، والملائكة المرسلة ، ودخلت على العَذارى خُدورها ، وعمت السماء بدورها ، وأغنت عن تقرير محلها المكاتبُ المائجة بالصبيان[3] ، والسنن المعقودة لها حلق التبيان ، والقواعد المفترضة على الأعيان ، والخزائن المرصوصة بعلوم الأديان (اليوم أتممت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا) وقيل لأتباعهم من الجمهور ، وأقطاب فلكهم المشهور : على قدر أتباعكم ، مناقل أبواعكم ، و بحسب اقتدائكم ، يكون سماع ندائكم ، والمِهادُ لمن وَثَره ، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يَرَه ، وتأخيركم فى التوقيع هو التقديم ، وساقى القوم آخرهم شربا مَثَلٌ قديم ، قال المخبر : فرأيت وجوههم قد تهللت ، ونَوَاسم المسرَّات نحوهم قد أقبلت

ومن سواهم من خالص وزائف ، بين راج وخائف ، وسمعت أن طائفة استدعيت بحث حفى ، وأدخلت من باب خفى ، قيل لهم : هم أصحاب الخبر المكتوم ، وأرباب المَقام غير المعلوم ، جعلنا الله تعالى منهم برحمته !.

ولولا الحبُّ ما قطعوا الفيافى ولولا الحب ما قطعو البحارا
فدَعْهُمْ والذى ركبوا إليه وبحثا عن خلاصك واختبارا

---

(١) مهدت – بالبناء للمجهول – وطئت وعبدت ، والسرر : جمع سرير
(٢) أصاخ: استمع وأنصت (٣) المائجة بالصبيان : كناية عن كثرة المتعلمين فيها

فلا تشغل بحب ديار ليـــلى ولـكن حب من سكن الديارا

وقال قبل هذه الخاتمة بعد كلام كثير مانصه : وقد أتينا على ما شرطنا من تقرير ما أمكن من هذه الآراء ، وهم ما بين سابق للخيرات ومقتصد وظالم لنفسه ، ومع ذلك مُحِبون ، وعلى آثار الحبيب مُكِبُّون ، ما كل طريق تُوَصِّل ، ولا كل تجارة على الربح تحصل ، ومن العشاق مهجور ومطرود ، وموصل وموعود ، ومغبوط ومحسود ، ومحروم ومَجْدود (١) ، ومرحوم ومردود .

يا غايتى ، ولـكل شىء غاية ، والحب فيـــه تأخر وتقدّم

قل لى بأى وسيلة يحظى بما يرجوه غيرى من رضك وأُحْرَمُ

ورقة ولـكل دائرة مفروضة ، وهالة (٢) حولَ قَمَرِ الحق معروضة ، تعودالخطوط من محيطها المُسَدَّد ، إلى مركزها المحدد ، فالفيلسوف يروم التشبث بالعلة الأولى ، ويعنى بها ذات الحق ، أو أن يتحد بالثانية ، وهى مرآة وجه الحق ، والإشراقى يروم التَّجَوْهُر بنور الأنوار المعبر عنه بالحق ، والاتصالَ به إما بواسطة من الحق أو بغير واسطة من الحق ، والحـكيم أن يؤديه فـكره إلى الحق ، ثم يَفْنَى فى الحق ، ثم يبقى بالحق ، والمتشرِّع أن يُجَنَّ فى جنة الحق ، ويحصل على جوار الحق ، وينظر إلى جوار الحق ، وصاحبُ الوَحْدة المطلقة أن يكون المتفرق عين الحق ، فسبحان الحق ، المعبود بالحق ، الموجد الجمعَ فى الفَرْق ! لا إله إلا هو ، وزيد فى هـذا المحض الذى كثر فى قربه الدعداع ، وطال على الرؤس منه الصُّدَاع ، ما تفرد له المقالة المختصرة ، والعناية الميسرة ، بحول من لا حول ولا قوة إلا به . انتهى .

---

(١) المجدود ـ بالجيم ـ صاحب الجد ، وهو الحظ والبخت ، وضـده المحدود ـ بالحاء المهملة ـ والمحروم

(٢) الهـالة : اسم لدائرة القمر ، كما أن « الطفاوة » اسم لدائرة الشمس ، ومن كلامهم « فلان لايخرج من جهالته ، حتى يخرج القمر من هالته »

وقال رحمه الله تعالى فى عد ما عدد من فرق الاعتزال ما نصه :

من كلامه في عدد فرق الاعتزال

والحب حرَّكهم لكل جِدَالِ والحُبُّ أقحمهم على الأهوال

والحبُّ قاطَعَ بينهم وأضلهم عن نيل ما راموه كل ضلال

والحب أنشأ فيهم عصبية بالقِيلِ أضرم نارها والقَالِ

وإنما استكثرنا من ذكرهم عبرة لمن تأمل حرمات هذا الفراش المختلف الآراء عن ذُبَال[١] الحق ، يبتغون إليه الوَسِيلة ، قومٌ بالطاعة ، وقوم بالمعصية ، وما منهم إلا مُدَّعٍ فى المحبة ، متهالك ، حريص على السعادة بزَعْمه (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة) ممن قصد الحق فأخطأه ، وأراد الصوابَ فضلَّ عنه ، واشتهر بالحكمة بعد فى الملة الإسلامية جماعة بالمشرق والأندلس ، فمن المشارقة : أبو الفرج ، ويَعْقُوب الكندى ، وحُنَين بن إسحاق ، وثابت بن قرّة ، فكان عندهم مباشرتها من حيث الترجمة والمزاولة ، إلى أن قال : ومن أهل الأندلس : محمد بن مسعدة السرقسطى ، وأحمد بن طاهر الطُّرْطُوشى ، ويحيى بن عمران القرطبى ، وطُفَيل ابن عاصم ، وكُلَيْب بن همام البياسى ، والحسن بن حرب الدانى ، وابن ميسرة ، ومسلمة المجريطى ، وأبو بكر بن الصائغ ، وأبو بكر بن طُفَيل ، وأبو الوليد بن رُشْد ، وكل هؤلاء من المتقدمين والمتأخرين محب عاشق مستهلك ، قال الشاعر :

وعلىّ أن أسعى وليس علىّ إدراك النجاح

حَيَارَى يَمِيدُ بِهِمْ شَجْوُهم كأنهمُ ارتَضَعُوا الخندريسا

إذا لم يكن عَوْن من الله للفتى أتته الرزايا من وجوه الفوائد

(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك

---

(١) الذبال — بضم الذال — جمع ذبالة ، وهى ما يستضاء به ، والفراشة : حشرة تلقى بنفسها على النار فتحترق ، ويضرب بها المثل فى الجهالة المردية .

ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) (فريقاً هدى ، وفريقاً حق عليهم الضلالة) (قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) (قل فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين) والخلق قد مدوا أبصارهم وآمالهم ، وتحركوا طوعا وكرها يَعْشُون إلى نور الله تعالى ، فمن أعمى أصم لا يسمع ولا يبصر ، وأعمى فقط يجتزئ عن العيان بالمخبر ، وأحول يبصر الشيء شيئين ، والواحد اُثنين ، كما قال الشاعر :

أحوى الجفون له رقيب أحول — الشيء فى إدراكه شيئان

فيلوح فى عينيّ منـــه واحد — ويلوح فى عينيـــه منه اُثنان

يا ليتــه ترك الذى أنا مبصر — وهو المخير فى الحبيب الثانى

وضعيف لا يبصر من بعيد ، وأجهر لا يبصر من قريب ، وأعشى تكثر فى عينيه الأشعة ، وربما تندر ، وزرقاء اليمامة [1] :

سبحان من قَسَم الحظو — ظ فلا عتاب ولا ملامه

أعمى وأعشى ، ثم ذو — بصر ، وزرقاء اليمـــامه

لولا استقامة من هـــدَا — هُ لما تبينت العـــلامه

ومجـــاور الغرر المخيـــف — له البشارة بالسلامه

أقام سبحانه الحجة ، وفرق بين الأمر والإرادة ، وأعطى الكفاية من القدرة (فمنهم مهتد ، وكثير منهم فاسقون) اقتصرنا من هذا البحر على نقطة ، ومن هذا الوَدْق على قَطْرة .

* ومن يَسُدُّ طريق العارض الهَطِلِ ؟ *

* عَدُّ الحصى والقَطْر ليس يُرَامُ *

---

(١) زرقاء اليمامة : امرأة تضربها العرب مثلا فى قوة الإبصار ، وقد زعموا أنها كانت تبصر الأشياء على مسافة سير ثلاثة أيام ، وأربعة الأبيات من قصيدة طويلة أثرها المؤلف (ج١ ص ٢٣)

وذكرنا الرسل والأنبياء والأتباع ذكرا من غير تبويب ولا تعيين ، لشياع آرائهم ، والعلم بمقاصد مللهم ، وأغراض دعواتهم ، من توحيد الله تعالى وتنزيهه وصفاته وأسمائه ، وكيف يحشر الناس ليوم لا ريب فيه (لتجزى كل نفس بما كسبت) وتعليم طرق النجاة ، وإيضاح سبيل الله تعالى ، والتحذير من الغفلة عمن إليه الرُّجعى ، وله الآخرة والأولى ، والتخويف من كل ما يقطع عنه ، والترغيب فيما يوصِّل إليه ، وشأن الرياضة والتدريج فى أحوالها حتى تنتقل من الظواهر إلى البواطن ، وتَسْرى فى الخلف من السلف ، والندب إلى الاقتصار على الضرورة والقناعة بالبلاغ ، وتبين الرسم فيها ، والتعيين لحدودها ، قد تضمنت ذلك كلَّه آياتُ الله التى تكفل بحفظها ، وسنة رسوله التى قَيَّضَ مَنَاخل الصدق لتصحيح نقلها ، فالمكاتب والمنة لله تعالى مائجة[1] ، والمدارس حافلة ، فما لنا والإطالة فى الموجود الذائع ، والمشهور الشائع .

والشمس تكبر عن حَلْى وعن حُلَل فهى الدرارىُّ فى التقليد بالدرر

ما أغنى الشمس عن مدح المادح ! تحصيلُ الحاصل عَنَاء (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون) .

فلنذكر بعضَ أرباب الآراء من قريب وبعيد ، وخلق جديد ، على صورة المثال المفروض وليكون كعرض الحبوب الذى تجزى منه الحفْنة عن الجفْنة ، والقربة عن القربة ، ونقتصر على اليسير لإقامة الترتيب ، وإحكام التبويب ، وليرى الواقف عليه أننا قد نفضنا الزوايا[2] ، ورشفنا الرَّوايا[3] ، وامتككنا العظام[4] ، واستقصينا النِّظام ، حرصا على نشيدة الحق أن تعقل ، وعلى الطباع أن تنقل ، وعلى المرائى الصَّدِية أن تصقل ، وعلى صورة النجاة أن تمثل ، ونسأل الله تعالى

---

(١) فى ب « مائحة » بالحاء مهملة — وهو تحريف ، وانظر (ص ١٠ من هذا الجزء)

(٢) يشير إلى قولهم فى مثل « كم فى الزوايا من خبايا » .

(٣) الروايا : جمع راوية ، وهى قرب الماء ونحوها .

(٤) امتك العظم : مص ما فيه من المخ .

هداية توصل إليه ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، انتهى .

وقال رحمه الله تعالى فيما قبل هذا الكلام بكلام ما صورته : غصن المحبين ، وأصنافهم المرتبين ، ويشتمل على مقدمه بيان ، وستة أفنان .

فالمقدمة ... فنقول : أصناف المحبين والعشاق كثير ، وهَبَاء نَثير ، وجَرَاد آثارها نَشير ، بحيث يَشُقُّ إحصاؤهم ، ولا يتأتى استقصاؤهم :

فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى : قتيلُك ، قالت: أيُّهُمْ فهمُ كُثْرُ ؟[1]

ثم مَدَّ النفَس بما لا يقتضى المقام الاختصارى ذكره فى هذا الموضع .

وقال رحمه الله تعالى فى بعض تراجم الروضة ، وهى الخاتمة التى تنبه النفوس الصَّبة ، على حكم المحبة ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ، بعد كلام ما صورته : فِقَر فى معنى هذه الخاتمة فيها حكم تمثال ، وتجرى مجرى الأمثال : المحبة بحر بعيد الشط ، وخَطٌّ والفناء منتهى الخط ، إنا عرضنا الأمانة ـ إلخ . المحبة مَهْوًى بعيد ، ومَجَال وعد ووعيد ، من خل يقلى ، ثم خيال يولى ، وليس له حد عليه يعول . المحبة ظهر لا يركبه ، مَنْ يرى الموت فيتنكبه ، ولا يعلوه ، مَنْ يأنى إلى وادى الفناء فيسلوه ، إن الله مبتليكم بنهر . كم قَصَمت المحبة من ظهر ؟ وكم سر صيرت إلى جَهْر ؟ أولها العاقل المشهور ، وآخرها الطى المنشور ، ثم الموت ثم النشور ، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب . المحبة أنس يستدرج ، ثم شوق يلجم ويُسْرِج ، ثم فناء يزعج ، عن الوجود ويخرج

* على قدر أهل العزم تأتى العزائم *[2]

المحبة كأس كم جودت من كاس ؟ وآس مَنْ شَمَّه لم يجد مِنْ آس :

متى أرتجى يوما شفائى من الضَّنَى إذا كان من يجنى على طبيبى

---

(١) البيت لأبى فراس الحمدانى ، وقبله قوله :

تسائلنى من أنت وهى عليمة وهل بفتى مثلى على حاله نكر

(٢) هذا صدر بيت لأبى الطيب المتنبى ، وعجزه قوله :

* وتأتى على قدر الكرام المكارم *

تزاحم أنفاس المحبين على خَطَرات الصبا ، تزاحم الهباء على مطارح شعاع الذّبَا ، فلولا بليلها لالتهبت ، وتعليل عليلها لتلك الأرماق لذهبت :

عليلة فى حواشى مِرْطها بلل ... يهدى لـكل عليل منه إبلال[1]

المحبة رقة ، ثم فـكرة مسترقه ، ثم ذَوْق ، يطير به شَوْق ، ثم وَجَل لا يبقى معه طَوْق ، ثم لا تحت ولا فَوْق :

أينما كنت لا أخَلِّفُ رحْلا ... مَنْ رآنى فقد رآنى ورحلى

الهوى هَوَان ، وحِمام له ألوان ، دمع ساجم ، ووجد هاجم ، وهُيَام لا يبرح ، ثم وراءه مالايُشْرَح :

قال : بمن جُنَّ ؟ وهل فى الورى ... ما يبعث الخَبْلَ سوى حبه ؟

مَنِ اقتحم بحر الهوى ، هَوَى . لا تدخل فى بحر الهوى حتى تشاور صبرك ، وتجاور قبرك ، فإن كنت منا أو فَرُحْ بسلام . الهوى طريق ، ولسلوكه فريق . الزاد سر مكتوم ، ووفاء معلوم :

وللميادين أبطال لها خلقوا ... وللدّواوين حُسَّاب وكتاب

الحب حَجٌّ ثان ، لا يَثْنِى نفسَ المريد عنه ثان ، طريقُه التجريد ، وزاده الذكر ، وطوافه المعرفة ، وإفاضته الفناء (فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واُذكروه كماهداكم ، وإن كنتم من قبله لمن الضالين) . الغرام ، صعب المَرَام ، والدخول فيه حرام ، ما لم يكن فيه شروط كرام . من عرف ما أخذ ، هان عليه ما ترك (وربك يخلق ما يشاء ويختار) ظهر الهوى طريقا سهلا ، فـكثر التائهون جهلا :

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... أتته الرزايا من وجوه الفوائد

---

(١) المرط — بكسر الميم وسكون الراء — كساء من خز أو صوف أو كتان يؤتزر به ، وربما تلقيه المرأة على رأسها وتتلفع به ، والإبلال : مصدر « أبل المريض » إذا برىء

والعكس

قد يخبأ المحبوب فى مكروهها　　مَنْ يخبأ المكروه فى المحبوب

وقال الشيخ :

هو الحب فاسلم بالحشى ما الهوى سهلُ　　فما اختاره مُضْنًى به وله عقل

وعش خاليا فالحب راحته عَنًى　　وأوّله سقم وآخره قتـل

نصحتك علما بالهوى والذى أرى　　مخالفتى فاختر لنفسك ما يحلو

فمن لم يمت فى حبه لم يعش به　　ودون اجتناء النحل ما جنَتِ النحلُ

طريق القوم مَبْنِية على الموت ، وإليه الإشارة بقوله « موتوا قبل أن تموتوا » بيدى لا بيد عَمْرو ، وقال بعضهم : رأيت رب العزة فقلت : يارب بم أصل إليك ؟ قال : فارق نفسك وتَعالَ

رَفْضُ السوى فرض على العين　　لا تخلطن الحق بالمَيْنِ (١)

والأين والكيف سوى ظاهر　　فاستغن عن كيف وعن أين

الخشب ، الذى يُتخَذ منه النشب ، ينقسم إلى أقسام ، وأجزاء جسام : القسم الأول : فى الحدود والمعرفات ، والأسماء الواقعة والصفات .

وللسان الدين رحمه الله تعالى فى المواعظ اليدُ الطولى .

للسان الدين فى الوعظ

قال فى الروضة فى الفصل الثانى فى محركات العزيمة ، وهى اليقظة ، ما نصه : قلت : والمحركات المشتركات فى باعث اليقظة كثيرة : منها الوعظ السائق بمقود الشارد عن الله تعالى إلى مَرْبط التوبة ، ومحرك العزيمة يُرَدِّد أذانه على نُوَّام أهل الكهف ، وقد ضرب نومُ الغفلة على آذانهم ، حتى يحول بينهم و بين أذانهم ، ويركبهم ظهر الرياضة حتى تلحقهم بالمجذوبين من إخوانهم ، ولما كان حب الدنيا هو المانع عن الشروع فى إطلاق العمل ، والقاطع به بعده لم يجد أُساة خبل

(١) فرض على العين : هو من اصطلاح الفقهاء ، ومعناه واجب على كل أحد ، والمين : الكذب .

الهوى وجنون الكسل أنجعَ من رُقَى[1] العذل والتأنيب، وتقبيح المحبوب، سيما إذا انزعجت نبال نبله عن حنيات ضلوع الصدق، وقال بعضهم: الكلام إذا خرج من القلب دخل القلب.

أوقد النار من رسالة ليلى واحذر السيل بعدها من دموعى

ولا تعدل الوعظ البليغ باللسان الفصيح، والقلب القريح، فإذا رأيت الأرض قد اهتزت ورَبَتْ، وهضابَ القُلوب القاسية قد تقلبت، فشمرِّ للغراس والزراع عن الذراع، واغتنم السراع والإسراع.

إذا هبت رياحُكَ فاغتنمها فإن لكل خافقة سكونا

حفر لها ماء يريها بدأة واضمن لها حوضا وإن لم تحفر

وار بأ بنفسك عن تسامح بائع واغنم إذا سامتك شهوة مشترى

قالوا: الوعظ يضرب وجه النفس عن التثبط[2] فى بساط اللذات، وينقل خطراتها عن الخطو فى ملعب الخطيئات، ويمثل لها الصبر عِيانا، ويبين العواقب المحجوبة بيانا، ويُنْشِئُ سحاب الحزن فى أجواف أجزائها، ويذكرها بمآلها وانتهائها، ويعرض عليها مصارع فنَائها، وخَرَاب بنائها، وفراق حبائبها وأبنائها، عند نزول هاذم اللذات بفِنائها، فترجع إلى الله تعالى بحكم الاضطرار أفكارها، وتخشع من خيفة الله تعالى وجلاله أبصارُهَا.

والوعظ يكون بلسانين، ويوجد فنين: لسان حال، ولسان مقال، وربما كان لسان الحال أبلغ، وهو يُسْمَع مِنَ القبور الموحشة، والقصور الخالية، والعظام البالية، وفيه حكايات وأخبار، ولسان مقال كقوله سبحانه وتعالى (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم، وتبين لكم كيف فعلنا بهم، وضربنا لكم

---

(١) الرقى: جمع رقية - بالضم - وهى العوذة، وهى فعل الراقى.

(٢) ثبطه - بالتضعيف - حمله على القعود والتهاون، فتثبط هو: أى تقاعد.

الأمثال) وهو سبيل الله تعالى التى بعث بها النبيين ، وضمن فصولها الكتاب المبين ، والسَّوْط الذى يحمل على الأَوْبَة ، ويسوق ذَوْدَ[١] المتطهرين إلى غدير التَّوْبَة ، ونحن نجعله هَيْنَمَة بين يدى الفراسة ، لتزكية النفوس إن صدق حكم الفراسة ، فمن ذلك ما صدر عنى على لسان واعظ .

موعظة من إنشاء لسان الدين

الحمد لله الولى الحميد ، المبدئ المعيد ، البعيد فى قربه من العبيد ، القريب فى بُعْده فهو أقرب من حبل الوريد[٢] ، محيي ربوع العارفين بتحيات حياة التوحيد ، ومُفنى نفوس الزاهدين بكنوز احتقار الافتقار إلى العَرَض الزهيد ، ومخلص خواطر المحققين من سُجُون دُجُون التقييد ، إلى فُسَح التجريد ، نحمده وله المنتظمة درره فى سلوك الدوام وسموط التأبيد ، حَمْدَ من نزه أحكام وحدانيته ، وأعلام فردانيته ، عن مرابط التقييد ، ونَخَبط الطَّبْع البايد ، ونشكره شكرَ من افتتح بشكره أبوابَ المزيد ، ونشهد أنه الله الذى لا إله إلا هو شهادة نتخطى بها معالِمَ الخلق إلى حضرة الحق على كَبِدِ التفريد ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله قلادة الجيد المجيد ، وهلال العيد ، وفَذْلكة الحساب وبيت القصيد ، المخصوص بمنشور الإدلال ، وإقطاع الكمال ، بين مقام المُرَاد ومقام المُرِيد ، الذى جعله السبب الأوصل فى نجاة الناجى وسعادة السعيد ، وخاطَبَ الخلائق على لسانه الصادق بحجتى الوعْدِ والوعيد ، فكان مما أوحى به إليه ، وأنزل الملك به عليه ، من الذكر الحميد ، ليأخذ بالحجزِ والأطواق من العذاب الشديد (ولقد خلقنا الإنسان ونَعْلَمَ ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حَبْل الوَرِيد) إلى قوله (حديد) صلى الله عليه وعلى آله صلاةً تقومُ ببعض حقه الأكيد ، وتَسْرِى إلى تربته الزكية من ظهور المواجِدِ الجائية على البريد .

---

(١) الذود — بالفتح — الإبل من الثلاثة إلى التسعة ، أو إلى العشرة ، وفى أمثالهم : « الذود إلى الذود إبل » يريدون القليل ينضم إلى القليل يصير كثيراً .

(٢) حبل الوريد : عرق فى العنق ، وفى القرآن الكريم (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .

قعدتُ لتذكير ولو كنت منصفا لذكرتُ نفسى فهى أحوج للذكرى
إذا لم يكن منى لنفسىَ واعظ فياليت شعرى كيف أفعل فى الأخرى

آه ! أىُّ وعظ بعد وعظِ الله تعالى يا أحبابنا يُسْمَع؟ وفيماذا وقد تبين الرشد من الغى يطمع ؟ يامن يُعْطِى ويَمْنَع ، إذ لم تقم الصنيعة فماذا نصنع ؟ اجْمَعْنَا بقلوبنا يامن يفرق ويجمع ، ولين حديدَها بنار خشيتك فقد استعاذ نبيك صلى الله عليه وسلم من قلب لايخشع ، ومن عين لا تدمع ، اعلموا — رحمكم الله ! — أن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من الأقوال والأحوال ، ومن الجماد والحيوان ، وما أملاه المَلَوان[1] ، فإن الحق نور لا يضره أن صَدَرَ من الخامل ، ولا يقصر بمحموله احتقارُ الحامل ، وأنتم تدْرُونَ أنكم فى أطوار سفر لا تستقر لها دون الغاية رِحْلَة ، ولا تتأتَّى معها إقامة ولا مُهْلة ، من الأصلاب ، إلى الأرحام ، إلى الوجود ، إلى القبور ، إلى النشور[2] ، إلى إحدى دارى البقاء ، أفى الله شك ؟ فلو أبصرتُمْ مُسافرا فى البرية يَبْنِى ويفرش ، ويمهد[3] ويعرش ، ألم تكونوا تضحكون من جهله ، وتَعْجَبُون من ركاكة عقله[4] ؟ ووالله ما أموالُكم ولا أولادُكم وشواغلُكم عن الله التى فيها اجتهادكم إلا ابقاء سَفْرٍ فى قفر[5] ، أو إعراس فى ليلة نَفْر[6] ، كأنكم بها مَطْرَحة تعبر فيها المواشى ، وتنبو العيون عن خبرها المتلاشى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) ما بعد المقيل إلا الرحيل ، ولا بعد الرحيل إلا المنزل الكريم أو المنزل الوَبيل ، وإنكم تستقبلون أهوالا سكراتُ الموتِ بَوَاكِرُ حسابها ، وعَتَبُ أبوابها ، فلو كشف الغطاء عن ذرة منها لذهلت العقول وطاشت الألباب ، وما كل حقيقة يشرحها الكلام (ياأيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولايغرنكم بالله الغرور) أفلا أعددتم لهذه الوَرْطة حيلة ، وأظهرتم للاهتمام بها مَخيلة ؟

---

(١) الملوان : الليل والنهار (٢) النشور : الخروج من القبور للعرض على الله .
(٣) يمهد : يوطىء ويذلل ويعبد . (٤) ركاكة عقله : أراد ضعفه .
(٥) القفر : الأرض الموحشة . (٦) الإعراس : النزول ليلا ، والنفر — بالفتح — التفرق والانتشار ، ويوم النفر : اليوم الذى ينفر الحجاج فيه من منى إلى مكة .

أتعويلاً على عفوه مع المقاطعة وهو القائل فى مقام التهديد (إن عذابى لشديد) ؟ أأمناً من مَكْره مع المنابذة (ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) ؟ أطمعاً فى رحمته مع المخالفة وهو يقول (فسأكتبها للذين يتقون) ؟ أمشاقة ومعاندة (ومَنْ يشاقق الله فإن الله شديد العقاب) ؟ أشكاً فى الله ؟ فتعالوا نعيد الحساب ، ونقرر العقد ونتصف بدعوة الحق أو غيرها ، من اليوم تفقد عقد العقائد عند التساهل بالوعيد ، فالعامى يدمى الأصبع الوجِعة ، والعارف يضمد لها مبدأ العصب .

هكذا هكذا يكون التعامى هكذا هكذا يكون الغرور

(يا حَسرة على العباد ، ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) وما عدا ، عما بدا[1] ؟ ورسولكم الحريص عليكم الرؤف الرحيم يقول لكم « الكيس مَنْ دان نفسَه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنّى على الله الأمانى » فعلام بعد هذا المعوّل[2] ؟ وماذا يتأول ؟ اتقوا الله سبحانه فى نفوسكم وانصحوها ، واغتنموا فُرَصَ الحياة وارْبحُوها (أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله ، و إن كنت لمن الساخرين) وتنادى أخرى (هل إلى مرد من سبيل)[3] وتستغيث أخرى (ياليتنا نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) ، وتقول أخرى (رب ارجعونى) فرحم الله مَنْ نظر لنفسه ، قبل غُرُوب شمسه ، وقدَّم لغده من أمسه ، وعلم أن الحياة تجرُّ إلى الموت ، والغفلة تقود إلى الفوت ، والصحة مَرْكب الألم ، والشبيبة سفينة تقطع إلى ساحل الهَرَم .

وإن شاء قال بعد الخطبة : إخوانى ، ما هذا التوانى ، والكلف بالوجود الفانى عن الدائم الباقى والدهر يقطع الأمانى ، وهاذم اللذات قد شرع فى نقض المبانى ؟ ألا معتبر فى عالم هذه المعانى ؟ ألا مرتحل عن مغابن هذه المغانى ؟

---

(١) « ماعدا عما بدا » حرفيته : ماحملك تجاوز ماظهر لك ؟ .

(٢) المعول : مصدر ميمى بمعنى التعويل .

(٣) المرد : الرجوع .

ألا أذنٌ تُصْغِى إلىَّ سميعــةٌ أحدثها بالصدق ما صنع الموت
مددت لـكم صوتى فأوّاه حسرة على مابدا منكم فلم يسمع الصوت
هو القــدر الآتى على كل أمة فتوبوا سراعا قبل أن يقع الفوت

يا كلفا بما لا يدوم ، يا مَفتُونا بغرور الوجود المعدوم ، يا صريعَ جـدار الأجل المهدوم ، يامشتغلا ببنيان الطرق قد ظهر المُنَاخ[١] وقَرُبَ القُدُوم ، يا غريقا فى بحار الأمل ما عساك تعوم ، يا معلل الطعام والشراب ولمع السراب ، لا بد أن تهجر المشروب وتترك المطعوم ، دخل سارق الأجل بيت عمرك فسلب النشاط وأنت تنظر ، وطوى البساط وأنت تكرب ، واقتلع جواهر الجوارح وقد وقع بك النهب ، ولم يبق إلا أن يجعل الوسادة على أنفك و يقعد .

لو خفف الوجد عنى دعوت طالب ثارى

(كلا إنها كلمة هو قائلها) كيف التراخى والفَوْت مع الأنفاس ينتظر؟ كيف الأمان وهاجم الموت لا يبقى ولا يَذَر ؟ كيف الركون إلى الطمع الفاضح وقد صح الخبر ؟ مَنْ فكر فى كرب الخُمَار[٢] تنغصت عنده لذة النبيذ ، مَنْ أحَسَّ بلَغَطِ الحريق فوق جداره لم يُصْغِ بصوته لنغمة العود ، مَنْ تيقن بذل العزلة هان عليه ترك الولاية .

ما قام خيرك يا زمان بشره أولى لنا ماقلَّ منك وما كفى

أوحى الله سبحانه إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه أن ضع يدك على مَتْن ثور ، فبعدد ماحاذته من شعره تعيش سنين، فقال : يارب و بعد ذلك ؟ قال تموت ، قال : يا رب فالآن .

رأى الأمر يُفْضِى إلى آخر فَصَيَّر آخـــره أوّلا

إذا شعرت نفسُك بالميل إلى شىء فاعرض عليها غصة فراقه (ليهلك من هلك عن

(١) المناخ – بضم الميم – اسم مكان من « أناخ راحلته ينيخها » أى جعلها تبرك ، وهذا إنما يكون عند انتهاء السير : والمراد به هنا حط الرحال والإقامة .

(٢) الخمار – بضم الخاء – مايعترى شارب الخمر من الدوار ونحوه .

بينة ويحيا من حى عن بينة) فالمفروح به هو المحزون عليه ، أين الأحباب ؟ مروا ، فياليت شعرى أين استقروا ؟ استكانوا والله واضطروا ، واستغاثوا مَنْ سبقك بأوليائهم فمروا ، وليتهم إذ لم ينفعوا ماضروا ، فالمنازل من بعدهم خالية خاوية ، والعروش ذابلة ذاوية ، والعظام من بعد التفاضلِ متشابهة متساوية ، والمساكن تندب فى أطلالها الذئابُ العاوية .

صِحْتُ بالرَّبْعِ فلم يستجيبوا — ليت شعرى أين يمضى الغريب
وبجنب الدار قبر جديد — منه يستسقى المكان الجديب
غاض قلبى فيه عند التماحى — قلت هذا القبر فيه الحبيب (١)
لا تسل عن رجعتى كيف كانت — إن يوم البين يوم عصيب (٢)
باقتراب الموت عللت نفسى — بعد إلفى كل آت قريب

أين المعمر الخالد ؟ أين الولد أين الوالد ؟ أين الطارف أين التالد ؟ أين المجادل أين المجالد ؟ (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً) (٣) وُجُوهٌ علاهن الثرى ، وصحائف تنفض ، وأعمال على الله تعرض ، بحث الزهاد والعباد ، والعارفون والأوتاد ، والأنبياء الذين يُهْدَى بهم العباد ، عن سبب الشقاء الذى لا سَعادة بعده ، فلم يجدوا إلا البعد عن الله تعالى ، وسببه حب الدنيا « لن تجتمع أمتى على ضلالة »

هَجَرْتُ حبائبى من أجل ليلى — فمالى بعد لبلى من حبيب
وماذا أرتجى من وصل ليل — ستجزى بالقطيعة عن قريب

وقالوا : ما أورد النفس الموارد ، وفتح عليها باب الحتف ، إلا الأمل ، كلما قوّمتها مثاقفُ الحدود فتح لها أركان الرخص ، كلما عقدت صَوْمَ العزيمة أهداها طرف

(١) أصل « غاض » أن يقال فى الماء ونحوه ، تقول « غاض الماء » تريد أنه غار فى جوف الأرض ، والالتماح : النظر . (٢) يوم عصيب : شديد .
(٣) الركز – بالكسر – الصوت .

الغرور فى أطباق : حتى ، وإذا ، ولكن ، وربما ، فأفرط القلب فى تقليبها حتى أفطر

ما أو بق الأنفس إلا الأمل وهو غرور ما عليه عَمَلُ

يفرض منه الشخص وَهْماً ماله حال ولا ماض ولا مستقبلُ

مافوق وجه الأرض نفس حية إلا قد انقض عليها الأجل

لو أنهم من غيرها قد كونوا لامتلأ السهل بهم والجبل

ما ثم إلاَّ لقم قد هيأت للموت ، وهو الآكل المستعجل

والوعد حق والورى فى غفلة قد خودعوا بعاجل وضُلِّلوا

أين الذين شيدوا واغترسوا ومهدوا وافترشوا وظللوا

أين ذوو الراحات زادت حسرة إذ جنِّبُوا إلى الثرى وانتقلوا

لم تدفع الأحباب عنهم غير أن بكوا على فراقهم وأعْوَلُوا

الله فى نفسك أولى من له ذَخرت نصحاً وعتابا يقبل

لا تتركنها فى عَمًى وحيرة عن هول ما بين يديها تغفل

حَقِّرْ لها الفانى وحاول زهدها وشوقها إلى الذى تستقبل

وفد إلى الله بها مُضْطَرَةً حتى ترى السير عليها يسهل

هو الفناء والبقاء بعده والله عن حكمته لا يُسْأل

يا قرة العين ويا حسرتها يوم يُوَفى الناس ما قد عملوا

يا طرد المخالفة ، إنكم مُدْرَكون فاستبقوا باب التوبة ، فإن رب تلك الدار يجير ولا يجار عليه ، فإذا أمنتم فاذكروا الله كما هداكم ، يا طُفَيْلِيَّة الهمة ، دُسُّوا أنفسكم بزُمر التائبين ، وقد دُعُوا إلى الله دعوة الحبيب ، فإن لم يكن أكل فلا أقل من

طيب الوليمة ، قال بعض العارفين : إذا عقد التائبون الصلح مع الله تعالى انتشرت رعايا الطاعة فى عمالة الأعمال (وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب) معانى هذا المجلس والله نسيم سحر ، إذا استنشقه مخمور الغفلة أفاق ، سَوْطُ هذا الوعظ يبغض إن شاء الله زَكمة[1] البطالة ، إن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ، إكسير هذا الكتاب يلقب بحكمة جابر ، القلوب المنكسرة عَيْنُ مَنْ كان له قلب (إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله) إلٰهى دلنا من حيرة يضل فيها إلا إن هديتَ الدليلُ ، وأجرنا من غمرة وكيف إلا بإعانتك السبيل؟ نفوس صدىء على مَرِّ الأزمان منها الصَّقيل ، ونبا يجنو بها عن الحق المقيل ، وآذان أنهضها القول الثقيل ، وعثرات لايقيلها إلا أنت يامقيل العثرات يامقيل ، أنت حسبنا ونعم الوكيل، انتهى.

موعظة أخرى من إنشاء لسان الدين

ومن مواعظ لسان الدين رحمه الله سبحانه ما أورده فى الروضة إثر ما سبق، إذ قال : إخوانى صَمّت الآذان والنداء جهير ، وكذب العيان والمشار إليه شهير ، أين الملك وأين الظهير ؟ أين الخاصة أين الجماهير ؟ أين القَبيل والعَشير ؟ أين كسرى ابن أردشير ؟ صدق والله الناعى وكذب البشير ! وغشَّ المستشار واُتهم المشير ، وسئل عن الكل فأشار إلى التراب المُشِير :

خذ من حياتك للممات الآتى	وبَدَارِ ما دام الزمان مُوَاتِى[2]
لا تغترر فهو السراب بقيعة	قد خودع الماضى به والآتى
يا من يؤمل واعظاً ومذكرا	يوما ليوقظه من الغفلات
هلا اعتبرت ويالها من عبرة	بمدافن الآباء والأمات
قف بالبقيع ونادِ فى عرصاته	فلكم به من جيرة ولِدَاتِ
دَرَجُوا ولست بخالد من بعدهم	متميز عنهم بوصف حياةِ

---

(١) الزكمة - بفتح الزاى - الزكام ، وهو تحلب فضول رطبة من بطنى الدماغ المقدمين إلى المنخرين ، فتنسد مسالكهما .

(٢) بدار : اسم فعل أمر بمعنى بادر : أى أسرع ، ومواتى : مساعد ومسعف .

والله ما استهلَلْتَ حَيًّا صارخا إلا وأنت تعـد فى الأموات
لافَوْتَ عن درك الحمام لهارب والناس صَرْعَى مَعْرَكِ الآفات
كيف الحياة لدارج متكاف سنة الكرى بمدارج الحيات
أسَفاً علينا معشر الأموات لا ننفك عن شغل بهاك وهات
ويغرنا لمع السَّراب فنغتدى فى غفلة عن هاذم اللذات
والله ما نَصَحَ امرأ مَنْ غشه والحق ليس بخافت المشكاة

يامن غدا وراح ، وألف الراح[1] ، يامن شرب الراح[2] ، ممزوجة بالعذب القراح[3] ، وقعد لعيان صروف الزمان مقعد الاقتراح ، كأنك والله باختلاف الرياح ، وسماع الصياح ، وهجوم غارة الاجتياح[4] ، فأديل الخفوت من الارتياح ، ونسيت أصوات الغناء برنَّات الرياح ، وعوضت غُرَرُ النُّوَب القباح ، من غرر الوجوه الصِّباح ، وتناولت الجسوم الناعمة أيدى الأُطراح ، وتنوسيت العهود الكريمة بمر المساء عليها والصباح ، وأصبحت كُماة النطاح ، من تحت البطاح ، وخملت المهندة والرماح ، ذليلة من بعد الجماح .

ولو كان هَوْلُ الموت لا شىء بعده لهان علينا الأمر واحتقر الهول
ولـكنه حَشْر ونشر وجنة ونار ، وما لا يستقل به القول

يامشتغلا بداره ، ورَمِّ جداره ، عن إسراعه إلى النجاة وبِداره ، يامن صاح بإنذاره شيب عذاره ، يامن صَرَف عينَ اعتذارهِ بأقذاره ، يا من قطعه بعد مزاره وثِقَلُ أوزاره ، يامعتلقاً ينتظر هجوم جزّاره ، يامختلساً للأمانة يرتقب مفتش ما تحت إزاره ، يامن أمعن فى خمر الهوى خَفَّ من إسكاره ، يامن خالف مولى رِقِّهِ توَقَّ من إنكاره ، يا كلفا بعارية ترد ، يا مفتونا بأنفاس تُعَد ، يا معوِّلا على الإقامة

(١) الراح ، هنا : الراحة ، ضد التعب . (٢) الراح ، هنا : الخمر .
(٣) القراح ـ بالفتح ، بزنة السحاب ـ الماء لا يخالطه شىء .
(٤) اجتاحه يجتاحه : أهلكه واستأصله .

والرحال تشدّ ، كأنى بك وقد أوثق الشدّ ، وألصق بالوسادة الخدّ ، والرجل تقبض والأخرى تمدّ ، واللسان يقول (ياليتنانرد) :

ما أشغل الإنسان عن شانه	إنا إلى الله وإنا له
والخيط مغزول لأكفانه	يرتاح للأثواب يُزْهَى بها
مستنفدا مبلغ أكوانه	ويخزن الفلس لورّاثه
مد إليه عين عرفانه	قوّض عن الفانى رِحَالَ امرئ
قد وكل العدل بميزانه	ما ثمَّ إلا موقف زاهد
ومحسن يجزى بإحسانه	مُفَرّط يشقى بتفريطه

يا هذا خفى عليك مَرَضُ اعتقادك فالتبس الشحمُ بالوَرَم ، جهلت قِيَم المعادن فبِعْتَ الشَّبَه بالذهب ، فَسَدَ حِسُّ[1] ذوقك فتفكهت بحنظله ، أين حرصك من أجلك؟ أين قولك من عملك ؟ يدركك الحياء من الطفل فتتحامى حمى الفاحشة فى البيت بسببه ، ثم توافعها بعين خالق العين ، ومُقدر الكيف والأين ، تالله ما فَعَل فعلك بمعبوده ، مَنْ قطع بوُجُوده (ما يكون من نجوى ثلاثة ــ إلى عليم) تعود عليك مَسَاعى الجوارح التى سخرها لك بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، فتبخل منها فى سبيله بفَلْس ، وأحدُ الأمرين لازم : إما التكذيب ، وإما الحماقة ، وجمعك بين الحالتين عجيب ، يرزقك السنين العديدة من غير حق وَجَبَ لك ، وتسىء الظن به فى يوم ، توجب الحق ، وتعتذر بالغفلة ، فما بال التمادى ؟ تعترف بالذنب فما الحجة فى الإصرار؟ (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذى خَبُثَ لايخرج إلا نَكِدا) يا مدّعى النسيان ماذا فعلت بعد التذكير؟ يا معتذراً بالغفلة أين ثمرة التنبيه ؟ يامَنْ قطع بالرحيل أين الزاد ؟ ياذُبَابة الحرص كم ذاتلجج فى ورطة الشهد ؟ يانائماً ملء عينيه حَذَارِ الأجَلُ قدأنذر ، ياثَمِلَ الاغترارقرُبَ خُمَار الندم، تَدَّعى الحذق

(١) فى ب « فسد حس ذوقك » .

بالصنائع وتجهل هذا القدر ، تبذل النصح لغيرك وتغش نفسك هذا الغش ، اندمل جرحُ توبتك على عَظْم ، قام بناء عَزْمتك على رمل (١) ، نبتت خضراء دَعْوَتك على دِمْنَة (٢) ، عقدت كفك من الحق على قَبْضَة ماء (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) ، إذا غام جو هذا المجلس ، وابتدأ رش غمام الدموع ، قالت النفس الأمارة : حوالينا لا علينا ، فدالت رياح الغفلة ، وسَحَابُ الصيف هفاف ، كلما شد طفل العزيمة على دُرَّة التوبة صانَعَتْه ظئرُ الشهوة عن ذلك بعصفور ، إذا ضيق الخوف فُسْحَة المهل سرق الأمل حدود الجار ، قال بعض الفضلاء : كانوا إذا فقدوا قلوبهم ، تفقدوا مطلوبهم ، ولو صدق الواعِظُ لأثر ، اللهم لا أكثر ، طبيبٌ يداوى الناس وهو عليل ، والخطب جليل ، والمتفطن قليل ، فهل إلى الخلاص سبيل ، اللهم انظر إلينا بعين رحمتك التى وسعت الأشياء ، وشملت الأموات والأحياء ، يا دليلَ الحائرين دُلَّنا ، يا عزيز ارحم ذُلَّنا ، يا وليَّ من لا ولى له كن لنا كلنا ، إن أعرضْتَ عنا فمن لنا ؟ نحن المذنبون وأنت غفار الذنوب ، فقلِّبْ قلوبنا يامقلب القلوب ، واسْتُرْ عيوبنا يا ستَّارَ العيوب ، يا أمل الطالب ويا غاية المطلوب ، اهـ .

من إنشائه يخاطب طالب موعظة

ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى فى المواعظ ما خاطب به بعض من استدعى منه الموعظة ، ونصه :

إذا لم أنُحْ يوماً على نَفْسِيَ التى ... بحوّائها أحْبَبْتُ كلَّ حبيب

وقد صح عندى أن غادية الردى ... تدبُّ لها والله كل دبيب (٣)

فمَنْذَا الذى يبكى عليها بأدمعى ... إذا كنت موصوفاً برأى لبيب

كم قد نظرت إلى حبيب تغار من إرسال طرفك بكتاب الهوى إلى إنسانه ، وقد

(١) بناء على رمل : كناية عن ضعف البناء ، وأنه موشك أن ينهار لضعف أسه .

(٢) يشير إلى قوله صلي الله عليه وسلم : « إياكم وخضراء الدمن » قالوا : وما خضراء الدمن يارسول الله ؟ فقال : « المرأة الحسناء فى المنبت السوء » .

(٣) فى ب « وقد صح عندى أن غادية الردى » .

ذبلت بالسقم نرجسة لحظه ، وذَوَتْ وردة خده ، واصفرت لمغيب الفراق شمسُ حسنه(١) ، وهو يجود بنفسه التى كان يبخل منها بالنفس ، يخاطب بلسان حاله مسترحما ، وليت الفجل يهضم نفسه ، وأنت على أثر مسحبه إلى دَسْت الحكم ، (وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم) .

ومنها : تالله لو لم يكن المخبر صادقا لنشب بحَلْق العيش بعده شوكة الشك :

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموتُ راحةَ كل حى

ولكنا إذا متنا بعثنا ونُسْأل بعده عن كل شى

فالحازم مَنْ بتر الآمال(٢) طَوْعا ، وقال : بيدى لا بيد عمرو(٣) (يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) .

وقال أمير الوعاظ رحمه الله تعالى * و بضدها تتميز الأشياء * يا مقتولا ماله طالب ثار ، بريدُ الموت مُطْلَق الأعِنَّة(٤) فى طلبك ، وما يحميك حصن ، ثوبُ حياتك منسوج من طاقات أنفاسك ، والأنفاس تستلب ذرات ذاتك ، وحركات الزمان قوية فى النسج الضعيف ، فياسُرْعة التمزيق ، يا رابطاً مُناه بخيط الأمل ، إنه ضعيف الفَتْل ، صياد التلف قد بَثَّ الصقور ، وأرسل العِقْبان ، ونَصَب الأشراك ، وقطع المواد ، فكيف السلامة ؟ تهيأ لسُرْعَة الموت وأشد منها قلب القلب ليت شعرى لما يؤول الأمر :

فوالله لا أدرى أيغلبنى الهوى إذا جَدَّ جِدُّ البين أم أنا غالبه

فإن أستطع أغلب و إن يغلب الهوى فمثل الذى لاقيتُ يُغْلَب صاحبه

مركبُ الحياة تجرى فى بحر البدن برُخاء الأنفاس ، ولا بُدَّ من عاصف قاصف بفلكه و يغرق الركاب :

---

(١) اصفرت شمسه : كناية عن دنوه من الارتحال والمغيب .

(٢) بتر الآمال : قطعها . (٣) هذا مثل تقوله الزباء ملكة الجزيرة .

(٤) الأعنة : جمع عنان ، وهو ماتقاد به الدابة ، ومطلق الأعنة : كناية عن سرعة سيره .

فاقضوا مآربكم عِجالاً إنما أعماركم سفر من الأسفار

وقال : كأنك بحرب التلف قد قامت على ساق ، وانهزمت بجنود الأمل ، و إذا بملك الموت قد بارز الروحَ يجذبها بخَطَاطيف الشدائد من قيان العروق ، قد شد كتافَ الذبيح ، وحار البصر لشدة الهول ، وملائكة الرحمة عن اليمين قد فتحوا أبوابَ الجنة ، وملائكة العذاب عن اليسار قد فتحوا أبواب النار ، وجميع المخلوقات لستوكف الخبر ، والكون كله قد قام على صيحة : سَعِدَ فلان ، أو شقى فلان ، تهناك تنجلى أبصار الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى ، ويْحَكَ ! تهيأ فتلك الساعة ، حَصِّل زاداً قبل الفوت :

تمتع من شميم عَرَار نجد فما بعد العشية من عَرَار

مَثِّلْ لعينيك سُرعة الموت ، وما قد عزمت أن تفعل حينئذ فى وقت الأسر فافعله فى وقت الإطلاق ، وقال أبو العتاهية :

خانك الطرف انئد أيها القلب الجموح (١)

فدَوَاعى الخير والشر دُنُوٌّ ونزوح (٢)

كيف إصلاح قلوب إنما هن قروح

أحْسَنَ الله بنا إن الخطايا لا تبوح (٣)

فإذا المشهور منا بين أيديه فضوح (٤)

كم رأينا من عزيز طويت عنه الكُشُوح

صاح منه برحيل طائر الدهر الصَّدُوح (٥)

موت بعض الناس فى الأر ض على بعض فتوح

سيصير المرء يوما جسدا ما فيه روح

(١) القلب الجموح : الجامح الذى لا يقف عند حدود العقل ، ولكنه يجرى مع شهواته ؛ وفى ديوان أبى العتاهية : « خانك الطرف الطموح » .

(٢) في الديوان : « لدواعى الخير » . (٣) فى الديوان : « إن الخطايا لا تفوح » . (٤) فى الديوان : « فاذا المستور منا » .

(٥) فى الديوان : « صائح الدهر الصدوح » .

بين عَيْنَىْ كل حى عَلَم الموت يلوح
كلنا فى غفلة والدهر يغدو ويروح[١]
لبنى الدنيا من الدنيا غَبوق وصَبوح
رُحْن فى الوشى وأصبحن عليهن المُسُوحُ
كل نطاح من الدهر له يوما نَطُوحُ
نُحْ على نفسك يا مسكين إن كنت تنوح
لتنوحَنَّ ولو عُمِّرْتَ ما عُمِّرَ نوحُ[٢]

وقال فى المعنى :

لمن طَلَلٌ أسائله مُعَطَّلة مناهله[٣]
غداة رأيته تنعى أعاليَه أسافلُه
وكنت أراه مأهولا ولكن بادَ آهلُه[٤]
وكُلٌّ لاعتساف الدهر مُعْرَضَةٌ مقاتله
وما مُتَملك إلا وريب الدهر شامله[٥]
فيصرع من يصارعه ويَنْضُلُ من يناضله
ينازل من يهمُّ به وأحيانا يُخَاتِلُهُ[٦]
وأحيانا يؤخره وتاراتٍ يعاجلُه
كفاك به إذا نزلت على قوم كَلاكِلُهُ
وكم قد عزَّ من ملك تحف به قبائله[٧]
ويثنى عِطفه مَرَحًا وتعجبه شمائله
فلما أن أتاه الحق وَلَّى عنه باطله

(١) فى الديوان : « والموت يغدو ويروح » . (٢) فى أصل الديوان : « لست بالباقى ولو عمرت » وفى نسخة « لتموتن ولو عمرت » . (٣) فى الديوان « معطلة منازله » . (٤) مأهولا : مسكونا ، وآهله : ساكنه ، وباد : هلك .
(٥) فى الديوان : « وما من مسلك إلا » . (٦) فى ب « وأحياناً يحامله » وأثبتنا مافى الديوان . (٧) فى الديوان : « تحف به قنابله » .

فخفض عينه للمو ت واسترخَتْ مَفاصله(١)
فما لَبِثَ السِّياقُ به إلى أن جاء غاسله
فجهزه إلى جدث سيكثر فيه خاذله
ويصبح شَاحِطَ المثوى مُفَجَّعة ثوا كله(٢)
مخمشة نوادبه مسلبة حلائله(٣)
وكم قد طال من أمل فلم يدركه آمله
رأيت الحق لا يخفى ولا تخفى شوَاكله
ألا فانظر لنفسك أيَّ زاد أنت حامله
لمنزل وَحْدَةٍ بين المقابر أنت نازله
قصير السمك قد رمضت عليك به جنَادله(٤)
بعيدِ تجاورِ الجيرا ن ضيقة مَدَاخله
أأيتها المقابر فيك من كُنَّا نناوله
ومن كنا نتاجره ومن كنا نعامله
ومن كنا نعاشره ومَنْ كنا نداخله(٥)
ومن كنا نشاربه ومن كنا نؤاكله
ومن كنا نفاخره ومن كنا نطاوله
ومن كنا نراقبه ومن كُنَّا نزايله(٦)
ومن كنا نكارمه ومن كنا نجامله
ومن كنا له إلفا قليلا ما نزاوله(٧)

---

(١) فى الديوان : « فغمض عينه للموت » . (٢) الشاحط : البعيد ، والمثوى : مكان الإقامة ، وفى ب « ساخط المثوى » وأثبتنا ما فى الديوان. (٣) فى الديوان : « مسلبة غلائله » (٤) فى الديوان : « قصير السمك قد رصت » والجنادل : الحجارة ، واحدها جندل ، ورمضت : حميت من الرمضاء (٥) فى الديوان : « ومن كنا نطاوله » (٦) فى الديوان : « نرافقه ... ننازله » وليس بشيء (٧) فى الديوان : « قليلا ما نزايله » .

ومن كنا له بالأمس إخوانا نواصله[٨]
فحل محلة مَنْ حلّها صرمت حبائله
ألا إن المنية مَنْهل والخلق ناهله
أواخر من ترى تفنى كما فنيت أوائله
لعمرك ما استوى فى الأمر عالمه وجاهله
ليعلم كل ذى عمل بأن الله سائله
فأسْرَعَ فائزاً بالخير قائله وفاعله

ثم قال لسان الدين رحمه الله تعالى ، بعد ما سبق ، ما صورته : وهذا الغرض بحر ، ويكفى من خزائنه عرض ، ومن بيت ماله قرض ، إن شاء الله تعالى .

ثم قال : تنبيه يشتمل على سؤالين : أحدهما أن يقال : الوعظ غير مناسب للمحبة ، إذ لا يحصل إلا بعد الفراغ واليقظة ، الثانى : أن يقال : عظمتم الحسرة لفراق عالم الحس ، وأطلتم فى قشور ، فنجيب عن الأول : إنا لم نجلب الوعظ إلا بين يدى تأميل حضور المحبة ، فكأنه يجرى مجرى الأسباب ، فإن الغرض به وجهة النفس من جوّ السرور ، واللعب بالزور ، إلى جوّ الحزن والارتماض ، ومن هنالك تأخذ بخطامها أيدى الاضطرار ، فتحصل اليقظة ، ثم التوبة ، ومنها يستقيم الطريق فى منازل السائرين إلى الحق :

والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبتها وإذا تُرَد إلى قليل تقنع

وعند ذلك يُطْوَى بساط الزجر والوعظ ، ويمدّ بساط الاعتبار والحب ، إن شاء الله تعالى ، فإنها كالثَّكْلى بطبعها لما فارقته من عنصر نور الله تعالى ، والعوالم الروحانية التى هى الشعار والدثار[٢] ، والأمل والدار ، والحياة والجمال ، والوجود والكمال ، وإن كانت لاتشعر بالسبب ، ولاتستحضر ذكر العلة ، فإذا ذكر الفراق أنَّتْ

(١) فى الديوان : « أحياناً نواصله » .
(٢) الشعار — بكسر أوله — ما يلى الجسد من الثياب ، والدثار — بالكسر أيضا — ما يكون فوقه .

أو تنوشدت الآثار حَنَّتْ ، ويطرقها الحزن عند الألحان الشجية ، وتحس بعض الأحيان بالمواجد العشقية(١) :

وقالوا أتبكى كل قـــبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت لهم: إن الأسى يبعث الأسى دعونى فهـــذا كله قبر مالك

وعن الثانى : إن كثيرا من النفوس لا تشعر بوجود عالم الحس ، فضلا عن النظر فيه ، و إن شعرت بذلك عد منها نبلا ، ومَنْ كان بهذه المثابة لا سبيل لنـــدائه إلا من باب القُشُور (أولئك ينادون من مكان بعيد) إلى أن يتأتى النداء من باب الله تعالى بفضل الله تعالى ، فالنفوس الشخصية غير متساوية ، وهى بهوى الهوى هاوية ، فالقريبُ منها يجذب بالأنامل ، والبعيدُ بالجزل الـكوامل ، وعلى قدر المحمول تكون قوّة الحامل * يضع الهِنَاء مواضع النقب *(٢).

يكفى اللبيب إشـــارة مكتومة وسواه يدعى بالنـــداء العالى

وسواهما بالزجر من قبل العصـا ثم العصا هى رابع الأحـــوال

وقال رحمه الله تعالى فى فصل ذم الـكسل ، ما صورته : ونحن نجلب بعض الأمثال فى ذمه ، مما يسهل حفظه ، ويجب لحظه ، فمن ذلك: الـكسل مَزْلَقَة الربح، ومسخرة الصبح ، إذا رقَدَت النفسُ فى فراش الـكسل استغرقها نوم الغفلة (لوكنا نسمع أونعقل ما كنا فى أصحاب السعير) . الندامة فى الـكسل ، كالسم فى العسَل . الـكسل آفة الصنائع ، وأرَضَةٌ فى البضائع . العجز والـكسل ، يفتحان الحول ولا تَسَلْ . الفلاح إذا ملَّ الحركة ، عدم البركة .

باب السعادة :ظهرُ العجز، والـكسلُ ظهران لا يُبْلِغَانِ المرءَ إن رُكبا

---

(١) البيتان لمتمم بن نويرة من مرثية له فى أخيه مالك ، وقبلهما :

لقد لامنى عند القبور على البكى صحابى لتذراف الدموع السوافك

(٢) هذا نصف بيت يقوله دريد بن الصمة فى الخنساء ، وصدره قوله :

* متبذلا تبدو محاسنه *

وفى اغتنام الأنام : من أضاع الفرصة ، تجرع الغصة . إن كان لك من الزمان شىء فالحال ، وما سواه فمُحَال . تارك أمره إلى غد ، لا يفلح للأبد . الإنسان ابنُ ساعته ، فليحطها[1] من إضاعته . التسويف سُمُّ الأعمال ، وعدوّ الكمال . لم يُحْرَم المُبَادر ، إلا فى النادر . مادرجت أفراخُ ذلٍّ إلامن وَكْر طماعة ، ولا بَسَقَت فروعُ ندمٍ إلا من جرثومة إضاعة . العزم سوق ، والتاجر الجسور مرزوق . مَنْ وثق بعهد الزمان ، علقت يَدَاه بحبل الحرمان . الربح فى ضمن الخسارة ، والمضيع أولى بالخسارة .

ومن أمثالهم — فى نظر الإنسان لنفسه ، قبل غروب شمسه — قولهم : اعلم أن كل حكيم صانع إذا فكر فى أمره ونظر فى العواقب علم أنه لابد يوما أن يخرب دكانه الذى هو محل بضاعته ، وتنحل أنقاضه ، وتكل أدواته[2] ، وتضعف قوّته ، وتذهب أيام شبابه ، فمن بادر واجتهد قبل خراب الدكان ، واستغنى عن السعى ، فإنه لا يحتاج بعد ذلك إلى دكان آخر ، ولا إلى أدوات مجددة ، فليتَّجر بما اقتناه ويشتغل بالانتفاع والالتذاذ بما اكتسبت يَدَاه ، وهذه حالة النفس بعد خراب الجسد ، فبادر واجتهد واحرص واستعجل ، وتزوّد قبل خراب دكانك وهدم بنيته ، فإن خير الزاد التقوى ، قال حسان :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى وأبصرت بعد اليوم من قد تزوّدا
نَدِمْتَ على أن لا تكون كمثله ولم تَتَرَصد مثل ما كان أرصدا

قال أبو الفرج بن الطيب البغدادى فى اغتنام الوقت فى كتابه فى السياسة والآراء الفاضلة : يجب أن تعيد وتمثل ، فإن الفكر مضطرب متشوّش بكثرة نوازع النفس واختلاف قُوَاها ، والعمى فى بعض الأوقات ، فإذا سنح للنفس وقتٌ فاضل بصفاء

---

(١) فليحطها : أى فليحفظها وليرعها .

(٢) تكل : تضعف وتفتر .

جوهرها ، وأبرمت قانوناً أو صورة متوسطة فاضلة ، يجب أن يقيد بذلك وقت سعد ربما لا يعاود أو يعاود ، انتهى .

رسالة من إنشاء لسان الدين إلى شيخ الموحدين بتونس

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتب به على لسان سلطانه إلى شيخ المُوحِّدين بتونس ابن تفراجين ، يخبره بالتمحيص الجارى عليه ، ونصه : من أمير المسلمين أيده الله ونَصَره ، وأعلى أمره وأظْهَرَه ، إلى ولينا فى الله تعالى الذى له القَدَم الرفيع المناصب ، والمجدُ السامى الذوائب ، والسياسة التى أخبارها سَمَرُ الركبان وحَدْوُ الركائب ، الشيخ الجليل الكبير ، الشهير الخطير ، الهمام الأمضى ، الرفيع الأعلى ، الأمجد الأوحد ، الأسعد الأصعد ، الأوفى الظاهر الطاهر الفاضل الباسل الأرضى الأنقى المعظم الموقر المبرور ، عَلَمَ الأعلام ، سلالة أكابر أصحاب الإمام ، مُعيد دولة التوحيد إلى الانتظام ، أبى محمد عبد الله بن الشيخ الجليل الكبير الشهير الماجد الخطير الرفيع الأسعد الأمجد الحسيب الأصيل الأمضى الأرضى الأفضل الأكمل المعظم المقدس المرحوم أبى العباس تفراجين ، وصَلَ الله تعالى له عزة تناسب شهرة فضله ! وسعادة تتكفل له فى الدارين برفعة محله :

سلام كريم يخص مجادتكم الفاضله ، ورتبتكم الحافله ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعدَ حمدِ الذى يُمَحِّصُ[1] ليثيب ، ويأمر بالاستقالة ليُجيب[2] ، ويُعْقِب ليلَ الشدة بصبح الفرج القريب ، ويجنى من شجر التوكل عليه ، والتسليم إليه ، ثمرَ الصنع العجيب ، ويظهر العبر مهما كسر ثم جَبَرَ لكل ذى قلب منيب[3] ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى نلجأ إلى ظل شفاعته فى اليوم العَصِيب ، ونستظهر بجاهه على جهاد عَبَدَة الصليب ، ونستكثر عددَ بركاته فى هذا الثغر الغريب ، ونَصُول منه على العدوّ بالحبيب ، والرضا عن آله وصحبه نجوم

(١) يمحص : يبتلى ويختبر .

(٢) الاستقالة : أراد بها ترك الذنوب والندم عليها .

(٣) منيب : راجع إلى الله تعالى .

الهداية من بعد الأمنة من الأفول والمَغيب ، فإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم عزة متصلة ، وعِصْمة بالأمان من نُوَبِ الزمان متكفلة ! - من حمراء غَرْنَاطة حرسها الله تعالى ، ولا زائدَ بفضل الله تعالى الذى لطف وجَبَر ، وأظهر فى الإقالة وحسن الإدالة[1] العِبَر ، ممن كتب الله تعالى له العقبى لما صَبَر ، إلا الخبرُ الذى كسا الأعطافَ الحِبَر ، والصنع الذى صدق خُبْرُه الخبَر ، والحمد لله تعالى كثيرا كما هو أهله فلا فضل إلا فضله ، ولمكانتكم عندنا المحلُّ الذى قررت شهرة فضلكم قواعده ، وأعلت مَصَاعده ، وأثبت التواتر شواهده ، إذ لا نزال نتحف بسيركم الذى فى التدبيرات يُقْتَفَى ، وعلم يسترشد به إذا العلم اختفى ، والسبيل عفا[2] ، وإن تلك الدولة بكم استقام أَوَدُهَا ، وقامت والحمد لله عُمُدُها ، وإنكم رعيتم فى البنين حقوقَ آبائها ، وحفظتم عليها ميراثَ عليائها ، ولو لم تتصل بنا أنباؤكم الحميدة ، وآراؤكم السديدة ، بما يفيد العلم بفضل ذاتكم ، ويُغْرى قوى الاستحسان بصفاتكم ، لغبطنا بمخاطبتكم ومفاتحتكم ، ما نجدُهُ من الميل لكم طبعا وجِبِلَّة ، من غير أن نعتبر سببا أو عِلَّة ، فالتعارف بين الأرواح لا ينكر ، والحديث الكريم يؤيد من ذلك ما ينقل ويذكر ، وبحسب ذلك نطلعكم على غريب ما جرى به فى ملكنا القدر ، وحيث بلغ الورد وكيف كان الصَّدَر ، وربما اتصلت بكم الحادثة التى أكفأها على دار ملكنا من لم يعرف غير نعمتها غاذيا ، ولا برح فى جوانب إحسانها رائحا وغاديا ، يتيم حجرها الكافل ، ورضيع دَرِّها[3] الحافل ، الشقى الخاسر ، الخائن الغادر ، محمد بن إسماعيل بن محمد المستجير بنسبنا من لؤم غدره ، الخفية عنا حيلُ مكره لخمول قدره ، إذ دعاه محتومُ الحين ليهلك إلى أن يهلك ، وسوّلت له نفسه الأمارة بالسوء أن يملك أخانا الخاسر ثم يملك ، وسبحان الذى يقول

---

(١) الإدالة : أن يجعل الله لك الدولة على عدوك .

(٢) السبيل : الطريق ، وعفا : درست وانمحت معالمه .

(٣) الدر - بفتح الدال وتشديد الراء - أراد به الثدى أو لبنه .

(يا نوح إنه ليس من أهلك) وكيف تم له ما أبرمه من تسوّر الأسوار ، واقتحام البَوَار[١] ، وتملك الدار ، والاستيلاء على قطب المَدَار ، وأننا كَنَفَتْنَا[٢] عصمةُ الله تعالى بمتحوّل لنا الذى كان به ليلتئذ محل ثوائنا ، وكَفَّتْ[٣] القدرة الإلٰهية أكفّ أعدائنا ، وخلصنا غلابا بحال انفراد الأمر عناية ونعم الرفيق ، وصِدْقِ اللَّجَأ إلى رحمة الله تعالى التى ساحتُها عن مثلنا لا تضيق ، فمهما تنكر الزمان أو تفرق الفريق ، وشرذمة الغدر تأخذ علينا كلّ فج عَميق ، حتى أوَيْنَا من مدينة وادى آش إلى الجبل العاصم ، والحجة المرغمة أنف المخاصم ، ثم أجزْنَا البحر بعد معاناة خطوب ، وتجهم من الدهر وقُطُوب ، وبَلاَ الله هذا الوطَنَ بمن لا يرجو لله وقارا ، ولا يألو شعائره المعظمة احتقارا ، فأضرمه نارا ، وجَلَّل وُجُوهَ وجوهه خزيا وعارا ، حتى هتك الباطل حِماه ، وغير اسمه ومُسَمَّاه ، وبدد حاميته المتخيرة وشَذَّبها ، وسَخَّم دواوينه[٤] التى محصها الترتيبُ والتجريب وهذبها ، وأهلك نفوسها وأموالها ، وأساء لولا تَدَارك الله تعالى أحوالها ، ولما تأذن جل جلاله فى إقالة العِثار ، ودرك الثار ، وأنشأت نواسم رضاه إدامة الاستغفار ، ورأينا قلادة الإسلام قد آن انتثارها ، والملة الحنيفية كادت تذهب آثارها ، ومسائل الخلاف يتعدد مُثَارها ، وجعلت الملتان نحونا تشير ، والملك يأمل أن يوافيه بقدومنا البشير ، تحركنا حركة خفيفة تشعر أنها حركة الفتح ، ونهضنا نبتدر ما كتب الله تعالى من المنح ، وقد امتعض لنا السكون بما حمل ، واستخدم الفلك نفسه بمشيئته تعالى واكتمل ، وكاد يقرب لقرى ضيفنا الثور والحَمَل ، وظاهرنا محلٌّ أخينا السلطان الكبير الرفيع المعظم المقدس أبى سالم الذى كان وطنه مَأوى الجنوح ، ومَهَبَّ النصر الممنوح ، رحمة الله تعالى عليه ! مظاهرة مثله من الملوك الأعاظم ، وختم الجميل بالجميل والأعمال

---

(١) البوار – بفتح الباء – الهلاك .

(٢) كنفتنا : أحاطت بنا . (٣) كفت – بتشديد الفاء – منعت .

(٤) سخم دواوينه : سود وجوهها .

بالخواتم ، وأنف حتى عدوّ الدين لنعمتنا المكفورة ، وحقوقنا المحجوبة المستورة ، فأصبح بعد العدو حبيبا ، وعاد بعد الإباية مُنيبا ، وسَخَّر أساطيله تحضيضاً على الإجازة وترغيباً ، واستقبلنا البلاد وبحر البشر يزخر مَوْجُه ، وملك الإسلام قد خر على الحضيض أوْجُه ، والروم مستولية على الثغور ، وقد ساءت ظنون المؤمنين بالعقبى ولله عاقبة الأمور ، والخبيثُ الغادر الذى كان يموّه بالإقدام قد ظهر كذب دَعْوَاه ، وهان مَثْوَاه ، وتورط فى أشراك المندمة تورطَ مثله ممن اتبع هواه ، وجحد نعمة مولاه ، فلولا أن الله عز وجل تدارك جزيرة الأندلس بركابنا ، وعاجل أوارها بانسكابنا ، لكانت القاضية ، ولم ترلها من بعد تلك الريح العقيم من باقية ، لكنا بفضل الله تعالى رفعنا عنها وطأة العدوّ وقد دنا بكَلْكَل ، وابتززناه منها أى مشرب ومأكل ، واعتززنا عليه بالله تعالى الذى يعز ويذل ، ويهدى ويضل ، فلم نسامحه فى شرط يجر غَضَاضة ، ولا يخلف فى القلوب مضاضة ، وخُضْنا بحر الهَوْل ، وبرئنا إلى الله تعالى ربِّنَا عن القوّة والحَوْل ، وظهرت للمسلمين ثمرة سريرتنا ، وما بذلنا فى مصانعة العدوّ من الإجهاز عليهم من حسن سيرتنا ، فقويت فينا أطماعُهم ، وانعقد على التحرّم بنا إجماعهم ، وقصدنا مالَقَةَ بعد أن انثالت الجهة الغربية ، وأذعنت المعاقل الأَبِيَّة ، فيسَّر الله تعالى فتحها ، وهيأ منحها ، ثم توالت البَيْعَات ، وصرخت بمآذن البلاد الدُّعَاة ، واضطرب أمر الخائن وقد دلفت المخاوف إليه ، وحسب كل صَيْحَة عليه[1] ، فاقتضت نعَامته الشائلة ، ودولة بغيه الزائلة ، وآراؤه الفائلة[2] ، أن ضم ما أمكنه من ذخيرة مكنونة ، وآلة للملك مَصُونة ، واستركب أوباشه[3] الذين استباح الحق دماءهم ، وعرف الخلق اعتزاءهم للغَدْر وانتماءهم ، وقصد سلطان قَشْتَالة من غير عهد ولا وثيقة ، ولا مُثْلى

(١) هذه كناية عن شدة الذعر والخوف ، وأصلها من القرآن الكريم (يحسبون كل صيحة عليهم)   (٢) رأى فائل : ضعيف لا سداد فيه

(٣) الأوباش : كلمة عامية ، فصيحها « أوشاب » ومعناها الأخلاط .

طريقة ، ولا شِيمة بالرَّعْى خليقة ، لكن الله عز وجل حمله على قدمه ، لإراقة دمه ، وزين الوجود بعدمه ، فَلِحِين قدومه عليه راجيا أن يستفِزَّه بعرض ، أو يحيل صحة عَقْده المبْرم إلى مَرَض ، ومؤملا هو وشيعته الغادرة كرة على الإسلام مُجْهِزة[1] ، ونصرة لمواعيد الشيطان مُنْجِزة ، تقبض عليه وعلى شيعته ، وصَمَّ عن سماع خديعته ، وأفحش بهم المُثْلة ، وأساء بحسن رأيه فيهم القِتْلَة ، فأراح الله تعالى بإبادتهم نفوسَ العباد ، وأحْيا بهلاكهم أرماقَ البلاد[2] ، وحَثَثْنا السير إلى دار ملكنا فدَخَلْناها فى اليوم الأغر المحجَّل ، وحصلنا منها على الفتح الهنى المعجَّل ، وعدنا إلى الأريكة التى نبا بنا عنها التمحيصُ فما حسبناه إلا سرورا أعقبه الكمال ، ومرضا عاجله الإبلال[3] ، فثابت[4] للدين الآمال ، ونجحت الأعمال ، وبذلنا فى الناس من العفو ما غَفَر الذنوب ، وجَبَر القلوب ، وأشعْنا العفو فى القريب والقَصِىّ ، وألبسنا المريب ثوب البَرِىّ ، وتألفنا الشارد ، وأعذبنا الموارد ، وأجرينا العوائد ، وأسْنَيْنا الفوائد ، إلا ما كان من شِرْذِمة عظمت جَرائرهم ، وخَبُثت فى معاملة الله تعالى سرائرهم ، وعُرف شؤمُهم ، وصدق من يَلُومهم ، فأقصيناهم وشرَّدْناهم ، وأجْلَيناهم عن هذا الوطن الجهادى وأبعدناهم ، ولما تعرف سلطان قَشْتالة باستقلالنا ، واستقرارنا بحضرة الملك واحتلالنا ، بادر يُعرِّف بما كان من عمله فيمن لَحِقَ به من طائفة الغَدْر ، وإخوان الخديعة والمكر ، وبعث إلينا برؤسهم ، ما بين رئيسهم الشقى ومرؤسهم ، وقد طفا على جدَاول السيوف حبَابُها ، وراق بحناء الدماء خِضابها ، وبرز الناسُ إلى مشاهدتها معتبرين ، وفى قدرة الله تعالى مستبصرين ، ولدفاع الناس بعضهم ببعض شاكرين ، وأحَقَّ الله تعالى الحقَّ بكلماته وقطَع دابر الكافرين ، فأمرنا بنصب تلك الرؤس بمسور الغدر الذى فرعته ، وجعلنا علما

---

(١) مجهزة : تأتى عليه . (٢) الأرماق : جمع رمق ، وهو بقية الروح فى الجسد
(٣) الإبلال : الشفاء . (٤) ثابت للدين الآمال : رجعت

على عاتق العمل السيء الذى اخترعته ، وشرعنا فى مُعالجة العلم ، وأفضنا على العباد والبلاد حُكمَ السلم ، فاجتمع الشمل كأحسن أحواله ، وسكن هذا الوطن بعد زلزاله ، وأفاق من أهواله ، ولعلمنا بفضلكم الذى قضاياه شائعة ، ومُقدِّماته ذائعة ، أخبرناكم به على اختصار ، واجتزاء واقتصار ، ليسر دينكم المتين بتماسك هذا الثغر الأقصى بعد استرساله ، وإشرافه على سوء مآله ، وكنا نخاطب محل أخينا السلطان الجليل المعظم الأسعد الأوحد الخليفة أمير المؤمنين أبى إسحاق ابن الخليفة أمير المؤمنين المعظم المقدس أبى يحيى بن أبى بكر ابن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين ـ وَصَلَ الله تعالى أسباب سَعْده ! وحرس أكناف[1] مجده ! ـ لولا أننا تعرفنا كَوْنَه فى هذه المدة مقيما بغير تلك الحضرة التونسية ، فاجتزأنا بمخاطبة جهتكم السنية ، وبين سلفنا وسلفكم من الود الراسخ البنيان ، والكريم الأثر والعِيان ، ما يدعو إلى أن يكون سببُ المخاطبة مَوْصُولا ، وآخرة الود خيرا من الأولى ، لكن الطريق جَمُّ العوائق ، والبحر مفروق البوائق[2] ، وقَبُول العذر بشواغل القطر بالفضل لائق ، ومُرَادنا أن يتصل الودُّ ، ويتجدد العهد ، والله عز وجل يتولى أمور المسلمين بمتوارد إحسانه ! ويَجْمع قلوبَهم حيث كانوا على طاعة الله تعالى ورضوانه ! وهو سبحانه يُطيل سعادتكم ، ويحرس مَجادتكم ، وينجح إدارتكم ، ويُسَنِّى إرادتكم ! والسلام الكريم يخصكم ، ورحمه الله تعالى وبركاته .

من نثره خطبة يبشر فيها بالفتح

ومن نثره رحمه الله تعالى قوله : أيها الناس ، ضاعف الله تعالى بمزيد النعم سرورَكم ! وتكفل بلطفه الخفى فى مثل هذا القطر الغريب أموركم ! أبشركم بما كتب به سلطانكم السعيد إليكم ، المترادفة بيمنه وسعادته نعمُ الله تعالى عليكم ! أمتع الله تعالى الإسلام ببقائه ! وأيده على أعدائه ! ونصره فى أرضه بملائكة سمائه !

---

(١) الأكناف : جمع كنف . وهو الجانب والناحية

(٢) البوائق : المهلكات ، وقياس مفردها أن يكون « بائقة » ولكن المستعمل مفرداً « موبقة » لأن الفعل « أوبق يوبق » .

وأن الله تعالى فَتَحَ له الفتح المبين ، وأعَزَّ بحركة جهاده الدين ، وبَيَّض وجوهَ المؤمنين ، وأظفره باطريةَ البلدِ الذى فجع المسلمين بأسرهم فجيعةً تثير الحميَّةَ ، وتحركُ النفس الأبيَّةَ ، فانتقم الله تعالى منهم على يده ، وبلغه من استئصالهم غاية مقصده ، فَصَدَقَ من الله تعالى لأوليائه ، وعلى أعدائه ، الوَعْدُ والوعيد ، وحكم بإبادتهم المبدئ المعيد (وكذلك أخْذُ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ؛ إن أخْذَه أليمٌ شديد) وتحَصَّل من سببه بعد ما رويت السيوف من دمائهم آلاف عديدة ، لم يُسْمَع بمثلها فى المُدَد المديدة ، والعهود البعيدة ، ولم يُصَبْ من إخوانكم المسلمين عددٌ يذكر ، ولا رجل يعتبر ، فتح هنى ، وصنع سنى ، ولطف خفى ، ووعد وفى ، فاستبشروا بفضل الله تعالى ونعمته ، وقِفُوا عند الافتقار والانقطاع لرحمته ، وقابلوا نِعَمَه بالشكر يَزِدْكم ، واستبصروا فى الدفاع عن دينكم ينصركم ويؤيدكم ، واغتبطوا بهذه الدولة المباركة التى لم تَعْدَمُوا من الله تعالى معها عيشا خصيبا ، ولا رأيا مُصِيبا ، ولا نصرا عزيزا ولا فتحا قريبا ، وتضرعوا فى بقائها ، ونَصْر لوائها ، إلى مَنْ لم يزل سميعا للدعاء مجيبا ، والله عز وجل يجعل البشائر الفاشية فيكم عادة ، ولا يعدمكم ولا أولى الأمر منكم توفيقا وسعادة ، والسلام الكريم يخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته من مُبَلِّغ ذلك فلان . انتهى .

من نثره يخاطب سلطان فارس ، على لسان سلطانه

ومن نثر لسان الدين – رحمه الله تعالى ! – ما أنشأه عن سلطانه الغنى بالله تعالى – حين وصله ابنُه الذى كان بفاس – يخاطب سلطان فاس ، مانصه :

المقام الذى تقلد نافلة الفضل[1] شفْعا ، وجوّد صورة الكمال إفرادا وجَمْعا ، واستولى وجَمَع بين المَنْح ، والتهنئة بالفتح ، فأحرز أصلا وفرعا ، واستحق الشكر عقلا وشَرْعا ، وأغرى أيدىَ جوده ، بالقصد الذى هو حَظٌّ وايه من وجوده ،

---

(١) أراد بنافلة الفضل الزائد منه .

فأثار من جيش اللقاء نَقْعا ، ووَسَط به جَمْعا(١)، مقامُ محل أخينا الذى أقلامُ مقاصده ذَرِبة بحسن التوقيع ، وعيونُ فضله مذكاة لإحكام الصنيع ، وعَذَبات فخره تهفو بذروة العلم المنيع ، ومكارمه تتفنن فيها مذاهبُ التنويع ، أبقاه الله تعالى وألسنُ فضله ناطقة ، وأقيسةُ سعدِه صادقة ، وألويتُه بالنصر العزيز خافقة ، وبضائعُ مكارمه فى أسواق البر نافقة ، وعصائبُ التوفيق لركائب أغراضه موافقة ! السلطان الـكذا ابن السلطان الـكذا ابن السلطان الـكذا .

سلام كريم ، طيب برّ عميم ، يخصُّ مقامَكم الأعلى ، وطريقتكم المُثْلى ، وأخوّتكم الفُضْلَى ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، مُجِلُّ قدرِكم ، وملتزم بركم ، وموجب حمدكم وشكركم ، فلان .

أما بعدَ حمدِ الله تعالى الذى جعل الشكر على المكرمات وَقْفا ، ونهج منه بإزائها سبيلا لا تَلْتَبِس ولا تخفى ، وعَقَد بينه وبين المزيد سبباً وحِلْفا ، وجعل المودة فى ذاته مما يُقْرب إليه زُلْفَى ، مربح تجارة من قصد وجهَه بعمله حتى يرى الشىء ضعفا ، وناصر هذه الجزيرة من أوليائه الكرامِ السيرة بمن يُوسِعُها فضلا وعَطْفا ، ومُدْنى ثمار الآمال لتتمتع بها اجتناء وقَطْفا ، والصلاةِ والسلامِ على سيدنا ومولانا محمد النبىّ العربى الكريم ، الرؤوف الرحيم ، الذى مدّ من الرحمة على الأمة سجْفَا ، وملأ قلوبها تعاطفا وتعارفا ولطفا ، القائل «مَنْ أيقن بالخَلَفِ جاد بالعطية» ووعد مَنْ عامل الله تعالى بربح المقاصد السنية ، وعدا لا يجد خُلْفا ، والرضا عن آله وأصحابه الذين كانوا من بعده للاسلام كَهْفا ، وعلى أهله فى الهواجر ظِلًّا ملتفا ، غيوثُ النَّدَى كلما شامُوا اسماحا وليوث العدى كلما شَهِدُوا زَحْفَا ، والدعاء لمقام أخُوّتكم الأسعد بالنصر الذى يكف من عُدْوانِ الـكفر كفا ، والمجد الذى لا يغادر كتابُه من المفاخر التى ترك الأول

---

(١) أخذ هاتين الفقرتين من قوله تعالى فى سورة العاديات (فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا)

للآخر حَرْفًا ، وإلى هذا ـ أيدكم الله بنصر من عنده ، وحكم للملكم الأسمى باتصال سعده ، وأنجز فى ظهوره على من عاند أمره سابقَ وعده ! ـ فإننا نقرر لدى مقامكم وإن كان الغنى بأصالة عَقْله ، عن اجتلاء الشاهد ونَقله ، وجلاء البيان وصَقْله ، أن الهدايا وإن لم تحل العين منها كما حلت ، أو تناولها الاستنزارُ فما نبهت فى لحظ الاعتبار ولا جَلَّت ، أو كانت زَيفًا كلما أغرى بها الاختبار قَلَّت ، لابد أن تترك فى النفوس مَيْلا ، وأن تستدعى من حسن الجزاء كَيْلا ، وأن تنال من جانب التراحم والتعاطف نَيْلا ، وأىُّ دليل أوضح مَحَجّة ، وأبين حجة ، من قوله صلى الله عليه وسلم « تهادوا تحابوا » من غير تبيين مقدار ، ولا إعمال اعتبار ، ولا تفرقة بين لجين ولا نُضار ؟ فكيف إذا كانت الهدية فِلْذة الكبد التى لا يلذ العيش بعد فراقها ، ولا تضىء ظُلَم الجوانح إلا بطلوع شمسها وإشراقها ، وجمع الشمل الذى هو أقصى آمال النفوس الآلفة ، والبواطن المصاحبة للحنين المحالفة ، لاسيما إذا اقتعدت محل الهنَا ، بالفتح الرائق السَّنا ، وحَفَّت بها من خلفها وأمامها صنائع البر وقومة الاعتناء ، فهنا لك تفخر ألسن الثناء ، وتتطابق أعلام الشكر السامية البناء ، وإننا ورد علينا كتابُكم الذى سَطَّره البر وأملاه ، وكَنَفَه[1] اللحظُ وتولَّاه ، ووشَّحه البيانُ وحَلَّاه ، مهنئا بما منح الله جل جلاله من رد الحق ، وتعيين الجمع ورفع الفرق ، وتطويق الأمان وأمان الطوق ، وإسعاد السَّعْد ، وبلوغ القصد ، وقطع دابر من جَحَد نعمة الأب والجدّ ، وسَلّ سيف البغى دامىَ الحد ، والحمد لله تعالى حمداً يلهمه ويتيحه[2] ، ونسأله إمدادا يسوّغه ويُبيحه ، على أن أحْسَنَ العُقبى وأعقب الحسنى ، وأرى النعم بين فُرَادى ومَثْنَى ، وجَمَع الشمل الذى قد تبدد ، وجدد رسم السعادة لهذا القطر فتجدد ، وأخذ الظالم فلم يجد من محيص[3] ، وجمع لنا

(١) كنفه : أحاط به . (٢) يتيحه : يهيئه ويسهل سبيله .
(٣) لم يجد من محيص : أى لم يجد مهربا ولا مفراً .

الأجر والفخر بين تخصيص وتمحيص ، وقلَّد برؤس الفجرة الغدَرة الفرضة التى فرَعُوها ، وأطفأ بمُرَاقِ دمائهم نارَ الضلالة التى شرَعُوها ، وكتب لقبيلكم الفضلَ الذى يحمد ويشكر ، والحق الذى لا يجحد ولا ينكر ، فلقد أوى لما تبرأت الخلْصان ، وتَحَفَّى[1] عند ماتنكر الزمان ، وسبب الإدالة ، وطاوع الأصالة والجلالة ، حتى فرج الله تعالى الكُرْبة ، وآنس الغربة ، وأفال العثرة وتقبل القربة ، له الحمد على آلائه ، وصِلة نعمائه ، ملء أرضه وسمائه ، ووصل صحبته الولد مكنوفا بجناح اللطف ، ممهداً له ببركتكم مهادَ العطف ، فبرزنا إلى تلقيه تنويها لهديتكم وإشادة ، وإبداء فى بركم وإعادة ، وأركبنا الجيشَ الذى آثرنا لحين استقلالنا عرضه ، وقررنا بموجب الاستحقاق فرضه ، فبرز إلى الفضاء الأفْيَح[2] حسن الترتيب ، سَافِراً عن المرأى العجيب ، ولولا الحَنانُ الذى تجده النفوس للأبناء وتستشعره ، والتشوّق إلى اللقاء الذى لايجحده منصف ولا يُنْكره ، لماشق علينا طول مقامه فى حجركم ، ولا ثواؤه لصق أريكة أمركم ، فجوارُكم محل لاستفادة رسوم الإمارة ، وتعلم السياسة والإدارة ، حتى يرد علينا بقدوم كتيبة جهادكم ، ويقود إلينا طليعة نصركم إيانا وإمدادكم ، فنحن الآن نشكر مقاصدكم التى اقتضى الكمالُ سياقَهَا ، وزيَّنَ المجدُ آفاقها ، وقدّرها فأحكم طِباقها ، ونقرر لديكم أن حظنا من ودادكم ، ومحلنا من جميل اعتقادكم حظ بَانَ رجحانه وفضْلُه ، ولم يتأتَّ بين مَنْ سلف من السلف مثله ، من الصحبة فى المنزل الخَشِنِ وهى الوسيلة ، وفى رَعْيها تظهرُ الفضيلة ، والاشتراك فى لازم الوصول إلى الحق ، وضم أشتات الخلق ، والمودة الواضحة الطرق ، إلى ما بين السَّلَف ، من الود الآمن بَدْرُه من الكَلَف ، المذخورة أذِمَّتُه للخلف ، فإذا كانت المعاملة جارية على حَسَبه ، وشعبها راجعة إلى

---

(١) تحفى : بالغ فى التلطف ، ووقع فى ب « تخفى » بالخاء معجمة ـ تحريف

(٢) الفضاء الأفيح : الواسع غاية السعة

مذهبه ، جنى الإسلام ثمرة حافلة ، واستكفى الدينُ إيالة كافلة ، فالله عز وجل يمهد البلاد بيمن تدبيركم ، ويُجْرِى على مَهْيَع السدادِ جميعَ أموركم ، ويجعلكم ممن زين الجهاد عواتق أعماله ، وكان رضا الله تعالى عنه أقصى آماله ، حتى تُرْبى[1] مآثركم على مآثر أسلافكم الذين عرف هذا الوطن الجهادى إمدادَهم ، وشكر جهادَهم ، وقبل الله تعالى فيه أموالهم وأولادهم ، وَحَسَّن من أجله معادَهم ، وقد حضر بين يدينا رسولكم الذى وجهتم الولد أسعده الله تعالى لنظره ، وتخير تموه لصحبة سفره ، فلان ، وهو من الأمانة والفضل ، والرَّجَاحَة والعَقْل ، بحيث طابق اختياركم ، واستَحَقَّ إيثاركم ، فأطنب فى تقرير ما لديكم من عناية بهذه الأوطان عينت الرفد ، وضربت الوَعْد ، وأخلصت فى سبيل الله تعالى القَصْد ، وغير ذلك مما يؤكد المودة المستقرة الأركان ، المؤسّسة على التقوى والرضوان ، فأجبناه بأضعاف ذلك مما لدينا لكم ، وقابلنا بالثناء الجميل قولكم وعملكم ، والله تعالى يصل سعدكم ، ويَحْرُسُ مجدكم ، والسلام الكريم يخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

من إنشائه على لسان ابن سلطانه

ومن ذلك ما كتبه ــ رحمه الله تعالى! ــ على لسان الأمير سعد ابن سلطانه الغنى بالله تعالى إليه وهو :

مولاى ومولى كبيرى ومولى المسلمين ، ورحمتى المتكفلة بالسعد الرائق الجبين .

يقبل قدَمَكم التى جعل الله تعالى العز فى تقبيلها ، والسعدَ فى اتباع سبيلها ، عَبْدُكم الصغير فى سنه الكبير فى خدمتكم وخدمة كبيرهِ فى حياتكم بفضل الله تعالى ومَنِّه ، الهاش لتمريغ وجهه فى كتابكم من الذراع ، المنبئة[2] طباعه عن العبودية الكامنة بالبِدَار إلى ذلك والإسراع ، عبدكم وولدكم سعد ، كتبه من بابكم ، المحوط بعز أمركم ، المتحف إن شاء الله تعالى بأنباء نصركم ، وقد وصل إلى عبدكم

---

(١) تربى : تزيد .

(٢) المنبئة : المخبرة ، وإخبارها هنا بلسان حالها .

تشريفكم السابغ الحلل ، وتنويهكم المبلغ غاية الأمل ، وخط يدكم الكريمة ، وغمامة رحمتكم الهامية الدِّيمَة[١] ، فياله من عز أثبت لى الفخر فى أبناء الملوك ، وسار بى من الترشيح لرتب حظوتكم على المنهج المسلوك ، قرَّر من عافية مولاى وسعادته ، واقتران السعود حيث حل بوفادته ، ما تكفل ببلوغ الآمال ، وتمم لسانُ الحال فى شكر الله تعالى لسانَ المقال ، والله تعالى يديم أيام مولاى حتى يقوم بحق شكر النعم لسانُه ، وتؤدى بعده جوارحُه من الدفاع بين يدى سلطانه ما يسر به سلطانه ، وبعث جوابه منقولا ليد حامله من يده ليهنىء تقبيل اليد الكريمة بحال تأكيد ، ويقرر ما لعبده إلى وجهه الكريم من شوق شديد ، ويعرف شمول نعمة الله تعالى ونعمته لمن ببابه من خدم وحرم وعبيد ، ويمد يد الرغبة لمولاه فى صلة الإنعام بتشريفه ، وإعلامه بتزايدات حركاته وتعريفه ، ففى ضمن ذلك كلٌّ عز مشيد ، وخير جديد ، ويُهْدِى تحية أهل منزل مولاى على اختلافهم بحسب منازلهم من نعمة لحظه ، التى يأخذ منها كُلٌّ بحظِّه ، والسلام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته

وقال رحمه الله تعالى : ومن نثرى ما خاطبت به السلطان على لسان ولده من من مَالَقَة ، وقد وصلت به إليه من المغرب :

مولاى الذى رضا الله تعالى مقترن برضاه ، والنجْحُ مُسَبَّب عن نيته ودُعَاه ، وطاعته مرتبطة بطاعة الله ، أبقى الله تعالى عَلَيَّ بكم ظلَّ رحماه ، وغمام نعماه ! وزادنى من مواهبه هداية فى توفية حقه الكبير فإن الهدى هُدَى الله !

يقبل مواطىء أقدامكم التى ثرَاها شرفُ الخدود وفَخْرُ الجباه[٢] ، ويقرر من عبوديته ما يسجل الحقُّ مقتضاه ، ويسلم على مَثَابة رحمتكم السلام الذى يحبه الله تعالى ويرضاه ، ولدُكم وعبدكم يوسفُ ، من منزل تأييدكم بظاهر مالقة حرسها الله

---

(١) الهامية : المتتابعة ، والديمة : المطر الدائم .

(٢) الجباه : جمع جبهة ، وهى مستوى ما بين الحاجبين إلى ناصية الرأس .

والوجود ألسُنُ بالعز بالله ناطقة ، والأعلام والشجر ألويةُ بالسعد[١] خافقة ، وأنواعُ التوفيق متوافقة ، وصنائع اللطيف الخبير مصاحبة مرافقة ، وقد وصل يامولاى لعبدكم المفتخر بالعبودية لكم ما بعث به على مقامكم ، وجادت به سحائب إنعامكم ، ولمن تحت حجبة ستركم المسدول[٢] ، وفى ظل اهتمامكم الموصول ، ولمن ارتسم بخدمة أبوابكم الشريفة من الخدام ، وأولى المراقبة والالتزام ، ما يضيق عنه بيانُ العبارة ، ويفتضح فيه لسان القول والإشارة ، من عنايات سنية ، ونعم باطنة وجلية ، وملاحظة مولوية ، ومقاصد ملكية ، فما شئت من قباب مذهبة ، وملابس منتخبة وأسرة مرتبة ، ومحاسن لا مستورة ولا محجبة ، واللواء الذى نشرتم على عبدكم ظله الظَّليل ، ومددتم عليه جناَحَ العز الجليل ، جعله الله تعالى أسعد لواء يسير فى خدمتكم ! ومد علىَّ وعليه لواء حرمتكم ! حتى يكون لجهادى بين يديكم شاهداً ، و بالنصر العزيز والفتح المبين عليكم عائداً ، ولطائفة الخلوص لأمركم قائداً ، ولأولياء بابكم هاديا ولأعدائكم كائداً ، واتفق يامولاى أن كان عبدكم قد ركب مغتنما برد اليوم ، ومؤثرًا للرياضة فى عقب النوم ، والتف عليه الخدام ، والأولياء الكرام ، فلما عدنا تعرضت لنا تلك العنايات المجلوّة الصور ، المتلوَّة السور ، وقد حشر الناس ، وحضرت منهم الأجناس ، فعلا الدعاء ، وانتثر الثناء ، وراقت الأبصار ، تلك الهمة العليا ، فنسأل الله تعالى يامولاى أن يكافىء مقامكم بالعز الذى لا يتبدل ، والنصر الذى يستأنف ويُسْتَقْبَل ، والسعد الذى مُحْكمه لا يتأوّل ، والعبد ومَنْ له على حال اشتياق للورود على أبوابكم الرفيعة المقدار ، وارتياح لقرب المزار

وأبْرَحُ ما يكون الشوقُ يوما إذا دَنَتِ الديارُ من الديار

والعمل على تيسير الحركة متصل ، والدهر لأوامر سعدكم محتفل ، بفضل الله تعالى ،

---

(١) الألوية : جمع لواء ، وهو العلم والراية ، وخفوقه : اضطرابه وتحركه فى الهواء

(٢) سدل الستر : أرخاه ، فهو مسدول .

والسلام على مقام مولاى مقام الشفقة والرحمة ، والمنة والنعمة ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

ظهير من إنشائه بتولية مشيخة الغزاة

ومن إنشاء لسان الدين فى تولية الأمير يوسف المذكور مشيخةَ الغُزَاة على لسان السلطان والده ما نصه :

هذا ظهير كريم فاتح بنشر الألوية والبُنُود[1] ، وقود العساكر والجنود ، وأجال[2] فى ميدان الوجود ، جيادَ الباس والجود ، وأضفى ستر الحماية والوقاية بالتهائم والنجود[3] ، على الطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود ، عقد للمعتمد به عقد التشريف ، والقدر المنيف ، زاكى الشهود ، وأوْجَبَ المنافسة بين مجالس السروج ومضاجع المهود ، و بشر السيوف فى الغُمُود ، وأنشأ ريحَ النصر آمنةً من الخمود[4] ، أمضى أحكامه ، وأنهد[5] العز أمامه ، وفتح عن زهر السرور والحبور كِمامه ، أميرُ المسلمين عبد الله محمد بن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج بن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد ابن فرج بن نَصْر – أيد الله تعالى أمره ! وخلد ذكره ! – لكبير ولده ، وسابق أمَدِه ، وريحانة خَلَدِهِ ، وياقوتة الملك على يده ، الأمير الكبير الطاهر الظاهر الأعلى ، واسطةِ السلك ، وهلال سَمَاء الملك ، ومصباح الظلم الحلك ، ومظنة العناية الأزلية من مدبر الفلك ومجرى الفلك ، عنوان سعده ، وحُسَام نصره وعضده ، وسَمِىّ جده ، وسلالة فضله ومجده ، السعيد المظفر الهمام الأعلى الأمضى ، العالم العامل الأرضى ، المجاهد المؤمل المعظم أبى الحجاج يوسف ، ألبسه الله تعالى مِنْ رضَاه عنه حُلَلاً لا تخلق جِدَّتَهَا الأيام ، ولا تبلغ كنهها الأفهام ، و بلغه فى خدمته المبالغ التى يُسَرُّ بها الإسلام ، وتَسْبَح فى بحار صنائعها الأقلام ، وحَرَس مَعَالِيَهَا الباهرة بعينه التى لا تنام ، وكنفه بركنه الذى لا يُضَام[6] ، فهو الفَرْعُ الذى

(١) البنود : جمع بند ، وهو علم الجيش . (٢) أجال : حرك

(٣) النجود : جمع نجد ، وهو ما ارتفع من الأرض (٤) خمود النار : سكونها بالانطفاء (٥) أنهد العز : أقامه (٦) كنفه : أحاطه ، ولا يضام : لا يذل

جرى فَضْله على أصله ، وارتسم نَصْرُه فى نصاله ، واشتمل حده على فَصْله ، وشهدت ألسن خِلاله ، برفعة جلاله ، وظهرت دلائلُ سعادته ، فى بدء كل أمر وإعادته ، لما صرف وجهه إلى ترشيحه ، لافتراع هضاب [1] المَجد البعيد المدى وتوشيحه ، بالصبر والحلم والباس والندى ، وأرهف منه سيفا من سيوف الله تعالى لضرب هام العِدَا ، وأطْلَعه فى سماء الملك بَدْرَهُدَى ، لمن راح وغدَا ، وأخذه بالآداب التى تقيم من النفوس أوَدَا [2] ، وتبذر فى اليوم فتجنى غدا ، ورقاه فى رتب المعالى طورا فطَوْرا ، ترقى النبات ورَقا ونَوْرا ، ليجده بحول الله تعالى يداً باطشة بأعدائه ، ولسانا مُجيبا عندندائه ، وطرازا على حلة عَلائه ، وغماما من غمائم آلائه [3] ، وكوكبا وهَّاجاً بسمائه ، وعَقَد له لواء الجهاد على الكتيبة الأندلسية من جنده ، قبل أن ينتقل عن مهده ، وظَلَّله بجناح رايته ، وهو على كَتَدِ دابته [4] ، واسترکب جيش الإسلام ترحيباً بوفادته ، وتنويها بمجادته ، وأثبت فى غرض الإمارة النصرية سهم سعادته ، رأى أن يزيده من عنايته ضروبا وأجناساً ، ويتبع أثره ناساً فناسا ، قد اختلفوا لساناً ولباسا ، وأنفقوا ابتغاء لمرضاة الله والتماسا ، ممن كرم انتماؤه ، وزينت بالحسب العلى سماؤه ، وعرف غنَاؤه ، وتأسس على المجادة بناؤه ، حتى لا يدع من العناية فنا إلا وجَلبه إليه ، ولا مقادة فخر إلا جعلها فى يديه ، ولا حُلة عز إلا أضفى ملابسها عليه ، وكان جيش الإسلام فى هذه البلاد الأندلسية ــ أمَّنَ الله سبحانه خلالها ، وسكن زلزالها ، وصدق فى رحمة الله تعالى التى وسعت كل شىء آمالها ! ــ كلف همته ، ومَرْعى ذمته ، وميدان اجتهاده ، ومتعلق أمل جهاده ، ومعراج إرادته ، إلى تحصيل سعادته ، وسبيل خلاله ، إلى بلوغ كماله ، فلم يَدَعْ له علة إلا أزاحها ، ولا طَلِبة إلا أجال قِداحها ، ولا عزيمة إلا أوْرَى اقتداحها ، ولا رغبة

---

(١) الهضاب : جمع هضبة ، وهى ما ارتفع من الأرض ، وافتراعها : أراد به صعودها
(٢) الأود ــ بالتحريك ــ العوج (٣) الآلاء : النعم (٤) الكتد: مجتمع الكتفين

إلافسَح ساحها[١] ، آخذا مُدَوَّنته بالتهذيب ، ومَصَافَّه بالترتيب ، وآماله بالتقريب ، محسنا فى تلقى الغريب ، وتأنيس المريب ، مستنجزا له و به وعد النصر العزيز والفتح القريب ، ورفع عنه لهذا العهد نظر من حكم الأغراض فى حُماته ، واستشعر عروق الحسائف لتشذيب كمائه ، واشتغل عن حسن الوساطة لهم بمصلحة ذاته ، وجاب جباته ، وتثمير ماله و توفير أقواته ، ذاهباً أقصى مذاهب التعمير بأمد حياته ، فانفرج الضيق ، وخلص إلى حسن نظره الطريق ، وساغ الريق ، ورضى الفريق ، رأى ـ والله الكفيل لنجح رأيه ، وشكر سعيه ، وصلة حفظه ورعيه ـ أن يجهد لهم اختياره ، و يحسن لديهم آثاره ، و يستنيب فيما بينه و بين سيوف جهاده ، وأبطال جلاده ، وحماة أحوازه ، وآلات اعتزازه ، مَنْ يجرى مَجْرى نفسه النفيسة فى كل مَبْنَى ، و يكون له لفظ الولاية وله ـ أيده الله تعالى ! ـ المعنى ، فقدمه على الجماعة الأولى كبرى الكتائب ، ومقادة الجنائب ، وأَجمة الأبطال[٢] ، ومُزْنة الوَدْقِ[٣] الهطَّال ، المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نسباء الملوك الكرام ، وأعلام الإسلام ، وسائر قبائل بنى مَرين ، ليوث العرين ، وغيرهم من أصناف القبائل ، وأولى الوسائل ، ليحوط جماعتهم ، و يعرف بتفقده إطاعتهم ، و يستخلص لله تعالى ولأبيه ـ أيده الله تعالى ! ـ طاعتهم ، و يشرف بإمارته مواكبهم ، و يزين بهلاله الناهض إلى الإبدار على فلك سعادة الأقدار كواكبهم ، تقديماً أشرق له وجه الدين الحنيف وتهلل ، وأحس باقتراب ما أمَّل ، فللخيل اختيال ومَرَاح ، وللأسَل السُّمْر اهتزاز وارتياح ، وللصدور انشراح ، وللآمال مَغْدًى فى فضل الله تعالى ورَوَاح ، فليتول ذلك ـ أسعده الله تعالى ـ تولى مثلِهِ ممن أسرة الملك أسرته ، وأسوة النبى صلوات الله تعالى عليه أُسْوَتُه ، والملك الكريم أصل لفرعه ، والنسب العربى محتد

---

(١) الساح : جمع ساحة .
(٢) الأجمة ـ بالتحريك ـ مسكن السباع ، وجعل الأبطال سكانها على التشبيه
(٣) المزنة ـ بالضم ـ السحابة هنا ، والودق : المطر ، والهطال : المتتابع .

اطيب طبعه ، آخذا أشرافهم بترفيع المجالس بنسبة أقدارهم ، مُغْرِياً حسن اللقاء بإيثارهم ، شاكراً غَناءهم ، مستدعيا ثناءهم ، مستدرًّا لأرزاقهم ، موجبا المزية بحسب استحقاقهم ، شافعا لديه فى رغباتهم المؤمَّلة ، ووسائلهم المتحمَّلة ، مسهلا الإذن لوفودهم المتلاحقة ، منفقا لبضائعهم النافقة ، مؤنسا لغرمائهم ، مستجلياً أحوال أهليهم وآبائهم ، مميزاً بين أغفالهم ونبهائهم [1] ، وعلى جماعتهم ـ رعى الله تعالى جهادهم ، ووفر أعدادهم ! ـ أن يطيعوه فى طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ، ويكونوا يداً واحدة على دفاع أعداء الله تعالى وأعاديه ، ويشدوا فى مواقف الكريهة أَزْرَه ، ويمتثلوا نهيه وأمره ، حتى يعظم الانتفاع ، ويشهر الدفاع ، ويخلص المِصَال لله تعالى والمِصَاع ، فلو وجد ـ أيده الله تعالى ! ـ غايةً فى تشريفهم لبلَغها ، أو موهبة لسوّغها ، لكن ما بعد ولده العزيز عليه مذهب ، ولا وراء مباشرتهم بنفسه مغرب ، والله تعالى منجح الأعمال ، ومبلغ الآمال ، والكفيل بسعادة المآل .

فمن وقف هذا الظهير الكريم فليعلم مقدار ما تضمنه من أمر مطاع ، وفخر مستند إلى إجماع ، ووجوب اتباع ، وليكن خير مَرْعِيٍّ لخير راع ، بحول الله تعالى .

وأقطعه ـ أيده الله تعالى ! ـ ليكون بعض المواد لأزواد سفره ، وسماط نَفَره ، فى جملة ما أولاه من نعمه ، وسوّغه من موارد كرمه ، جميعَ القَرْية المنسوبة إلى عرب عِنان ، وهى المحلة الأثيرة ، والمنزلة الشهيرة ، تنطلق عليها أيدى خُدَّامه ورجاله ، جارية مَجْرى صريح ماله ، محررة من كل وظيفة لاستغلاله ، إن شاء الله تعالى ، فهو المستعان سبحانه ، وكتب فى كذا ، انتهى .

وكتب لسان الدين ـ رحمه الله تعالى ! ـ فى شأن تقليد الأمير سعد أخى المذكور الأصغر منه سنا ما صورته .

---

(١) النبهاء : جمع نبيه ، وهو الرفيع الذكر ، والأغفال : جمع غفل ـ بزنة قفل وأقفال ـ وأراد به ضد النبيه ، وأصله من لا يرجى خيره ولا يخاف شره ، وما لا علامة له تميزه من قداح الميسر .

ظهير من إنشائه في تقليد الأمير سعد

هذا ظهير جعل الله تعالى له الملائكة ظهيراً ، وعَقَد منه فى سبيل الله تعالى لواء منصورا ، وأعطى المعتمد به باليمين كتابا منشوراً ،وما كان عطاء ربك محظورا[1] ، وأطلع صبح العناية المبصرة الآية يبهر سُفورا ، ويسطع نورا ، وأقر عيونا للمسلمين وشرح صدورا ، ووعد الأهلة أن تصير بإمداد شمس الهدى إياها بدورا ، وبشر الإسلام بالنصر المنتظر ، والفتح الرائق الغرر ، مواسط وثغورا ، وأتبع حماة الدين لواء الإمارة السعيدة النصرية فأسعدبها آمرا وأكرِم بها مأموراً ، أمَرَ به ، وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه ، أميرُ المسلمين عبد الله محمد بن أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى الحجاج بن أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى الوليد بن فرج بن نصر ، أعلى الله تعالى رايته وسدد[2] رأيه ! وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه ! لقرة عينه ومقتضى حقه من العدوّ ودينه ، وغصن دَوْحه ، وآية لَوْحه ، ودرة قِلادته ، ودُرّيّ أفلاك مَجَادَته ، وسيف نصره ، وهلال قَصْره ، وزينة عصره ، ومتقبل هديه ورشده ، ومَظِنة إشراق سعده ، وإنجاز وعده ، ولده الأسعد ، وسليل ملكه المؤبد ، الأمير الأجل الأعز الأسنى الأطهر الأظهر الأعلى ، لابس أثواب رضاه ونعمته ، ومنحة الله لنصره وخدمته ، ومظهر عزه وبعد همته ، التقى الرضى العالم العامل الماجد حامى الحمى تحت ظل طاعته ، وكافى الإسلام الذى يأمن من إضاعته ، المحرز مزايا الأعمار الطويلة حظ الشهر فى يومه وحظ اليوم فى ساعته ، الموقر المهيب المؤمل المعظم أبى النصر سعد عرّفه الله تعالى ببركة سعد بن عُبادة جده ، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعظم بمَجْدِهِ ، ووزيره فى حَلِّه وعَقْده ، وأجناه ثمرة النصر الذى كناه به ووصل سببه بسببه فما النصر إلا من عنده ، وأنتج له الفتح المبين من مقدمتى نصره وسعده ، لما صَرَفَ وَجْه عنايته إليه فى هذه البلاد الأندلسية التى خلص الله انفرادها

---

(١) محظوراً : ممنوعا .

(٢) سدد رأيه : وفقه لإصابة الصواب .

وانقطاعها ، وتمحَّضَ لأن تـكون كلمة الله هى العليا قِرَاعُها ، وصدق مِصالها فى سبيله جل وعلا ومِصاعها ، إلى مايمهد أرجاءها ، ويحقق رجاءها ، من سلم يعقد ، ولا يعدم الحزم معه ولا يفقد ، وعطاء ينقد ، ورأى لا يتعقب ولا ينقد ، وحَرْب تُضَمَّرله الجياد ، ويُعْتَقَل الأَسَلُ المَيَّادُ[1] ، وكأن الجيش رَوْض أمله الذى فى جَنَاه يسرح ، ومرمى فكره الذى عنه لا يبرح ، فديوانه ديوان أمانيه الذى تسهب فيه وتشرح ، أَسْهَمَه[2] من سياسته أوفى الحظوظ وأسناها ، وقصرعليه لفظَ العناية ومعناها ، ووقف عليه مَوْحَدَها ومَثْنَاها ، فأزاح علله ، وأحيا أمله ، وأنشأجَذَلَه ، ورفع عنه من لم يبذل الجدّ له ، ولا أَخْلَص لله فيه عمله ، واختار لقيادة مغانيه المنصورة ، وإمارة غزَواته المبرورة ، أقربَ الناس إلى نفسه نَسَبا ، وأوصلهم به سَبَبا ، وأحقهم بالرتب المنيفة والمظاهر الشريفة ، ذاتا وأبا ، وجدا وحسبا ، وأمره على أشرافه ، وذل به الأنفال على أعرافه ، وصرف إليه آماله ، واستعمل فى أسنته يمينه وفى أعنته شماله ، وعقد عليه ألويته الخافقة لعزة نصره ، ورأى الظهور على أعداء الله تعالى جنى فهيأه لهصره[3] ، وأدار هالة قتَام الجهاد عن قرب بالولادة على بدره ، ونبه نفوس المسلمين على جلالة قَدْره ، وقدمه على الـكتيبة الثانية من عسكر الغزاة المشتملة على الأشياخ من أولاد يعقوب كبار بنى مَرِين ، وسائر قبائلهم المـكرمين ، وغيرهم من القبائل المحترمين ، ينوب عن أمره فى عَرْض مسائلهم ، وقِرَى وافدهم ، وإجراء عوائدهم ، تقديما تهلَّلَ له الإسلام واستبشر ، وتيقن الظفرَ فاستبصر ، لماعلم بمن استنصر ، فليخلصوا له فى طاعته الـكبرى الطاعة ، وليعلقوا ببنان نداه بنان الطاعة ، ويؤملوا على يديه نجح الوسيلة إلى مقامه والشفاعة ، ويعلموا أن اختصاصهم به هو العنوان على رَفْع محالِّهم لديه ،

---

١) اعتقل الرمح ، مثلا : وضعه بين ركابه وساقه ، والأسل : الرماح ، والميادة : المضطربة ، وأراد اللينة المهز (٢) أسهمه : جعل ما ذكر سهمه وحظه ونصيبه .

(٣) هصر الغصن : أماله ليجنى ثمره .

وعزة شأنهم عليه ، فلو وجد هَضْبة أعلى لرفعَهَا لهم وأعلاها ، أو عزة أعز لجلالها أوقبلة أزكى لصرف وجوهَهُم شَطْرها[١] وولاها ، حتى تجنى ثمرة هذا القصْد ، وتعود بالسعد حركة هذا الرصد ، وتعلو ذؤابة هذا المجد[٢] ، وتشهد بنصر الدين على يده ألسنة الغَوْروالنَّجْد[٣] ، بفضل الله سبحانه ، وعليه ــ أسعدالله الدولة باستعماله مكافحا بأعلامها ، وزَيْناً لأيامها ، وسيفاً فى طاعة إمامها ! ــ أن يقدم منهم فى مجلسه أهْلَ التقديم ، ويقابل كرامهم بالتكريم ، ويستدعى آراء مشايخهم فى المشكلات فى أمور الحرب ، ويغضى جفون عزائمهم فى موقف الصبر والضرب ، ويتفقدهم بإحسانه عند الغَنَاء ، ويقابل حميد سعيهم بالثناء ، على هذا يعتمد وبحسبه يعمل ، وهو الواجب الذى لا يُهْمَل ، وقصده بالإعظام والإجلال ، والانقياد الذى يعود بالآمال وينجح الأعمال ، بحول الله تعالى متقبل ، وكتب فى كذا ، انتهى .

من إنشائه إلى سلطانه وقد عاد للملك

ومما اشتمل على نظم لسان الدين ونثره ما كتب به من سَلَا إلى سلطانه الغنى بالله تعالى ، وقد بلغه ما كان من صنع الله سبحانه له وعودته إلى سلطانه :

هَنِيئاً بما خُوِّلْتَ من رِفْعَةِ الشانِ ... وإن كَرِهَ الباغِى وإنْ رَغِمَ الشَّانِى
وأن خَصَّكَ الرحْمٰنُ جَلَّ جَلالُهُ ... بمعجـــزة منسوبة لسُلَيْمَانِ
أغار على كرسيه بعضُ جنـــه ... فألقت له الدنيا مقالد إذعان
فلمـــا رآها فتنة خر ساجداً ... وقال إلٰهى امْنُنْ علىَّ بغفـــران
وهب لىَ ملكا بعدها ليس ينبغى ... تقلُّده بعدى لإنس ولا جان
فآتاه لما أن أجاب دعاءه ... من العز مالم يُؤْتِ يوما لإنسان
وإن كان هذا الأمر فى الدهر مفرداً ... فأنت له لما اقتديت به الثانى
فقابِلْ صنيع الله بالشكر واستعن ... به وَاجْزِ إحسان الإلٰهِ بإحسان

(١) أخذ هذه الفقرة من قوله تعالى : (فول وجهك شطر المسجد الحرام) .
(٢) ذؤابة كل شىء : أعلاه .
(٣) الغور : ما انخفض من الأرض ، والنجد : ما ارتفع منها ، وأراد جميع البقاع

وحق الذى سمـاك باسم محمد لَوَ ٔن الصبا قد عاد منه برَيْعَانِ
لما بلغ النعمى عليـك سروره أليّة وافٍ لا أليـة خوان[١]
فإنى أنا العبد الصريح انتسابه كما أنت مولاى العزيز وسلطانى
إذا كنتَ فى عز ومُلك وغبطة فقد نلتُ أوطارى وراجعت أوطانى

مولاى الذى شأنه عَجَب ، والإيمان بعناية الله تعالى به قد وَجَب ، وعزه أظهره مَنْ برداء العزةِ احتجب ، إذا كانت الغاية لا تُدْرك ، فأولى أن تسلم وتترك ، ومنة الله تعالى عليك ليست مما يشرح ، قد عقل العقل فما يبرح ، وقيد اللسان فما يرعى فى مجال العبارة ولا يسرح ، اللهم ألهمنا على هذه النعمة شكراً ترضاه ، و إمداداً من لَدُ ْنك نتقاضاه ، يا الله يا الله ، سعود أنارت بعد أفول شهابها[٢] ، وحياة كرت بعد ذهابها ، وأحباب اجتمعت بعد فراقها ، وأوطان دَنَتْ بعد بُعْدِ شامها من عراقها ، وأعداء أذهب الله تعالى رَسْم بغيهم ومحاه ، و بُغَاة أدار عليهم الدهر رحاه ، وعباد أعطوا من كشف الغم ما سألوه ، ونازحون لو سُئلوا فى إتاحـة القرب بما فى أرماقهم لبذلوه ، وسبحان الذى يقول (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتـلوا أنفسكم أو اُخرجوا من دياركم ما فعلوه) فليهن الإسلامَ بياضُ وجهه بعـد اسوداده ، وتغلب إيالة مَنْ لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر على بلاده ، وعودة الملك المظلوم إلى معتاده ، واستواء الحق النائى جنبه فوق مهاده ، ورد الإرث المغصوب إلى مستحقه عن آبائه وأجداده ، والحمد لله الذى غسل عن وجه الأمة الحنيفية العار ، وأنقذ عُهْدَتها وقد ملـكها الذعار ، فرد المُعَار ، وأعيـد الشِّعَار ، نحمدك اللهم حمداً يليق بقدسك ، لا بل لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، والعبد يامولاى قد بهرت عَقْلَه آلاء الله تعالى قبلك فالفكر جائل واللسان ساكت ، والعقل ذاهل

(١) الألية : اليمين والحلف ، وقال الشاعر :
على ألية إن كنت أدرى أينقص حب ليلى أم يزيد
(٢) الأفول : الغروب ، وأراد بالشهاب النجم .

والطرف باهت ، فإن أقام رَسْماً المخاطبة فقلم مرح وركض ، وطِرْس هز جناح الارتياح ونفض ، ليس هذا المَرَام مما يرام ، ولا هذه العناية التى تحارفيها الأفهام ، مما تُصْمِى غرضه السِّهام ، فنسأل الله تعالى أن يجعل مولاى من الشاكرين ، وبأحكام تقلبات الأيام من المعتبرين ، حتى لا يغره السَّراب الخادع ، والدهر المرغم للأنوف الجادع ، ولا يرى غير الله فى الوجود من صانع ، ولا معط ولا مانع ، ويمتعه بالعز الجديد ، ويوفقه للنظر السديد ، ويلهمه للشكر فهو مفتاح المزيد ، والسلام ، انتهى .

من إنشائه ما خاطب به أبا عبد الله التونسي

ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى أبا عبد الله بن عمر التونسى قوله :

سيدى الذى عهده لاينسى ، وذكره يُصْبح فى ترديده بالجميل ويُمْسى ، أبقاكم الله تعالى تجلون من السعادة شمساً ، وتصرفون فى طاعته لسانا فرداً وبنانا خمساً .

وصلنى كتابكم الأشعث الأغبر ، ومقتضبكم الذى أضغاثه لا تُعْبَر ، شاهدةً بعدم الاعتناء أوضاعُه ، معدوماً إمتاعه ، قصيراً فى التعريف بالحال المتشوف إليها باعه ، مضمناً الإحالة على خلى من معناها ، غير متلبس بمَوْحَدها ولامَثْنَاها[1] ، سألته كما يسأل المريض عما عند الطبيب ، ويحرص الحبيب على تعرف أحوال الحبيب ، فذكر أنه لم يتحمل غير تلك السَّحاة المغنية فى الاختصار ، المجحفة بحظى الأسماع والأبصار ، فهممت بالعتب ، على البخيل بالكتب ، ثم عذرت سيدى بما يعترى مثله من شواغل تطرق ، وخواطر تومض وتبرق ، وإذا كان آمنا سِرْبُه ، مُهَنَّأً شِرْبُه ، فهو الأمل ، ويقنع هذا المجمل ، وإن كان التفسير هو الأكمل ، وما ثم ما يعمل ، ووده فى كل حال وده ، والله سبحانه بالتوفيق يمده ، والسلام

وكانت للسان الدين رحمه الله تعالى مخاطبات كثيرة لسلطان الدولة وأعيانها ،

---

(١) أصل موحد معدول عن واحد واحد ، ومثنى معدول عن اثنين اثنين ، وفى القرآن الكريم (جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) وأراد هنا الأعداد كلها شفعها ووترها

دلت على قوة عارضته فى البلاغة ، وقد ألمعنا بجملة منها فى هذا الكتاب فى مواضع ولم نكثر منها طلباً للاختصار أو التوسط بحسب ما اقتضاه الباعث فى الحال ، والله سبحانه وتعالى يبلغ الآمال ، ويزكى الأعمال .

من إنشائه على لسان سلطانه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه عن السلطان أبى الحجاج يوسف ابن نصر إلى سيد العالمين صلى الله عليه وسلم إثر نظم ، ونصُّ الكل هو :

إذا فاتنى ظل الحمى ونعيمه ... فحسب فؤادى أن يَهُبَّ نسيمه
ويقنعنى أنى به متكنف ... فزمزمه دمعى وجسمى حطيمه[1]
يعود فؤادى ذكر من سكن الغضى ... فيقعده فوق الغضى ويقيمه
ولم أر شيئاً كالنسيم إذا سرى ... شفى سَقَم القلب المشوق سقيمه
نعلل بالتذكار نفساً مشوقة ... ندير عليها كأسه ونديمه
وما شفنى بالغور قدٌّ مرنَّحٌ ... ولا شاقنى من وحش وجرة ريمه
ولا سهرت عينى لبَرْق ثنيةٍ ... من الثغر يبدو مَوْهناً وأشيمه
برانىَ شوق للنبى محمد ... يسوم فؤادى بَرْحُه ما يسومه
ألا يا رسول الله ناداك ضارع ... على النأى محفوظ الوداد سليمه
مَشُوق إذا ما الليل مد رِواقه ... تهمُّ به تحت الظلام همومه
إذا ما حديث عنك جاءت به الصبا ... شجاه من الشوق الحثيث قديمه
أيجهر بالنَّجْوى وأنت سميعها ... ويشرح ما يخفى وأنت عليمه
وتعوزه السقيا وأنت غياثه ... وتتلفه الشكوى وأنت رحيمه
بنورك نور الله قد أشرق الهدى ... فأقماره وضاحة ونجومه
لك انهل فضل الله بالأرض ساكباً ... فأنواؤه ملتفة وغيومه

(١) زمزم : اسم بئر يستقى منه الحاج ، والحطيم ـ بفتح الحاء ـ اسم بقعة فى البيت الحرام ، وهو ما بين الركن وزمزم ومقام إبراهيم

ومن فوق أطباق السماء بك اُقتدى خليلا الذى أوطاكها وكليمه[1]
لك الخلق الأرضى الذى جل ذكره ومجدك فى الذكر العظيم عظيمه
يجل مَدَى علياك عن مدح مادح فموسر در القول فيك عديمه
ولى يا رسول الله فيك وراثة ومجدُكَ لا يَنْسَى الذمامَ كريمه
وعندى إلى أنصار دينك نسبة هى الفخر لايخشى انتقالا مقيمه
وكان بودى أن أزور مُبَوّأً بك افتخرت أطلاله ورسومه
وقد يجهد الإنسانُ طِرْفَ اعتزامه ويعوزه من بعد ذاك مَرُومُه
وعذرىَ فى تسويف عزمى ظاهر إذا ضاق عذر العزم عمن يلومه
عدتنى بأقصى الغرب عن تربك العدا جلالقة الثغر الغريب ورُومُهُ
أجاهد منهم فى سبيلك أمة هى البحر يعيى أمرها من يرومه
فلولا اعتناء منك يا ملجأ الورى لريع حماه واسْتُبِيحَ حريمه
فلا تقطع الحبل الذى قد وصلته فمجدك موفور النوال عَميمُه
وأنت لنا الغيث الذى نستدرُّهُ وأنت لنا الظل الذى نستديمه
ولما نأت دارى وأعوز مطمعى وأقلقنى شوق يشب جحيمه
بعثت بها جهد المقل معولا على مجدك الأعلى الذى جل خِيمُهُ
وكلت بها همى وصدق قريحتى فساعدنى هاء الروى وميمه
فلا تنسنى ياخير من وطىء الثرى فمثلُكَ لا يُنْسَى لديه خَديمه
عليك صلاة الله ماذَرَّ شارق وماراق من وجه الصباح وسيمُهُ

إلى رسول الحق ، إلى كافة الخلق ، وغَمَام الرحمة الصادق البَرْق ، الحائز فى ميدان اصطفاء الرحمن قصبَ السَّبْق ، خاتم الأنبياء ، و إمام ملائكة السماء ، ومن

---

(١) الخليل : هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، يلقب بخليل الرحمن لقوله تعالى : (واتخذ الله إبراهيم خليلا) والكليم : هو موسى عليه الصلاة والسلام ، لقوله تعالى: (وكلم الله موسى تكليما)

وجبت له النبوّة وآدم بين الطين والماء ، شفيعُ أربابِ الذنوب ، وطبيبُ أدواء القلوب ، والوسيلة إلى علاّم الغيوب ، نبى الهدى الذى طَهُرَ قلبه ، وغُفِرَ ذنبه ، وختم به الرسالة ربه ، وجرى فى النفوس مجرى الأنفاس حُبُّه ، الشفيع المشفع يوم العرض ، المحمود فى ملأ السماء والأرض ، صاحب اللواء المنشور يوم النشور ، والمؤتمن على سِرِّ الكتاب المسطور ، ومُخْرِج الناسِ من الظلمات إلى النور ، المؤيد بكفاية الله وعِصْمَته ، الموفور حَظه من عنايته ونعمته ، الظل الخفاق على أمته ، مَنْ لو حازت الشمس بعض كماله ما عدمت إشراقا ، أو كان للآباء رحمة قلبه ذابت نفوسُهم إشفاقا ، فائدة الكون ومَعْناه ، وسرُّ الوجود الذى بَهَرَ الوجودَ سناه ، وصفى حضرة القدس الذى لا ينام قلبه إذا نامت عَيْناه ، البشيرُ الذى سَبَقت له البشرى ، ورأى من آيات ربه الكبرى ، ونزل عليه (سبحان الذى أسرى) مَنِ الأنوارُ من عنصر[1] نوره مُسْتَمَدة ، والآثار تخلق[2] وآثاره مستجدّة ، مَنْ طُوِى بساطُ الوحى لفقده ، وسدّ باب الرسالة والنبوّة من بعده ، وأوتى جوامع الكلم فوقفت البلغاء حَسْرَى دون حَدِّه ، الذى انتقلَ فى الغُرَر الكريمة نورُه ، وأضاءت لميلاده مصانعُ الشام وقصورُه ، وطفقت الملائكة تجيئه وفودُها وتزوره ، وأخبرت الكتب المنزلة على الأنبياء بأسمائه وصفاته ، وأخذ عهد الإيمان به على مَنِ اتصلت بمبعثه منهم أيام حياته ، المَفْزَع الأمنع يوم الفزع الأكبر ، والسَّنَد المعتمد عليه فى أهوال المحشر ، ذو المعجزات التى أثبتتها المشاهَدَة والحس ، وأقرَّ بها الجنُّ والإنس ، من جماد يتكلم ، وجذع لفراقه يتألم ، وقمر له ينشق ، وحَجَر يشهد أن ما جاء به هو الحق ، وشمس بدعائه عن مسيرها تحبس ، وماء من بين أصابعه يتبجَّسُ[3] ، وغمامٍ باستسقائه يَصُوب[4] ، وطَوِيّ[5] بصق فى أجاجها فأصبح

(١) العنصر : الأصل (٢) تخلق : تبلى وتذهب

(٣) يتبجس : يتفجر (٤) صاب المطر يصوب : نزل

(٥) الطوى ـ بفتح الطاء وكسر الواو وتشديد الياء ـ البئر ، والأجاج ـ بضم الهمزة ـ الماء الملح

ماؤها وهو العذب المشروب ، المخصوص بمناقب الكمال وكمال المناقب ، المسمى بالحاشر العاقب ، ذو المجد البعيد المرامى والمراقب ، أكرم من رفعت إليه وَسيلة المعترف والمغترب ، ونجحت لديه قُرْبَة البعيد والمقترب ، سيد الرسل محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب ، الذى فاز بطاعته المحسنون ، واستنقذ بشفاعته المذنبون ، وسَعِد باتباعه الذين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، صلى الله عليه وسلم ما لَمَعَ بَرْق ، وهَمَع وَدْق[1] ، وطلعت شمس ، ونَسَخَ اليومُ أمس .

مِنْ عتيق شفاعته ، وعَبد طاعته ، المعتصم بسَبَبه ، المؤمن بالله ثم به ، المستشفى بذكره كلما تألم ، المفتتح بالصلاة عليه كلما تكلم ، الذى إن ذكر تمثل طلوعه بين أصحابه وآله ، وإن هَبَّ النسيم العاطر وَجَدفيه طيبَ خِلاله ، وإن سمع الأذان تذكر صَوْتَ بِلاَلِهِ ، وإن ذكر القرآن استشعر تردُّدَ جبريل بين معاهده وخلاله ، لاثِم تُرْبه ، ومؤمل قربه ، ورهين طاعته وحُبِّه ، المتوسل به إلى رضا الله ربه ، يوسف بن إسماعيل بن نصر .

كتبه إليك يا رسول الله والدمعُ ماح ، وخَيْل الوجد ذات جِمَاح ، عن شَوْق يزداد كلما نقص الصبر ، وانكسار لا يُتَاح له إلاّ بدُنُوّمَزارك الجَبْر ، وكيف لا يُعْيي مشوقَكَ الأمر ، وتوطأ على كبده الجمر ، وقد مطلت الأيام بالقدوم على تربك المقدسة اللحد ، ووعدت الآمال ودانت بإخلاف الوعد ، وانصرفت الرفاق والعين بنور ضريحك ما اكتحلت ، والركائبُ إليك ما رَحَلَتْ ، والعزائم قالت وما فعلت ، والنواظر فى تلك المشاهد الكريمة لم تسرَحْ ، وطيورُ الآمال عن وكور[2] العجزلم تَبْرَحْ ، فيالهامن معاهد فاز مَنْ حَيَّاها ، ومشاهد ما أعْطَرَ رَيَّاها[3] ، بلاد نيطت[4] بها عليك التمائم ، وأشرقت بنورك منها النجودُ والتهائم ، ونزل فى

---

(١) همع : هطل وتدفق ، والودق : المطر

(٢) الوكور : جمع وكر ـ بالفتح ـ وهو عش الطائر

(٣) الريا : الرائحة الطيبة (٤) نيطت: علقت، والتمائم : جمع تميمة ، وهى العوذة

حُجُرَاتها عليك الملك ، وانجلى بضياء فرقانك فيها الحلك[١] ، مَدَارِسُ الآيات والسور ، ومَطَالع المعجزات السافرة الغُرَر ، حيث قضيت الفروض وحتمت ، وافتتحت سورة الرحمن وختمت ، وابتدئت الملة الحنيفية وتمت ، ونسخت الآيات وأحكمت .

أما والذى بعثك بالحق هاديا ، وأطلعك للخلق نورا باديا ، لايطفئ غُلَّتى[٢] إلا شربك ، ولا يُسكن لوعتى إلا قربك ، فما أسْعَدَ مَنْ أفاض من حرم الله إلى حرمك ، وأصبح بعد أداء ما فرضت عن الله ضيف كرمك ، وعَفَّر الخدَّ فى معاهدك ومعاهد أسرتك ، وتردد مابين دارَىْ بعثتك وهجرتك[٣] ، و إنى لما عاقتنى عن زيارتك العوائق و إن كان شغلى عنك بك ، وعَدَتْنى[٤] الأعداء فيك عن وَصْل سببى بسببك ، وأصبحت بين بحر تتلاطم أمواجه ، وعدوّ تتكاثف أفواجه ، ويحجب الشمسَ عند الظهيرة عجَاجُه ، فى طائفة من المؤمنين بك وَطَّنوا على الصبر نفوسَهم ، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسَهم ، ورفعوا إلى مصارختك رؤسهم ، واستعذبوا فى مرضاة الله تعالى ومرضاتك بُوسَهم ، يطيرون من هَيْعَة إلى أخرَى ، و يلتفتون والمخاوف عن يُمْنَى و يُسْرَى ، و يقارعون وهم الفئة القليلة جموعا كجموع قيصر وكسرى ، لا يبلغون من عدوّ هو الذرُّ عند انتشاره ، عشر معشاره ، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا ، لأن تكون كلمة الله تعالى هى العليا ، فيالَه من سِرْب مَرُوع ، وصريخ إلا منك ممنوع ، ودعاء إلى الله و إليك مرفوع ، وصبية حُمْر الحواصل ، تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل ، والصليبُ قد تمطَّى فمدّ ذراعيه ، ورفعت الأطماع بضَبْعيه ، وقد حجبت بالْقَتَامِ السماء ، وتلاطمت أمواج الحديد ، والبأس الشديد ، فالتقى الماء ، ولم يبق إلا الذَّماء ، وعلى ذلك فما ضعفت

---

(١) الحلك : الظلام الشديد (٢) الغلة : حرارة الجوف من عطش ونحوه

(٣) دار البعثة : مكة ، ودار الهجرة : طيبة (المدينة)

(٤) عدتنى : صرفتنى وشغلتنى

البصائر ولا ساءت الظنون ، وما وعد به الشهداء تعتقده القلوب حتى تكاد تشاهده العيون ، إلى أن نلقاك غدا إن شاء الله تعالى وقد أبلينا العذر [١] ، وأرغمنا الكفر ، وأَعْمَلْنَا فى سبيل الله تعالى وسبيلك البيض والسُّمْر ، أستنبت رقعتى هذه لتطير إليك من شوقى بجناح خافق ، وتسعد من نيتى التى تصحبها برفيق مُوَافق ، فتؤدِّى عن عبدك وتبلغ ، وتعفر الخدّ فى تُرْبك وتمرغ ، وتطيب بِرَيَّا معاهدك الطاهرة وبيوتك ، وتقف وقوف الخضوع والخشوع تجاه تابوتك ، وتقول بلسان التملُّق ، عند التشبث بأسبابك والتعلق [٢] ، منكسرة الطرف ، حذِراً بَهْرَجُهَا من عدم الصرف

يا غياث الأمة ، وغمام الرحمة ، ارحم غربتى وانقطاعى ، وتغمد بطَوْلك قصر باعى ، وقوّ على هيبتك خَوَرَ طباعى [٣] ، فكم جزت من لج مَهُول ، وجبت [٤] من حزون وسُهُول ، وقابِلْ بالقَبول نيابتى ، وعجل بالرضا إجابتى ، ومعلوم من كمال تلك الشِّيَم ، وسَجَايَانيك الديَم ، أن لا يخيب قَصْدُ من حط بفنائها ، ولا يظمأ واردٌ أكبَّ على إنائها .

اللهم يا من جعلته أول الأنبياء بالمعنى وآخرهم بالصورة ، وأعطيته لواء الحمد يسير آدم فمن دونه تحت ظلاله المنشورة ، وملكت أمته ما زُوِى له من زوايا البسيطة المعمورة ، وجعلتنى من أمته المجبولة على حُبِّه المفطورة ، وشوّقتنى إلى مَعَاهده المبرورة ، ومشاهده المَزُورة ، ووكلت لسانى بالصلاة عليه ، وقلبى بالحنين إليه ، ورغبتنى بالتماس ما لديه ، فلا تقطع منه أسبابى ، ولا تحرمنى من حبه ثوابى ، وتداركنى بشفاعته يوم أخذِ كتابى .

هذه يارسول الله وسيلة من بَعُدَت داره ، وشَطَّ مزاره ، ولم يجعل بيده اختياره .

---

(١) أبلينا العذر : قدمناه وأديناه ، ويقال ذلك فى العذر المقبول

(٢) التشبث : التعلق ، والأسباب : جمع سبب ، وأصله الحبل ، ويقال لكل ما يتوصل به للشىء

(٣) خورطباعى : ضعفها (٤) جبت : قطعت

فإن لم تكن للقبول أهلا فأنت للاغضاء[١] والسماح أهل ، وإن كانت ألفاظها وعرة فجنابك للقاصدين سهل ، وإن كان الحب يتوارث كما أخبرت ، والعروق تدس حسبما إليه أشرت، فلي بانتسابي إلى سعدٍ[١] عميدِ أنصارك مزيه ، ووسيلة أثيرة حفية ، فإن لم يكن لي عمل ترتضيه فلي نية ، فلا تنسني ومَنْ بهذه الجزيرة المفتتحة بسيف كلمتك ، على أيدي خيار أمتك ، فإنما نحن بها وديعة تحت بعض أقفالك ، نعوذ بوجه ربك من إغفالك ، ونستنشق من ريح عنايتك نفحة[٢] ، ونرتقب من مُحَيَّا قبولك لمحة[٣] ، ندافع بها عدواً طغى وبغى ، وبلغ من مضايقتنا ما ابتغى ، فمواقف التمحيص قد أعيت مَنْ كتب وورّخ ، والبحر قد أصمت من استصرخ ، والطاغية في العُدوان مستبصر ، والعدو محلق والولي مقصر ، وبجاهك ندفع ما لا نطيق ، وبعنايتك نعالج سقيم الدين فيفيق ، فلا تفردنا ولا تهملنا ، وناد ربك فينا (ربنا ولا تحملنا) وطوائف أمتك حيث كانوا عناية منك تكفيهم ، وربك يقول لك وقوله الحق (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) والصلاة والسلام عليك يا خير مَنْ طاف وسَعَى ، وأجاب داعياً إذا دعا ، وصلى الله على جميع أحزابك وآلك ، صلاة تليق بجلالك ، وتحق لكمالك ، وعلى ضجيعيك وصديقيك ، وحبيبيك ورفيقيك ، خليفتك في أمتك ، وفاروقك المستخلف بعده على جلتك ، وصهرك ذي النورين المخصوص ببرك ونحلتك ، وابن عمك سيفك المسلول على حلتك ، بدر سمائك ووالد أهلتك ، والسلام الكريم عليك وعليهم كثيرا أثيرا ورحمة الله تعالى وبركاته ، وكتب بحضرة جزيرة الأندلس غَرْناطة ، صانها الله تعالى ووَقَاها ! ودَفَع عنها ببركتك كيدَ عِدَاها ! انتهت الرسالة .

وكتب أيضاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على لسان مخدومه السلطان الغني بالله محمد بن السلطان أبي الحجاج ـ رحم الله تعالى الجميع ! ـ ما صورته :

---

(٥) أراد بالإغضاء إغماض الجفن عن ذللها

(١) أراد سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنه ، وانظر (ص ٥٣ من هذا الجزء)

(١) النفحة ـ بالفتح ـ الهبة (٣) اللمحة ـ بالفتح أيضا ـ النظرة

دعاك بأقصى المغربين غريب ... وأنت ، على بعد المزار ، قريب
مدل بأسباب الرجاء وطرفه ... غضيض على حكم الحياء مريب
يكلف قرص البدر حمل تحية ... إذا ما هوى والشمس حين تغيب
لترجع من تلك المعالم غدوة ... وقد ذاع من ردِّ التحية طِيبُ[1]
ويستودع الريح الشمال شمائلا ... من الحب لم يعلم بهن رقيب
ويطلب فى جيب الجيوب جوابها ... إذا ما أطلَّتْ والصباحُ جنيب
إذا أثر الأخفاف لاحت محاربا ... يخر عليها راكعاً وينيب
ويلقى ركاب الحج وهى قوافل ... طِلاَحٌ وقد لبى النداء لبيب[2]
فلا قول إلا أنة وتوجع ... ولا حول إلا زفرة ونحيب
غليل ولكن من قبولك منهل ... عليل ولكن من رضاك طبيب
ألا ليت شعرى والأمانىّ ضلة ... وقد تخطىء الآمال ثم تصيب
أينجد نجد بعد شَحْطِ مزاره ... ويكثُب بعد البعد منه كثيب
وتُقْضَى ديونى بعد ما مطل المدى ... وينفُذ بيعى والمبيع معيب
وهل أقتضى دهرى فيسمح طائعاً ... وأدعو بحظى مسمعا فيجيب
وياليت شعرى هل لحَوْمِىَ مورد ... لديك؟ وهل لى فى رضاك نصيب؟[3]
ولكنك المولى الجواد وجاره ... على أى حال ليس يخيب
وكيف يضيق الذرع يوما بقاصد ... وذاك الجناب المستجار رَحِيبُ[4]
وما هاجنى إلا تألق بارق ... يلوح بفَوْد الليل منه مشيب
ذكرت به رَكْبَ الحجاز وجيرةً ... أهاب بها نحو الحبيب مهيب
فبتُّ وجفنى من لآلىء دمعه ... غنى وصبرى للشجون سليب[5]

---

(١) ذاع : انتشر فملأ الجو (٢) طلاح : معييات ، واحدها طليح
(٣) حام حول الحمى : دنا منه ودار حوله ، والمورد : مكان ورود الماء
(٤) جناب رحيب : واسع (٥) سليب : مسلوب ، يريد أنه لا صبر له

ترنحني الذكرى ويهفو بي الهوى كما مال غصن في الرياض رطيب
وأحضر تعليــلا لشوقيَ بالمنى ويطرق وجــد غالب فأغيب
مرامىَ لو أعْطى الأمانيَّ زورةٌ يُبَثُّ غرام عنــدها ووجيب
فقول حبيب إذ يقول تشوّقا عسى وطن يدنو إلى حبيب
تعجبت من سيفي وقد جاور الْغضَى بقلبي فلم يسبكه منه مذيب
وأعجب أن لا يورق الرمح في يدي ومن فوقه غيث المَشُوق سكيب
فيا سَرْحَ ذاك الحي لو أخلف الحيا لأغناك من صَوْبِ الدموع صبيب
ويا هاجِر الجوِّ الجديدِ تلبُّثاً فعهدىَ رطب الجانبين خصيب
ويا قادح الزند الشحاح ترفقــاً عليك فشوقي الخارجيُّ شَبيبُ
أيا خاتم الرسل المكينِ مكانه حديث الغريب الدار فيك غريب
فؤادى على جمر البعــاد مقلب يباح عليــه للدموع قليب
فوالله ما يزداد إلا تلهبــــــاً أأبصرت ماء ثار عنــهُ لهيب
فليلته ليــل السليم ويومهَا إذا شدّ للشوق العصاب عصيب
هواى هدى فيك اهتديت بنوره ومنتسبى للصحب منك نسيب
وحَسْبِىَ على أنى لصحبك مُنْتَمٍ وللخزرجِيِّينَ الكرامِ نسيبُ
عدت عن مغانيك المشوقة للعدا عقــارب لا يخفى لهن دبيب
حِرَاص على إطفاء نور قَدَحْتَهُ فمستلب من دونه وسليب
فكم من شهيد في رضاك مجدَّلٍ يظلله نسر وينــدب ذيب
تمر الرياح الغُفْلُ فوق كلومهم فتعبق من أنفاســـا وتطيب
لنصرك عنك الشغل من غير منة وهــل يتساوى مَشْهد ومغيب
فإن صح منك الحظ طاوعنى المنى ويبعد مرمىً السهم وهو مصيب
ولولاك لم يعجم من الروم عودها فعود الصليب الأعجمى صليب

وقد كانت الأحوال لولا مراغب ضمنت ووعدٌ بالظهور تُرِيبُ[١]

فما شئت من نصر عزيز وأنعم أثاب بهن المؤمنين مثيب

منابر عز أذن الفتح فوقها وأفصح للعضب الطرير خطيب[٢]

نَقُودُ إلى هيجائها كل صائل كما ريعَ مكحولُ اللحاظ رَبِيبُ[٣]

ونجتاب من سَرْدِ اليقين مدارعا يكفِّتُها من يجتنى ويثيب[٤]

إذا اضطرب الخطىُّ حول غديرها يروقك منها لجة وقضيب

فعذرا و إغضاء ولا تنس صارخا بعزك يرجو أن يجيب مجيب

وجاهك بعد الله نرجو ، و إنه لحظ ملىء بالوفاء رغيب

عليك صلاة الله ما طَيَّبَ الفضا عليك مطيل بالثناء مطيب

وما اهتز قد للغصون مرنح وما أُفتر ثغر للبروق شنيب

إلى حجة الله تعالى المؤيدة ببراهين أنواره ، وفائدة الكون ونكتة أدواره ، وصفوة نوع البَشَر ومنتهى أطواره ، إلى المجتبى وموجود الوجود لم يغن بمطلق الوجود عديمه ، المصطفى من ذرية آدم قبل أن يكسو العظام أديمه ، المحتوم فى القدم ، وظلمات العدم ، عند صدق القدم ، تفضيلُه وتقديمُه ، إلى وديعة النور المنتقل فى الجباه الكريمة والغرر ، ودرة الأنبياء التى لها الفضل على الدُّرَرْ ، وغمامِ الرحمة الهاميةِ الدِّرَرْ إلى مختار الله تعالى المخصوص باجتبائه ، وحبيبه الذى له المزية على أحبَّائه ، وذرية أنبياء الله تعالى آبائه ، إلى الذى شرح صدره وغسله ، ثم بعثه واسطة بينه و بين العباد وأرسله ، وأتمَّ عليه إنعامه الذى أجزله ، وأنزل عليه من الهدى والنور ما أنزله ، إلى بشرى المسيح والذبيح ، ومن لهم التَّجْر الربيح ، المنصور بالرعب والريح ، المخصوص بالنسب الصريح ، إلى الذى جعله فى المُحُولِ غماما ، وللأنبياء إماما ، وشق صدره

---

(١) تريب : تبعث على الريب ، وهو الشك .

(٢) العضب : السيف القاطع ، والطرير : اللين المهزة

(٣) فى ب « كما ريح مكحول اللحاظ » تحريف (٤) يكفتها : يضمها

لتلقى روح أُمره غُلاما ، وأعلم به فى التوراة والإنجيل إعلاما ، وعلم المؤمنين صلاة عليه وسلاما ، إلى الشفيع الذى لا تُرَدُّ فى العصاة شفاعته ، والوجيه الذى قُرنت بطاعة الله تعالى طاعتُه ، والرؤف الرحيم الذى خلصت إلى الله تعالى فى أهل الجرائم ضَرَاعته ، صاحب الآيات التى لا يسع ردها ، والمعجزات التى أربى على الألف عدها ، فمن قمر شق ، وجذع حن له وحق ، و بنان يتفجر بالماء ، فيقوم بريِّ الظماء ، وطعام يُشبع الجمعَ الكثير يسيرُه ، وغمام يُظَلِّلُ به مقامه ومسيره ، خطيب المقام المحمود إذا كان العرض ، وأول من تنشق عنه الأرض ، ووسيلة الله تعالى التى لولاها ما أقرض القرض ، ولا عرف النفل والفرض ، محمد بن عبد الله ابن عبد المطلبِ بن هاشم بن عبد مناف المحمود الخلال من ذى الجلال ، الشاهد بصدقه صحفُ الأنبياء وكتب الأرسال ، وآياته التى أثلجت القلوب ببرد اليقين السلسال ، صلى الله عليه وسلم ماذرَّ شارق ، وأومض بارق ، وفرق بين اليوم الشامس والليل الدامس فارق ، صلاة تتأرج على شذى الزهر ، وتتبلج عن سنى الكواكب الزهر ، وتتردد بين السر والجهر ، وتستغرق ساعات اليوم وأيام الشهر ، وتدوم بدوام الدهر .

من عبد هُدَاه ، ومستقرى[(١)] مَوَاقع نداه ، ومزاحم أبناء أنصاره فى منتداه ، و بعض سهامه المفوقة[(٢)] إلى نحور عداه ، مؤمِّل العتق من النار بشفاعته ، ومحرز طاعة الجبار بطاعته ، الآمن باتصال رعيه من إهمال الله تعالى و إضاعته ، متخذ الصلاة عليه وسائل نجاه ، وذخائر فى الشدائد مُرْتجاه ، متاجر بضائعها غير مُزْجاه[(٣)] ، الذى ملأ بحبه جوانح صدره ، وجعل فكره هالة لبدره ، وأوجب حقه على قدر العبد لا على قدره ، محمد بن يوسف بن نصر الأنصارى الخزرجى ، نسيب سعد

(١) مستقرى : متتبع ، ومواقع نداه : المواضع التى يقع فيها جوده وكرمه
(٢) فوق السهم ــ بتشديد الواو ــ صوبه ووجهه نحو الرمية ، والنحور : الأعناق
(٣) بضاعة مزجاة : قليلة ردية لم يتم صلاحها

ابن عُبَادة من أصحابه ، و بوارق سحابه ، وسيوف نصرته ، وأقطاب دار هجرته ، ظلله الله تعالى يوم الفزع الأكبر من رضاك عنه بظلال الأمان ! كما أنار قلبه من هدايتك بأنوار الهدى والإيمان ، وجعله من أهل السياحة فى فضاء حُبِّك والهيمان !

كتبه إليك يا رسولَ الله واليراع[1] تقتضى الهيبة صفرة لونه ، والمداد يكاد أن يحول سواد جَوْنه ، وورقة الكتاب يخفق فؤادها حرصا على حفظ اسمك الكريم وصَوْنه ، والدمعُ يقطر فتنقط به الحروف وتفصل الأسطر ، وتوهُّمُ المثولِ بمثواك المقدس لا يمر بالخاطر سواه ولا يخطر ، عن قلب بالبعد عنك قَريح[2] ، وجفن بالبكاء جريح ، وتأوه عن تبريح[3] ، كلما هَبَّ من أرضك نسيم ريح ، وانكسار ليس له إلا جَبْرك[4] ، واغتراب لا يؤنس فيه إلا قربك ، و إن يقض فقبرك ، وكيف لا يسلم فى مثلها الأسى ، و يوحش الصباح والمسا ، و يرجف جبل الصبر بعد ما رَسَا[5] ، لولا لعل وعسى ، فقد سارت الركبان إليك ولم يُقْضَ مَسير ، وحومت الأسرابُ[6] عليك والجناحُ كسير ، ووعدت الآمال فأخلفت ، وحلفت العزائم فلم تَفِ بما حلفت ، ولم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشرف الأثيل ، إلا على التمثيل ، ولا من المعالم الملتمسة التنوير ، إلا على التصوير ، مَهْبط وحى الله تعالى ومتنزل أسمائه ، ومُتَرَدَّد ملائكة سمائه ، ومدافن أوليائه ، وملاحد أصحاب خيرة أنبيائه ، رزقنى الله تعالى الرضا بقضائه ، والصَّبْرَ على جاحم البعد ورَمْضائه ، من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى دار ملك الإسلام بالأندلس قاصية سبلك ، ومسحبة رَجْلك يا رسولَ الله وخَيْلك ، وأنأى مَطَارح دعوتك ومساحب ذيلك ، حيث مصافّ الجهاد فى سبيل الله وسبيلك قد ظللها القَتام ، وشُهْبَانَ الأسنة أطلعها منه الإعتام ، وأسواق بيع النفوس من الله تعالى قد تعدد بها الأيامى والأيتام ، حيث

---

(١) اليراع : القلم (٢) قريح : جريح (٣) التبريح : الإجهاد

(٤) الجبر : إصلاح العظم (٥) رسا : ثبت

(٦) حومت : دارت ، والأسراب : الجماعات

الجراحُ قد تحلت بعسجد نجيعها النحور ، والشهداء تحف بها الحور ، والأمم الغريبة قد قطعها عن المدد البحور ، حيث المباسم المُفْتَرَّه ، تجلوها المصارع الْبَرَّه ، فتحييها بالعَرَاء ثغورُ الأزاهر ، وتندبها صَوَادح الأدواح برنَّات تلك المزاهر ، وتحمل السحاب أشلاءها المعَطَّلة من ظلها بالجواهر ، وحيث الإسلام من عدوّه المكايد بمنزلة قطرة من عارض غمام ، وحَصَاة من ثَبير أو شمام[1] ، وقد سدت الطريق ، وأسلم الفراق الفريق ، وأغص الريق ، ويئس من الساحل الغريق ، إلا أن الإسلام بهذه الجهة المتمسكة بحبل الله تعالى وحَبْلك ، المهتدية بأدِلَّة سُبُلك ، سالم والحمد لله تعالى من الانصداع ، محروس بفضل الله تعالى من الابتداع ، مقدود من جديد الملة ، معدوم فيه وجودُ الطوائف المُضِلَّة ، إلا ما يخص الكفر من هذه العلة ، والاستظهار على جمع الكثرة من جموعه بجمع القلة ، ولهذه الأيام يا رسول الله أقام الله تعالى[2] أوَدَه بِرًّا بوجهك الوجيه ورَعْيا ، وإنجازا لوعدك وهو الذى لايخلف وعدا ولايخيب سَعْيا ، وفتح لنا فتوحا أشعرتنا برضاه عن وطننا الغريب ، وبشرتنا منه تعالى بغفر التقصير ورفع التثريب[3] ، ونصرنا وله المنة على عَبَدَة الصليب ، وجعل لألفنا الرديْنى[4] ولاَ مِنَا السَّرْدِى حكم التغليب ، وإذا كانت الموالى التى طوّقت الأعناق مِنَنُهَا ، وقررت العوائد الحسان سيرها وسننها ، تبادر إليها نوّابها الصرحاء وخدامها النصحاء بالبشائر ، والمسرات التى تشاع فى العشائر ، وتجلو لديها نتائج أيديها ، وغايات مَبَاديها ، وتتاحفها وتهاديها ، بمجانى جناتها وأزاهر غَوَاديها ، وتطرف محاضرها بطُرَفِ بواديها ، فبابُكَ يا رسولَ الله أولى بذلك وأحَقّ ، ولك الحق الحق ، والحرُّ منا عَبْدُكَ المسترقّ ، حسبما سَجَّله الرق ، وفى رضاك من كل من يلتمس رضاه المطمع ، ومَثْوَاكَ المَجْمَع ، وملوك الإسلام

(١) ثبير وشمام : جبلان (٢) الأود : العوج (٣) التثريب : اللوم والتقريع
(٤) الألف الرديني : أراد به الرماح ، واللام السردى : الدروع

فى الحقيقة عبيد سُدَّتك المؤملة ، وخَوَلُ مثابتك[١] المحسنة بالحسنات المجملة ، وشهب تعشو إلى بدورك المكملة ، وبعض سيوفك المقلدة فى سبيل الله تعالى المحملة ، وحَرَسَة مِهادك ، وسلاح جهادك ، وبروق عِهادك[٢] ، وإن مكفول احترامك الذى لا يخفر ، وربِيَّ إنعامك الذى لا يكفر[٣] ، وملتحف جاهك الذى يمحى ذنبه بشفاعتك إن شاء الله تعالى ويُغْفَر ، يطالع روضة الجنة المفتحة أبوابها بمَثْوَاك ، ويفاتح صِوَان[٤] القُدُس الذى أجَنَّك وحَوَاك ، وينثر بضائع الصلاة عليك بين يدى الضريح الذى طَوَاك ، ويعرض جنى ما غرست وبذرت ، ومصداق ما بشرت به لما بشرت وأنذرت ، وما انتهى إليه طَلَقُ جهادك ، ومَصَبُّ عِهادك[٢] ، لتقرعين نصحك التى أنام العيون الساهرة هجوعها ، وأشبع البطون وروّاها ظمؤها فى الله تعالى وجُوعها ، وإن كانت الأمور بمرأى من عَيْن عنايتك ، وغيبها متعرف بين إفصاحك وكنايتك ، ومجمله يا رسول الله صلى الله عليك ، وبلغ وسيلتى إليك ، هو أن الله سبحانه لما عرفنى لطفه الخفى فى التمحيص ، المقتضى عدم المحيص ، ثم فى التخصيص ، المغنى بعِيانه عن التنصيص ، وفق ببركاتك السارية رحماتها فى القلوب ، ووسائل محبتك العائدة بنيل المطلوب ، إلى استفادة عظة واعتبار ، واغتنام إقبال بعد إدبار ، ومزيد استبصار ، واستعانة بالله تعالى وانتصار ، فسكن هبوبُ الكفر بعد إعصار ، وحُلَّ مخنَّقُ الإسلام بعد حِصار ، وجرت على سنن السنة بحسب الاستطاعة والمنة السيرة ، وجبرت بجاهك القلوب الكسيرة ، وسهلت المآرب العسيرة ، ورفع بيد العزة الضَّيْم ، وكشف بنور البصيرة الغَيْم ، وظهر القليل على الكثير ، وباء الكفرُ بخطة التعثير ، واستوى الدينُ الحنيف على المهاد الوَثير ، فاهتبلنا يا رسول الله غِرة العدوّ وانتهزناها ، وشِمْنَا

(١) الخول : الخدم ، وزنا ومعنى ، والمثابة : مكان إقامته ، وأصله المكان الذى يعود إليه كلما زايله (٢) العهاد ـ بكسر العين ، بزنة الكتاب ـ المطر (٣) لا يكفر : لا يجحد (٤) أصل الصوان ـ بكسر الصاد ، بزنة الكتاب ـ الذى يحفظ فيه المتاع ، وأجنك : سترك

صَوَارم عزة العدوّ وهزَزْنَاها ، وأزحنا علل الجيوش وجهزناها ، فكان مما ساعد عليه القدر ، والخطبُ المبتدَر ، والورد الذى حصل بعده الصَّدَر ، أننا عاجلنا مدينة بزغة ، وقد جرَّعَت الأختين مالَقَة ورُنْدَة ، من مدائن دينك ، ومزابِن[1] ميادينك ، أكؤسَ الفِراق ، وأذكرت مثل مَنْ بالعراق ، وسدت طرق التزاور عن الطراق ، وأسالت المسيل بالنجيع المُرَاق[2] ، فى مراصد المراد والمَرَاق[3] ، ومنعت المراسلة مع هدى الحمام ، لا بل مع طَيْف المنام عند الإلمام ، فيسَّر الله تعالى اقتحامها ، وألحمت بيض الشفار فى زُرْق الكفار إلحامها ، وأزال بشر السيوف من بين تلك الحروف إقحامها ، فانطلق المَسْرَى ، واستبشرت القواعدُ الحَسْرَى ، وعدمت بطريقها المخيف مصارع الصَّرْعَى ومثاقف الأسْرَى ، والحمد لله على فتحه الأسنى ومَنْحِه الأسرى ، ولا إله إلا هو منفل قيصر وكسرى ، وفاتح مغلقاتهما المنيعة قَسْرا ، واستولى الإسلام منها على قرار جنات ، وأم بنات ، وقاعدة حصون ، وشجرة غصون ، طهرت مساجدها المغتصبة المكرهة ، وفجع بحفظها الفيل الأفيل وأبرهة ، وانطلقت بذكر الله الألسنة المِدْرَهة ، وفاز بسبق ميدانها جيادك الفُرَّهَة ، هذا وطاغية الروم على توفر جموعه ، وهَوْل مرئيه ومسموعه ، قريبٌ جوارُه ، بحيث يتصل خُوَاره ، وقد حرك إليها الحنين حِوَاره ، ثم نازل المسلمون بعدها شجا الإسلام الذى أعيا النطاسىَّ علاجُه ، وكرك هذا القطر الذى لا تطاول أعلامه ولا تصاول أعلاجه ، وركاب الغارات التى تطوى المراحل ، إلى مُكايدة المسلمين طى البرود ، وحجر الحيات التى لا تخلع على اختلاف الفصول جلود الزرود ، ومُنَغِّص الورود فى العذب المورود ، ومُغِض المضاجع ، وحلم الهاجع ، ومجهز الخطب الفاجىء الفاجع ، ومستدرك فاتكة الراجع ،

---

(١) المزابن ، وهو اسم مكان من قولهم « حرب زبون » بزنة صبور — وهى التى يدفع بعضها بعضا من الكثرة ، ووقع فى ب « مزاين »

(٢) النجيع : الدم ، والمراق ، هنا : اسم المفعول من « أراق الدم » أى أساله

(٣) المراقى : جمع مرقاة ، وهي السلالم ونحوها مما يصعد عليه

قبل هبوب الطائر الساجع ، حصن أشِبٌ حماه الله تعالى دعاء لاخبرا ، كما جعله للمتفكرين فى قدرته معتبرا ، فأحاطوا به إحاطة القِلادة بالجيد ، وأذلوا عزته بعزة ذى العرش المَجيد ، وحفت به الرايات يَسِمُها وَسْمُك[1] ، ويلوح فى صفحاتها اسمُ الله تعالى واسْمُك ، فلا ترى إلا نفوسا تتزاحم على مَوْرد للشهادة أسرابها ، وليوثا يَصْدُق فى الله تعالى ضِرابُها ، وأرسل الله عليها رِجزْا إسرائيليا[2] من جَراد السهام ، تشذ آياته عن الأفهام ، وسدد إلى الجبل النفوس القابلة للإلهام ، من بعد الاستغلاق والاستبهام ، وقد عبثت جوارح صخوره فى قنائص الهام ، وأعيا صَعْبُه على الجيش اللُّهَام ، فأخذ مسائغه النقض والنقب ، ورَغَا فوق أهـله الصقب ، ونصبت المعارج والمَرَاقى ، وفرعت المناكب والتراقى ، واغتنم الصادقون مع الله تعالى الحظ الباقى ، وقال الشهيد السابق : يا فوز استباقى ، ودخل البلد فالتحم السيف ، واسْتُلِبَ البحْثُ والزيف ، ثم استخلصت القصبة فعلت أعلامُكَ فى أبراجها المشيدة ، وظفر ناشِدُ دينك منها بالنشيدة ، وشكر الله تعالى فى قصدها مساعىَ النصائح الرشيدة ، وعمل ما يرضيك يارسول الله فى سدِّ ثَلمها ، وصَوْن مستلمها ، ومُدَاواة ألمها ، حرصا على الاقتداء فى مثلها بأعمالك ، والاهتداء بِمِشْكَاة كمالك ، ورتب فيها الحماة تشجى العدو ، وتصل فى مرضاة الله تعالى ومرضاتك برواحها الغُدُو ، ثم كان الغزو إلى مدينة إطريرة بنت حاضرة الـكفر إشبيلية التى أظلتها بالجناح الساتر ، وأنامتها فى ضَمَان الأمان للحُسَام الباتر ، وقد وتر الإسلام من هذه الموسة البائسة بوتر الواتر ، وأحفظ منها بأذى الوقاح المهاتر ، لما جرته على أسراه من عمل الخاتل الخاتر ، حسب المنقول لا بل المتواتر ، فطوى إليها المسلمون المدى النازح ، ولم تشك المطى الروازح ، وصدق فى الجد جدها المـازح ، وخفقت فوق أوكارها جنحة الأعلام ، وغشيتها أفواج الملائكة الموسومة وظلال الغمام ، وصابت من

---

(١) يسم : مضارع « وسم الشىء » إذا جعل له سمة وعلامة ، والوسم : مصدر ذلك الفعل (٢) الرجز — بالـكسر — العذاب ، والإسرائيلى : المنسوب إلى نى إسرائيل ، وهو يشير إلى قوله تعالى : (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات)

السهام وَدْق الرِّهَام[١] ، وكاد يكفى السهام على الأرض ارتجاج أطوادها بكلمة الإسلام ، وقد صَمَّ خاطبُ عروس الشهادة عن الملام ، وسمح بالعزيز المَصُون مبايع الملك العلام ، وتكلم لسانُ الحديد الصامت وصمت إلا بذكر الله لسانُ الكلام ، ووفت الأوتار بالأوتار ، ووصل بالْخَطِّيِّ درع الأبيض البتَّار[٢] ، وسلطت النار على أربابها ، وأذن الله تعالى فى تبَار تلك الأمة وتبَابها[٣] ، فنزلوا على حكم السيف آلافا ، بعد أن أتلفوا بالسلاح إتلافا ، واستوعب المقاتلة أكنافا ، وقُرِنُوا فى الجذل أكتافا ، وحملت العقائل والخرائد ، والولدان والولائد ، إركابا من فوق الظهور وإردافا ، وأقلت منها أفلاك الحمول بدورا تضىء من ليالى المحاق أسدافا[٤] ، وامتلأت الأيدى من المواهب والغنائم ، بما لا يصوّره حلم النائم ، وتركت العوَافى تتداعى إلى تلك الولائم ، وتفتن من مطاعمها فى الملائم ، وشُنَّت الغارات على حمص فجللت خارجها مغارا ، وكست كبار الروم بها صَغَارا ، وأجحرت أبطالها إجحارا ، واستاقت من النعم ما لا يقبل الحصر استبحاراً ، ولم يكن إلا أن عدل القسم ، واستقل بالقفول العزيز الرسم ، ووضح من التوفيق الوَسْم ، فكانت الحركة إلى قاعدة جَيَّان قيعة الظل الأبرد ، ونسيجة المنوال المفرد ، وكِناس الغِيد الخُرَّد ، وكرسى الإمارة ، وبحر العمارة ، ومهوى هوى الغيث الهَتُون ، وحزب التين والزيتون ، حيث خندق الجنة تدنو لأهل النار مجَانيه ، وتشرق بشواطىء الأنهار إشراق الأزهار زُهْرُ مبانيه ، والقلعة التى تَخَتَّمَتْ ببنان شرفاتها بخواتم النجوم ، وهمت من دون سحابها البيض سحائبُ الغيث السَّجُوم ، والعقيلة التى أبدى الإسلام يوم طلاقها ، وهجوم فراقها ، سِمَة الوجوم لذلك الهجوم ، فرمتها البلاد المسلمة بأفلاذ أكبادها الوادعة ، وأجابت منادى دعوتك الصادقة الصادعة ، وحَبَتْها بالفادحة الفادعة ،

---

(١) الودق : المطر ، والرهام : جمع رهمة ــ بكسر الراء فيهما ــ وأصله المطر الضعيف الدائم . (٢) الأبيض البتار : السيف الشديد القطع . (٣) التبار ، والتباب ــ بزنة السحاب فيهما ــ الهلاك . (٤) الأسداف : الظلم ، واحدها سدفة .

فغصّت الرُّبا والوهاد بالتكبير والتهليل ، وتجاوبت الخيلُ بالصّهيل ، وانهالت الجموعُ المجاهدة فى الله تعالى انهيالَ الكثيب المَهِيل (١) ، وفهمت نفوسُ العباد المجاهدة فى الله تعالى حق الجهاد معانى التيسير من ربها والتسهيل ، وسفرت الرايات عن المرأى الجميل ، وأربت المحلات المسلمة على التأميل ، ولما صبحتها النواصى المقبلة الغرَر ، والأعلام المكتتبة الطُّرَر ، برز حامياتها مُصْحِرين (٢) ، وللحوزة المستباحة مستنصرين ، فكاثرهم من سَرَعَان الأبطال رَجْلُ الدَّبَى (٣) ، ونَبَتُ الوهاد والربا ، فأقحموهم من وراء السور ، وأسرعت أقلام الرماح فى بسط عددهم المكسور ، وتركت صرعاهم ولائم للنسور ، ثم اقتحموا رَبَضَ المدينة الأعظم فافترعوه ، وجدّلوا مَنْ دافع عن أسواره وصرَعُوه ، وأكؤسَ الحتوف جرّعوه ، ولم يتصل أولى الناس بأخراهم ، ويحمد بمخيم النصر العزيز سُرَاهم ، حتى جذل الكافر الصبر وأسلم الجلد ، وأنزل على المسلمين النصر فدُخِل البلد ، وطاح فى السيل الجارف الوالد منه والولد ، وأتهم المطرف والمتلد ، فكان هولاً بعيدَ الشناعة ، وبعثا كقيام الساعة ، أعجل المجانيق عن الركوع والسجود ، والسلالم عن مطاولة النجود ، والأيدى عن ردم الخنادق والأغوار ، والأكبش عن مناطحة الأسوار ، والنفوط عن إصعاق الفجار ، وعمد الحديد ، ومعاول البأس الشديد ، عن نقب الأبراج ونقض الأحجار ، فهيلتِ الكثبان ، وأبيد الشيب والشبان ، وكسرت الصُّلبان ، وفجع بهدم الكنائس الرهبان ، وأهبطت النواقيسُ من مَرَاقيها العالية وصروحها المتعالية ، وخلعت ألسنتها الكاذبة ، ونقل ما استطاعته الأيدى المجاذبة وعجزت عن الأسلاب ذوات الظهور ، وجلل الإسلام شعار العز والظهور ، بما خلت عن مثله سوالف الدهور والأعوام والشهور ، وأعرست الشهداء ومنوا النفوس المبيعة

---

(١) الكثيب : مجتمع الرمل إذا عظم . (٢) مصحرين : ظاهرين ، كأنما برزوا للصحراء . (٣) الرجل — بالفتح — جماعة الجراد ، والدبى — بالفتح مقصورا — الجراد ، وأراد الفرسان الكثيرى العدد كأنهم الجراد فى الكثرة .

من الله تعالى نحل الصدقات والمهور ، ومن بعد ذلك هدم السور ومحيت عن محيطه المحكم السطور ، وكاد يسير ذلك الجبلُ الذى اقتعدته المدينة ويدك ذلك الطور ، ومن بعد ما خرب الوِجار ، عقرت الأشجار ، وعفر المنار ، وسلطت على بنات التراب والماء النار ، وارتحل عنها المسلمون وقد عمتها المصائب ، وأصمى لَبَّتَهَا السهمُ الصائب[1] ، وجللتها القَشَاعِمُ العصائب[2] ، فالذئاب فى الليل البهيم تعسل[3] ، والضباع من الحدب البعيد تنسل ، وقد ضاقت الجدل عن المخانق ، وبيع العرض الثمين بالدانق ، وسبكت أسورة الأسوار ، وسوّيت الهضاب بالأغوار ، واكتسحت الأحواز القاصية سرايا المِغْوَار ، وحجبت بالدخان مطالع الأنوار ، وتخلفت قاعتها عبرة للمعتبرين ، وعظة للناظرين ، وآية للمستبصرين ، ونادى لسان الحمية ، بالثارات الإسكندرية ، فأسمع آذان المقيمين والمسافرين ، وأحَقَّ اللهُ الحقَّ بكلماته وقطع دابر الكافرين .

ثم كانت الحركة إلى أختها الكبرى ، ولِدَتِها الحزينة عليها العبرى ، مدينة أبدة ذات العمران المستبحر ، والربَضِ الخرق المصحر ، والمبانى الشم الأنوف ، وعقائل المصانع الجمة الحلى والشنوف ، والغاب الأوف ، بلدة التَّجر ، والعسكر المَجْر ، وأفق الضَّلال الفاجر الكاذب على الله تعالى الكذبَ الفَجْر ، فخذل الله تعالى حاميَتَهَا التى يعيي الحسبان عدّها ، وسجر بحورها التى لا يرام مدّها ، وحقت عليها كلمة الله تعالى التى لا يستطاع رَدُّها ، فدُخِلت لأوّل وَهْله ، واستوعب جَمُّهَا والمنة لله تعالى فى نهله ، ولم يكف السيف من عليها ولا مهله ، فلما تناولها العفا والتخريب ، واستباحها الفتح القريب ، وأسْنِدَ عن عوَاليها حديثُ النصر الحسن الغريب ، وأقعدت أبراجها من بعد القيام والانتصاب ، وأضرعت مسايفها لهول

---

(١) أصمى : أصاب المقتل ، واللبة — بالفتح — مكان القلادة ، وهو العنق ،
(٢) القشاعم — بزنة جعفر — المسن من النسور ، وجللتها : غطتها .
(٣) عسل الذئب والثعلب ونحوهما — من باب ضرب — اضطرب فى عدوه .

المصاب ، انصرف عنها المسلمون بالفتح الذى عظم صيتُه ، والعز الذى سما طَرْفه واشرأب لِيتُه ، والعزم الذى حمد مَسْرَاه ومبيته ، والحمد لله ناظم الأمر وقد رأب شتيته ، وجابر الكسر وقد أفات الجبر مفيته .

ثم كان الغزو إلى أم البلاد ، ومثوى الطارف والتلاد ، قرطبة ، وما قرطبة ؟ المدينة التى على عمل أهلها فى القديم ، بهذا الإقليم ، كان العمل ، والكرسى الذى بعصاه رُعى الهمل ، والمصر الذى له فى خطة المعمور الناقة والجمل ، والأفق الذى هو لشمس الخلافة العَبْشَمية[1] الحمل ، فخيم الإسلام بعقوتها المستباحة ، وأجاز نهرها المعيي على السِّباحه ، وعم دَوْحها الأشِبَ بوارا ، وأدار الكماة بسورها سِوَارا ، وأخذ بمُخَنقها حِصارا ، وأعمل النصل بشجر نصلها اجتناء ما شاء واهتصارا ، وجدّل من أبطالها من لم يرض انجحارا ، فأعمل إلى المسلمين إصحارا ، حتى فرع بعض جهاتها غلابا جهارا ، ورفعت الأعلام إعلاما بعز الاسلام و إظهارا ، فلولا استهلال الغوَادى ، وأن أتى الوادى ، لأفضت إلى فتح الفتوح تلك المبادى ، ولقَضَى تَفَثه العاكفُ والبادى ، فاقتضى الرأى - ولذنب الزمان فى اغتصاب الكفر إياها مَتاب ، تعمل بِبُشْراه بفضل الله تعالى أقتاد وأقتابٌ ، ولكل أجل كتاب - أن يُرَاض صَعْبها حتى يعود ذَلولا ، وتعفى معاهدها الآهلة فتترك طُلولا ، فإذا فجع الله تعالى بمارج النار طوائفها المارجة ، وأباد بخارجها الطائرة والدارجة ، خَطَبَ السيف منها أمَّ خارجة ، فعند ذلك أطلقنا بها ألسنة النار ومفارقُ الهضاب بالهشيم قد شابت ، والغلات المستغلات قد دعابها الفضل فما ارتابت ، وكأن صحيفة نهرها لما أضرمت النار حافى ظهرها ذابت ، وحيته فرت أمام الحريق فانسابت ، وتخلفت لغمائم الدخان عمائم تلويها بروس الجبال أيدى

---

(١) العبشمية : المنسوبة إلى عبد شمس ، على طريق النحت ، وعبد شمس : جد خلفاء بنى أمية ، ونظير هذا قول الشاعر ، وهو عبد يغوث بن وقاص الحارثى :

وتضحك منى شيخة عبشمية   كأن لم ترى قبلى أسيرا يمانيا

الرياح ، وتنشرها بعد الركود أيدى الاجتياح ، وأغريت بأقطارها الشاسعة[١] ، وجهاتها الواسعة ، جنودُ الجوع ، وتوعدت بالرجوع ، فسلب أهلها لتوقع الهجوم منزور الهجوع ، فأعلامها خاشعة خاضعة ، ووِلْدَانُها لثدى البؤس راضعة ، والله سبحانه يُوفِدُ بخبر فتحها القريب ركابَ البُشْرَى ، وينشر رحمته قبلنا نشرا ، ثم تنوّعت يارسول الله لهذا العهد أحوالُ العدوّ تنوّعا يوهم إفاقته من الغمرة[٢] ، وكادت فتنته تؤذن بخمود الجمرة ، وتوقع الواقع ، وحُذِر ذلك السمُّ الناقع ، وخيف الخرق الذى يحار فيه الراقع ، فتعرفنا عوائد الله سبحانه ببركة هدايتك ، وموصول عنايتك ، فأنزل النصر والسكينة ، ومكن العقائد المكينة ، فثابت العزائم وهبت[٣] ، واطردت عوائد الإقدام واستتبت ، وما راع العدو إلا خيل الله تعالى تجوس خلاله ، وشمس الحق توجب ظلاله ، وهُدَاكَ الذى هَدَيت يُدْحِض ضلاله ، ونازلنا حصنى قنبيل والحائر ، وهما معقلان متجاوران يتناجى منهما الساكن سراراً ، وقد اتخذا بين النجوم قَرَارا ، وفصل بينهما حسام النهر يروق غرارا ، والتفَّ معصمُه فى حُلة العَصْب وقد جعل الجسر سوارا ، فخذل الصليب بذلك الثغر مَنْ تولاه ، وارتفعت أعلام الإسلام بأعلاه ، وتبرجت عروس الفتح المبين بمَجْلَاه ، والحمد لله تعالى على ما أولاه .

ثم تحركنا على نفثة تعدى ثغر الموسطة على عدوّه المساور فى المضاجع ، ومصبحه بالفاجئ الفاجع ، فنازلنا حصن روطة الآخذ بالكَظْم ، المعترض بالشَّجا اعتراضَ العظم ، وقد شحنه العدو مددا بئيسا ، ولم يألُ اختياره رأيا ولا تلبيسا ، فأعيا داؤه ، واستقلت بالمدافعة أعداؤه ، ولما أتلع إليه جيد المنجنيق ، وقد برك عليه بروك الفَنيق ، وشد عصام المنع الوثيق ، لجأ أهلُه إلى التماس العهود والمواثيق ، وقد

---

(١) أقطارها : نواحيها ، والشاسعة : البعيدة الأطراف .

(٢) الغمرة ــ بالفتح ــ الشدة (٣) ثابت : رجعت ، وهبت : وثبت .

غصوا بالريق ، وكاد يذهب بأبصارهم لمعانُ البريق ، فسكناه من حامية المجاهدين بن يحمى ذماره ، ويقرر اعتماره ، واستولى أهل الثغور إلى هذا الحد على معاقل كانت مستغلقة ففتحوها ، وشرعوا أرْشِيَة الرماح (١) إلى قلب قلوبها فنحوها .

ولم تكد الجيوش المجاهدة تنفُضُ عن الأعراف متراكم الغبار ، وترخى عن آباط خيلها شد حزم المغار ، حتى عاودت النفوس شوقها ، واستتبعت ذَوْقها ، وخطبت التى لا فَوْقَها ، وذهبت بها الآمال إلى الغاية القاصية ، والمدارك المتصاعبة على الأفكار المتعاصية ، فقصدنا الجزيرة الخضراء باب هذا الوطن الذى منه طرِقَ وادعُه ، ومطلع الحق الذى صَدَعَ الباطلَ صادعُه ، وثنية الفتح التى بَرَقَ منها لامعه ، ومشرف الهجوم الذى لم تكن لتعثر على غيره مطامعه ، وفرضة المجاز التى لا تنكر ، ومجمع البحرين فى بعض ما يذكر ، حيث يتقارب الشطَّان ، ويتوازى الخطان ، وكاد أن تلتقى حَلْقَتَا البِطان ، وقد كان الفكر قدَّر قَدْر هذه الفرصة التى طرق منها حِماه ، ورماه الفتح الأول بما رَمَاه ، وعلم أن لا تتصل أيدى المسلمين بإخوانهم إلا من تلقائها ، وأنه لا يعدم المكروه مع بقائها ، فأجلب عليها برَجْله وخَيْله ، وسد أفق البحر بأساطيله ، ومراكب أباطيله ، بقِطَع لَيْله ، وتداعى المسلمون بالعدوتين إلى استنقاذها من لَهَوَاته ، أو إمساكها من دون مَهْوَاته ، فعجز الحول ، ووقع بملكه إياها القول ، واحتازها قَهْرا ، وقد صابرت الضيق ما يناهز ثلاثين شهرا ، وأطرق الإسلام بعدها إطراق الواجم ، واسودَّتِ الوجوه لخبرها الهاجم ، وبكتها حتى دموع الغيث الساجم ، وانقطع المدد إلا من رحمة من يُنَفس الكروب ، ويغرى بالإدالة الشروقَ والغروب ، ولما شُكْنا بشَبَا الله تعالى نَحْرَهَا ، وأغصصنا بجيوش الماء وجيوش الأرض تُكاثِر نجم السماء برها وبحرها ، ونازلناها

(١) الأرشية : جمع رشاء ، وهو فى الأصل حبل الدلو ، وقد شبه الرمح فى طوله ، ومن صفات الرمح التى يمدح بها أن يكون طويلا ليصل إلى العدو وإن بعد وإضافة «أرشية» إلى الرماح من إضافة المشبه به إلى المشبه .

نذيقها شديد النزال ، ونجحنا بصدق الوعيد فى سبيل الاعتزال ، رأينا بأوا لا يظاهر[١] إلا بالله تعالى ولا يُطَال ، وممنعة يتحاماها الأبطال ، وجنابا روّضه الغيث الهطال ، أما أسواقها فهى التى أخذت النجد والغَوْر ، واسْتَعْدَتْ بخلاء الجلاد عن البلاد فارتكبت الدور ، تحوز بحرا من العمارة ثانيا ، وتشكك أن يكون الإنس لها بانيا ، وأما أبراجها فصفوف وصنوف ، تزين صفحات السائف[٢] منها أنوف ، وآذان لها من دوامغ الصخر شُنُوف[٣] ، وأما خندقها فصخر مجلوب ، وسور مقلوب ، فَصَدَقَهَا المسلمون القتالَ بحسب محلها من نفوسهم ، واقتران اغتصابها ببوسهم ، وأفول شموسهم ، فرشَقُوها من النبال بظلال تحجب الشمس فلا يشرق سَنَاها ، وعرجوا فى المراقى البعيدة لفرعون مبناها ، ونفوسها أنقابا ، وحصونها عقابا ، ودخلوا مدينة البنة بنتها غلابا ، وأحسبوا السيوف[٤] استلالا والأيدى اكتسابا ، واستوعب القتل مقاتِلَتَها السابغة الجُنَن[٥] ، البالغة المنن ، فأخذهم الهول المتفاقم ، وجدلوا كأنهم الأراقم ، لم تفلت منهم عين تطرف ، ولا لسان يلبى من يستطلع الخبر أو يستشرف .

ثم سمت الهمم الإيمانية إلى المدينة الكبرى فداروا سوارا على سورها ، وتجاسروا على اقتحام أودية الفناء من فوق جسورها ، ودفوا إليها بالضُّروب ، من حيل الحروب ، بروجا مَشِيدة ، ومجانيق توثق حبالها منها نَشيده ، وخفقت بنصر الله تعالى عَذَبَاتُ الأعلام ، وأهدت الملائكة مدد السلام ، فخذل الله تعالى كفارها ، وأكْهَمَ شفارها ، وقلم بيد قدرته أظفارها ، فالتمسوا الأمان للخروج ، ونزلوا على مَرَاقى العروج ، إلى الأباطح والمروج ، من سمائها ذات البروج ، فكان بروزهم من العَرَاء إلى الأرض ، تذكرة بيوم العَرْض ، وقد جلل المقاتلَةَ الصَّغار ، وتعلق بالأمان النساء والصِّغار ، وبودرت المدينة بالتطهير ، ونطقت المآذن العالية بالأذان

---

(١) البأو : الكبرياء والفخر ، ولا يظاهر ــ بالبناء المجهول ــ لا يغالب فى القوة

(٢) السائف : اسم الفاعل من « ساف الدليل الأرض » إذا شم ترابها ليعرف أعلى قصد هو أم جار عن الطريق . (٣) الشنوف : جمع شنف ، وهو حلية تلبس فى الأذن من أعلى . (٤) أحسبوا السيوف : كثروها .

(٥) الجنن : جمع جنة ــ بالضم ــ وهو ما تتقى به كالدرع والترس .

الشهير ، والذكر الجهير ، وطرحت كفارها التماثيلَ عن المسجد الكبير ، وأزرى بألسنة[1] النواقيس لسانُ التهليل والتكبير ، وأنزلت عن الصروح أجرامُهاَ ، يعيي الهندام مرامها ، وألفى منبرالإسلام بها مجفوًّا فآنست غربته ، وأعيد إليه قربه وقربته ، وتلا واعظ الجمع المشهود ، قول منجز الوعود ومُورِق العود (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ، إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) فكان الدمع يغرق الآماق ، والوجد يستأصل الأرماق[2] ، وارتفعت الرغبات ، وعَلَت السبات ، وجىء بأسرى المسلمين يرسُفُون فى القيود الثقال ، وينسلون من أجداث الاعتقال ، ففكت عن سوقهم أساود الحديد ، وعن أعناقهم فلكات البأس الشديد ، وظللوا بجناح اللطف العريض المديد ، وترتبت فى المقاعد الحاميــة ، وأزهرت بذكر الله تعالى المآذن السامية ، وعادت المدينة لأحسن أحوالها ، وسكنت من بعد أهوالها ، وعادت الجالية إلى أموالها ، ورجع إلى القطر شبابه ، ورُدَّ على دار الإسلام بابه ، واتصلت بأهل لا إله إلا الله أسبابه ، فهى اليوم فى بلاد الإسلام قلادَةُ النحر ، وحاضرة البر والبحر ، أبقى الله تعالى عليها وعلى ما وراءها من بيوت أمتك ، وودائع الله تعالى فى ذمتك ، بكلمة دينك الصالحة الباقية ! وسَدَل عليه أستار عصمته الواقية ! وعُدْنا والصلاة عليك شعار البروز والقفول ، وهِجِّيرَى الشروق والأفول ، والجهاد يا رسول الله الشأن المعتمد ، ما امتد بالأجل الأمد ، والمستعان الفرد الصمد

ولهذا العهد يارسول الله صلى الله عليك ، وبَلَّغ وسيلتى إليك ، بلغ من هذا القُطْر

---

(١) أزرى به : انقصه وعابه وقلل من شأنه

(٢) الأرماق : جمع رمق ، وهو بقية الروح فى الجسد ، ويستأصلها : يأتى عليها

المرتدى بجاهك الذى لا يذل من أُدَّرَعَه ، ولا يضل من اهتدى بالسبيل الذى شرعه ، إلى أن لاطفنا ملكُ الروم بأربعة من البلاد كان الكفر قد اغتصبها ، ورفع التماثيل ببيوت الله تعالى ونصبها ، فانجاب عنها بنورك الحلك(١) ، ودار بإدالتها(٢) إلى دعوتك الفلك ، وعاد إلى مكاتبها القرآن الذى نزل به على قلبك المَلَكُ ، فوجبت مطالعة مقرك النبوى بأحوال هذه الأمة المكفولة فى حجرك ، المفضلة بإدارة تَجْرك ، المهتدية بأنوار فَجْرك ، وهل هو الإثمرات سَعْيك ، ونتائج رَعْيك ، وبركة حبك ، ورضاك الكفيل برضا ربك ، وغمام رعدك ، وإنجاز وَعْدك ، وشعاع من نور سعدك ، وبَذْر يجنى رَيْعه من بعدك ، ونصر رايتك ، وبرهان آيتك ، وأثر حمايتك ورعايتك ، واستنبْتُ هذه الرسالة مائحة بحر الندى(٣) الممنوح ، ومُفَاتحة باب الهدى بفتح الفتوح ، وفارعة المظاهر والصروح ، وملقية الرحل بمتنزل الملائكة والروح ، لتمد إلى قبولك يدَ استمناح ، وتطير إليك من الشوق الحثيث بجناح ، ثم تقف بموقف الانكسار ، وإن كان تَجْرها آمنا من الخسار ، وتُقْدم بأنس القربة ، وتحجم بوَحْشة الغربة ، وتتأخر بالهيبة ، وتُجْهش لطول الغيبة ، وتقول ارحم بُعْدَ دارى ، وضعف اقتدارى ، وانتزاح أوطانى ، وخلو أعطانى ، وقلة زادى ، وفرَاغ مزادى ، وتقبل وسيلة اعترافى ، وتغمَّدْ هفوة اقترافى ، وعجل بالرضا انصراف متحملى لانصرافى ، فكم جُبْتُ من بحر زاخر ، وقَفْر بالركاب ساخر ، وحاش لله تعالى أن يخيب قاصدك ، أو تتخطانى مقاصدُك ، أو تطردنى موائدك ، أو تضيق عنى عوائدك ، ثم تمدّ مقتضية مزيد رحمتك ، مستدعية دعاء مَنْ حضر من أمتك ، وأصحبتها يا رسول الله عرضا من النواقيس التى كانت بهذه البلاد المفتتحة تعين الإقامة والأذان ، وتسمع الأسماع الضالة والآذان ، مما قبل الحركة ، وسالم المعركة ،

---

(١) الحلك : الظلام ، وانجيابه : انصداعه وتفرقه

(٢) الإدالة : جعل الدولة (أى الغلبة والفوز) له

(٣) مائحة : طالبة ، وعنى ببحر الندى المرسل إليه ، وهو النبى صلى الله عليه وسلم

ومكن من نقله الأيدى المشتركة ، واستحق بالقدوم عليك ، والإسلام بين يديك ، السابقة فى الأزل البركة ، وما سواها فكانت جبالا تَعجز عن نقلها الهندام ، فنسخ وجودها الإعدام ، وهى يا رسول الله جنى من جنانك ، ورطب من أفنانك ، وأثر ظهر علينا من مسحة حنانك

هذه هى الحال والانتحال ، والعائق أن تشدّ إليك الرحال ، ويعمل الترحال ، إلى أن نلقاك فى عَرَصَات القيامة شفيعا ، ونحل بجاهك إن شاء الله تعالى محلا رفيعا ، ونقدّم فى زُمْرَة الشهداء الدامية كلومهم من أجلك ، الناهلة غللهم من سَجْلك(١) ، ونبتهل إلى الله تعالى الذى أطلعك فى سماء الهداية سراجا ، وأعلى لك فى السبع الطباق معراجا ، وأم الأنبياء منك بالنبى الخاتم ، وقفّى على آثار نجومها المشرقة بقمرك العاتم ، أن لا يقطع عن هذه الأمة الغريبة أسبابك ، ولا يسدّ فى وجوهها أبوابك ، ويوفقها لاتباع هداك ، ويثبت أقدامها على جهاد عِداك ، وكيف تعدم ترفيها ، أو تخشى بَخْسا وأنت موفيها ، أو يعذبها الله تعالى وأنت فيها ؟ وصلاة الله وسلامه تحط بفنائك رحال طيبها ، وتهدر فى ناديك شَقَاشِقُ خطيبها ، ما أذكر الصباح الطَّلْق هداك ، والغمام السَّكْب نداك ، وما حن مشتاق إلى لَثْم ضريحك ، وبليت نسمات الأسحار عما استرقت فى ريحك ، وكتب فى كذا ، انتهت الرسالة ، وفيها ما لا خفاء به من براعة لسان الدين، رحمه الله تعالى وقدّس روحه الطاهرة ! آمين .

من إنشائه فى عزاء

ومما علق بحفظى من نثره رحمه الله تعالى أثناء رسالة فى العزاء خاطب بها ملك المغرب قوله بعد كلام : أين مروان بن الحَكَم ودَهَاؤه ، وعبد الملك ابن مروان وبهاؤه ، والوليد وبناؤه ، وسليمان وغِذاؤه(٢) ، وعمر بن عبد العزيز وثناؤه ، ويزيد ونساؤه ، وهشام وخُيَلاؤه ، والوليد وندماؤه ، والجَعْدى وآراؤه ،

(١) الناهلة : الراوية ، وغللهم : حرقة أجوافهم ، وسجلك : دلوك

(٢) اشتهر سليمان بن عبد الملك بن مروان بأنه كان يأكل كثيرا ، وكان تقدم له الفراريج فى السفافيد حارة فيمسكها بطرف كمه ويلتهمها (وانظر مروج الذهب ١٨٥/٣ طبعة ثانية بتحقيقنا)

أم أين السفاح وحُسَامه ، والمنصور واعتزامه ، والمهدى و إعظامه ، والهادى و إقدامه ، والرشيد وأيامه ، والأمين ونِدَامه ، والمأمون وكلامه ، والمعتصم و إسراجُه و إلجامه ؟ انتهى .

وقد تقدّم كلام أبى الخطاب بن دِحْية فى هـذا المعنى بطوله فى الباب الثانى من هذا القسم ، فليراجع ثمة .

للمؤلف على منوال لسان الدين

قلت : وقد تقدّم فى الخطبة نَظْمى لمثل هذا ، وقد كنت نسجت على منوال لسان الدين وأنا بالمغرب نثرا مما لم يحضرنى منه الآن غير قولى : أين الإسكندر و يونانه ، وشدّاد و بنيانه ، والنمروذ وعدوانه ، وفرعون وهامانه ، وقارون وطغيانه ، وكسرى أنو شروان و إيوانه ، وقيصر وبطارقته وأعوانه ، وسيف بن ذى يَزَن وغُمْدَانه[1] ، والمنذر و نُعْمانه ، إلى أن قلت : وأين أبو بكر رضى الله تعالى عنه وثباته ، وعمر رضى الله تعالى عنه وثبَاته ، وعثمان رضى الله تعالى عنه ورَهَباته ، أم أين على رضى الله تعالى عنه وشجاعته وعلمه ، وأين معاوية رضى الله تعالى عنه وحلمه ، وأين يزيد وظلمه ، ثم ذكرت ما تقدم للسان الدين ، وقلت بعده : وأين الواثق وغناؤه ، والمتوكل ومَوَاليه وأولياؤه وأبناؤه ، والمنتصر وآماله ، والمعتز وجَماله ، والمستعين وعُمَّاله ، والمهتدى وأعماله ، والمعتضد وذكاؤهُ و إحاطته بالأخبار واشتماله ، والمقتدر ونساؤه و إهماله ، إلى أن قلت : وأين بنو عُبيد وضلالهم ، و بنو بويه وجلالهم ، وبنو سَلْجوق ونظامهم ، و بنو سامان و إعظامهم ، و بنو أيوب

---

(١) غمدان ـ بضم الغين وسكون الميم ـ قصر عظيم باليمن ، وقد وصفه ذوجدن الهمدانى فى قوله :

وغمدان الذى حدثت عنه ... بناه مشيدا فى رأس نيق
بمرمرة وأعلاه رخام ... تحام لا يعيب بالشقوق
مصابيح السليط يلحن فيه ... إذا يمسى كتوما من البروق
فأضحى بعد جدته رمادا ... وغير حسنه لهب الحريق

وصلاحهم ، والجراكسة ومبانيهم وسلاحهم . ثم قلت فى ملوك المغرب : وأين عبد الرحمن الداخل وأمراؤه ، والناصر وزَهْراؤه ، والحكم ووزراؤه ، والمؤيد وظهراؤه ، أم أين المنصور بن أبى عامر وغزواته ومواليه ، والمُظَفَّر وأدواته ومعاليه ، أم أين بنو حَمُّود وعُلاهم ، وأوصافهم وحِلاهم ، و بنو جَهْوَر وحَزْمهم ، و بنو باديس وعَزْمهم ، وأين مُعْتَضِد بنى عَبَّاد ، ومعتمدهم الذى سَنَا كرمِه للمعتفين باد ، و بنو ذى النون وَمزِيَّتهم ، و بنو صُمَادح ومريتهم ، و بنو الأفطس و بنو هود ، وما كان لهم من المكارم فى الحفل المشهود ، وأين لَمْتُونه ، وصبرهم الذى ركبوا مُتُونه ، أم أين الموحِّدون وناصرهم ومنصورهم ، ومصانعهم وقصورهم ، أم أين بنو الأحمر وغَرْنَاطتهم ، و إزالتهم عن حوزة الدين أدناسَ المعتدين و إماطتَهم ، وجَعْلُهم الأمورَ لمثل ابن الحكيم ولسان الدين و إناطَتُهم ، أم أين بنو مَرِين وفارسهم ، ومغانيهم ومَدَارسهم ، وأين بنو زَيَّان ومنازلهم الشاهقة ، وأشجار عزهم الباسقة ، وأين الحَفْصِيون ، ومستنصرهم الذى قضى للمعالى الديون ، وأبو فارس ، الذى شنِّفَتْ بأخباره آذانُ الطروس والفهارس ، طحنت والله تعالى الجميعَ رحى المنون ، وتأيمَتِ الأزواجُ ويتم البنون ، وطالت الأيام والسنون ، و بقيت القصور العالية ، خالية ، والرسوم المتكاثرة ، داثرة ، والسلوك المنظومة متناثرة ، وعن قريب يقف الكل بين يدى رب الأرباب ، فى يوم تَذْهَل فيه الألباب ، وتنقطع إلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسباب ، و يقتص للمظلوم من الظالم ، وتنبهم للنجاة الطرقُ والمعالم ، وتبلى السرائر لدى مَنْ هو بها عالم ، (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تودلو أن بينها و بينه أمدا بعيدا) يوم يحكم الله تعالى فى الخلق ، بالحق ، حسبما سبق فى علمه إذ جعلهم قريبا و بعيدا ، وشقيا وسعيدا ، اللهم اجعلنا فى ذلك اليوم الصعب ممن فاز بالنجاة ، وحاز شفاعة نبيك ومُصْطَفاك ذى الحرمة والجاه ، صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ، انتهى

رجع لنثر لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى .

ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به سلطان المغرب أبا زَيَّان لما تم له الأمر ، وهو مشتمل على نظم ونثر ، ونصه :

من كلام لسان الدين يخاطب السلطان أبازيان

يا ابن الخلائف ياسميَّ محمدٍ ... يامن علاه ليس يَحْصُر حاصِرُ
أبشر فأنت مجدِّد الملك الذى ... لولاك أصبح وهو رَسْمٌ داثر(١)
من ذا يعاند منك وارثه الذى ... بسعوده فَلَكُ المشيئة دائر
ألقت إليك يَد الخلافة أمرها ... إذ كنت أنت لها الولى الناصر
هذا و بينك للصريخ و بينها ... حرب مضرسة وبحر زاخر
من كان هذا الصنع أول أمره ... حسنت له العقبى وعَزَّ الآخرُ
مولاى عندى فى علاك محبة ... والله يعلم ما تُكِنُّ ضمائر(٢)
قلبى يحدّثنى بأنك جابر ... كسرى، وحظى منك حظ وافر
بثَرَى جدودك قد حَطَطْتُ حقيبتى ... فوسيلتى لعلاك نور باهر
و بذلت وسعى واجتهادى مثل ما ... يلقى لملك سيف أمرك عامر
فهو الولى لدى الذى اقتحم الردى ... وقضى العزيمة وهو سَيْفٌ باتر
وولى جدك فى الشدائد عندما ... خذلت علاه قبائلٌ وعشائر
فاستَنْهِدِ منه النصح واعلم أنه ... فى كل معضلة طبيب ماهر
إن كنت قد عجلت بعض مدائحى ... فهى الرياضُ، وللرياض بواكر

مولانا ، وعمدة ديننا ودنيانا ، الذى سخر الله تعالى البر والبحر بأمره ، وحكم فوق السموات السبع بعز نصره ، وأغنى يوم سَعْدِه عن سَلِّ السلاح وشَهْره ، وفتق عن زهر الصنع الجميل كَمامَة تسليمه وصبره ، وقيض له فى علم غيبه وزيراً

---

(١) الرسم : مابقى من آثار الديار لاصقا بالأرض ، وداثر : عاف دارس متغير

(٢) تكن : تخفى وتستر .

مذخوراً لشد أزره ، وقود الملك إليـه على حال حَصْره ، الخليفة الإمام ، الذى استبشر به الإسلام ، وخفقت بعزه الأعلام[1] ، ولاح بدر مُحَيَّاه فافتضَّ الظلام ، المقتدى بالنبى الـكريم سميه فى المراشد التى تألق منهـا الصبح ، والمقاصد التى لازمها النجح ، والتمحيص الذى نبع منه المنْحُ[2] ، حتى فى الهجرة التى جاءه بعدها الفتح ، أبو زيان ، ابن مولانا السلطان ولى العهد ترشيحاً ومآلا ، ومؤمل الإسلام تقلدا للمذهب الصريح وانتحالا ، وأمير المسلمين لو أوسعه القـدر إمهالا ، ووُسْطى عقد البنين خلائق متعددة وخِلاَلا ، المتحف بالشهادة ولمـا يعرف بدره هلالا ، المعوض بما عند الله تعالى سعادة ألبسته سِرْبالا ، وأبلغته من رضوان الله تعالى آمالا ، أبى عبد الرحمن بن مولانا أمير المسلمين عظيم الخلفاء ، وعنصر الصبر والوفاء ، وستر الله تعالى المسدول على الضعفاء ، والمجاهد فى سبيل الله تعالى بنفسه وماله ، المنيف على مراكز النجوم بهممه وآماله ، المقدس أبى الحسن بن موالينا الخلفاء الطاهرين والأئمة المرضيين ، من قبيل بنى مَرِين ، وصفوة الله تعالى فى هـذا المغرب الأقصى من أوليائه المؤمنين ، وزينة الدنيا وعمدة الدين ، هنأه الله تعالى ما أورثه من سرير الملك الأصيل ، وخوَّله من سعادة الدنيا والدين على الإجمال والتفصيل ، وتوجـه من تاج العزة القعساء عنـد اشتباه السبيل ، وعوضه من قبيل الملائكة عند تشتت القبيل ، وجعل قدمه الراسخة ، وآياته الناسخة ، ورَبْوته السامية الباذخة ، وعزة نصره الشادخة ، وأوزعه شكر آلائه ، فى الخلاص من ملـكة أعدائه ، وخطر البحر وعدوان مائه ، وغُول السفر ، وارتـكاب الغرر ، وثبات أقدام أوليائه الذين ما بَدَّلوا تبديلا ، ولا ارتضوا لقِبْلَة طاعته بعد أن ولوا وجوههم شَطْرها تحويلاَ ، بل صبروا صبراً جميلا ، وباعوا نفوسهم تتميما لعقدة إيمانهم وتكميلا .

---

(١) الأعلام : جمع علم — بالتحريك — وهو الراية ، وخفوقها : اضطرابها فى الهواء ، والعبارة كناية عن ظهور ملـكه .

(٢) التمحيص : الابتلاء والاختبار ، والمنح : الإعطاء .

يسلم على مقامكم الذى وسم السعد مشرق جبينه ، وذُخِرت قُبَلُ الطاعة ليمينه ، وأقسم السعد بمظاهرة[(١)] أمره السعيد فبر والشكر لله تعالى فى يمينه ، عبدكم الذى اعتلق منكم بالوسيلة الكبرى ، وقر بملككم عينا وشرح صدرا ، و بذل الجهد و إن قل قُدْرَة وقدرا ، والتمس لكم الدعاء عَلَناً وسرًّا ، ابن الخطيب الذى حَطَّ رَحْلَ اقتصاده بتراب الملوك الكرام جدودكم ، محاريب بركم وأسباب وجودكم ، وآبائكم الذين فى مظاهرتهم[(١)] ورَعْيهم يظهر للناس مخايل هداكم وتدرُّ سحائب جودكم ، ملتحفاً منذ سنتين بأصْونة قبورهم وثيابها ، مستظلا بأفنيتها المعظمة وقبابها ، ممرغا خده بترابها ، مُوَاصلا الصراخ بالمرين و يا ليعقوب متطارحا على أبوابها ، فلم يُتِحْ الله تعالى له نعرة ترعى الضيف وتحمى الدخيل ، أو حمية تدفع الضيم وتشفى العليل ، إلا على يدكم يا أيها الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، و بطل الميدان فى موقف الهول العظيم ، المدخور لنصر المظلوم و إنصاف الغريم ، و إجالة أقلام الفتح بفتح الأقاليم

كتبه مهنئاً بما سَنَّى[(٢)] الله تعالى لملككم من الصنع الذى خرق حجاب العادة ، وأرى إعجاز السعادة ، معجلا ذلك بين يدى المبادرة إلى لثم بساطكم الذى لشرف وجوهها تلثمه الوجوه ، وتخشاه الأملاك الجبابرة وترجوه ، وأداء الواجب من القيام بمنظوم ثنائه فى الحَفْل المشهود ، و إبلاغ لسان الحمد وسع المجهود ، و إلقاء ما عند العبد من خلوص وجُنُوح[(٣)] ، وحب واضح أىَّ وضوح ، فولى دعوتكم الشيخ أبو ثابت أعزه الله تعالى يقرره ، و يبين مجمله و يفسره ، والعبد واثق بفضل الله تعالى على يديكم ، وملتمس النصر لديكم ، وقاطع أن طَلِبته بكم تَتَسَنَّى[(٢)] ، وأنكم سبب عاقبته الحسنى ، إما بالظهور على الوطن الذى تجرأ به المنقلبُ على ملككم ، ومد اليد إلى نثر سلككم ، ونقص إرثكم المسلم المحرر ، وزلزل وطنكم المؤسس على

---

(١) المظاهرة : المعاونة والمساعدة وتقوية شأنه .

(٢) سنى الأمر : يسره وسهل سبيله . (٣) الجنوح : الميل .

الطاعة المقرر ، وأضرم النار فى بسائطكم[١] وجبالكم ، وأطلق يد الفتنة على بيوت أموالكم ، ومتكثراً عليكم بالقلة ، متعززاً بالذلة ، جانياً على داركم بمالا تبيحه الملة ، أو بالشفاعة الجازمة إن لم يأذن الله تعالى فى الانتصاف ، والله يجعل الظهور بكم من الأوصاف ، و يعينكم على جبر الكسير ، وتيسير الأمر العسير ، و يهنيكم منيحة الملك الكبير ، و يبقى كلمته فى عقبكم بعد تملؤ التعمير ، والسلام :

من كلامه في مخاطبة أبى زيان أيضا

وله رحمه الله تعالى فى مخاطبة السلطان أبى زيان المذكور : المولى الذى طوق المنن ، وأحيا السنن ، وأنبت الله تعالى حبه فى القلوب النباتَ الحسن ، ناظم كلمة الدين بعد انتشارها ، ومُقيل عثارها ، والآخذ بثارها ، والمخلد لآثارها ، السلطان أبو زيان إلى آخره ـ أبقاكم الله تعالى عالى القدم ، منصور العَلَم ، ظاهراً على الأمم ، مقصود الحمى كالركن الملتزم ، عبدُ مقامكم الذى آو يتموه غريبا ، وآنستموه مريبا ، وأنلتموه على عدوهِ الدهرَ نصراً عزيزا وفتحا قريبا ، فلم يخش دركا وتثريباً ، ولا عدم حظوة وشفقة ونعمة وتقريباً ، ابن الخطيب عن ثناء يعطر الآفاق ، و يرقم الأوراق ، و يخرق الجيوب والأطواق ، وحب بهر نوراً وراق ، وجاس اشتهاره الشام والعراق ، و يطالع العبد محل مولاه الذى خلف ببابه قلبه وولده ، وصبره وجلده ، وصير وطنه داره الحقيقيّ و بلده ، أنه لما قدم على محل أخيه ، المعتد بما أودع الله تعالى من الخلال الشريفة فيه ، مولاى ابن مولاى أبى عبدالله ، كفل الله تعالى جميل رعيه وكرم عهده ! وحكم بإعلاء جده ومَضاء حده ! رَعَى الوسيلة ، وصدّق المخيلة[٢] ، وجلا عند اجتلاء مخاطبتكم أسارير الفضيلة ، فلم يَدَعْ حقا إلا صرفه ، ولا نكرة إلا عرّفه ، ولا نعمة إلا سكبها ، ولا مزية إلا أوجبها ، ولا رتبة إلا أعلاها ، ولا نعمة إلا أولاها ، وما ذاك يامولاى و إن تعددت الرسائل والأذِمّة ، وادّكرت القرب بعد

(١) البسائط : جمع بسيط ، وأراد به الأرض المنبسطة الواسعة

(٢) صدق المخيلة : صدق الظن به ، يريد أنه فعل معه ما كان يتوقعه

أمّة ، إلا بوَصَاتكم التي لا تُهمل ، وحرمتكم التي لا تجهل ، وعطف مقامكم الذى اشتهر ، واعتنائكم بعبدكم الذى راق وبَهَر ، فالعبد عبدكم بكل اعتبار ، وخديمكم وإن نأت الدار ، ومحسوب على نعمه مقامكم الرفيع المقدار ، والأمل فى مقامكم غير منقطع السبب ، والأهل والولد تحت كَنَف مقامكم الأصيل الحسب ، حتى يمن الله تعالى بحج بيته وزيارة رسوله على يديكم ، ويكون قضاء هذا الوطر منسوبا إليكم ، وبعد هذا يستقر القرار ، حيث يختار مَنْ يخلق مايشاء ويَخْتار ، بحول الله تعالى .

والعبد يذكر مولاه بمابشره به بين يدى وداعه ، وبمرأى وزيره السعيد واستماعه ، من انجلاء الحركة عن عزه وظهوره ، ونجاح أحواله واستقامة أموره ، ويهنيه بصدق الوعد ، وإمطار الرعد ، وظهور السعد ، وهى وسيلة إذا عدت الوسائل ، وروعيت الذِّمم الجلائل (١) ، ومثل مولاى مَنْ رَعَى وأبقى ، وسلك التى هى أبر وأتقى ، وما قصر عنه القلم من حق مولاى فالرسول أعزه الله تعالى يتممه ، وما قصر عنه الرسول فالله تعالى يعلمه ، وهو جل وعلا يديم أيام مولاى ويبقى مجده ، ويَصِلُ سعده ، والسلام ، انتهى .

من كلامه يخاطب به شيخ الدولة يحيى بن رحو

ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى شيخ الدولة يحيى بن رحو قوله : سيدى الذى له المزية العظمى ، والمحلّ الأسمى ، شيخ قبيل بنى مَرِين ، وقطب مدار الأحرار على الإجمال والتعيين ، والمتميز بالدهاء والرَّجاحة ، والمعرفة الفسيحة الساحة ، والصدقة المُباحة ، وشروط الصوفية من ترك الأذى ووجود الراحة ، أُسَلِّم على ذاتكم الطاهرة التى بخلت الأزمان والله أن تأتى بنظيرها ، وتنافست الدول فى تكبيرها ، وسارت المواكب الملوكية بمسيرها ، وأثنت الألسُن بفضلها

---

(١) الذمم : جمع ذمة ، وهى العهد . والجلائل : جمع جليلة ، وهى العظيمة ، وصف من الجلالة

وخيرها ، وأقرر لديها أنى أعددت من معرفتها بالأندلس كنزا لم أنفق منه إلى اليوم وَزْنًا ، إعداداً له وخزْنا ، إذ لا يخرج العتَاد الكبير إلا عن حاجة وفاقة ، ولا ترد اليد إلى الذخيرة إلا فى إضاقة وعجز طاقة ، وما كانت الوصلة بمثلها ليهملها مثلى جَهْلاً بقيمتها العالية ، و إزراء بجهتها الكافلة الكافية ، لكن نابت عن يدها أيد ، وكفى عن ابتذالها ما كف الله تعالى من عمرو وزيد ، والآن أقرر أنى قد كادت حاجتى إلى ذلك العتاد أن تتمحض [1] ، وزبدته أن تتمخض [2] ، إذ هو حظى من رَعْى ذلك القبيل الذى قصرت عليه رياسته ، والوزير الذى من رأيه تستمد سياسته ، و إذا وَفْد خاصة هذه المدينة مُهَنِّين ، و بشكر إيالته الكريمة مُثْنِين ، فخيمته ظل ظَليل ، ومشاركته معتمدى فى الكثير فكيف ولا غرض لى إلا فى القليل ، وعندى أن رَعْيَه لمثلى لا يفتقر إلى وسيلة تجلب ، ولا ذِمام يحسب ، فمثله من قدر قدر الهناء ، وشد أعلام الحمد والثناء ، سامية البناء ، وعرف أن الدنيا على الله تعالى أحقر الأشياء ، وقد رفعت أمرى كله بعد الله تعالى إلى رأيك ، وغنيت عن سعي لنفسى بجميل سعيك ، والسلام .

من كلامه يخاطب شيخه ابن مرزوق فى شفاعة

ومما خاطب به لسان الدين شيخَه سيدى أبا عبد الله بن مرزوق التلمسانى رضى الله تعالى عنه قوله شافعاً : يا سيدى أبقا كم الله تعالى مَحَطَّ الآمال وقِبْلَةَ الوجوه ، و بلغ سيادتكم ما تؤمله من فضل الله تعالى وترجوه ، وكَلأ بعين حفظه ذاتَكم الفاخرة ، وجعل عز الدنيا متصلا لكم بعز الآخرة ، بعد تقبيل يدكم التى يدها لا تزال تشكر ، وحسنتها عند الله تعالى تذكر ، أُنْهِى إلى مقامكم أن الشيخ الكذا أبا فلان ــ مع كونه مستحق التجلة بهجرةٍ إلى أبوابكم الكريمة قَدُمَتْ ، ووسائل من أصالة وحشمة كرمت ، وفضل ووقار ، وتنويه للولاية إن كانت

---

(١) تتمحض ــ بالحاء المهملة ــ تتخلص من الشوائب

(٢) تتمخض ــ بالخاء المعجمة ــ من قولهم «مخض اللبن» أى وضع فيه ماء وحركه ليستخرج زبده

ذات احتقار ، وسن اقتضى الفضلُ بره ، وأدب شكر الاختبار عليه وسَرَّه - له بمعرفة سلفكم الأرْضَى وسيلة مَرْعية ، وفى الاعتراف بنعمتكم مقامات مرضية ، وتوجه إلى بابكم ، والتمسك بأسبابكم ، والمؤمَّلُ من سيدى سَتْرُه بجناح رعيه فى حال الـكبره ، ولحظه بطرف المَبَره ، إما فى استعمال يليق بذوى الاحتشام ، أو سكون تحت رَعْى واهتمام ، و إعانة على عمل صالح يكون مسكة ختام ، وهو أحق الغرضين بالتزام ، و إحالة سيدى فى حفظه رسم مثله ، على الله تعالى الذى يجزى المحسنين بفصله ، ومنه نسأل أن يديم أيام المجلس العلمى محروساً من النوائب ، مُبَلغ الآمال والمآرب ، والمملوكُ قد قرر شأنه فى إسعاف المقاصد المأمولة من الشفاعة إليكم ، والتحسب فى هذه الأبواب عليكم ، وتقليب القلوب بيد الله تعالى الذى يعطى ويمنع ، و يملك الأمر أجمع ، والسلام .

من كلامه إلى ابن مرزوق فى شفاعة أيضا

وكتب إليه أيضاً فى الشفاعة بما نصه : سيدى الأعظم ، ومَلاذى الأعصم ، وعروة عزى الوثقى التى لا تُفْصَم[1] ، أبقاك الله تعالى بقاء آثارك آية للعز تأمر الدهر فيأتمر ، و يلبى بفنائك الطائف والمعتمر ، بأى لسان أثنى على فواضلك وهى أُمَّهات المِنَن ، وطرف الشام واليمن ، ومقامات بديع الزمن ، والتحف المترفعة عن الثمن ؟ فحسبى دعاء أردده وأوليه ، وأرتقب مطلوب الإجابة من مُقَدَّمه وتاليه ، و إن تشوّف المنعم للحال الموقوف خيره بمشيئة الله تعالى على جميل سَعْيه ، الموسَّد على وطاء لطفه المغشى بغطاء رعيه ، قلب خافق ، وقلب مؤمن يجول به وسواس منافق ، وقد تجاوز موسى مجمع البحرين[2] ، وأصبح سرى بابه سرى العين ، ولقد كانت مراحل الرمل قصيرة قبل أن يكسبها زجلى ثقل الحركة ، ويخلط خاصى فى وظائفها المشتركة ، ولبت أمرى برز إلى طَرَف ، وأفضى إلى منصرف ، ور بما ظفر

---

(١) العروة الوثقى : الوثيقة المتينة . ولا تفصم : لا تنقض ولا تنحل

(٢) أخذ هذا من قوله تعالى فى قصة موسى - عليه السلام ! - من سورة الـكهف : (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا)

آيس بما يرجوه ، و برز المحبوب من المكروه ، والله تعالى لا يَفْضَح جاه الكتاب الذى أحيا وأنشر ، وحيا و بشر ، وأعطى صحيفته باليمين وقد جمعت مثابتكم المحشر ، وموصل كتابى ، ينوب فى تقبيل اليد العليا مَنَابى .

وليعلم سيدى أن هذا القطر على شهرته ، وتألق مشتريه وزُهْرته[1] ، إذا انتحل كرامه ، وعهد الفضل لم يبق إلا انصرامه ، فهو لُبَابه المتخير ، وزُلاله الذى لا يتغير ، أصالة معروفة ، وهمة إلى الإيثار مصروفة ، ونبلا على السِّنِّ والكبره ، ورجولية خليقة بصلة الحرمة والمبره ، والوسيلة لا تطرح ، والمعنى الذى لا يفسر لوضوحه ولا يشرح ، وهوانتماؤه[2] إلى جناب سيدى حديثاً وقديماً ، واعترافه بنعمه مديراً لها ومديماً ، والله تعالى يوفى من إيثار سيدى حظه ، و يجدد لديه رعيه ولحظه ، حتى يعود خافقاً عَلَم إقباله ، مُعْلماً بردُ اهتباله[4] ، مسروراً ببلوغ آماله ، فلعمرى إن محلَّ ولايته لكَفِىّ ، و إنَّ عهد أمانته لوفى ، و إن عامل جدّه لَظَاهر وخفى ، وما يفعله سيدى من رَعْيه ، و إنجاح سَعْيه ، محسوب من مناقبه ، ومعدود فى فضل مذاهبه ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله و بركاته ، انتهى .

وقد تكررت فى كتابنا هذا مخاطبات لسان الدين رحمه الله تعالى للخطيب ابن مرزوق المذكور نظماً ونثراً ؛ إذ كان ــ أعنى ابن مرزوق ــ رئيس الدولة ، ومعتمد الجِلَّة ، وسبق منا التعريفُ ببعض أحواله فى باب مشايخ لسان الدين مما جرّته المناسبة ، فليرجع إليه مَنْ أراده ، والله تعالى يجعل الجميع من أهل السعادة !

من كلامه يخاطب أبازيد ابن خلدون

ومما اشتمل على نثر لسان الدين ونظمه ما خاطب به الرئيس أبا زيد بن خلدون ، لما ارتحل من بحر المرية واستقر ببلد بسكرة عند رئيسها أبى العباس بن مزنى ، صحبة رسالة خطبها أخوه أبو زكريا ، وقد تقلد كتابة صاحب تلمسان ،

---

(١) التألق : شدة الإضاءة ، والزهرة والمشترى : نجمان

(٢) انتماؤه : انتسابه واعتزاؤه

(٣) اهتبل الفرصة : اغتنمها واقتنصها

ووصل الكتاب عنه من إنشائه ، وهـذه صورة ما كتبه لسان الدين رحمه الله تعالى :

بنفسى وما نفسى على بهَيْنَة فينزلنى عنهـا المكاس بأثمان(١)
حبيبٌ نأى عنى وصم لأنتى وراش سهام البين عمدا فأصمانى
وقدكان هم الشيب ، لا كان ، كافيا فقد آدنى لمـا ترحل همان
شرعْتُ له من دمع عينى موردا فكدر شربى بالفراق وأظمانى
وأرعيته من حسن عهدى جميمه فأجدب آمالى وأوحش أزمانى
حلفت على ما عنده لى من رضا قياسا بمـا عندى فأحْنَثَ أيمانى
و إنى على ما نالنى منه من قِلًى لأشتاق من لقياه نغبة ظمآن
سألت جنونى فيه تقريب عرشه فقست بجن الشوق جِنَّ سليمان
إذا ما دعا داع من القوم باسمه وثَبْتُ وما استثبت شيمة هيمان
وتا الله ما أصغيت فيـه لعاذل تحاميته حتى ارْعَوَى وتحامانى
ولا استشعرت نفسى برحمة عائد تُظَلِل يوما مثله عبد رَحْمٰنِ
ولا شعرت من قبله بتشوق تخلل منها بين روح وجثمان

أما الشوق فحدِّث عن البحر ولا حَرَج ، وأما الصبر فسل به أيةً درج ، بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج ، لكن الشدة تعشق الفرج ، والمؤمن يَنْشَق من روح الله تعالى الأرَج ، وأنى بالصَّبْر، على إبر الدَّبْر ، لا بل الضرب الهبر ، ومطاولة اليوم والشهر ، حتى حكم القهر ؟ وهل للعين أن تسلوسلوّ المقصر ، عن إنسانها المبصر ، أو تذهل ذهول الزاهد ، عن سرها الرائى والمشاهد ؟ وفى الجسد مُضْغة يصلح إذا صلحت ، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت ، وإذا كان الفراق هو الحِمام

---

(١) هينة ـ بسكون الياء ـ مخفف من هينة ـ بالتشديد ـ مثل قول الشاعر :

هينون لينون أيسـار ذوو كرم مثل النجوم التى يسرى بها السارى

الأوّل ، فعلام المعوّل ؟ أعيتْ مُرَاوضة الفراق، على الراق ، وكادت لوعة الاشتياق ، أن تُفْضِى إلى السِّياق .

تركتمونى بعد تشييعكم أوسع أمر الصبر عصيانا

أقْرَعُ سنى ندما تارة وأستميح الدمع أحيانا

وربما تعللت بغشيان المعاهد الخالية ، وجددت رسوم الأسى بمباكرة الرسوم البالية ، أسأل نون النوى عن أهليه ، وميم الموقد المهجور عن مُصْطليه ، وثاء الأثافى المثلثة عن منازل الموحِّدين ، وأحار بين تلك الأطلال حيرة الملحدين ، لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ، كَلِفْتُ لعمر الله بسالٍ عن جفونى المؤرقة ، ونائم عن همومى المتجمعة المتفرقة ، ظَعَنَ عن مَلال ، لا متبرما منى بشر خلال ، وكدر الوصل بعد صفائه ، وضرَّج النصل بعد عهد وفائه :

أقِلَّ اشتياقا أيها القلبُ ربما رأيتك تُصْفِى الود من ليس جازيا

فها أنا أبكى عليه بدمٍ أساله ، وأنهل فيه أسى له ، وأعلل بذكراه قلبا صدَعه ، وأودعه من الوجد ما أودعه ، لما خدعه ، ثم قلاه وودَّعه ، وأنشق ريَّاه أنفَ ارتياح قد جدَعه ، وأستعدى به على ظلم ابتدعه .

خليلى هل أبصرْتما أو سمعتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلى

فلولا عسى الرجاء ولعله ، لا بل شفاعة المحل الذى حله ، لمزجتُ الحنينَ بالعَتْب ، وبثثت [1] كتائبه كمناء فى شعاب الكتب ، تهز من الألفات رماحا حذر الأسنه ، وتُوتِّر من النونات أمثال القِسِيِّ المُرِنَّه [2] ، وتقود من بياض الطرس وسواد النقس بُلْقاً تردى فى الأعِنَّه [3] ، ولكنه أوى إلى الحرم الأمين ، وتفيأ [4] ظلال الجوار المؤمن من معرة العوار عن الشمال واليمين ، حرم الخلال المَزْنية ، والظلال اليزَنية ،

---

(١) بثثت : نشرت وفرقت (٢) المرنة : ذات الرنين وهو الصوت

(٣) البلق : جمع أبلق ، وهى الخيل ، والأعنة : جمع عنان ، وهوماتقاد به الدابة

(٤) تفيأ : استظل

والهمم السنية ، والشِّيَم التى لا ترضى بالدون ولا بالدَّنيَّة ، حيث الرفد الممنوح ، والطير المَيامن يزجر لها السنوح ، والمَثْوَى الذى إليه مهما تقارع الكرام على الضيفان ، حول جَوَابى الجفان ، الميل والجنوح .

نسبٌ كأن عليه من شَمْس الضحى نوراً ، ومن فَلَقِ الصباح عمودا

ومن حل بتلك المثابة فقد اطمانَّ جَنْبُه ، وتغمد[1] بالعفو ذنبه ، ولله در القائل حيث يقول :

فوحقه لقد انتدبت لوصفه بالبخل لولا أن حمصا داره

بلدمتى أذكره تَهْتَجْ لوعتى و إذاقدحت الزندطارشراره

اللهم غفرا، لا كُفْرًا ، وأين قرارة النخيل ، من مَثْوَى الأقلف البخيل ، ومكذبة المخيل ؟ وأين ثانية هَجَر ، من متبوّأ من ألحد وفَجَر ؟ .

من أنكر غيثا منشؤه فى الأرض وليس بمُخْلِفها

فبنان بنى مزنى مُزْنٌ تنهلُّ بلطف مصرفها[2]

شكرت حتى بعبارتها و بمعناها و بأحرفها

مزن مذحَلَّ بيَسْكرة يوماً نطقت بمُصَحَّفِها

ضحكت بأبى العباس من الأيام ثنايا زخرفها

وتنكرتِ الدنيا حتى عرفت منه بمعرّفها

بل نقول : يا محل الولد ، لا أقسم بهذا البلد وأنت حِلٌّ بهذا البلد ، لقد حَلَّ بَيْنُكَ عُرَى الجَلَد ، وخلد الشوق بعدك يا ابن خلدون فى الصميم من الخَلَد ، فحيا الله تعالى زمنا شفيت برُقَى قربك زَمَانَتَه ، واحتليت فى صدف مجدك جُمَانته[3] ، ويامن لمشوق لم تقض من طول خلتك لُبانته[4] ، وأهلا برَوْض أظلت أشتات معارفك بانَتَه ، فحمائمه بعدك تندب ، فيساعدها الجُنْدُب ، ونوَاسِمه ترق فتتغاشى ،

---

(١) تغمد : ستر وغطى

(٢) البنان : الأنامل وهى الأصابع ، والمزن ـ بالضم ـ المطر ، شبه أصابعهم بالمطر

(٣) الجمانة ـ بضم الجيم ـ الدرة (٤) اللبانة ـ بضم اللام ـ الحاجة والوطر

وعشياته تتخافت وتتلاشى ، ومزْنُه باكٍ ، ودَوْحُه فى مأتم ذى اشتباك ، كأن لم تكن قمرَ هالاتِ قبابه ، ولم يك أنسُك شارعَ بابه ، إلى صفوة الظرف ولُبَابه ، ولم يسبح إنسانُ عينك فى ماء شبابه ، فلهفى عليك من درة اختلسَتْهَا يدُ النوى ، وَمَطل بردِّها الدهر ولَوَى ، ونعَق الغرابُ ببينها فى ربوع الجوَى ، ونطق بالزخرف فما نطق عن الهوى ، وبأى شىء نعتاض منك أيتها الرياض ، بعد أن طمى نهرك الفياض ، وفهقَتْ الحياض ؟ ولا كان الشانىء المشنوء ، والجرب المهنوء ، مِنْ قِطع ليلٍ أغار على الصبح فاحتمل ، وشارك فى الذم الناقةَ والجمل ، واستأثر جنحه ببدر النادى لما كمل ، نشر الشراع فرَاع ، وأعمل الإسراع ، كأنما هو تمساح النيل ضايق الأحباب فى البرهة ، واختطف لهم من الشط نزهة العين وعين النزهة ، ولَجَّجَ بها والعيون تنظر ، والغمر على الأتباع يخطر ، فلم يقدر إلا على الأسف ، والأثر المنشف ، والرجوع بملء العَيْبَة ، من الخيبة ، ووقْر الجَسْرة ، من الحَسْرَة ، وإنما أشكو إلى الله البث والحزن ، ونستمطر من عبارتنا المُزْن ، وبسيف الرجاء نَصُول ، إذا شُرِعت لليأس النصول :

ما أقدر الله أن يُدْنى على شحَط　　مَنْ دارُه الحَزْنُ ممن داره صُولُ

فإن كان كَلْم الفراق رغيبا[1] ، لما نويت مَغيبا ، وجللت الوقت الهنىء تشغيبا ، فلعل الملتقى يكون قريبا ، وحديثه يروى صحيحا غريبا ، إيهِ ثقة النفس كيف حال تلك الشمائل ، المزهرة الخمائل ؟ والشيم ، الهامية الديم ، هل يمر ببالها مَنْ راعت[2] بالبعد بَالَه ، وأخمدت بعاصف البين[3] ذُبَالَه ، أوترثى لشؤن شأنها سَكْبٌ لا يفتر ، وشوق يبتُّ جلال الصبر ويبتر ، وضَنًى تقصر عن حلله الفاقعة صنعاء وتستر ، والأمر أعظم والله يستر ، وما الذى يضيرك ؟ صِينَ من لفح السَّموم نضيرك ! بعد

(١) الكلم – بالفتح – الجرح ، ورغيبا : أى واسعا .

(٢) راعت : أخافت　(٣) أخمدت : أطفأت ، والذبال – كغراب – فتيلة السراج

أن أضرمْتَ وأشعلت ، وأوقدت وجعلت ، وفعلت فعلتك التى فعلت ، أن تترفق بذَمَاء،أوترد بنُغْبَةٍ[١] ما ، أرماقَ ظِما ، وتتعاهدالمعاهد بتحية يشم منهاشذا أنفاسك ، أو تنظر إلينا على البعد بُمقلة حَوْراء من سواد أنقاسك ، و بياض قرطاسك ، فربما قنعت الأنفسُ المحبة بخيال زور ، وتعللت بنوال منزور ، ورضيت لما لم تَصِدِ العنقاء بزرزور .

يا من ترحَّلَ والنسيمُ لأجـله تشتاق إن هبت شذى رَيَّاها

تحيي النفوس إذا بعثت تحيـة فإذا عزمت اقرأ ومن أحياها

ولئن أحييت بها فيما سلف نفوسا تفديك ، والله تعالى إلى الخير يهديك ، فنحن نقول معشر مريديك : ثَنِّ ولا تجعلها بيضة الديك ، وعذراً فإنى لم أجْتَرِ على خطابك بالفقر الفقيره ، وأدللت لدى حجراتك برفع العقيره ، لا عن نَشَاط بعثت مَرْمُوسَه ، ولا اغتباط بالأدب تغرى بسياسته سُوسَه ، وانبساط أوحى إلى على الفترة ناموسَه ، و إنما هواتفاق جرته نفثة المَصْدور ، وهَنَاء الجرِب المجدور ، وخارق لا مخارق ، فثم قياس فارق ، أو لحن غنى به بعد الممات مفارق ، والذى سَبَّبه ، وسوّغ منه المكروه وحَبَّبه ، ما اقتضاه الصنو يحيي مد الله تعالى حياته ، وحَرَس من الحوادث ذاته ! من خطاب ارتشف به لهذه القريحة بلالتها ، بعد أن رضى عُلاَلتها ، ورشح إلى الصِّهر الحضرمى سلالتها ، فلم يسع إلا إسعافُه ، بما أعافُه ، فأمليت مُجيبا ، مالا يعد فى يوم الرهان نجيبا ، وأسمعت وَجيبا ، لما ساجلت هـذه الترهاتُ سحرا عجيبا ، حتى ألِفَ القلمُ العريان سَبْحَه ، وجمح برذون الغرَارة فلم أطِقْ كَبْحَه[٢] ، لم أفق من غَمرة علوّه ، وموقف متلوّه ، إلا وقد تحيز إلى فئتك معتزابل معترا ، واستقبلها ضاحكا مُفْتَرا ، وهش لها برا ، و إن كان لونه من الوَجَل

---

(١) النغبة — بالفتح ويضم — الجرعة من الماء ، ووقع فى ب « بنفية » محرفا عما أثبت ، و « ما » أراد ماء ، والأرماق : جمع رمق ، وظما : جمع ظمآن ، وأصله ظماء فحذف الهمزة كما حذفها من الكلمة السابقة ، وكما حذفها من قوله « بذما » وأصله ذماء ، وهو بزنة السحاب (٢) فى ب « وجمح برذون الغزارة فلم أطق كبحه »

مُصْفرا ، وليس بأوّل من هجر ، فى التماس الوصل ممن هَجَر ، أو بعث التمر إلى هَجَر[(١)] ، وأى نسب بينى اليوم و بين زخرف الـكلام ، و إجالة جياد الأقلام ، فى محاورة الأعلام؟ بعد أن حال الجَرِيض ، دون القريض[(٢)] ، وشغل المريض ، عن التعريض ، واستولى الـكسَل ، ونسلت الشعرات البيض كأنها الأسَل ، تروع بمرط الحيات ، سِرْبَ الحياة ، وتطرق بذوات الغرر والشِّيات ، عند البيات ، والشيب الموت العاجل ، و إذا ابيض زَرْع صبحته المناجل ، والمعتبر الآجل ، و إذا اشتغل الشيخ بغير مَعاده ، حكم فى الظاهر بإبعاده ، وأسره فى ملـكة عاده ، فأغض أبقاك الله واسمح ، لمن قَصَّر عن المَطْمح ، و بالعين الـكليلة فالمح ، واغتنم لِباسَ ثوب الثواب ، واشْفِ بعض الجوى بالجواب ، تولاك الله تعالى فيما استضفت وملـكت ، ولا بعدت ولا هلـكت ، وكان لك أيةً سلـكت ، ووَسَمك من السعادة بأوضح السِّمات ، وأتاح لقاءك من قبل الممات ، والسلام الـكريم يعتمد جلال ولدى ، وساكن خَلَدى ، بل أخى و إن عتبته وسيدى ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

قلت : هـذه الرسالة الرافلة فى حلل البلاغة لم أر مثلها ولم أقف عليه ، فرحم الله تعالى لسان الدين ووجه سحائب الرحمة إليه ! فلقد كان آيةَ الله فى النظم والنثر وجميع العلوم على اختلافها .

من إنشائه إلى أبى زكريا ابن خلدون

وكما خاطب الولى ابن خلدون خاطب أخاه أبا زكريا يحيى حسبما قال فى بعض كتبه : ومما خاطبت به الفقيه أبا زكريا بن خلدون ، لما ولى الـكتابة عن السلطان أبى حمو سلطان تلمسان من بنى زيان واقترن بذلك نصر وصنع غبطته به وأشدتُ به قصد تنفيقه و إنهاضه لديه : نخص الحبيب الذى هو فى الاستظهار به أخ

---

(١) هجر : بلد مشهور بكثرة التمر ، ويقولون « كناقل التمر إلى هجر » يريدون كمن ينقل الشىء لمن لا يحتاج إليه لـكثرته عنده .

(٢) هذا من قول عبيد بن الأبرص وقدم على الملك النعمان فى يوم بؤسه فأراد قتله ؛ والجريض : الغصة ، والقريض: الشعر.

وفى الشفقه عليه وَلَد ، والولى الذى ما بعد قرب مثله أمل ولا على بُعْده جَلَد ، والفاضل الذى لا يخالف فى فضله ساكن ولا بلد ، أبقاه الله تعالى وفاز فوزه وعصمته لها من توفيق الله سبحانه عمد ، ومورد سعادته المسوغ لعادته لا غَور ولا ثمد ، ومدى إمداده من خزائن إلهام الله تعالى وسداده ليس له أمد ، وحَمَى فرح قلبه بمواهب من ربه أن يطرقه كمد .

تحية مُحِله ، من صميم قلبه بمحله ، المنشى رواق الشفقة ، مرفوعا بعمد المحبة والمِقَة(١) ، فوق ظعنه وحله ، مؤثره ومُجِله ، المعتنى بدقِّ أمره(٢) وجِلِّه ، ابن الخطيب ، من الحضرة الجهادية غَرْنَاطة ، صان الله تعالى خلالها ، ووقى هجير هجر الغيوم ظلالها ! وعمر بأسُود الله تعالى أغيالها ، كما أغرى بمَن كفر بالله تعالى صيالها ! . ولا زائد إلا منن من الله تعالى تَصُوب ، وقوة يسترد بها المغصوب ، ويخفض الصليب المنصوب ، والحمد لله تعالى الذى بحمده ينال المطلوب ، وبذكره تطمئن القلوب ومودتكم المودة التى غذتها ثُدِىُّ الخلوص بلبانها ، وأحلتها حلائل المحافظة بين أعينها وأجفانها ، ومهدت موات أخواتها الكبرى أساس بنيانها ، واستحقت ميراثها مع استصحاب حال الحياة إن شاء الله تعالى واتصال زمانها ، واقتضاء عهود الأيام بيمنها وأمانها ، ولله در القائل(٣) :

فإن لم يكُنْها أو تَكُنْه فإنه أخُوهَا غَذَتْه أمُّهُ بلبانها

وصل الله تعالى ذلك من أجله وفى ذاته ، وجعله وسيلة إلى مرضاته ، وقربة تنفع عند اعتبار ما روعى من سنن الجبار ومفترضاته ، وقد وصل كتابكم الذى فاتح بالريحان [و] الرَّوْح ، وحلَّ من مرسوم الولاء محل البَسْملة من اللوح ، وأذن لنوافح الثناء بالبوح ، يشهد عدله بأنَّ البيان يا آل خلدون سكن من مثواكم دارَ خلود ،

(١) المقة : المحبة ، ومقه يمقه مقة ، مثل وصفه يصفه صفة .

(٢) دقه : أى دقيقه ، وجله : أى جليله ، وأراد قليله وكثيره وصغيره وكبيره .

(٣) البيت لأبى الأسود الدؤلى رضى الله عنه ، وقبله قوله :

دع الخمر يشربها الغواة فإننى رأيت أخاها مجزئا بمكانها

وقدح زندا غير صَلود ، واستأثر من محابركم السيالة ، وقُضُب أقلامكم الميادة الميالة ، بأبٍ مُنْجب وأم ولود ، يقفو شانيه غير المشنوّ ، وفصيله غير الجَرِب ولا المهنوّ ، من الخطاب السلطانى سفينة مُنُوح [١] ، إن لم نقل سفينة نوح ، ما شئت من آل أزواج ، وزُمَر [٢] من الفضل وأفواج ، وأمواج كرم تطفو فوق أمواج ، وفنون بشائر ، وإهطاع [٣] قبائل وعشائر ، وضرب للمسرات أعيا الشائر ، فلله هو من قلم راعى نَسَبَ القنا فوصل الرحم ، وأنجد الوشيج والملتحم ، وساق بعصاه من البيان الذودَ المزدحم ، وأخاف من شَذَّ عن الطاعة مع الاستطاعة فقال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، ولو لم يوجب الحق بَرْقه ورعده ، ووعيده ووعده ، لأوجبه يمنه وسعده ، فلقد ظهرت مَخَايل نُجْحه ، علاوة على نصحه ، ووضحت محاسن صُبْحه ، فى وحشة الموقف الصعب وقبحه ، وصل الله تعالى له عوائد منحه ! وجعله إقليدا كلما استقبل باب أمل وكله الله تعالى بفَتْحه !

أما ما قرره ولاؤكم من حب زكا على حبة القلب حبه ، وأنبته النباتَ الحسنَ ربُّه ، وساعده من الغمام سَكْبه ، ومن النسيم اللدْن [٤] مَهَبُّه ، فرسم ثبت عند المولى نظيره ، ومن غير معارض يَضِيره [٥] ، وربما أربى بتذييل مزيد ، وشهادة ثابت ويزيد ، ولم لا يكون ذلك ، وللقلب على القلب شاهد ؟ وكونُها أجنادا مُجَنَّدة [٦] لا يحتاج تقريره إلى ماهد ، أو جَهْد جاهد ، ومودة الأخوة سبيلها لا حب ، ودليلُها للدعوة الصادقة مصاحب ، إلى ما سبق من فضل ولقاء ، ونظافة سقاء ، واعتقاد ، لا يُرَاع سِرْبُه بذئب انتقاد ، واجتلاء شهاب وقاد ، لا يحوج إلى إيقاد ، إنما عاق عن مُواصلة ذلك نوًى شَطَّ منها الشطَن ، وتشذيب لم يتعين معه الوطن ، فلما تعين ، وكاد الصبحُ أن يتبين ، عاد الوَمِيضُ دَيْجُورا ، والثماد بحرا مسجورا ،

---

(١) المنوح : جمع منح ، وهو الإعطاء (٢) الزمر : الجماعات ، واحدها زمرة
(٣) إهطاع : إسراع (٤) اللدن — بالفتح — اللين (٥) يضيره : يضره
(٦) إشارة إلى ما فى حديث « الأرواح جنود مجندة ، ماتعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »

إلى أن أعلق الله تعالى منكم اليدَ بالسبب الوثيق [١]، وأحلكم مَنْجَى نِيق [٢]، لا يخاف من منجنيق ، وجعل يراعكم لسعادة موسى معجزة تأتى على الخبر بالعِيان ، فتخرّ لثعبانها سَحَرَة البيان :

أيحيى سقى حيثُ كُنْتَ الحيا ... فنعم الشعاب ونعم الركون
وحيا يراعك من آية ... فقد حرّك القوم بعد السكون
دعوت لخدمة مُوسَى عصاه ... فجاءت تَلَقَّفُ ما يأفكون
فأذعن من يَدَّعى السحر رغمًا ... وأسلم من أجلها المشركون
وساعدك السعد فيما أردت ... فكان كما ينبغى أن يكون

فأنتم أولى الأصدقاء بصِلَة السبب ، ورَعْى الوسائل والقرُب ، أبقاكم الله تعالى وأيدى الغبطة بكم عالية ، وأحوال تلكم الجهات بدرككم المهمات حالية ، ودِيَمُ المسرات من إنعامكم المدرّات على معهود المبرات متوالية !

وأما ما تشوّفتم إليه من حال وليكم فأمل متقلص الظل ، وارتقابٌ لهجوم جيش الأجل المطل ، ومُقام على مساورة الصِّل ، وعمل يكذب الدعوى ، وطمأنينة تنتظر الغارة الشعْوا ، ويد بالمدخور تفتتح ، وأخرى تجهد وتمتنح ، ومرض يزور فيثقل ، وضعف عن الواجب يعقل [٣]، إلا أن اللطائف تستروح ، والقلب من باب الرجاء لا يبرح ، وربما ظفر البائس ، ولم تطرد المقائس ، تداركنا الله تعالى بعفوه ! وأوردنا من منهل الرضا والقبول على صفوه ! وأذن لهذا الخرق فى رَفْوِه !

وأما ما طلبتم من انتساخ ديوان ، و إعمال بنان فى الإتحاف ببيان ، فتلك عهود لدىَّ مهجورة ، ومعاهد لا مُتَعَهدة ولا مَزُورة ، شغل عن ذلك خوض يعلو لجبه ، وحرص يقضى من لغط المائح عجبه ، وهول جهاد تساوى جُمَادَيَاهُ وَرَجَبُه ، فلولا

---

(١) السبب الوثيق : القوى المتين الذى لا ينقطع

(٢) منجى : اسم مكان من « نجا ينجو » والنيق — بكسر النون — أعلى موضع فى الجبل (٣) يعقل : يمنع ويحجب ، وسمى العقل عقلا لأنه يمنع صاحبه

التماس أجر، وتعلّل بربح تَجْر، لقلت : أهلا بذات النحيين [١] ، فلئن شكت، وبذلت المَصُون بسبب ما أمسكت ، فلقد ضحكت فى الباطن ضعف ما بكت ، ونستغفر الله تعالى من سوء انتحال ، وإيثار المزاح بكل حال ، وما الذى ينتظر مثلى ممن عرف المآخذ والمتارك ، وجَرَّب لما بَلاَ المبارك ، وخبر مساءة الدنيا الفارك ؟

هذا أيها الحبيبُ ما وسعه الوقت الضيق ، وقد ذهب الشباب الرَّيِّق [٢] ، فليسمح فيه معهود كمالك ، جعل الله تعالى مطاوعة آمالك ، مطاوعة يمينك لشمالك ! ووطأ لك موطأ العز بباب كل مالك ! وقرن النجح بأعمالك ! وحفظك فى نفسك وأهلك ومالك ! والسلام ، انتهى .

من إنشائه يخاطب أبا القاسم بن رضوان

ومن مخاطبات لسان الدين لصاحبه العلامة أبى القاسم بن رضوان :

قد كنت أجْهِدُ فى التماس صنيعة ... نفساً شهابُ ذكائها وقادُ

وأقولُ لو كان المخاطب غيركم ... عند الشدائد تذهب الأحقاد

سيدى ـ أبقاكم الله تعالى عَلَمَ فضل وإنصاف ، ومجموع كمال أوصاف ! ـ كلام قصير ، والله تعالى بحسنات الأقوال والأفعال بصير ، وإليه بعد هذا الخباط كله المرجع والمصير ، وليس لنا إلا مولًى ونصير ، وهذا الرجل سيدى الخطيبُ أبو عبد الله بن مرزوق ـ جبره الله تعالى ! ـ بالأمس كنا نقف ببابه ، ونتمسك بأسبابه ، ونتوسل إلى الدنيا به ، فإن كنا قد عرفنا خيراً وجبت المشاركة ، أو كفافا تعينت المتاركة ، أو شرا اهتبلت غرة الهدى الأنفس المباركة ، واتصفت بصفة من يعصى فيسمح ، ويسأل فيمنح ، ويعود إلى القبح بالفعل الجميل ، ويجيبُ يَدَ التأميل ، ومع هذا فلم نَدْرِ إلا خيراً كَرُمَ منه المورد والمصرف ، ومن عرف حجة على من لا يعرف ، وأنتم فى الوقت سراج علم لا يخبو سَنَاه ، ومجموع تحف عرفنا منه

---

(١) ذات النحيين ، امرأة يضرب بها المثل فى كثرة العوائق فيقال «أشغل من ذات النحيين» ولها قصة مشهورة أشار بعبارته إليها

(٢) ريق الشباب — بفتح الراء وتشديد الياء مكسورة — أوله

ما عرفناه ، وهذه هى الشهرة التى تغتنم إذا سفرت ، والهنة التى تُجْبَر عليها النفسُ إذا نفرت ، حتى لا تجد بعون الله تعالى عارضاً يَعُوقها عن الخير ، وسبيل الكمال الأخير ، والأجر فى استيفاء كتاب الشفاعة ، وتحرِّى[1] المقاصد النفاعة ، وتنفيق البضاعة[2] ، قد ضمنه مَنْ وَعَد بقيام الساعة ، والجزاء على الطاعة وغير الطاعة ، وهذه المشاركة تسجيل لفضلكم قِبَلِي ، وهى فى الحقيقة لى ، فكيف والله تعالى يرى عملكم وعملى ، والمتروك حقير ، والوجود إلى رحمة من رحمات الله تعالى فقير ، والسلام ، انتهى .

من كلامه يخاطب المبارك ابن إبراهيم

ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى قوله فى مخاطبة شيخ العرب مبارك بن إبراهيم رحمه الله تعالى :

ساحات دارك للضياف مَبَارِكُ ... و بضوء نار قراك يهدى السالك
ونوالك المبذول قد شمل الورى ... طرا ، وفضلك ليس فيه مشارك
قل للذى قال الوجود قد انطوى ... والبأس ليس له حسام فاتك
والجود ليس له غمام هاطل ... والمجد ليس له همام باتك[3]
جمع الشجاعة والرجاحة والندى ... والبأس والرأى الأصيل مُبَارَكُ
للدين والدنيا وللشيم العلا ... والجود إن شح الغمام السافك
عند الهياج ربيعة بن مُكَدَّم ... فى الفضل والتقوى الفُضَيل ومالك
ورث الجلالة عن أبيه وجده ... فكأنهم ما غاب منهم هالك
فجياده للآملين مراكب ... وخيامه للقاصدين أرائك
فإذا المعالى أصبحت مملوكة ... أعناقها بالحق فهو المالك
يا فارسَ العرب الذى من بيته ... حرم لها حج به ومناسك

(١) تحرى المقاصد : توخيها (٢) تنفيق البضاعة : ترويجها
(٣) همام باتك : قاطع ، يفصل الأمور فلا يبقى . بتك يبتك — من بابى ضرب ونصر — قطع يقطع

يا من يبشر باسمه قصاده فلهم إليه مسارب ومسالك
أنت الذى استأثرت فيك بغبطتى وسواك فيه مآخذ ومتارك
لا زلت نوراً يهتدى بضيائه مَن ْ جَنَّهُ للروع ليل حالك
ويخص مجدك من سلامى عاطر كالمسك صاك به الغوالى صائك

الحمد لله تعالى الذى جعل بيتك شَهيراً ، وجعلك للعرب أميراً ، وجعل اسمك فالا ، ووجهك جمالا ، وقرّبك جاهاً ومالا ، وآلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لك آلا ، أسلم عليك يا أمير العرب وابنَ أمرائها ، وقُطْبَ سيادتها وكبرائها ، وأهنيك بما منحك الله تعالى من شهرة تبقى ، ومكرمة لايضلُّ المتصف بها ولايشقى ، إذ جعل خيمتك فى هذا المغرب على اتساعه ، واختلاف أشياعه ، مأمَناً للخائف ، على قياس المذاهب والطوائف ، وصَرَف الألسنة إلى مدحك ، والقلوبَ إلى حبك ، وما ذلك إلا لسريرة لك عند ربك ، ولقد كنت أيام تجمعنى وإياك المجالس السلطانية على معرفتك متهالكا ، وطوع الأمل سالكا ، لمايلوح[1] لى على وجهك من سيما المجد[2] والحياء ، والشيم[3] الدالة على العلياء ، وزكاء الأصول وكرم الآباء ، وكان والدى ـ رحمه الله تعالى ! ـ قد عين للقاء خال السلطان قريبكم لما توجه فى الرسالة إلى الأندلس نائباً فى تأنيسه عن مخدومه ، ومنوّها حيث حلّ بقدومه ، واتصلت بعد ذلك بينهما المُهَاداة والمعرفة ، والوسائل المختلفة ، فعظُم لأجل هذه الوسائل شوقى إلى التشرف لزيارة ذلك الجناب الذى حُلوله شرف وفخر ، ومعرفته كنز وذُخْر ، فلما ظهر الآن لمحل الأخ الكذا القائد فلان اللحاقُ بك ، والتعلق بسببك ، رأيت أنه قد اتصل بهذا الغرض المؤمل بعضى والله تعالى ييسر فى البعض ، عند تقرير الأمن وهدنة الأرض ، وهذا الفاضل بركة حيث حل

---

(١) يلوح : يبدو ويظهر (٢) سيما المجد : علامته
(٣) الشيم : جمع شيمة ، وهى الخصلة

لكونه من بيت أصالة وجهاد ، وماجداً وابن أمجاد ، ومثلك لا يوصى بحسن جواره ولا يُنَبه على إيثاره ، وقبيلك فى الحديث من العرب والقديم ، وهو الذى أوجب لها مزيَّةَ التقديم ، لم يفتخر قط بذهب يجمع ، ولا ذخر يرفع ، ولا قصر يبنى ، ولا غَرْس يجنى ، إنما فخرها عدوّ يُغْلَب ، وثناء يجلب ، وجُزُر(١) تنحر ، وحديث يذكر ، وجود على الفاقة ، وسماحة بحسب الطاقة ، فلقد ذهب الذهب ، وفنى النَّشب ، وتمزقت الأثواب ، وهلكت الخيل العِرَاب ، وكل الذى فوق التراب تراب ، وبقيت المحاسن تروى وتنقل ، والأعراض تجلى وتُصْقل ، ولله در الشاعر إذ يقول :

وإنما المرء حديثٌ بعده فكن حديثاً حسنا لمن وعى(٢)

هذه مقدمة إن يسر الله تعالى بعدها لقاء الأمير ، فيجلى اللسان عما فى الضمير :

ومدحى على الأملاك مدح ، وإنما رأيتك منها فامتدحت على وسمى

وما كنت بالمهدى لغيرك مدحتى ولو أنه قد حل فى مفرق النجم

من إنشائه يخاطب شيخه ابن مرزوق

ومن ذلك ما خاطب به شيخه الخطيب سيدى أبا عبد الله بن مرزوق ، وهو :

راش زمانى وبَرَى نبله فكنت لى من وقعها جُنَّه

ولو قهرت الموت أمنتنى منه وأدخلتنى الجنة

فكيف لا أنشرها منة قد عرفتها الإنس والجِنَّة

بماذا أخاطب به تلك الجلالة ، فيتيسر الخطاب وتحصل الدَّلالة ، أبسيدى ويشركنى فيه ، من قال لا إله إلا الله بفيه ؟ أو بروح حياتى ، وماهية ذاتى ، وذخرى الكبير الكثير ، لابل فلكى الأثير ، وهو تضييق على الولد والأهل ، وتعدى المراتب المحدودة من الجهل ، فلم يبق إلا الإشارة الخارجة عن وظائف اللسان ، وهى بعض دلالات الإنسان ، أفدت الإكسير ، وجبرت الكسير ، ورويت يا أبا العلا

---

(١) الجزر : جمع جزور ، وهو ماينحر من الإبل ، ويقع على الجمل والناقة ، وقيل : خاص بالناقة (٢) البيت من مقصورة ابن دريد إمام اللغة

التيسير ، وغمرت بالكرم وأمن حمام الحرم الظعن والمسير ، فمن رام شكر بعض أياديك فلقد شد حقائب الرحال ، إلى نيل المحال ، والحق أن نَكِلَ جزاكَ ، لمن جعل إلى المجد اعتزاكَ(١) ، ونولى شكرك وثناك ، إلى مَنْ عمر بما يرضيه من الرفق بالخلق و إقامة الحق إناكَ ، وندعو منك بالبقاء إلى الروض المَجُود(٢) ، وغمام الجود ، و إمام الركع السجود ، لا بل لنور الله تعالى المشرق على التهائم والنُّجود ، ورحمته المبثوثة أثناء هذا الوجود .

وليعلم سيدى أن النفس طماعة جماعة ، وسراب آمالها بحارُه لماعة ، فلا تفيق من كد(٣) ، ولا تقف عند حد ، سيما إذا لم يهذبها السلوك والتجريد ، ولم يَسِرْ منها فى عالم الغيب البريد ، ولا تجلت لها السعادة التى يجذب بها المراد و يشمرلها المريد ، إلى أن يتأتى عما دون الحق المَجيد ، و يصح التوحيد ، وقد مثلت الآن خصما ، يوسِعُ ظهر استظهارى بالتسليم قَصْما ، و يقول : المال عديلى عند القيمة ، وطبيبى فى الأحوال السقيمة ، وهو نتيجة كدّى عند الأقيسة العقيمة ، ومن استخلصنى على شرفى إذا تفاضلت الجواهر ، وتبينت للحق المظاهر ، وتعينت المراتب التى يقتعدها على رأى البراهمة النور الاصفهندى والنور القاهر ، فخلاصُ المال طَوْعُ يديه ، وهو كما قال الله تعالى أهْوَنُ عليه ، فألاطفها ، حتى تلين مَعاطفها ، وأخادعها ، حتى تلوى أخادعها ، وأقول قد وقع الوعد ، وأشرق السعد ، ولان الجعد ، وسكن الرعد ، ولله تعالى الأمر من قبلُ ومن بعد ، فتجيبنى : العمر المنام ، وأيام الجاه والقدرة قد يحق لها الاغتنام ، وهمُّ العاقل إلى وقته الحاضر مصروف ، و إذا لم يغير حائط مثل معروف ، وفى الوقت زبون يرجى به استخلاصُ الحقوق ، و يستبعد وقوع العقوق ، فإن رأى مولاى أن يُشْفِع المنة ، و يقرع بابا ثانيا من أبواب الجنة ، قبل أن

---

(١) اعتزاك : انتسابك وانتماءك ، وأصله « اعتزاؤك » كما أن أصل جزاك « جزاؤك » فحذف الهمزة من كل منها

(٢) المجود : الذى جاده المطر ، أى همل عليه (٣) الكد : التعب والجد

يشغل شاغل ، أو يكدّر الأكلَ والشربَ وَاشٍ أو واغل ، أو يثوب للمتعدى نظر فى اللجاج ، أو يدس له ما يحمله على الاحتجاج ، أو متسع مَنَاطها ، فسيح استنباطها ، كثير هياطها ومياطها ، فهو تمام صنيعته التى لم ينسج على منوالها الأحرار ، ولا اهتدت إلى حسنتها الأبرار ، ولا عرف بدر مجدها السَّرار ، فإليه كان الفرار ، ولله تعالى ثم له خلص الاضطرار ، و يستقر تحت دخيله القَرَار ، وتطمئن الدار ، فإنَّ ما ابتدأ به من عز ضرب على الأيدى العادية منه حكم الحكام ، وفارع الهِضاب والآكام ، على ملأ ومجمع ، وبمرأى من الخلق ومَسْمع ، يقتضى اطِّراد قياس العزة القعساء ، وسعادة الإصباح والإمساء ، وظهور درجات الرجال على النساء ، فهو جاهٌ حارت فيه الأوهام وهذه أذياله ، ومن ركب حقيقةَ أمرها هَانَ عليه خياله ، والمال ماله ، والعيال عياله ، والوجود سريع زيَالُه ، والجزاء عند الله تعالى مكياله ، وعروض المغصوب باقية الأعيان ، مستقلة الشجر قائمة البنيان ، تمنع عن شرائها قاعدة الأديان ، وغيرها من مكيل وموزون ، بين مأكول ومخزون ، والكتب مُلْقَاة بالقاع ، مطروحة بأخبث البقاع ، فإن تأتى الجَبْر ، وإلا فالصَّبْر ، على أن وعد عمادى لا يفارق الإنجاز ، ومكرمته التى طوّقها قد بلغت الشام والحجاز ، وحقيقة التزامه تباين المجاز ، وآية مجده تستصحب الإعجاز ، ولله در إبراهيم بن المهدى[1] يخاطب المأمون ، لما أكذب فى العفو عنه الظنون :

وهَبْتَ مالى ولم تبخل علىَّ به وقبل ذلك ما إن قد وهبت دمى

وقد كانت هذه المنقبة غريبة فعزتها بأختها الكبرى ، وفريدةً فجئت بأخرى ، وشفعت وِتْرا ، أبقاك الله تعالى لتخليد المناقب ، وإعلاء المراتب ! وجعل أخمص نعلك تاجا للنجم الثاقب ! وتكفل لك فى النفس والولد بحسن العواقب .

---

(١) إبراهيم بن المهدى بن أبى جعفر المنصور العباسى ، عم المأمون أمير المؤمنين ، كان قد خرج على المأمون وشايعه قوم من العباسيين حين جعل المأمون ولى عهده على بن موسى الرضا فشق ذلك على العباسيين وعظم عندهم أن يخرج الأمر إلى العلويين ، وتوفى إبراهيم فى سنة ٢٢٤ من الهجرة (انظر الترجمة رقم ٨ فى وفيات الأعيان ١/١٩ بتحقيقنا) .

آمين آمين لاأرضى بواحـــدة حتى أضيف إليها ألف آمينا

وأما تنبيه سيدى على إنشاء رزق ، وتقرير رفد ورفق ، فلا أنبه حاتما وكعبا ، أن يملأ قعبا ، لمن خاض بحرا أو ركب صعبا ، هذا أمر كفانيه الكافى ، وداء لوَخْزِ الأشافى ، أذهبه الشافى ، والسلام ، انتهى .

ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى على لسان السلطان قوله :

من إنشائه على لسان سلطانه

هذا ظهير كريم ، مُتَضَمَّنه استجلاء لأمور الرعية واستطلاع ، ورعاية كرمت منها أجناس وأنواع ، وعدل بَهَر منه شعاع ، ووصايا يجب لها إهطاع ، أصدرناه للفقيه فلان لما تقرر لدينا دينه وعدله وفضله ، رأينا أنه أحَقّ مَنْ نقلده الأمر الأكيد ، ونرمى به من أغراض البر الغرضَ البعيد ، ونستكشف به أحوالَ الرعايا حتى لا يغيب عنا شىء من أحوالها ، ولا يتطرق إليها طارق من أهوالها ، وينهى إلينا الحوادث[1] التى تنشأ فيها إنهاء يتكفل بحياطة أبشارها وأموالها .

وأمرناه أن يتوجه إلى جهة كذا حاطها الله تعالى فيجمع الناس فى مساجدهم ، ويندبهم من مشاهدهم ، ويبدأ بتقرير غرضنا فى صلاح أحوالهم ، وإحساب[2] أموالهم ، ومكابدتنا المشقة فى مداراة عدوّهم الذى نعلم من أحواله ما غاب عنهم دفعه الله تعالى بقدرته ، ووَقَى نفوسهم وحريمهم من مَعَرَّته ، ولما رأينا من انبتات الأسباب التى تؤمل[3] ، وعجز الحيل التى كانت تعمل ، ويستدعى إنجادهم بالدعاء ، وإخلاصهم فيه إلى رب السماء ، ويسأل عن سيرة القوّاد ، وولاة الأحكام بالبلاد ، فمن نالته مظلمة فليرفعها إليه ، ويقصّها عليه ، ليبلغها إلينا ، ويوفدها مقررة الموجبات لدينا ، ويختبر ما افترض صدقةً للجبل ، وما فضل عن كريم ذلك العمل ، ليعين إلى بناء الحصن بجبل فارة يسر الله تعالى لهم فى إتمامه ، وجعل صدقتهم تلك مسكة ختامه ،

---

(١) ينهى إلينا الحوادث : يبلغها لنا ، وكأنه جعله نهاية ينتهى عندها خبر الحوادث

(٢) إحساب أموالهم : إنماؤها وزيادتها وتكثيرها

(٣) انبتات الأسباب : انقطاع الوسائل

وغيره مما افترض إعانةً للمسافرين ، و إنجادًا لجهاد الكافرين ، فيعلم مقداره ، و يتولى اختباره ، حتى لا يجعل منه شيء على ضعيف ، ولا يعدل به لمشروف عن شريف ، ولا تقع فيه مضايقة ذى الجاه ، ولا مُخادعة غير المراقب لله ، ومتى تَحَقق أن غنيا قُصِّر به عن حقه ، أوضعيفا كلف منه فوق طَوْقه ، فيجير الفقير من الغنى ، و يجرى من العدل على السنن السَّوِى(١)، و يعلم الناس أن هذه المعونة و إن كانت بالنسبة إلى محل ضرورتها يسيرة ، وأن الله تعالى يضاعفها لهم أضعافا كثيرة ، فليست مما يلزم ، ولا من المعاون التى بتكريرها يجزم ، و ينظر فى عهود التوفيق فيصرفها فى مصارفها المتبينة ، وطرقها الواضحة البينة .

و يتفقد المساجد تفقداً يكسو عاريها ، و يتمم منها المآرب تتميما يُرْضى باريها ، و يندب الناس إلى تعليم القرآن لصبيانهم ، فذلك أصل أديانهم ، ويحذرهم المغيب على كل شىء من أعشارهم ، فالزكاة أخت الصلاة وهما من قواعد الإسلام ، وقد اخترنا لهم بأقصى الجد والاعتزام ، ورفعنا عنهم رسم التعريف نظراً إليهم بعين الاهتمام ، وقدمنا الثقات لهذه الأحكام ، وجعلنا الخوض شرعيا فى هذا العام ، وفيما بعده إن شاء الله تعالى من الأعوام .

ومن أهم ما أسندناه إليه ، وعوّلنا فيه عليه ، البحث بتلك الأحواز عن أهل البدع والأهواء ، والسائرين من السبيل على غير السَّواء ، ومن ينبز(٢) بفساد العقد ، وتحريف القصد ، والتلبس بالصوفية وهو فى الباطن من أهل الفساد ، والذاهبين إلى الإباحة وتأويل المعاد ، والمؤلفين بين النساء والرجال ، والمتبعين لمذاهب الضلال ، فمهما عثر على مُطوّق بالتهمة(٣) ، منبز بشىء من ذلك من هذه الأمة ، فليشد ثقافه شدا ، ويسد عنه سبيل الخلاص سدا ، ويسترع فى شأنه الموجبات ، و يستوعب

(١) السنن السوى ـ بفتح السين والنون جميعا ـ الطريق الذى لا عوج فيه

(٢) ينبز : يلقب ، وذلك كان يقال له «ملحد» أو «زنديق»

(٣) مطوق بالتهمة : حرفيته أن التهمة صارت له كالطوق فى عنقه : والمراد من لزمته التهمة وثبتت عليه

الشهادات ، حتى ينظر فى حَسْم دائه[١] ، ويعاجل المرض بدوائه ، فليتولَّ ما ذكرنا نائباً بأحسن المناب ، ويقصد وجه الله تعالى راجيا منه جزيل الثواب ، ويعمل عملَ مَنْ لا يخاف فى الله لومة لائم ليجد ذلك فى موقف الحساب .

وعلى من يقف عليه من القوّاد والأشياخ والحكام أن يكونوا معه يداً واحدة على ما حررنا فى هذه الفصول ، من العمل المقبول ، والعدل المبذول ، ومن قصر عن غاية من غاياته ، أو خالف مقتضًى من مقتضياته ، فعقابه عقاب من عصى أمر الله وأمرنا فلا يلم إلا نفسه التى غرّته ، وإلى مصْرَع النكير جرّته ، والله تعالى المستعان ، انتهى .

من إنشائه عند قبر السلطان أبى الحسن المرينى

ومن ذلك ما خاطب به تربة السلطان الكبير أبى الحسن المرينى لما قصدها عقب ما شرع فى جواره وتوسل إلى أغراضه بذلك إلى ولده رحم الله تعالى الجميع :

السلام عليك ثم السلام ، أيها المولى الهمام ، الذى عرف فضله الإسلام ، وأوجبت حقه العلماء الأعلام ، وخفقت بعز نصره الأعلام ، وتنافست فى إنفاذ أمره ونهيه السيوفُ والأقلام . والسلام عليك أيها المولى الذى قسم زمانه بين حكم فَصْل ، وإمضاء نَصْل ، وإحراز خَصْل ، وعبادة قامت من اليقين على أصْل . السلام عليك يامقرر الصدقات الجارية ، ومُشْبع البطون الجائعة وكاسى الظهور العارية ، وقادح زناد العزائم الوارية[٢] ، ومُكَتِّب الكتائب[٣] الغازية ، فى سبيل الله تعالى والسرايا السارية . السلام عليك يا حجة الصبر والتسليم ، وملتقى أمر الله تعالى بالخلق المرضى والقلب السليم ، ومُفوض الأمر فى الشدائد إلى السميع العليم ، ومُعْمل البنان الطاهر فى اكتتاب الذكر الحكيم . كرّم الله تعالى تربتك وقدسها . وطيب روحك الزكية وآنسها . فلقد كنت للدهر جمالا ، وللاسلام ثمالا ، وللمستجير

---

(١) حسم دائه : استئصاله

(٢) قدح الزند : ضربه ليخرج منه النار ، ورى الزند يرى ـ مثل وقى يقى ، ومثل ولى يلى — أى أخرج النار

(٣) مكتب : مجمع ، والكتائب : جمع كتيبة ، وهى الجيش أو الفصيلة منه

مجيراً ، وللمظلوم ولياً ونصيرا ، لقد كنت للمحارب صدراً ، وفى المواكب بدراً ، وللمواهب بحراً ، وعلى العباد والبلاد ظلا ظليلا وسترا ، لقد فرَعَتْ أعلام عزك الثنايا[١] ، وأجزلت همتك لملوك الأرض الهدايا ، كأنك لم تعرض الجنود ، ولم تنشر البنود ، ولم تبسط العدل المحدود ، ولم توجد الجود ، ولم تزين الركع السجود ، فتوسدت الثرى ، وأطلت الكرى ، وشربت الكأس التى يشربها الورى ، وأصبحت ضارعَ الخد[٢] ، كليل الحد ، سالكا سَنَن الأب والجد ، لم تجد بعد انصرام أجلك ، إلا صالح عملك ، ولا أصبحت لقبرك ، إلا رابح تجرك ، وما أسلفت من رضاك وصبرك ، فنسأل الله تعالى أن يؤنس اغترابك ، ويَجُودَ بسحاب الرحمة ترابك ! وينفعك بصدق اليقين ! ويجعلك من الأئمة المتقين ! ويعلى درجتك فى عليين ! ويجعلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين .

وليَهنك أن صَيَّر الله تعالى ملكك من بعدك ، إلى نير سعدك ، وبارق رَعْدك ، ومنجز وعدك ، أرْضَى ولدك ، وريحانة خَلَدك ، وشقة نفسك ، والسَّرْحة المباركة من غَرْسك ، ونور شمسك ، وموصل عملك البر إلى رمسك ، فقد ظهر عليه أثر دعواتك ، فى خلواتك وأعقابَ صلواتك ، فكلمتك والمنة لله تعالى باقية ، وحسنتك إلى محل القبول راقية ، يرعى بك الوسيلة ، ويتمم مقاصدك الجميلة ، أعانه الله تعالى ببركة رضاك على ما قلده ، وعمر بتقواه يومَه وغده ، وأبعد فى السعد أمَدَه ، وأطلق بالخير يَدَه ، وجعل الملائكة أنصاره والأقدار عُدَدَه .

وإننى أيها المولى الكريم ، البر الرحيم ، لما اشترانى ، وراشنى وبرانى[٣] ، وتعبدنى بإحسانه ، واستعمل فى استخلاصى خط بنانه ، ووصية لسانه ، لم أجد مكافأة إلا التقرب إليك وإليه برثائك ، وإغراء لسانى بتخليد عَليائك ، وتعفير

---

(١) فرعت الثنايا : علتها وارتفعت فوقها ، والأعلام : الرايات ، والثنايا : جمع ثنية ، وهى الطريق الصاعد فى الجبل (٢) ضارع الخد : ذليله

(٣) أصل راش من قولهم « راش السهم » إذا ألزق به الريش ، ويراد منه قواه

الوَجْنة فى حرمك ، والإشادة بعد الممات بمجدك وكرمك ، ففتحت الباب فى هذا الغرض ، إلى القيام بحقك المفترض ، الذى لولاه لاتصلت الغفلة عن أدائه وتمادت(١) ، فما يبست الألسن ولا كادت ، متحيزا بالسبق ، إلى أداء هذا الحق ، بادئا بزيارة قبرك الذى هو رحلة الغرب مانويته(٢) من رحلة الشرق ، وما أعرضت عنه فأقطعه أثر مواقع الاستحسان ، وقد جمع بين الشكر والتنويه والإحسان ، والله سبحانه يجعله عملا مقبولا ، ويبلغ فيه من القبول مأمولا ، ويتغمد مَنْ ضاجعته من سلفك الكرام بالمغفرة الصَّيِّبة(٣) ، والتحيات الطيبة ، فنعم الملوك الكبار ، والخلفاء الأبرار ، والأئمة الأخيار ، الذين كرمت منهم السير وحسنت الأخبار ، وسعد بعزماتهم الجهادية المؤمنون وشقى الكفار ، وصلوات الله تعالى عَوْداً وبَدْأ على الرسول الذى اصطفاه واختاره فهو المصطفى المختار ، وعلى آله وأصحابه الذين هم السادة الأبرار ، وسلم تسليما ، انتهى .

من إنشائه يخاطب وزير بلاد المغرب

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : ومما خاطبت به الوزير المتغلب على الملك بالمغرب ما نصه .

لا ترجُ إلا الله فى شدة	وَثِقْ به فهْوَ الذى أيدك
حاشاك أن ترجُوَ إلا الذى	فى ظلمة الأحشاء قد أوجدك
فاشكره بالرحمة فى خلقه	ووجهك ابسط بالرضا أو يدك
والله لا تهمل ألطافه	قلادة الحق الذى قلدك
ما أسعد الملك الذى سُسْتَهُ	يا عمر العدل ، وما أسعدك !

نخص الوزير الذى بهر سعده ، وحمد فى المضاء قصده ، وعول على الشيم التى اقتضاها مجده ، وأورثه إياها أبوه وجده ، الوزير عمر الكذا ابن الشيخ الكذا ، أبقاه

---

(١) تمادت : يريد استمرت ولم تنقطع (٢) « مانويته » هو مفعول بادئا

(٣) صاب المطر يصوب فهو صيب ، إذا نزل وهطل ، وسموا المطر نفسه صيبا ، وفى التنزيل (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق)

الله تعالى ثابت القدم ، خافق العَلَم ، شهيرا حديثُ سعده فى الأمم ، مثلا خَبَرُ بسالته وجلالته فى العرب والعجم .

تحية معظم مجده الكبير ، المستند إلى عهده الوثيق وحَسَبه الشهير ، المسرور بماسَنَّاه[(١)] الله تعالى له من نُجْح التدبير ، والنصر العديم النظير ، و إنجاده إياه عند إسلام النصير[(٢)] ، وفراق القَبيل والعَشير ، ابن الخطيب ، واليدُ ممدودة إلى الله تعالى فى صِلَة سعد الوزير ــ أبقاه الله تعالى ! ــ ودوام عصمته ، واللسان يطنب و يسهب فى شكر نعمته ، والأمل متعلق بأسبابه الكريمة وأذِمَّته ، وقد كان شَيَّعه مع الشفقة التى أذابت الفؤاد ، وألزمت الأرق والسهاد ، على علم بأن عناية الله تعالى عليه عاكفة ، ودِيَم آلائه لديه واكفة[(٣)] ، فإن الذى أقدره وأيده ونصره ، وأنفذت مشيئته ما دبره ، كفيل بإمداده ، ومَلِىٌّ بإسعاده ، ومَرْجُوٌّ لإصلاح دنياه ومعاده ، وفى أثناء هذه الأراجيف استولى على معظم وزارته الجزع ، وتعاورته الأفكار تأخذ وتدَع ، فإنى كما يعلم الوزير أعزه الله تعالى منقطع الأسباب ، مستوحش من الجهة الأندلسية على بُعْد الجناب ، ومستعدًى على بكونى من المعدودين فيمن له من الخلصاء والأحباب ، فشرعت فى نظر أحْصُل منه على زوال اللَّبْس ، وأمان النفس ، واللحاق بمأمن يرعانى برعى الوزير ، بخلال ما يدبر الأمر مَنْ له التدبير ، ففى أثنائه ، وتمهيد أساس بنائه ، وَرَد البشير بماسَنَّاه[(١)] الله تعالى لسيدى وجابر كسرى ، ومنصفى بفضل الله تعالى من دهرى ، من الصنع الذى ظهر ، وراق نوره وبَهَر ، فأمنت و إن لم أكن ممن جَنَى ، وحفتنى المسرات بين فرادى وثُنَى ، وانشرح بفضل الله تعالى صدرى ، وزارتنى النعم والتهانى من حيث أدرى ولا أدرى ، ووجهت الولد الذى شملته نعمة الوزير و إحسانه ، وسبق إليه امتنانه ، نائبا عنى فى تقبيل يده ، وشكر

---

(١) سناه الله ــ بتشديد النون ــ يسره وسهله

(٢) تقول « أسلم فلانا أنصاره وقومه » تريد أنهم خذلوه وتركوه للعدو

(٣) الديم : جمع ديمة ــ بكسر الدال ــ وهى المطر الدائم ، ووا كفه : منهلة ، وكف المطر يكف ــ بوزن وصف يصف ــ انهل وانسكب

يده ، والوقوف ببابه ، والتمسك بأسبابه ، آثرته بذلك لأمور : منها المزاولة فيما كان يلزمنى من إخوته الأصاغر ، وتدريبه على خدمة الجلال الباهر ، وإفرادى له بالبركة ، ولعائق ضعف عن الحركة ، وبعد ذلك أشرع بفضل الله تعالى فى العمل على تجديد العهد بباب الوزارة العلية ، عارضاً من ثنائها ما يكون وفق الأمنيـة ، ورب عمل أغنى عنه فضل نية ، والسلام الكريم على سيدى ورحمة الله تعالى وبركاته .

من إنشائه إلى وزير المغرب أيضا

قال : وكتبت إليه أيضاً على أثر الفتح الذى تكيف له :

سيدى الذى أُسَرُّ بسعادته ، وظهور عناية الله تعالى به فى إبدائه وإعادته ، وأعلم كرم مَجَادته ، وأعترف بسيادته ، الوزير الميمون الطائر ، الجارى حديثُ سعده ومَضَائه مجرى المثل السائر ، أبقاه الله تعالى عزيز الأنصار ! جارية بيمن نَقيبته حركة الفَلَك الدوار ، معصوما من المكاره بعصمة الواحد القهار ، معظِّمُ سيادته الرفيعة الجانب ، وموقر وزارته الشهيرة المناسب ، الداعى إلى الله تعـالى بطول بقـائه فى عز واضح المذاهب ، وصنع واكف السحائب ، ابنُ الخطيب ، عن الذى يعلم سيدى من لسان طَلْق بالثناء ، ويد ممدودة إلى الله تعـالى بالدعاء ، والتماس لما يعـدُّ من جزيل النعماء ، والفتح الذى تفتح له أبواب السماء ، وقد اتصل ما سَنَّاه الله تعالى له من النصر والظهور ، والصنع البادى السفور ، لما التقى الجمعان ، وتهودت أكؤس الطِّعان ، وتبين الشجاع من الجبان ، وظهر من كرات سيدى وبسالته ما تحدث به ألسنة الركبان ، حتى كانت الطائلة[1] لحزبه ، وظهرت عليه عناية ربه ، فقلت : الحمد لله الذى جعل سعد عمادى متصل الآيات ، واضح الغرر والشِّيات[2] ، وقد كنت بعثت أهنئه بما تقدم من صنع جميل ، وبلوغ تأميل ، فقلت : اللهم أفد علينا التهانى تَتْرَى ، واجعل الكبرى من نعمتك السالفة بنعمتك

---

(١) الطائلة : النصر والإدالة

(٢) الغرر : جمع غرة ، وأصلها بياض فى جبهة الفرس ، والشيات : جمع شية ـ بوزن عدة وعدات وصفة وصفات ـ والشية : العلامة ، وشى الثوب يشبه وشيا وشية ، إذا طرزه وحسنه

الرادفة الخالفة هى الصغرى ، واجْمَعْ له بين نعم الدنيا والأخرى ، والناس - أبقى الله تعالى سيدى ! - لهم مع الاستناد إليك جهات ، وأمور مشتبهات ، إلا المحب المتشيع فجهتك هى التى آنست الغربة ، وفرجت الكربة ، ووعدت بالخير ، وضمنت عاقبة الضير[1] ، وأنا أرتقب ورود التعريف المولوى على عبيده بهذه المدينة واصَلَ الله تعالى لمباشرتها الهناء ! وقرت العين بمشاهدة الآلاء[2] ! والله عز وجل يديم سعادة سيدى ويطيل بقاءه ! ويرادف قِبلَه نعمه وآلاءه ، بفضله ، انتهى .

من إنشائه إلى وزير المغرب أيضا

وقال : ومما خاطبت به المذكور وأنا ساكن بسلا :

أيا عمر العدل الذى مَطَلَ المدى بوعد الهدى حتى وفيت بدَيْنه

ويا صارم الملك الذى يستعدُّه لدَفْع عداه أو لمجلس زينه

هَنَتْ عينكَ اليقظى من الله عصمةٌ كفت وجه دين الله موقع شينه

وهل أنت إلا الملك والدين والدنا ولا يلبس الحق المبين بمَيْنه

إذا نال منك العين طرفا فإنما أصيب به الإسلام فى عين عينه

الوزير الذى هو للدين الوزَر الواقى ، والعلَم السامى المراقب والمراقى ، والحلى المقلد فوق الترائب والتراقى ، والكنز المؤمل والذخر الباقى ، حجب الله تعالى العيون عن عين كمالك ! وصيَّرَ الفلَكَ الدوّار مطية آمالك ! وجعل اتفاق اليمن مقرونا بيمينك ، وانتظام الشمل معقودا بشمالك !.

اعلم أن مطلق لسان الثناء على مجدك ، والمستضىء على البعد بنور سعدك ، ومعقود الرجاء بعروة وعدك ، لا يزال فى كل ساعة يسحب الفلك فيه ذيلها ، ويعاقب يومها وليلها ، مُصْغى الأذن إلى نبأ يهدى عنك لله تعالى دفاعا ، أو يمد فى ميدان سعدك باعا ، وأنت اليوم النصير على الدهر الظلوم ، وآسى الكُلُوم[3] ،

---

(١) الضير - بالفتح - الضرر ، يريد ما لحقه من حساده حتى فر من الأندلس

(٢) الآلاء : النعم، واحدها إلى-بزنة رضا- (٣) آسى الكلوم ؟ مداوى الجروح

وذو المقام المعلوم ، فتعرفت أن بعض ما يتلاعب به بين أيدى السادة الخدام ، وتتفكه به المثاقفة والأقدام ، من كرة مرسلة الشهاب ، أو نارنجة ظهر عليها من اسمها صبغة الالتهاب ، حوّمت(١) حول عينك لا كدّر صفاؤها ، ولا هدم فوق مهاد الدعة والأمن إغفاؤها ، فرعت حول حماها ، ورامت أن تعيب فخيب الله تعالى مرماها :

نرى السوء مما نتقى فنهابه   وما لا نرى مما يقِى الله أ كْثَرُ

فقلت : مكروه أخطأ سَهْمُه ، وتنبيه من الله تعالى لمن نبل عقله وفهمه ، ودفاع قام دليله ، وسعد أشرق جليله ، وأيام أعربت عن إقبالها ، وعصمة غطت بسربالها ، وجوارح جعل الله تعالى الملائكة تحرسها ، فلا تغتالها الحوادث ولا تفترسها ، والفَطِن يشعر بالشىء وإن جهل أسبابه ، والصوفى يسمع من الكون جوابه ، فبادرت أهنئه تهنئة من يرى تلك الجوارح الكريمة أعز عليه من جوارحه ، ويرسل طير الشكر لله تعالى فى مساقط اللطف الخفى ومسارحه ، وسألته سبحانه أن يجعلك عن النوائب حِجْرًا(٢) لا يقرب ، وربعك ربعا لا يخرب ، ما سَبَح الحوتُ ودبَّ العقرب(٣)، ثم إننى شفعت الهناء ووترته ، وأظهرت السرور فماسترته ، بما سَنَّاه لتدبيرك من مسالمة تكذب الإرجاف ، وتغنى عن الإيجاف ، وتخصب للإبل العجاف ، وتريح من كيد ، وتفرغ إلى مجادلة عمرو وزَيْد ، وكأنى بسعدك قد سَدَلَ الأمان ، وعدل الزمان ، وأصلح الفاسد ، ونفق الكاسد ، وقهر الروع المستاسد ، وسر الحبيب وساء الحاسد ، والسلام . انتهى .

ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به الرئيس عامر بن محمد ابن على الهنتانى معزّيا له عن أخيه عبد العزيز :

---

(١) حومت : دارت ، ووقع فى ب « حرمت » بالراء — تحريف

(٢) أراد بحجر هنا معنى ممنوع

(٣) الحوت لا يزال يسبح فى الماء مادام حيا ، والعقرب لا تزال تدب على الأرض مادامت حية ، فهو يريد مادامت السموات والارض

من إنشائه معزيا الرئيس عامر بن محمد الهنتاتى

أبا ثابت كن فى الشدائد ثابتا أعيذك أن يُلْفَى حسودك شامتا
عزاؤك عن عبد العزيز هو الذى يليق بعز منك أعجز ناعتا
فدوحتك الغناء طالت ذوائبا وسَرْحَتُكَ الشماء طابت منابتا
لقد هدّ أركان الوجود مصابه وأنطق منه الشجو من كان صامتا
فمن نَفْس حر أوثق الحزن كظمها ومن نَفَس بالوجد أصبح خافتا
هو الموت للانسان فصل لحده وكيف ترجِّى أن تصاحب مائتا
وللصبر أولى أن يكون رجوعنا إذا لم نكن بالحزن نَرْجِعُ فائتا

اتصل بى أيها الهمام ، وبدرُ المجد الذى لا يفارقه التَّمام ، ماجنته على عليائك الأيام ، واقتنصه مُحلق الردى بعد أن طال الخيام ، وما استأثر به الحِمَام ، فلم يغن الدفاع ولا نفع الذِّمام ، من وفاة صنوك الكريم الصفات ، وهلاك وُسْطى الأسلاك ، وبدر الأحلاك ، ومجير الأملاك ، وذهاب السَّمْح الوهاب ، وأنا لديغ[1] صِلِّ الفراق ، الذى لا يفيق بألف راق ، وجريح سَهْم البَيْن ، ومجارى العيون الجارية بدمع العين ، لفقد أنيس سَهَّل علىَّ مَضَضَ النكبة ، ونَحَّى[2] ليث الخطب عن فريستى بعد صدق الوثبة ، وآنسنى فى الاغتراب ، وصحبنى إلى منقطع التراب ، وكفل أصاغرى خير الكفالة ، وعاملنى من حسن العشرة بما سجل عقد الوكالة ، انتزعه الدهر مِنْ يدى حيث لا أهل ولا وطن ، والاغتراب قد ألقى بعَطَن ، وذات اليد يعلم حالها مَنْ يعلم ما ظهر وما بطن ، ورأيت من تطارح الأصاغر على شِلْو الغريب ، النازح عن النسيب والقريب ، ما حملنى على أن جعلت البيت له ضريحا ، ومدفنا صريحا ، لأخدع من يرى أنه لم يزل مقيما لديه ، وأن ظل شفقته منسحبٌ عليه ، فأعْيا مصابى عند ذلك الفرح ، وأعظم الظمأ البرح ، ونكأ

(١) اللديغ : الملدوغ ، أى الذى لدغته حية أو عقرب ، والصل ــ بكسر الصاد ــ الحية ، وإضافة الصل إلى الفراق من إضافة المشبه به إلى المشبه مثل « لجين الماء » و « ذهب الأصيل »   (٢) نحى : أبعد

القرح القرح ، إذ كان ركننا قد بنته لى يد معرفتك ، ومتصفا فى البر بى والرعى لصاغيتى بكريم صفتك ، فوالهفا عليه من حسام ، وعز سام ، وأياد جسام ، وشهرة بين بنى حام وسام ، أى جمال خَلْق ، ووجه للقاصد طَلْق ،وشيم تطمح للمعالى بحق؟ وأى عضد لك ياسيدى لايَهِنُ[1] إذاسطا ، ولايقهر إذا خطا ، يوجب لك على تحليه بالشيبة ، ما توجبه البُنُوّة من الهيبة ، ويرد ضيفك آمنا من الخيبة ، ويسد ثغرك عندالغيبة ، ذهبت إلى الجزع[2] فرأيت مُصَابه أكبر ، ودعوت بالصبر فولى وأدبر ، واستنجدت الدمع فنضب[3] ، واستصرخت الرجاء فأنكر ما روى واقتضب ، وبأى حزن يلفى عبد العزيز وقد جل فقده ، أو يطفى لاعجه وقد عظم وَقْده ، اللهم لو بكى بنَدَى أياديه ، أو بغمائم غواديه ، أو بعُبَاب واديه[4] ، وهى الأيام أى شامخ لم تهُدَّه ، أو جديد لم تبله وإن طالت المدة ؟ فرقت بين التيجان والمفارق ، والخدود والنمارق[5] ، والطلى والعقود ، والكأس وابنة العنقود ، فما التعلل بالْفَان ، وإنما هى إغفاءة أجفان ، والتشبث بالحبائل ، وإنما هى ظل زائل ؟ والصبر على المصائب ، ووقوع سهمها الصائب ، أولى ما اعتمد طِلابا ، ورجع إليه طوعا أوغِلابا ، فأنا يا سيدى أقيمُ رسم التعزية ، وإن بوّئت بمضاعف المرزية ، ولا عتب على القدَر ، فى الوِرْد من الأمر والصدَر ، ولولا أن هذا الواقع مما لايجدى فيه الُخلْصان ، ولا يغنى فيه اليَرَاع ولا الخرصان ، لأبلى جده من اقترضتموه معروفا ، وكان بالتشيع إلى تلك الهضبة معروفا ، لكنها سوق لا ينفق فيها إلا سلعة التسليم ، للحكيم العليم ، وطَىّ الجوانح على المضض الأليم ، ولعمرى لقد خلدت لهذا الفقيد وإن طمس الحمام محاسنه الوضاحة ، لما كبس منه الساحة ، صحفا منشرة ، وثغورا بالحمد موشرة ، يفخر بها بَنُوه ، ويستكثر بها مكتسبو الحمد

---

(١) لا يهن : لايضعف ، ووقع فى ب « لا يهين » تحريف

(٢) الجزع : إظهار الألم والحسرة ، ووقع فى ب « الجذع » بالذال المعجمة ــ وهو تحريف (٣) نضب : غاض ولم يجر (٤) العباب ــ بالضم بزنة غراب ــ موج البحر أو معظم مائه (٥) النمارق : جمع نمرقة ، وهى الوسادة

ومُقْتَنُوه ، وأنتم عماد البازه ، وعلم المفازه ، وقطب المَدَار ، وعامر الدار ، وأسد الأَجَمَة ، وبطل الكتيبة الملجمة ، وكافل البيت ، والستر على الحى والميت ، ومثلك لا يُهْدَى إلى نهجٍ لاحب[1] ، ولا ترشده نار الحباحب ، ولا ينبه على سنن نبى كريم أو صاحب ، قدرُكَ أعلى ، وفضلك أجلى ، وأنت صدر الزمان بلا مدافع ، وخير مُعْلٍ لأعلام الفضل ورافع ، وأنا وإن أخرت فرض بيعتك لما خصَّنى من المصاب ، ونالنى من الأوصاب[2] ، ونزل بى من جَوْر الزمان الغَصَّاب ، ممن يقبل عُذْرَهُ الكرم ، ويسعه الحرم المحترم ، والله سبحانه الكفيل لسيدى وعمادى ببقاء يكفل به الأبناء وأبناء الأبناء ، ويعلى لقومه رتب العز سامية البناء ، حتى لا يوحش مكان فقيد مع وجوده ، ولا يحس بِعَضِّ زمان مع جوده ، ويقر عينه فى ولده وولد ولده ، ويجعل أيدى مُنَاويه تحت يده ، والسلام .

من إنشائه يخاطب الرئيس عامر بن محمد الهنتاتى أيضا

وخاطبه لسانُ الدين أيضا بما نصه :

سيدى الذى هو رجل المغرب كله ، والمجمَعُ على طهارة بيته وزكاء أصله ، علم أهل المجد والدين ، وبقية كبار الموحِّدِين .

بعدَ السلامِ الذى لتلك الجلالة الراسخة القواعد ، السامية المصاعد[3] ، والدعاء لله أن يفتح لك فى مضيقات هذه الأحوال مسالكَ التوفيق ، ويمسكك من عصمته بالسبب الوَثيق ، أعرّفك أن جبلك اليوم وقد عظم الرجَفَان ، وفاض التنور وطغى الطوفان ، تؤمل النفوسُ الغرْقى جُودِىَّ جودِهِ ، وتغتبط غاية الاغتباط بوجوده ، ووالله لولا العلائق التى يجب لها الالتزام ، ما وقع على غير قصدك الاعتزام ، والله تعالى يمدك بإعانته على تحمل القُصَّاد ، ويبقى محلك رفيع العماد كثير الرماد ، ويجعل أبا يحيى خلفا منك بعد عمر النهاية البعيد الآماد ، ويبقى كلمة التوحيد

(١) النهج : الطريق ، واللاحب : المستقيم الواضح

(٢) الأوصاب : جمع وصب ، بالتحريك ، وهو الوجع

(٣) السامية : أراد المرتفعة ، والمصاعد : جمع مصعد ، وهو فى المحس نحو السلم مما يصعد عليه من أسفل إلى اعلى

فيكم إلى يوم التناد[١] ، وحامله القائد الـكذا معروف النباهة والجهاد ، ومحله لا ينكر فى الفؤاد ، لما استبهمت السبل[٢] ، والْتَبَسَ القول والعمل ، لم يجد أنجى من الركون إلى جنابك ، والتمسك بأسبابك ، والانتظام فى جملة خواصك وأحبابك ، حتى ينبلج الصبح[٣] ، ويظهر النجح ، ويعظم المنح ، ويكون بعد هجرته الفتح ، ومثلُكم من قُصِد وأمل ، وأنضى إليه المَطا وأعمل[٤] ، وأما الذى عندى من القيام بحق تلك الذات الشريفه ، والقول بمناقبها المنيفة ، فهو شيء لا تفى به العبارة ، ولا تؤديه الألفاظ المستعارة ، والله تعالى المسؤول فى صلة عز سيدى ودوام سعده ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

من إنشائه يخاطب شيخ الدولة

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : ومما خاطبْتُ به شيخ الدولة ـ وقد استقل من مرض ـ ما نصه :

لا أعدم الله دار الملك منك سَنًا ... يجلى به الحالـكان الظلم والظلم

وأنشدتك الليالى وهى صادقة ... (المجد عوفى إذ عوفيت والـكرم)[٥]

مَنْ علم ـ أعلى الله تعالى قدرك ! ـ أن المجد جواد حُلاَك شِيَاتُه ، لا بل الملك بدر أنت آياته ، لا بل الإسلام جسم أنت حياته ، دعا منك بالبقاء لمجد يروق بك جبينُه ، ومُلك تنيره وتزينه ، ولدين تعامل الله تعالى بإعزازه وتَدِينُه ، فلقد ألمت نفوس المؤمنين لآلامك ، ووجم الإسلام لتوقع إسلامك ، وتأخرت الأعلام لتأخر أطرافك بمصالح الملك وأعلامك ، فإنما أنامل الدين والدنيا متشبثة بأذيال أيامك ، ورحال الأمل مخيمة بين حـلالك وخيـامك ، فإذا قابلت الأشرافُ نعم الله تعالى بشكر ، ورمت الغفلة عن ذلك بنكر ، فاشكره جل وعلا بملء لسانك وجنانك ، وأجْرِ فى ميدان حمده مطلقاً من عنانك ، على ما طوّقك من

---

(١) يوم التناد : يوم القيامة ، وقد سمى به فى القرآن الـكريم

(٢) استبهمت السبل : خفيت الطرق ولم تتضح لسالـكها (٣) ينبلج الصبح : يظهر

(٤) أنضى : أجهد ، والمطا : الظهر ، وأراد المطايا (٥) عجز هذا البيت صدر مطلع قصيدة للمتنبي ، وعجزه : * وزال عنك إلى أعدائك الألم *

استرقاق حر ، و إفاضة أيادٍ غُرّ ، واقتناء عسجد من الحمد ودر ، و إتاحة نفع ودفع ضر ، و إدالة حلو من مر ، وكن على ثقة من مدافعة الله تعالى عن حِماك ، وعز تبلغ ذوائبه السِّماك ، ورزق يجره فأل منتماك ، ودونك مجلس الإمامة فقُدْ تدبيره بزمامك ، وحُظْوة الخلافة فاستحقَّها بوسائلك القديمة وذمامك ، ومحاسن الدولة فاُجْلُهَا على منصة إمامك(١) ، ورسوم البر فأغْرِ بها عينَ اهتمامك ، وذروة المنبر فأمض بها ظُبَةَ حسامك ، وأجز الآملين زهرالأيادى البيض من كمائم أكمامك ، فياعز دولة بك ياجملة الكمال قد استظهرت ، وأذلت المعاند وقهرت ، و بأعمال آرائك اشتهرت ، فراقت فضائلها وبَهَرَتْ ، جزالة كما شق الجوّ جارح ، ولطافة كما طارح بفن التأليف مطارح ، وفكر فى الغيب سارح ، ودين لغوامض الحلم والعدل شارح ، ومكارم محت آثار الكرماء ونَسَخَتْ ، وحَلَّتْ عقود أخبار الأجواد فى الأعصار وفَسَخَتْ ، فلم تدع لفضل الفضل ذكراً ، وتركت معروف يحيى بن خالد نكرا ، لابل لم يبق لكعب ، من علو كعب ، وأنستْ دعوة حاتم ، بأى ماح وحاتم ، فصارت سبى جَوار ، ومنع جِوار ، وعقرناب ، عند اقشعرار جناب ، وأين يقع من كبر قدر ترفَّعَ عن الكبر ، وجود خَضَب الأيدى بحناء التبر ، وعز استخدم الأسَلَ الطِّوال بيراع أقل من الشبر ، وحَقَن الدماء المُرَاقة بإراقة نجيع الحبر ، وفك العِقال ، ورفَع النوَبَ الثقال ، وراعى الذرة والمثقال ، وعَثَر الزمانُ فأقال ، ووجد لسان الصدق فقال .

أقسم ببارئ النَّسَم ، وهو أبر القَسَم ، ما فازت بمثلك الدول ، ولا ظفرت بمثلك الملوك الأواخر والأول ، ولو تقدّمت لم يضرب إلا بك المثل ، ولم يقع إلا على سنتك وكتابك والإجماع المنعقد على آدابك العمل ، والمملوك لما شام

---

(١) شبه محاسن الدولة بالعروس ، والمنصة — بكسر الميم وفتح النون وتشديد الصاد — مكان مرتفع تجلس عليه العروس لتكون ظاهرة لكل راء ، وجلاها أهلها يجلونها : زينوها وأظهروها للناس بإجلاسها على المنصة ونحوها

مالكه بَرْقَ العافية ، وتدرَّعَ بالألطاف الخافية ، كتب مبشراً بالهَنَاء ، ومذيعاً ما يجب من الحمد والثناء ، وشاكرا ماله بوجوده من الاعتناء ، فقد بادر ركن الدين بالبناء ، وأبقى الستر والمنة على الآباء والأبناء ، فنسأل الله تعالى أن يمتع منك بأثير الملوك(١) ، ووسطى السلوك(٢) ، وسُلالة أرباب المقامات والسلوك ، ويبقيك وحصة الصحة وافرة ، وغرة العزة القعساء سافرة ، وغادة السعادة غير نافرة ، وكتيبة الأمل فى مقامك السعيد غانمة ظافرة ، ما زحفت للصباح شُهُب المواكب ، وتفتحت بشط نهر المجرة أزهار الكواكب ، والسلام . انتهى

من إنشائه يخاطب شيخه ابن مرزوق

ومن ذلك ما خاطَبَ به سيدى أبا عبد الله بن مرزوق ، جوابا عن كتابه ، وقد استقر خطيب السلطان بتونس :

ولما أن نأت منكم ديار وحال البعد بينكم وبينى
بعثت لكم سوادا فى بياض لأنظركم بشىء مثل عينى

بم أفاتحك يا سيدى ، وأجلَّ عُدَدى ؟ كيف أهدى سلاماً ، فلا أحذر ملاما ؟ أو أنتخب لك كلاما ، فلا أجد لتَبِعَة التقصير فى حقك الكبير إيلاما ؟ إن قلت تحية كسرى فى الثناء وتبَّع ، فكلمة فى مربع العجمة تربع ، ولها المصيف فيه والمربع ، والجميم والمنبع ، فتروى متى شاءت وتشبع ، وإن قلت إذا العارض خطر ، ومهما همى أو قطر ، سلام الله يا مطر ، فهو فى الشريعة بَطَر ، وركبه خطر ، ولا يرعى به وطن ولا يقضى به وطر ، وإنما العرق الأوشج ، ولا يستوى البان والبنفسج ، والعوْسَج والعرْفج .

سلام وتسليم ورَوْح ورحمة عليك وممدود من الظل سجسج

وما كان فضلك ليمنعنى الكفرانُ أن أشكره ، ولا لينسينى الشيطان أن أذكره ،

---

(١) أثير الملوك : المختص عندهم بالمكانة السامية ، والذى يؤثرونه ويقدمونه على من عداه (٢) السلوك : جمع سلك — بالكسر — وهو ماتنظم فيه الجواهر ووسطاه : الجوهرة التى تكون فى وسط ما ينظم فيه ، وإنما تكون الوسطى خير الجواهر وكبراها

فأتخذ فى البحر سببا ، أو أسلك غير الوفاء مذهبا ، تأبى ذلك ـ والمنة لله تعالى ـ طِباع ، لها فى مجال الرَّعْى باع ، وتحقيق و إشباع ، وسوائم[١] من الإنصاف ، ترعى فى رياض الاعتراف ، فلا يطرقها ارتياع ، ولا تخيفها سباع ، وكيف نجحد تلك الحقوق وهى شمسُ ظَهيره ، وأذان عَقيرة جَهيرة[٢] ، فوق مئذنة شهيرة ، آدت الأكتاد[٣] لهاديون تستغرق الذمم ، وتسترق حتى الرمم ، فإن قضيت فى الحياة فهى الخطة التى نرتضيها ، ولا نقنع من عامل الدهر المساعد إلا أن ينفذ مراسمها ويُمْضيها ، وإن قطع الأجل فالغنى الحميد ، من خزائنه التى لا تبيد ، يقضيها ، ويُرْضِى من يقتضيها ، وحيا الله تعالى أيها العلم السامى الجلال ، زمنا بمعرفتك المبرة على الآمال ، بر وأتحف ، وإن أساء بفراقك وأجحف ، وأعرى بعد ما ألحف ، وأظفر باليتيمة المذخورة للشدائد والمزائن ، ثم أوحش منها أصوِنة هذه الخزائن ، فآب حنين الأمل بخفيه ، وأصبح المغرب غريبا يقلب كفيه ، ونستغفر الله تعالى من هذه الغَفَلات ، ونستهديه دليلا فى مثل هذه الفَلَوات ، وأى ذنب فى الفراق للزمن ، أو لغِراب الدِّمَن ، أو للرواحل المدلجة ما بين الشام إلى اليمن ، وما منها إلا عبد مقهور ، وفى رمة القدر مبهور ، عقد والحمد لله مشهور ، وحجة لها على النفس اللوّامة ظهور ، جعلنا الله تعالى ممن ذكر المسبب فى الأسباب ! وتذكر وما يذكر إلا أولو الألباب ، قبل غلق الرَّهْن وسد الباب ، وبالجملة فالفراق ذاتى ، ووعده ماتى ، فإن لم يكن فكأَنْ قَدْ ، ما أقرب اليوم من الغد ، والمرء فى الوجود غريب ، وكل آت قريب ، وما من مقام إلا لزيال ، من غير احتيال ، والأعمار مَرَاحل والأيام أمْيَال .

نصيبُكَ فى حياتك من حبيب نصيبك فى منامك من خيال

جعل الله تعالى الأدب مع الحق شأننا ! وأبعد عنا الفراقَ الذى شاننَا ! و إنى لأسر لسيدى

---

(١) السوائم : جمع سائمة ، وأصلها ما يترك من الدواب يرعى ما شاء

(٢) العقيرة — بفتح العين — الصوت ، والجهيرة — بفتح الجيم — المرتفعة العالية ، يقول : إنه أذان صادر عن صوت عال

(٣) آدت : أوجعت ، والأكتاد : جمع كتد ، وهو ما بين الكتفين

بأن رعى الله تعالى صالح سَلَفِه ، وتداركه بالتلاقى فى تَلَفِه ، وخلص سعادته من كلفه ، وأحَلَّه من الأمن فى كَنَفِه ، وعلى قدرها تصاب العلياء ، وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء .

هذا ، والخير والشر فى هـــذه الدار ، المؤسسة على الأكدار ، ظلان ، مضمحلان[١] ، فقد ارتفع ، ماضر أو نفع ، وفارق المـكان ، فـكأَنه ما كان ، ومن كلمات الملوك ، البعيدة عن الشكوك ، إلى أن يشاء ملك الملوك :

خـذ من زمانك ما تيسر ... واترك بجهدك ما تعسر

ولرب مجمـــل حالة ... ترضى به مالم يُفَسَّر

والدهر ليس بدائم ... لا بد أن سيسوء إن سر

واكتم حـديثك جاهدا ... شِمِتَ المحـدثُ أو تحسر

والناس آنيـــــة الزجا ... ج إذا عثرت به تكسر

لا تعدم التَّقْوَى فمن ... عدم التقى فى الناس أعسر

وإذا امرؤ خسر الإلـــهَ ... فليس خلق منه أخسر

وإن لله تعالى فى رَعْيك لسرا ، ولطفا مستمرا مستقرا ، إذ ألقاك اليم إلى[٢] الساحل ، فأخذ بيدك من ورطة الواحل ، وحرك منك عزيمة الراحل ، إلى الملك الُحلاحل[٣] ، فأدالك من إبراهيمك سميا ، وعرفك بعد الوَلى وَسْمِيا ، ونقلك من عناية إلى عناية ، وهو الذى يقول وقوله الحق (ما ننسخ من آية ـ الآية) .

وقد وصل كتاب سيدى يحمد ـ ولله الحمد ـ العواقب ، ويصف المراقى التى

---

(١) مضمحلان : ضعيفان سريعا الذهاب .

(٢) أخذ هذا من قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام وقد أمر أمه بأن تلقيه فى اليم (فليقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له) .

(٣) الملك الحلاحل ـ بضم الحاء الأولى ـ العظيم ، ووقع فى شعر امرىء القيس :

والله لا يذهب شيخى باطلا ... حتى أبير مالـكا وكاهلا

القاتلين الملك الحلاحلا ... خير معـد حسبا ونائلا

حَلّها والمراقب ، وينشر المفاخر الحَفْصِيَّة والمناقب ، ويذكر ما هيأه الله تعالى لديها من إقبال ، ورَخاء بال ، خصيصى اشتمال ، ونشوة آمال ، وأنه اغتبط وارتبط ، وألقى العصا بعد ما خبط ، ومثل تلك الخلافة العلية مَنْ تَزِنُ الذوات ، المخصوصة من الله تعالى بتشريف الأدوات ، بميزان تمييزها، وتفرق بين شَبَه المعادن وإبريزها ، وشِبْهُ الشيء مَثَلٌ معروف[(١)] ، ولقد أخطأ من قال : الناس ظروف ، إنما هم شَجَرات مربع فى بقعة ماحلة ، وإبلٌ مائةٌ لا تجد فيها راحلة[(٢)] ، وما هو إلا الاتفاق ، ونجح للملك وإحقاق ، وقلما كَذَب إجماع وإصفاق ، والجليس الصالح لرب سياسةٍ أَمَلٌ مطلوب ، وحظ إليه مَجْلوب ، وإن سئل أطرف ، وعمر الوقت ببضاعة أشرف ، وسَرَق الطباع ، ومَدَّ فى الحسنات الباع ، وسَلّى فى الخطوب ، وأضحك فى اليوم القَطُوب ، وهدى إلى أقوم الطرق ، وأعان على نوائب الحق ، وزرع له المودة فى قلوب الخلق ، زاده الله تعالى سيدى لديها قُرْباً أثيرا ، وجعل فيه للجميع خيرا كثيرا ، بفضله وكرمه .

ولعلمى بأنه ـ أبقاه الله تعالى ! ـ يقبل نصحى ، ولا يرتاب فى صدق صبحى ، أغبطه بمَثْوَاه ، وأنشده ما حضر من البديهة فى مسارة هداه ونجواه :

بمقام إبراهيم عُــذْ واصرف به	فكرا تورق عن بواعث تنبرى
فجواره حَرَمٌ وأنت حمامــة	ورقاء والأغصان عود المنــبر
فلقــد أمنت من الزمان ورَيْبِهِ	وهو المروّع للمسىء وللبرى

وإن تشوّف سيدى فلعمر وليه لو كان المطلوب دينا لوجب وقوع الاجتزاء ، ولا غتبط بما تحصل فى هذه الجزور ، المبيعة فى حانوت الزور ، من السهام الوافرة الأجزاء ، فالسلطان ـ رعاه الله تعالى ! ـ يوجب مافوق مزية التعليم ، والولد ـ هداهم الله تعالى ! ـ قد أخذوا بحظ قل أن ينالوه بغير هذا الإقليم ، والخاصة والعامة تعامل بحسب ما بلته من نصح سليم ، وترك لما بالأيدى وتسليم ، وتدبير عاد على عدوها بالعذاب الأليم ، إلا مَنْ أبدى السلامة وهو من إبطان الحسد بحال السليم ، ولا ينكر ذلك

---

(١) أشار إلى قولهم فى مثل « شبه الشىء منجذب إليه »

(٢) هذا من حديث ، وهو « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة »

فى الحديث ولا فى القديم ، ولـكن النفس منصرفة عن هذا الغرض ، نافضة يدَهَا من العرض ، قد فوّتت الحاصل ، ووصلت فى الله تعالى القاطع وقطعت الواصل ، وصدقت لمانصح الفَوْدُ الناصل [1] ، وتأهبت للقاء الحمام الواصل ، وقلت :

انظر خضابَ الشباب قد نَصَلاَ وزائرَ الأنس بعـــده انفصلا [1]

ومطلبى والذى كَلِفْتُ به حاولْتُ تحصيله فما حصـــلا

لا أمل مُسْعف ولا عمـــل ونحن فى ذا والموتُ قد وصلا

والوقت إلى الإمداد منكم بالدعاء فى الأصائل والأسحار ، إلى مُقيل العِثار ، شديدُ الافتقار ، والله عز وجل يَصِلُ لسيدى رَعْى جوانبه ، و يتولى تيسير آماله من فضله العميم ومآربه ، وأقرأ عليه من التحيات ، المحملة من فوق رحال الأريحيات ، أزكاها ، ما أوجع البرقُ الغمائمَ فأبكاها ، وحسد الروض جمال النجوم الزواهر فقاسها بمباسم الأزهار وحكاها ، واضطبرهرم الليل عند الميل عصا الجوزاء وتوكاها ، ورحمة الله تعالى و بركاته ، انتهى .

ومماخاطب به لسان الدين ــ رحمه الله تعالى ! ــ ابنَ مرزوق المذكور قوله :

من إنشائه يخاطب شيخه ابن مرزوق أيضا

سيدى ، وعمادى ، كَشْفُ قناع النصيحة من وظائف صديق ، أو خـديم لصيق ، وأنا بكلتا الجهتين حقيق ، و يتلجلج فى صدرى كلام أنا إلى نَفَثه ذواحتياج ، ولو فى سبيل هياج ، وخرق سياج ، وخوض دَيَاج [2] ، وقد أصبحت سعادتى عن أصل سعادَتك فرعا ، فوجب النصح طبعا وشرعا ، فليعلم سيدى أن الجاه ورطة ، والاستغراق فى تيار الدول غلطة ، و بمقدار العلو إلا أن يقى الله تعالى تـكون [3] السقطة وأنه ــ والله تعالى يعصمه من الحوادث ، و يقيه من الخطوب الـكوارث ! ــ و إن تبعه الجمع فهو مفرد ، و بسهام الحَسَدة مُقْصَد ، وأن الذى يقبل يده ، يُضْمر حسده ،

---

(١) نصل الخضاب : ذهب وخضاب الشباب : هو سواد الشعر ، وذهابه : ظهور الشيب فيه
(٢) الدياجى : جمع دجاة ، وهى الظلام الشديد
(٣) هذا من قول الشاعر * بقدر الصعود يكون الهبوط *

وما من يوم إلا والعِلل تستشرى[١] ، والحيل تريش وتَبرى ، وسموم المكايد تسرى ، والعين الساهرة تطرق العين النائمة من حيث تدرى ولا تدرى ، وهذا الباب الكريم مخصوص بالزيارة والبركة ، وخصوصا فى مثل هذه الحركة ، فثم ظواهر تُخالف السرائر ، وحيل تصيب فى الجوّ الطائر ، وما عسى أن يتحفظ المحسود ، وقد عَوَتِ الكلابُ وزأرت الأسود ، وإن ظن سيدى أن الخطة الدينية تذب[٢] عن نفسها ، أو تنفع مع غير جنسها ، فقياسٌ غير صحيح ، وهبوب ريح ، وإنما هى درجة فوق الوزارة والحجابة ، ودهر يدعى فيبادر بالإجابة ، وجاه يجر على القبيل الأذيال ، ويفيد العز والمال ، وبحر هال ، وصدور تحمل الجبال ، وإن قطع بالأمان ، من جهة السلطان ، لم يؤمن أن يقع فيه ، والله سبحانه يَقِيه ، ويمتع به ويُبْقِيه ، ما البشر بصَدَده ، والحى يجرى إلى أمَدِه ، فيستظهر الغير بقَبيل ، ويجرى من التغلب على سبيل ، ويبقى سيدى - والله تعالى يعصمه ! - طائرا بلا جناح ، ومحاربا دون سلاح ، ينادى من كان يثق بوده فى طَلَل ، ويقرع سن النادم والأمر جَلَل[٣] ، ومثله بين غير صنفه ممن لا يتصف بظَرْف ، ولا يلتفت إلى الإنسانية بطَرْف ، ولا يعبد الله تعالى ولو على حَرْف ، محمول عليه من حيث الصنفية ، متعمد بالعداوة الخفية ، وإن ظن غير هذا فهو مخدوع مسحور ، ومفتون مغرور ، وبالفكر فى الخلاص تفاضلت النفوس ، واستُدْفِعَ البوس ، وله وجوه كلها متعذر الحصول ، دونه بِيضُ النصول[٤] ، وإلا ما كان من الغرض الذى بان فيه بعد الجِدّ الفتُور ، وعدل عنه وقد أخذ الدستور ، وتيسرت الأمور ، وتقررت الأيمان والنذور ، فإنه عَرَض قريب وسفر قاصد[٥] ، ومَسْعًى لا ينفق فيه سيدى من المال درهم واحد ، ووطن لحركته راصد ، لا يمنع عليه أهله ، ولا يستصعب سَهْله ، وأميره جبره الله

---

(١) تستشرى : يستفحل داؤها ويعز علاجها (٢) تذب عن نفسها : تدفع

(٣) جلل ، هنا : عظيم ، ويأتى بمعنى هين يسير ؛ فهو من الأضداد

(٤) بيض النصول : أراد السيوف ، والإضافة من إضافة الصفة للموصوف

(٥) هذه العبارة من قوله تعالى : (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة) من سورة التوبة ، الآية ٤٢

تعالى يتطارح فى تعيينكم لاقتضائه ، و إحكام آرائه ، وتأمين خائفه ، واستقدام أصنافه وطوائفه ، و يتحركون حركة العز والتَّنْوِيه ، والقدر النبيه ، لا يُعْوِزكم ممن وراءكم مطلب ، ولا يُلْفَى عن مخالفتكم مذهب ، ولا يكدر لكم مشرب ، وتمر أيام وشهور ، وتظهر بطون للدهر وظهور ، وتفتح أبواب ، وتسبب أسباب ، من رجوع يتأتى بعد السكون والفتور ، وقد سكنت الخواطر وتنوّعت الأمور ، أومقام تمهد به البلاد ، و يعمل فى ترتيب الصلة الحسنة الاجتهاد ، وتستغرق فى هذا الغرض الآماد ، و يتأتى أن حدث وتراكم حادث الاستقلال والاستبداد ، تتهافَتُ[1] الأعمار ، و يكون لمن ينتقل به على الشرق والغرب الخيار ، أوالتحكم فى ذخيرة سما منها المقدار ، وذُهِل عند مشاهدتها الاعتبار ، وخزانة الكتب بجملتها وفيها الأمهات الكبار ، قد تجافت عنها الحاجة وعُدِم إليها الاضطرار ، والربع الذى يسوغ بالشرع والعقار ، فهذا كله حاصل ، وثم ضامن لا يتهم وكافل ، وعهود صِبْغُها غير ناصل[2] ، وبالجملة فالوطن لأغراض الملك جامع ، ولمقاصده من المقام أو الانتقال مطيع وسامع ، و إن توقع إثارة فتنة ، أو ارتكاب إحْنَة ، فالأمر أقرب ، وحالة التيسير أغرب ، وهذه الحجة فى تلمسان غير معتبرة ، وأجوبتها مقررة ، وقدوم رسول الطاغية و إعانته تحصل فى الغالب ، على هذه المطالب ، وبالجملة فالدنيا قد اختلت ، والأقدام قد زلت ، والأموال قد قلت ، وشبيبة الدهر ولت ، وذلك القطر على علاته أحكم لمن يروم الجاه وأمنع ، وأجدى بكل اعتبار وأنفع ، وقد حضرت لاستخلاصكم إياه الآلة التى لا تتأتى فى كل زمان ، وتهيأ إمكانه أىَّ إمكان ، واقتضيت أيمان ، وعرضت سلع تقلّ لها أثمان ، وارتهنت الوفاء مروآت وأديان ، وتحقق بذلك القطر الفساد الذى اشتهر به مأموره وأميره ، والمنكر الذى يجب على كل مسلم تغييره ، فإن شئت

---

(١) فى أصل ب «تنهتا فيه» تحريف

(٢) تقول «نصل الخضاب» تريد أنه ذهب وظهر الشعر أبيض كما كان ، وذكره هنا مجاز

شرعا فالحكم ظاهر ، أو طبعا فالطبع حاضر ، وما ثَمَّ عاذل بل عاذر ، والمؤنة التى تلزم أقل من أن تكون ثمن بعض الحصون ، فضلا عن الشجرة ذات الغصون ، وما يستهلك فى هذا الغرض شىء له خطر ، ولا يستنقذ من الصحيفة سطر ، واليد محكمة بكل أو شطر ، وما يخص المملوك من هذا الأمر إلا استنقاذ نَشَب ، واستخلاص مؤمل بين موروث ومكتسب ، و بعيد أن لا ينفر له فى زمن من الأزمان ، ملوك فى كل وقت وأعيان ، ومروآت وأحساب وأديان ، والله سبحانه كل يوم هو فى شان ، وأما خدمة دولة فهى على حرام ، لا ينجح لى فيها أن أعتمدها مرام ، وكأنى بالمشرق لاحق ، ولأنفاسه الذكية ناشق ، فما هى إلا أطماع ، سَرَابُهَا لماع ، فإذا انقطعت ، انفسحت الدنيا واتسعت ، ومعاش فى غمار ، أو عكوف فى كِسْر دار ، لمداومة استقالة واستغفار ، والله ما توهم أن من بتلك البلاد يستنسر بغَاثُه عليكم ، أو يحتقر ما لديكم ، فقد ظهر الكائن ، وتطابق المخبر والمعاين ، فسبحان من يقوى الضعيف ويهين المخيف ، ويجرى يد المشروف والشريف ، والهمم بيد الله تعالى يُنْجِدُها و يخذلها ، والأرض فى قبضته يرعاها و يهملها

هذا بثٌّ لا يسع إفشاؤه ، وسر إن لم يُطْوسقط به على السرحان شاؤه[1] ، وفيه ما ينكره الآمر ، وتتعلق به الظنون وتعمل الخواطر ، فتدبروه واعتبروه ، و بعقلكم فاسْبُروه ، ثم غطوه بالإحراق واستروه ، والله تعالى يرشدكم للتى هى أسعد ، و يحملكم على ما فيه لكم العز السَّرْمَد ، والفخر الذى لا ينفد ، والسلام . انتهى

من إنشائه جواب عن كتاب من محمد بن قيس الثغرى

وقال رحمه الله تعالى : ومما صدر عنى ما أجبت به عن كتاب بعث به إلى الفقيهُ الكاتبُ عن سلطان تلمسان أبى عبد الله محمد بن يوسف القيسى الثغرى :

حَيَّا تلمسان الحيا فربوعها صَدَفٌ يجود بدره المكنون

---

(١) هذا من مثل ، وهو قولهم «سقط العشاء به على سرحان» ووقع فى كل الأصول «شاؤه»

ماشئت من فضل عميم إن سقى أروى ومنّ ليس بالممنون
أو شئت من دِينٍ إذا قدح الهدى أورى ودُنْيَا لم تكن بالدون
ورد النسيم لهـا بنشر حديقة قد أزهرت أفنانها بفنون
وإذا حبيبة أم يحيي أنجبت فلها الشفوف على عيون العين

ما هذا النشر ، والصف والحشر ، واللف والنشر ، والفجر والليالى العشر ، شَذاً كما تنفست دَارِين ، وسطور رقم خللها التزيين ، وبَيَان قام على إبداعه البرهان المبين ، ونِقْس ، وشى به طِرْس ، فجاء كأنه العيون العِين ، لا بل ما هذه الكتائب الكتيبة التى أطلقت علينا الأعِنّة ، وأشرعت إلينا الأسنة ، وراعت الإنس والجِنّة ، فأقسم بالرحمٰن ، لولا أنها رفعت شعار الأمان ، وحَيَّت بتحية الإيمان ، لراعت السِّرْبَ ، وعاقت الذودَ أن يرد الشرب ، أظنها مدد الجهاد قُدِّم ، وشارد العرب استعمل فى سبيل الله واستخدم ، والمتأخر على ما فاته ندم ، والعزم وجد بعد ما عدم ، نستغفر الله ! إنما هى رقاع الرقاع ، وصِلات صَلاة ليس فيها سبق ولا إرقاع ، وبقاع لها بطَلِّ الطباع الكريمة انتفاع ، وألحان بيان يعضدها إيقاع ، ودر منسوق ، ورطب لنخلها بُسُوق ، ولله در القائل : الملك سوق ، ومن نصر الشيخ على كتيبة تعقبها كتيبة ، واقتضاء وجيبة من ذى غلة غير نجيبة ، بينا هو يكابد من مراجعة الحى من حضر موت الموت ، ولا يكاد يرجع الصوت ، إذ صبحته قيس وهى التى شَذَّت عن القياس ، وأحجمت عن مبارزتها أسود الأخياس ، فلولا امتثال أمر ، وصبر على جمر ، لأعاد ما حكى فى مبارزة الوصى عن عمرو[1] ، فتحرج من الخطل ، وبين عذر المكره عن مناجزة البطل ، ألم يدر

(١) يروى أن أبا الحسنين أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه بارز عمرو بن العاص (ويقال عمرو بن ود) فلما أيقن عمرو بأنه هالك كشف عن سوءته فتركه على رضى الله عنه ، وفيه قيل « مكره أخاك لا بطل » وقال أبو فراس الحمدانى مشيرا إلى هذه القصة :

ولا خير فى دفع الردى بمذلة كما ردها يوما بسوأته عمرو

قائدُ رَعِيلها ، وزائر غِيلها ، أنى أمُتّ بذمة من عميده لا تخفر ، وأن ذنب إضافتى إليه لا يغفر ، وحقه الحق الذى لا يجحد ولا يكفر .

لما رأت راية القيسى زاحفة ... إلىّ ريعت وقالت لى وما العَمَلُ

قلت الوغى ليس من رأيى ولا عملى ... لا ناقة لى فى هذا ولا جمل (١)

قد كان ذاك ورَنّات الصهيل ضحى ... تهز عطفى كأنى شارب ثَمِلُ

والآن قد صوّح المرعى وقيضت الـ ... ـخيمات والركب بعد اللبث محتمل

قالت ألست شهاب الدين تضرمها ... حاشى العلا أن يقال: استنوق الجمل

وإن أحسن من هذا وذا وزر ... بمثله فى الدواهى يبلغ الأمل

هو الحمى لأبى حمو استجره ففيـ ... ـه الأمن منسدل والفضل مكتمل

والله لو أعمل الراعى النقاد به ... ما خاف من أسد خَفّان به همل

تكون من قوم موسى إن قضوا عدلوا ... وإن تقاعد دهر جائر حملوا

هم الجبال الرواسى كلما حكموا ... هم البحار الطوامى كلما جملوا

فقلت : كان لك الرحمن بعدىَ ما ... سواه معتمَدٌ والرأى معتمل

فها أنا تحت ظل منه يلحفنى ... والشمل منى بستر العز يشتمل

فقل لقيس لقد خاب القياس فلا ... تُذْكُوا المصاع وتحت الليل فاحتملوا

دامت له دِيَم النعمى مُسَاجلة ... يمناه تنهـلّ باليمنى فتنهمل

وآمنت شمس علياه الأفول إلى ... طى الوجود فلا شمس ولا حمل

ولو خوى ــ والعوذ بالله ــ نجم هــذا المتات ، ولم يتصف السبب ــ وحاشاه ــ بالاتصال ولا بالانبتات ، فمرعى العدل مكفول ، وسببُ الرفق موصول ، وإن اشتجرت نُصُول ، والهرم تأبى الأبطالُ التنزل إلى نزاله ، والناسك التائبُ يدينُ ضرب الغارات باعتزاله ، إلا مَنْ أعرق فى مذهب الخارجى الأخرق ، نافع بن

---

(١) عجز هذا البيت جرى مجرى المثل ، وأصله من قوله الحارث بن عباد فارس النعامة ، يقوله وقد قعد عن حرب البسوس التى شجرت بين بكر وتغلب بسبب قتل كليب وائل

الأزرق ، وحسبى ، وقد ساء كسبى ، أن أترك الخطر لراكبه ، وأخلى الطريق لمن يَبْنى المنَارَبه[١] ، ونسير بسير أمثالى من الضعفاء ، ونـكف فهو زمان الانكفاء ، ونسلم مخطوبة هذا الفن إلى الأكفاء ، ونقول : بالبنين والرفاء ، فقد ذهب الزمن المذهب ، وتبين المذهب ، وشاخ البازى الأشهب ، وعتادُ العمر ينهب ، ومرهب الفوت من فوق الفود يرهب ، اللهم ألهم هـذه الأنفس رُشْدَها ، وأذكرها السكرات[٢] ومابعدها ، إيه أخى والفضل وَصْفك ونعتك ، والزَّيفُ يُبَهْرِجه بحتك ، وسهام البراعة انفردَ بها بَرْيُك وَنَحْتُك ، وصلتنى رسالتك البرة ، بل غمامتك الثرة ، وحيتنى ثغُور فضلك المُفْتَرَّة ، فعظمت بورودها المسرة ، جددت العهد بمحبوب لقائك ، وأنهلت ظامى الاستطلاع من سقائك ، واقتضت تجديدَ الدعاء ببقائك ، إلا أنها ربما ذُهلت عند وداعك ، وأبهر عقلها نور إبداعك ، فلم تلقن الوصية ، وسلـكت المسالك القَصِيَّة ، وأبعدت من التطوّف ، وجاءت تبتغى من أسرار التصوّف ، ومتى تقرن هيبة السبع الشداد ، بحانوت الحدّاد ، أو تنظر أحكام الاعتكاف ، بدكان الإسكاف ، أو يتعلم طبع المثقال ، بحانوت البقال ، والظن للغالب ، وقد تلتبس المطالب ، إنكم أمرتموها ، لما أصدرتموها ، بإعمال التشوّف ، فطردت حكم الأبدال ، غائبة عما يلزم من الجدال ، وسمت الشين صادا ، وعينت لزرع الوصية حَصَادا ، والله تعالى يجعل المحب عند ظن من نظر بمرآته ، أو وصفه ببعض صفاته ، وهى تزلق عن صَفَاته ، فالتصوّف أشرف ، وظلاله أوْرَف ، من أن ينال كلف بباطل ، ومغرور بسراب ما طل ، لا برَبَاب هاطل ، ومفتون بحال حالٍ أو عاطل ، ومن قال ولم يتصف بمقاله ، فعقله لم يرِمْ عن عقاله ، وجبال أثقاله ، مانعة له عن انتقاله ، وعلى ذلك ، و بعد تقرير هذه المسالك ، فقدعمرت يدها

---

(١) هذا من قول الشاعر :

خل الطريق لمن يبنى المناربه ... وابرز ببرزة حيث اضطرك القدر

(٢) يريد سكرات الموت

كيلا تعود بها صِفْراً[١] بعد إعمال السفر ، أو ترى أنها قد طولبت بذنب الغلط المغتفر ، وأصبحت المراجعة بمجلس وعظ فتحت به باب الحرج ، إلى إنكار الإمام أبى الفرج[٢] وفن الوعظ لما سأل الأخ هو الصديق المسعد ، والمُبْرِق قبل غمام رحمته والمُرْعِد ، ولله در القائل : لستَ به ولم تبعد ، والاعتراض بعدُ ملازم ، لكنّ الإسعاف لقصده لازم ، وعامله عند الاعتلال بالعذر جازم ، و إغضاؤه ملتمس ، وفضله لا يخبو[٣] منه قَبَس ، وعذرا أيها الفاضل ، و بعد الاعتذار ، عن القلم المِهْذار ، و إغفال الحِذار ، اقرأ عليهم من طيب السلام ، ما يخجل أزهار الكمام عقب الغمام ، ورحمة الله تعالى ممن يمليه على الكاتب ، ولعها تفتؤ من عتب العاتب ، ابن الخطيب ، فإنى كتبته والليل دامس[٤] ، و بحر الظلام طامس ، وعادة الكسل طبع خامس ، والنافخ بشكوى البرد هامس ، والذبال المُنَادم خافت ، لا يهتدى إليه الفرَاش[٥] المتهافت ، يقوم و يقعد ، و يفيق ثم يرعد ، و يزفر ثم يخمد ، ور بما صار ورقة آس ، أو مبضع آس ، ور بما أشبه العاشق فى البوْح بما يخفيه ، وظهوره من فيه ، فتميله الآمال و تُلْويه ، وتميته النواسم الهفافة بعد ما تحييه ، والمطر ، قد تعذر معه الوطَر ، وساقه الخطر ، وفعل فى البيوت المتداعية مالا تفعل الترك والططر ، والنشاط ، قد طوى منه البساط ، والجوارح بالكلال تعتذر ، ووظائف الغد تنتظر ، والفكر فى الأمور السلطانية جائل ، وهى بحر هائل ، ومثلى مقنوع منه باليسير ، ومعذور فى قصر الباع وضعف المسير ، والسلام ، انتهى وهى من البلاغة فى الذروة .

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى قوله : ومما صدر عنى فى السياسة حديث من امتاز باُعتبار الأخبار ، وحاز درجة الاشتهار ، بنقل حوادث الليل والنهار ، وولج بين الكمائم والأزهار ، وتلطف لخجل الورد من تبسم النهار .

---

(١) تعود صفرا : خالية

(٢) يريد الإمام أبا الفرج بن الجوزى الواعظ الذى لا يشق له غبار

(٣) خبت النار تخبو : خمدت (٤) دامس : مظلم

(٥) الفراش : حشرة تلقي بنفسها على النار ، ويقال «فلان يتهافت تهافت الذباب على الشراب ، والفراش على الشهاب»

من إنشائه فى السياسة قصة عن الرشيد

قال : سهر الرشيد ليله ، وقد مال فى هجر النبيذ ميله ، وجهد ندماؤه فى جلب راحته ، و إلمام النوم بساحته ، فشحت عِهادهم[١] ، ولم يغن اجتهادهم ، فقال : اذهبوا إلى طرق سماها ورسمها ، وأمهات قسمها ، فمَنْ عثرتم عليه من طارق ليل ، أو غُثَاء سيل ، أو ساحب ذيل ، فبلغوه ، والأمَنَة سوّغوه ، واستدعوه ، ولا تَدَعُوه[٢] ، فطاروا تجالى ، وتفرقوا ركبانا ورجالا ، فلم يكن إلا ارتداد طرف ، أو فُوَاق[٣] حرف ، وأتوا بالغنيمة التى اكتسحوها ، والبضاعة التى ربحوها ، يتوسطهم الأشعث الأغبر ، واللج الذى لا يُعْبَر ، شيخ طويل القامة ، ظاهر الاستقامة ، سَبَلته مُشْمَطَّة ، وعلى أنفه من القبع مَطَّة ، وعليه ثوب مرقوع ، لطير الحرق عليه وقوع ، يُهَيْنِم بذكر مسموع ، و ينبىء عن وقت مجموع ، فلما مثل سلم ، وما نبس بعدها ولا تكلم ، فأشار إليه الملك فقَعَد ، بعد أن انشمر وابتعد ، وجلس ، فما استرق النظر ولا اختلس ، إنما حركة فكره ، معقودة بزمام ذكره ، ولحظات اعتباره ، فى تفاصيل أخباره ، فابتدره الرشيد سائلا ، وانحرف إليه مائلا ، وقال : ممن الرجل؟ فقال : فارسى الأصل ، أعجمى الجنس عربى الفصل ، قال : بلدك وأهلك وولدك؟ قال : أما الولد فولد الديوان ، وأما البلد فمدينة الإيوان ، قال : النحلة ، وما أعملت إليه الرحلة ؟ قال : أما الرحلة فالاعتبار ، وأما النحلة فالأمر الكبار ، قال : فَنكَ ، الذى اشتمل عليه دنك ؟ فقال : الحكمة فنى الذى جعلته أثيرا ، وأضجعت فيه فراشا وَثِيرا ، وسبحان الذى يقول (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) وما سوى ذلك فتبَع ، ولى فيه مُصْطَاف ومُرْتبع ، قال : فتعاضد جَذَلُ الرشيد وتوفر ، كأنما أغشى وجهه قطعة من الصبح إذا أسفر ، وقال : مارأيت كالليلة أجمع لأمل شارد ، وأنعم بمؤانسة وارد ، يا هذا إنى سائلك ، ولن تخيبَ بعدُ وسائلُك ،

(١) العهاد ، فى الأصل : الأمطار ، وشحت : بخلت ولم تنزل ، والعبارة مجاز عن أنهم لم يبلغوا بجهدهم ما أردوه. (٢) لاتدعوه : لاتتركوه.

(٣) الفواق – كغراب – مابين الحلبتين من الوقت ، وقيل: مابين فتح يد الحالب وقبضها على الضرع ، ويجعل كالمثل فى السرعة وضيق الوقت ، يقولون « أمهلنى قدر فواق حالب » والحرف – بالفتح – الناقة

فأخبرنى ماعندك فى هذا الأمر الذى بلينا بحَمْل أعبائه ، ومُنينا بمراوضة إبائه[١] ، فقال هذا الأمر قلادة ثقيلة ، ومن خطة العجز مستقيلة ، ومفتقرة لسَعَة الذَّرْع ، وربط السياسة المدنية بالشرع ، يفسده الحكم فى غير محله ، ويكون ذريعةً إلى حله ، ويُصْلحه مقابلة الشكل بشكله ، ومن لم يكن سبعا آكلا تداعت سباع إلى أكله

فقال الملك : أجملت ففصل ، وبَرَيْت فنصل ، وكلت فأوصل ، وانثر الحب لمن يُحَوْصِل ، واقسم السياسة فنونا ، واجعل لكل لقب قانونا ، وابدأ بالرعية ، وشروطها المرعية .

فقال : رعيتك ودائع الله تعالى قبلك ، ومرآة العدل الذى عليه جَبَلَكَ ، ولا تصل إلى ضبطهم إلا بإعانة الله تعالى التى وهب لك ، وأفضلُ ما استدعيت به عَوْنه فيهم ، وكفايته التى تكفيهم ، تقويمُ نفسك عند قصد تقويمهم ، ورضاك بالسهر لتنويمهم ، وحراسة كهلهم ورضيعهم ، والترفع عن تضييعهم ، وأخذ كل طبقة بما عليها وما لها ، أخذا يحوط مالها ، ويحفظ عليها كمالها ، ويقصر عن غير الواجبات آمالها ، حتى تستشعر عليتها رأفتك وحنانك ، وتعرف أوساطها فى النصب امتنانك ، وتحذر سفلتها سنانك ، وحظر على كل طبقة منها أن تتعدى طورها ، أو تخالف دورها ، أو تجاوز بأمر طاعتك فورها ، وسد فيها سبل الذريعة ، وأقصر جميعها عن خدمة الملك بموجب الشريعه ، وامنع أغنيائها من البطر والبطالة ، والنظر فى شبهات الدين بالتمشدق والإطالة ، وليقل فيما شجر بين الناس كلامها ، ويرفض مما تنبز به أعلامها ، فإن ذلك يسقط الحقوق ، ويرتب العقوق ، وامنعهم من نحش الحرص والشره ، وتعاهدهم بالمواعظ التى تجلو البصائر من المرهِ ، واحملهم من الاجتهاد فى العمارة على أحسن المذاهب ، وانْهَهُمْ عن التحاسد على المواهب ، ورُضْهُم على

---

(١) الأعباء : جمع عبء ، وهو ما يثقل حمله ، ومنينا — بالبناء للمجهول — أصله بمعنى دفعنا إليه ووفقنا له وكان من أمانينا ، ومراوضة الشىء : رياضته وتذليله وتسهيله ، والإباء : الامتناع ، ومعنى العبارة دفعنا إلى تذليل صعبه وتيسير مشقاته

الإنفاق بقدر الحال ، والتعزى عن الفائت فَرَدُّه من المحال ، وحدد البخل عن أهل اليسار ، والسخاء على أولى الإعسار ، وخذهم من الشريعة بالواضح الظاهر ، وامنعهم من تأويلها مَنْعَ القاهر ، ولا تطلق لهم التجمع على من أنكروا أمرهُ فى نواديهم ، وكف عنهم أكف تعديهم ، ولا تبح لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم ، ولتكن غايتهم ، فيما توجَّهَتْ إليه إبايتهم ، ونكصت عن الموافقة عليه رايتهم ، إنهاءه إلى من وكلته بمصالحهم من ثقاتك ، المحافظين على أوقاتك ، وقدم منهم من أمنت عليهم مكره ، وحمدت على الإنصاف شكره ، ومن كثر حياؤه من التأنيب ، وقابل الهفوة باستتابة المنيب ، ومن لا يتخطَّى عن محله الذى حله ، فربما عمد إلى المبرم لحله ، وحسن النية لهم بجهد الاستطاعة ، واغتفر المكاره فى جنب حسن الطاعة ، وإن ثار جوادهم ، واختلف فى طاعتك مُرَادهم ، فتحصن لثورتهم ، واثبت لفورتهم ، فإذا سالوا وسلوا ، وتفرقوا وانسلوا ، فاحتقر كثرتهم ، ولا تُقِل عثرتهم ، واجعلهم لما بين أيديهم وما خلفهم نكالا ، ولا تترك لهم على حلمك اتكالا .

ثم قال : والوزير الصالح أفضل عددك ، وأوصل مددك ، فهو الذى يصونك عن الابتذال ، ومباشرة الأنذال ، ويثب لك على الفرصة ، وينوب فى تجرع الغصَّة ، واستجلاء القصة ، ويستحضر ما نسيته من أمورك ، ويغلب فيه الرأى بموافقة مأمورك ، ولا يسعه ما تمكنك المسامحة فيه ، حتى يستوفيه ، واحذر مصادمة تياره ، والتجوز فى اختياره ، وقدم استخارة الله تعالى فى إيثاره ، وأرسل عيون الملاحظة على آثاره ، وليكن معروفا بالإخلاص لدولتك ، معقود الرضا والغضب برضاك وصَوْلَتك ، زاهداً عما فى يديك ، مؤثراً لكل ما يُزْلِفُ لديك[١] ، بعيد الهمة ، راعيا للأذِمَّة[٢] ، كامل الآلة ، محيطا بالإيالة ، رحيب الصدر ، رفيع القدر ، معروف البيت ، نبيه الحى والميت ، مؤثراً للعدل والإصلاح ، دريا بحمل السلاح ، ذا خبرة بدخل

---

(١) يزلف لديك : يقرب منك

(٢) الأذمة : جمع ذمام ، وهو العهد

المملكة وخَرْجها، وظهرها وسرجها، صحيح العقد، متحرزاً من النقد، جاداً عند لهوك، متيقظاً فى حال سَهْوِك، يلين عند غضبك، ويَصِلُ الإسهاب بمقتضبك[١]، فقلما من شكره دونك وحمده، ناسباً لك الإصابة بعَمْده، وإن أعيا عليك وجودُ أكثر هذه الخلال، وسبق إلى نقضها شىء من الاختلال، فاطلب منه سكون النفس وهدونها[٢] وأن لا يرى منك رتبة إلا رأى قَدْرَه دونها، وتقوى الله تعالى تفضل شرف الانتساب، وهى للفضائل فَذْلَكة الحساب، وساوِ فى حفظ عَيْبه بين قربه ونأيه، واجعل حظهُ من نعمتك موازيا لحظك من حسن رأيه، واجتنب منهم من يرى فى نفسه إلى الملك سبيلا، أو يقود من عِيصِه للاستظهار عليك قبيلا، أو من كاثر مالك ماله، أو من تقدم لعدوك استعماله، أو من سمت لسواك آماله، أو من يَعْظُم عليه إعراض وجهك، ويهمه نادرُ تَجَهُّك، أو من يداخل غير أحبابك، أو من ينافس أحداً ببابك.

وأما الجند فاصرف التقديم منهم للمقاتلة، والمكايدة والمخاتلة، واستوف عليهم شرائط الخدمة، وخذهم بالثبات للصدمة، ووفِّ ما أوجبت لهم من الجراية والنعمة، وتعاهدهم عند الغناء بالعلفة والطعمة، ولا تكرم منهم إلا من أكرمه غناؤه، وطاب فى الذبِّ عن ظنك ثناؤه، وولِّ عليهم النبهاء من خيارهم، واجتهد فى صرفهم عن الافتتان بأهليهم وديارهم، ولا توطئهم الدَّعة مهاداً، وقدمهم على حصصك وبعوثك سهما أردت جهاداً، ولا تلين لهم فى الإغماض عن حسن طاعتك قياداً، وعَوِّدهم حسن المواساة بأنفسهم اعتياداً، ولا تسمح لأحد منهم فى إغفال شىء من سلاح استظهاره، أو عُدَّة اشتهاره، وليَكُنْ مافضل من شبعهم وريهم، مصروفا إلى سلاحهم وزيهم، والتزيد فى مراكبهم وغلمانهم، من غير اعتبار لأثمانهم،

---

(١) المقتضب ـ بزنه المفعول ـ الموجز المختصر

(٢) هدن فلان يهدن ـ من باب جلس ـ هدونا : أى سكن

وامنعهم من المشغلات والمتاجر ، وما يتكسب به غير المشاجر ، وليكن من الغزو اكتسابهم ، وعلى المغانم حسابهم ، كالجوارح التى تفسد باعتيادها ، أن تطعم من غير اصطيادها .

واعلم أنها لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان ، إلا لمن يملك قلوبها بالإحسان وفضل اللسان ، و يملك حركاتها بالتقويم ، ورُتبَها بالميزان القويم ، ومن تثق بإشفاقه على أولادها ، و يشترى رضا الله تعالى بصبره على طاعته وجِلادها ، فإذا استشعرت لها هذه الخلال تقدمتك إلى مواقف التلف ، مطيعة دواعى الكلف ، واثقة منك بحسن الخلف ، واسْتَبِقْ إلى تمييزهم استبقا ، وطبقهم طباقا ، أعلاها من تأملت منه فى المحاربة عنك أخطاراً ، وأبْعدُهم فى مرضاتك مَطارا[١] ، وأضبطهم لما تحت يده من رجالك حزما ووقاراً ، واستهانة بالعظائم واحتقاراً ، وأحسنهم لمن تقلده أمرك من الرعية جِواراً ، إذا أجدت اختباراً ، وأشَدّهم على مماطلة من مارسه من الخوارج عليك اصطبارا ، ومن بَلاَ[٢] فى الذى عنّ لك إحلاء وأمرارا ، ولحقه الضر فى معارض الدفاع عنك مراراً ، و بعده مَنْ كانت محبته لك أزيد من نَجْدَته وموقع رأيه أنفع من موقع صَعْدته[٣] ، و بعدهما مَنْ حسن انقياده لأمرائك ، و إحماده لآرائك ، ومَنْ جعل نفسه من الأمر حيث جعله ، وكان صبره على ما عراه أكثر من اعتداده بما فعله . واحذر منهم من كان عند نفسه أكبر من موقعه فى الانتفاع ، ولم يستحْيِ من التزيد بأضعاف ما بذله من الدفاع ، وشكا البخس فيما تعذر عليه من فوائدك ، وقاس بين عوائد عدوك وعوائدك[٤] ، وتوعد بانتقاله عنك وارتحاله ، وأظهر الكراهية لحاله .

وأما العمال فإنهم ينبؤن عن مذهبك ، وحالهم فى الغالب شديدة الشبه بك ،

---

(١) تقول «طار فلان بأمر فلان» تريد أنه أسرع فى إنجازه غاية السرعة

(٢) بلا : اختبر وجرب (٣) الصعدة ، هنا : الرمح

(٤) العوائد : جمع عائدة ، وهى الأمر النافع

فعرفهم فى أمانتك السعادة ، وألزمهم فى رعيتك العادة ، وأنزلهم من كرامتك بحسب منازلهم فى الاتصاف ، بالعدل والإنصاف ، وأحِلّهم من الحفاية ، بنسبة مراتبهم من الأمانة والكفاية ، وقِفهم عند تقليد الأرجاء[1] ، مواقفَ الخوف والرجاء ، وقرر فى نفوسهم أن أعظم مابه إليك تقربوا ، وفيه تدربوا ، وفى سبيله أعجموا وأعربوا ، إقامة حق ودَحْض باطل[2] ، حتى لا يشكو غريم مَطْلَ ماطل ، وهو آثر لديك من كل رَبَاب[3] هاطل ، وكفهم من الرزق الموافق ، عن التصدى لدنىء المرافق ، واصطنع منهم من تيسرت كلفته ، وقويت للرعايا ألفته ، ومن زاد على تأميله صبره ، وأربى على خَبَره خُبْره ، وكانت رغبته فى حسن الذكر ، تشف على بنات الفكر ، واجتنب منهم من يغلب عليه التخرق فى الإنفاق ، وعدم الإشفاق ، والتنافس فى الاكتساب ، وسَهُل عليه سوء الحساب ، وكانت ذريعته المصانعة بالنفاية ، دون التقصى والكفاية ، ومن كان منشؤه خاملا ، ولأعباء الدناءة حاملا ، وأَبْغِ مَنْ يكون الاعتذار فى أعماله ، أوضح من الاعتذار فى أقواله ، ولا يفتننك ممن قلدته اجتلاب الحظ المقنع ، والتنفق بالسعى المسمع ، ومخالفة السنن المرعية ، واتباعه رضك بسخط الرعية ، فإنه قد غَشَّك ، من حيث بَلَّك ورَشَّك ، وجعل من يمينك فى شمالك ، حاضر مالك ، ولا تضمن عاملا مال عمله ، وحُلْ بينه فيه وبين أمله ، فإنك تميت رسومك بمحياه ، وتخرجه من خدمتك فيه إلا أن تملكه إياه ، ولا تجمع له بين الأعمال فيسقط استظهارك ببلد على بلد ، والاحتجاج على والد بولد ، واحرص على أن يكون فى الولاية غريبا ، ومنتقلُه منك قريبا ، ورهينة لا يزال معها مريبا ، ولا تقبل مصالحته على شىء اختانه ، ولو برغيبة فَتَّانه ، فتقبل المصانعة فى أمانتك ، وتكون مشاركا له فى

---

(١) الأرجاء : النواحى ، وحدها رجا ــ بزنة فتى وعصا ــ
(٢) دحض الباطل يدحضه ــ من باب فتح ــ أزهقه وأزاله
(٣) الرباب : السحاب ، وزنا ومعنى

خيانتك ، ولا تُطِلْ مدة العمل ، وتعاهد كشف الأمور ممن يَرْعَى الهمل ، ويبلغ الأمل .

وأما الولدفأحْسِنْ آدابهم ، واجعل الخيردابهم[١] ، وخَفْ عليهم من إشفاقك وحَنَانك ، أكثر من غلظة جنانك ، واكتم عنهم ميلك ، وأفضْ فيهم جودك وَنَيْلك ، ولاتستغرق بالكلف بهم يومك ولا لَيْلَك ، وأبهم على حسن الجواب ، وسبق لهم خوف الجزاء على رجاء الثواب ، وعلمهم الصبر على الضرائر ، والمهلة عند استخفاف الجرائر ، وخذهم بحسن السرائر ، وحبب إليهم مراسَ الأمور[٢] الصعبة المِراس ، وحسن الاصطناع والاحتراس ، والاستكثار من أولى المراتب والعلوم ، والسياسات والحلوم ، والمقام المعلوم ، وكرِّهْ إليهم مجالسة الملهين ، ومصاحبة الساهين ، وجاهد أهواءاهم عن عقولهم ، وحذر الكذب على مَقُولهم ، ورشحهم إذا آنست منهم رُشْدا أو هَدْيا ، وأرضعهم من الموازرة والمشاورة ثديا ، لتمرِّنهم على الاعتياد ، وتحملهم على الازدياد ، ورُضْهُم رياضة الجياد ، واحذر عليهم الشهوات فهى داؤهم ، وأعداؤك فى الحقيقة وأعداؤهم ، وتدارك الخلق الذميمة كلما نَجَمَت ، واقذعها إذا هجمت ، قبل أن يظهر تضعيفها ، و يقوى ضعيفها ، فإن أعجزتك فى الصغر الحيل ، عظم الميل :

إن الغصُونَ إذا قومتها اعتدلت ‏ ‏ ‏ ‏ ولن تلين إذا قومتها الخشب

و إذا قدروا على التدبير ، وتشوفوا للمحل الكبير ، إياك أن توطنهم فى مكانك ، جهد إمكانك ، وفرقهم فى بلدانك ، تفريق عِبْدَانك ، واستعملهم فى بعوث

---

(١) اجعل الخير دابهم : أى عادتهم وديدنهم ، وأصله بالهمز .

(٢) تقول « مارس فلان الأمر ممارسة ومراسا » تريد أنه عالجه وزاوله وعاناه وشرع فيه ، وقال الشاعر ، وهو يزيد بن الطثرية :

إذا أرسلونى عند تعذير حاجة ‏ ‏ ‏ ‏ أمارس فيها كنت نعم الممارس

جهادك ، والنيابة عنك فى سبيل اجتهادك ، فإن حَضْرَتك تشغلهم بالتحاسد ، والتبارى والتفاسد ، وانظر إليهم بأعين الثقات ، فأن عين الثقة تُبْصِرُ ما لا تبصر عين المحبة والمِقَة .

وأما الخدم فإنهم بمنزلة الجوارح التى تفرق بها وتجمع ، وتبصر وتسمع ، فرُضْهم[1] بالصدق والأمانة ، وصنهم صَوْنَ الجُمانة[2] ، وخذهم بحسن الانقياد إلى ما آثرته ، والتقليل مما استكثرته ، واحذر منهم من قويت شَهَوَاته ، وضاقت عن هواه لَهَواته ، فإن الشهوات تنازعُكَ فى استرقاقه ، وتشاركك فى استحقاقه ، وخَيْرهم من ستر ذلك عنه بلطف الحيلة ، وأدأب للفساد محيله ، وأشْرِبْ قلوبهم أن الحق فى كل ما حاولته واستنزلته ، وأن الباطل فى كل ماجانبته واعتزلته ، وأن مَنْ تصفح منهم أمورك فقد أذنب ، وباين الأدب وتجنب ، وأعْطِ من أكددته ، وأضقت منه ملكه وشددته ، رَوْحَة يشتغل فيها بما يعنيه ، على حسب صعوبة ما يُعَانيه ، تغبطهم فيها بمسارحهم ، وتجم كايلة جوارحهم ، ولتكن عطاياك فيهم بالمقدار الذى لا يبطر أعلامهم ، ولا يؤسف الأصاغر فيفسد أحلامهم ، ولا تَرُمْ محسنهم بالغاية من إحسانك ، واترك لمزيدهم فضلة من رفدك ولسانك ، وحذرعليهم مخالفتك ولو فى صلاحك ، بحدِّ سلاحك ، وامنعهم من التواثب والتشاجر ، ولا تحمد لهم شيم التقاطع والتهاجر ، واستخلص منهم لسرك من قلت فى الإفشاء ذنوبه ، وكان أصبر على ما ينوبه ، ولودائعك من كانت رغبته فى وظيفة لسانك ، أكثر من رغبته فى إحسانك ، وضبطه لما تقلد من وديعتك ، أحب إليه من حسن صنيعتك ، وللسفارة عنك مَنْ حلا الصدق فى فمه ، وآثره ولو باختطار دمه ، واستوفى لك وعليك فهم ما تحمَّله ، وعُنى بلفظه حتى لا يهمله ، ولمن تودعه أعداء دولتك مَنْ كان مقصور الأمل ، قليل القول صادق العمل ، ومن كانت قسوته زائدة على

---

(١) رضهم : أمر من الرياضة ، والمراد عودهم ذلك واعمل على أن يكون من خلقهم

(٢) صنهم : احفظهم ، والجمانة - بالضم - الدرة

رحمته ، وعظمه فى مرضاتك آثر من شحمته ، ورأيه فى الحذر سَديد ، وتحرُّزه من الحيل شديد ، ولخدمتك فى ليلك ونهارك مَنْ لانت طباعه ، وامتد فى حسن السجيَّة باعُه ، وأمن كيده وغدره ، وسلم من الحقد صدره ، ورأى المطامع فما طمع ، واستثقل إعادة ماسمع ، وكان بريئا من المَلاَل ، والبشر عليه أغلب الخلال ، ولاتؤنسهم منك بقبيح فعل ولاقول ، ولاتؤيسهم من طَوْل[1] ، ومكن فى نفوسهم أن أقوى شفعائهم ، وأقرب إلى الإجابة من دعائهم ، إصابة الغرض فيما به وكلوا ، وعليه شكلوا ، فإنك لا تعدم بهم انتفاعا ، ولا يعدمون لديك ارتفاعا .

وأما الحرم فهنَّ مغارس الولد ، ورياحين الخلد ، وراحة القلب الذى أجهدته الأفكار ، والنفس التى تقسمها الإجماد إلى المساعى والإفكار ، فاطلب منهن من غلب عليهن من حسن الشيم ، المترفعة عن القيم ، مالا يسوءك فى خلدك ، أن يكون فى ولدك ، واحذر أن تجعل لفكر بشر دون بصر إليهن سبيلا ، وانصب دون ذلك عذابا وبيلا[2] ، وأرْعِهِنَّ من النساء العُجُز مَنْ بانت فى الديانة والأمانة سبله ، وقويت غيرته ونبله ، وخذهن بسلامة النيات ، والشيم السنيَّات ، وحسن الاسترسال ، والخلق السَّلسال ، وحَذِّر عليهنّ التغامُزَ والتغاير ، والتنافس والتخاير ، وآس بينهن[3] فى الأغراض ، والتصامم عن الإعراض ، والمحاباة بالأعراض ، وأقلل من مخالطتهن فهو أبقى لهمتك ، وأسبل لحرمتك ، ولتكن عشرتك لهن عند الكلال والملال ، وضيق الاحتمال ، بكثرة الأعمال ، وعند الغضب والنوم ، والفراغ من نَصَبِ اليوم ، واجعل مَبيتكَ بينهن تنم بركاتك ، وتستتر وحركاتك ، وافصل من ولدتْ منهن إلى مسكن يختبر به استقلالها ، ويعتبر بالتفرد خلالها ، ولا تطلق لحرمة شفاعة ولاتدبيرا ، ولا تَنُطْ بها من الأمر صغيرا ولا كبيرا ، واحذر أن يظهر

---

(١) الطول ـ بالفتح ـ الفضل والنعمة

(٢) عذاب وبيل : شديد وخيم العاقبة

(٣) آس بينهن : سوّ

على خدمهن فى خروجهن عن القصور ، و بروزهن من أَجَمَة[(١)] الأسد الهَصُور ، زى بارع ، ولا طيب للأنوف مسارع ، واخصص بذلك مَنْ طعن فى السن ، و يئس من الإنس والجن ، ومن توفر النزوع إلى الخيرات قبله ، وقصر عن جمال الصورة ورُسم بالبَلَه[(٢)]

ثم لما بلغ إلى هذا الحد حمى وطيس استجفاره، وختم حزبه باستغفاره ، ثم صمت مَلِيًّا ، واستعاد كلاما أوّليا .

ثم قال : واعلم يا أمير المؤمنين ـ سدد الله تعالى سهمك لأغراض خلافته ! وعصمك من الزمان وآفته ! ـ أنك فى مجلس الفصل ، ومباشرة الفرع من ملكك والأصل ، فى طائفة من عز الله تعالى تذبُّ عنك حُمَاتها ، وتدافع عن حوزتك كماتها ، فاحذر أن يعدل بك غضبك عن عدل تزرى منه بضاعة ، أو يهجم بك رضاك على إضاعة ، ولتكن قدرتك وقفا على الاتصاف ، بالعدل والإنصاف ، واحكم بالسَّوِية[(٣)] ، واجنح بتدبيرك إلى حسن الرويَّة[(٤)] ، وخَفْ أن تقعد بك أناتك عن حزم تعين ، أو تستفزك العجلة فى أمر لم يتبين ، وأطع الحجة ما توجهت إليك ، ولا تحفل بها إذا كانت عليك ، فانقيادك إليها أحسن من ظفرك ، والحق أجدى من نفرك ، ولا تردن النصيحة فى وجه ، ولا تقابل عليها بنَجْه ، فتمنعها إذا استدعيتها ، وتحجب عنك إن استوعيتها ، ولا تستدعها من غير أهلها ، فيشغبك أولو الأغراض بجهلها ، واحرص على أن لا ينقضى مجلس جلسته ، أو زمن اختلسته ، إلا وقد أحرزت فضيلة زائدة ، أو وثقت منه فى مَعَادك بفائدة ، ولا يزهدنك فى المال كثرته ، فتقل فى نفسك أثرته ، وقس الشاهد بالغائب ، واذكر وقوع ما لا يحتسب من النوائب ، فالمال المصون ، أمنع الحصون ، ومَنْ قل ماله ، قصرت آماله ، وتهاون بيمينه شماله ، والملك إذ فقد خزينه ، أخنى على أهل الجدة التى تزينه ،

---

(١) الأجمة ـ بالتحريك ـ مسكن السباع ، والأسد الهصور : الشديد الوثبة الذى يكسر فريسته .

(٢) هكذا ، ولها وجه وجيه ، ولو كانت « ووسم بالبله » لكان أظرف .

(٣) احكم بالسوية : بالعدل (٤) الروية : التروى فى الأمر والتأنى .

وعاد على رعيته بالإجحاف ، وعلى جبايته بالإلحاف ، وساء معتاد عيشه ، وصغر فى عيون جيشه ، ومَنُّوا عليه بنصره ، وأنفوا من الاقتصار على قصره ، وفى المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه ، وتربط آمال أهل السلاح به ، والمال نعمة الله تعالى فلا تجعله ذريعة(١) إلى خلافه ، فتجمع بالشهوات بين إتلافك و إتلافه ، واستأنس بحسن جوارها ، واصرف فى حقوق الله تعالى بعضَ أطوارها ، فإن فَضَلَ المالُ عن الأجل فأجَلّ(٢) ، ولم يضر ماخلف منه بين يدى الله عزوجل ، وماينفق فى سبيل الشريعة ، وسد الذريعة ، مأمول خَلَفُه ، وما سواه فمتعين تَلَفُه ، واستخلص لنواديك الغاصة ، ومجالسك العامة والخاصة ، من يليق بولوج عَتَبها ، والعروج(٣) لرتبها ، أما العامية فمن عظم عند الناس قدره ، وانشرح بالعلم صدره ، أوظهر يساره ، وكان لله تعالى إخْبَاته وانكساره ، ومن كان للفتيا منتصبا ، و بتاج المشورة معتصبا ، وأما الخاصية فمن رَقّت طباعه ، وامتد فيما يليق بتلك المجالس باعه ، ومن تبحر فى سير الحكماء ، وأخلاق الكرماء ، ومن له فضل سافر ، وطبع للدّنية منافر ، ولديه من كل ما تستتر به الملوك من العوام حظ وافر ، وصف ألبابهم بحصول خيرك ، وسكن قلوبهم بيُمْن طيرك ، وأغْنِهِمْ ماقدرت عن غيرك .

واعلم بأن مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاعل المتألقة(٤) ، والمصابيح المتعلقة ، وعلى قدر تعَاهدها تبذل من الضياء ، وتجلو بنورها صور الأشياء ، وفرّعها لتحبير ما يزين مدتك ، ويحسن من بعد البلاء جدتك ، و بعناية الأواخر ذكرت الأول ، و إذا محيت المفاخر خربت الدول .

واعلم أن بقاء الذكر مشروط بعمارة البلدان ، وتخليد الآثار الباقية فى القاصى والدان ، فاحرص على ما يوضح فى الدهر سُبُلك ، ويحرز المزية على من قبلك ،

---

(١) الذريعة : الوسيلة . (٢) أجل : أعظم ، أفعل تفضيل من الجلالة .
(٣) العروج : الصعود . (٤) المتألقة : المضيئة .

وأن خير الملوك من ينطق بالحجة وهو قادر على القهر ، ويبذل الإنصاف فى السر والجهر ، مع التمكن من المال والظَّهْر ، ويسار الرعية جمال للملك وشرف ، وفاقتهم من ذلك طرف ، فغلب أليق الحالين بمحلك ، وأولاهما بظعنك وحِلِّك[١] .

واعلم أن كرامة الجور داثرة ، وكرامة العدل متكاثرة ، والعلبة بالخير سيادة ، وبالشر هَوَادة ، واعلم أن حسن القيام بالشريعة يحسم عنك نكاية الخوارج ، ويسمو بك إلى المعارج ، فإنها تقصد أنواع الخدع ، وتورى بتغيير البدع ، وأطلق على عدوك أيدى الأقوياء من الأكفاء ، وألسنة اللفيف من الضعفاء ، واستشعر عند نكثه شعار الوفاء .

ولتكن ثقتك بالله تعالى أكثر من ثقتك بقوة تجدها ، وكتيبة تنجدها ، فإن الإخلاص يمنحك قوى لاتكتسب ، ويمهد لك مع الأوقات نصرا لايحتسب والتمس أبدًا سلْمَ من سالمك بنفيس مافى يدك ، وفَضِّل حاصلَ يومك على مُنْتَظَر غدك ، فإن أبى وضحت محجتك ، وقامت عليه للناس بذلك حجتك ، فللنفوس على الباغين ميل ، ولها من جانبه نيل ، واستهدفى كل يوم سيرة[٢] من يناويك ، واجتهد أن لا يوازيك فى خير ولا يساويك ، وأكذب بالخير ما يُشِيعه من من مساويك ، ولا تقبل من الإطراء[٣] إلا ما كان فيك فضل عن إطالته ، وجد يُزْرِى على بطالته ، ولا تلق المذنب بحميتك وسَبِّك ، واذكر عند حركة الغضب ذنوبك إلى ربك ، ولا تنس أن رب المذنب أجلسك مجلس الفصل ، وجعل فى قبضتك رياش النصل ، وتشاغل فى هدنة الأيام بالاستعداد ، واعلم أن التراخى منذر بالاشتداد ، ولا تهمل عرض ديوانك ، واختبار أعوانك ، وتحصين معاقلك وقلاعك ، وعُمِّ إيالتك[٤] بحسن اطلاعك ، ولا تشغل زمن الهدنة بلذاتك ،

(١) ظعنك : ارتحالك ، وحلك : إقامتك .

(٢) يناويك : يعاديك ، واستهد سيرته : تعرف أخباره .

(٣) الإطراء : المديح . (٤) الإيالة : السياسة ، وأراد هنا البلاد التى تسوسها

فتجنى فى الشدة على ذاتك ، ولا تطلق فى دولتك ألسنة الكهانة والإرجاف ، ومطاردة الآمال العِجَاف (١) ، فإنه يبعث سوء القول ، ويفتح باب العول ، وحذر على المدرسين والمتعلمين ، والعلماء والمتكلمين ، حَمْلَ الأحداث على الشكوك الخالجة والمَزَلات الواجة ، فإنه يفسد طباعهم ، ويغرى سباعهم ، ويمد فى مخالفة الملة باعهم ، وسُدَّ سبيل الشفاعات فإنها تفسد عليك حسن الاختيار ، ونفوس الخيار ، وابذل فى الأسرى من حسن ملكتك ما يرضى مَنْ ملَّكك رقابها ، وقلدك ثوابها وعقابها ، وتَلَقَّ بدء نهارك بذكر الله تعالى فى ترفعك وابتذالك ، واختم اليوم بمثل ذلك .

واعلم أنك مع كثرة حُجَّابك ، وكثافة (٢) حِجَابك ، بمنزلة الظاهر للعيون ، المطالَب بالديون ، لشدّة البحث عن أمورك ، وتعرف السر الخفى بين آمرك ومأمورك ، فاعمل فى سرك مالا تستقبح أن يكون ظاهرا ، ولا تأنف أن تكون به مُجَاهرا ، وأحْكِم بَرَّيك فى الله ونَحْتَك ، وخف مَنْ فوقك يخف مَنْ تحتك ، واعلم أن عدوك من أتباعك من تناسيت حسن قَرْضه ، أو زادت مؤنته على نصيبه منك وفَرْضه ، فأصمت الحجج ، وتوقَّ اللجج (٣) ، واسترب بالأمل ، ولا يحملنك انتظام الأمور على الاستهانة بالعمل ، ولا تحقرن صغير الفساد ، فيأخذ فى الاستئساد ، واحبس الألسنة عن التخالى باغتيابك ، والتشبث بأذيال ثيابك ، فإن سوء الطاعة ينتقل من الأعين الباصرة ، إلى الألسن القاصرة ، ثم إلى الأيدى المتناصرة ، ولا تثق بنفسك فى قتال عدو ناواك ، حتى تظفر بعدو غضبك وهواك ، وليكن خوفك من سوء تدبيرك ، أكثر من عدوك الساعى فى تتبيرك (٤) ، وإذا استنزلت ناجما ، أو أمنت ثائرا هاجما ، فلا تقلده البلد الذى فيه نَجَمَ (٥) ، وهَمَى عارضُهُ فيه

---

(١) العجاف : الهزيلة الضعيفة . (٢) كثافة حجابك : غلظه .
(٣) توق اللجج : تحفظ من الاسترسال فى الجدال .
(٤) تتبيرك : إهلاكك . (٥) نجم : ظهر .

وانسجم[١]، يعظم عليك القدح فى اختيارك ، والغضّ[٢] من إيثارك ، واحترز من كيده فى حوارك ومأمك ، فإنك أكبر همّه وليس بأكبر همك ، وجَمِّلِ المملكة بتأمين الفلوات[٣]، وتسهيل الأقوات ، وتجديد مايتعامل من الصرف فى البياعات، وإجراء العوائد مع الأيام والساعات ، ولا تبخس عِيَار قِيم البضاعات ، ولتكن يدك عن أموال الناس محجورة[٤] ، وفى احترامها إلا عن الثلاثة مأجورة : مال مَنْ عدا طوره طورَ أهله ، وتخارق فى الملابس والزينة ، وفضول المدينة ، يروم معارضتك بجمله ؛ ومَنْ باطَنَ أعداك ، وأمن اعْتِداك ؛ ومَنْ أساء جوار رعيتك بإحساره ، وبذل الأذاية فيهم بيمينه ويساره ، وأضَرُّ مامُنِيتَ به التعادى بين عبدانك ، أو فى بلد من بلدانك ، فسُدَّ فيه الباب ، واسأل عن الأسباب ، وانقلهم بوساطة أولى الألباب ، إلى حالة الأحْبَاب ، ولا تطوق الأعلام أطواقَ المنون ، بهواجس الظنون ، فهو أمر لايقف عند حد، ولا ينتهى إلى عد ، واجمل ولدك فى احتراسك، حتى لا يطمع فى افتراسك .

ثم لما رأى الليل قد كاد ينتصف ، وعموده يريد أن ينقصف ، ومجال الوصايا أكثر مما يصف ، قال : ياأمير المؤمنين ، بحر السياسة زاخر ، وعمر المتمتع بناديك مستأخر ، فإن أذنْتَ فى فن من فنون الأنس يجذب بالمقاد ، إلى راحة الرقاد ، ويعتق النفس بقدرة ذى الجلال ، من ملكة الكلال[٥] .

فقال : أما والله قد استحسنّا ما سردت ، فشأنك وما أردت .

فاستدعى عودا فأصلحه حتى حمده ، وأبعد فى اختباره أمَدَه ، ثم حركَ بَمّه ، وأطال الجس ثمه ، ثم تغنى بصوت يستدعى الإنصات ، ويصدع الحصَاة[٦] ، ويستفز

(١) العارض : أصله السحاب ، وأراد ههنا المطر ، وهمى وانسجم : معنى كل منهما انصب ماؤه وتوالى سيلانه . (٢) الغض : الانتقاص (٣) الفلوات : الصحارى (٤) محجورة : ممنوعة (٥) الكلال : التعب والإعياء (٦) الحصاة ، هنا : القلب

الحليم عن وقاره ، و يستوقف الطير ورزقُ بنيه فى منقاره ، وقال :

صاح ما أعــطرَ القبول بِنمَّهْ ... أتراها أطالت اللبث ثَمَّــه(١)

هى دار الهوى مُنَى النفس فيهـا ... أبد الدهر والأمانىُّ جَمَّـهْ(٢)

إن يكن ما تأرج الجوّ منها ... وأُستفاد الشــذا و إلا فِممَّهْ(٣)

مَنْ لطرفى بنظرة ولا نفى ... فى رباها وفى ثراها بشـــمه

ذكر العهــد فانتفضت كأنى ... طرقتنى من الملائك لمــه

وطن قد نَضَيْتُ فيــه شبابا ... لم تُدَنِّسُ منــه البرودَ مَذَمَّهْ

بِنْتُ عنهوالنفس من أجل من قد ... خلفته خـــلاله مغتمه

كان حلما فويح من أمل الدهــر ... وأعماه جَهْلُه وأصمــه

تأمُلُ العيش بعد أن خلق الجســم ... و بنيانه عسير المرمَّــهْ؟

وغدت وَفْرة الشــبيبة بالشيب ... على رغم أنفها مغتمــه

فلقــد فاز سالك جعل الله ... إلى الله قصــده ومأمَّهْ

من يَبِتْ من غرور دنيا بهمٍّ ... يلدغ القلب أكْثَرَ الله همــه

ثم أحال اللحن إلى لون التنويم ، فأخذ كل فى النعاس والتهويم ، وأطال الجس فى الثقيل ، عاكفا عكوف الضاحى فى المقيل ، فخاط عيونَ القوم ، بخيوط النوم ، وعمر بهم المراقد ، كأنما أدار عليهم الفراقد ، ثم انصرف ، فما علم به أحد ولا عرف ، ولما أفاق الرشيد جدَّ فى طلبه ، فلم يعلم بمُنْقلبه ، فأسف للفراق ، وأمر بتخليد حِكَمه فى بطوق الأوراق ، فهى إلى اليوم تتلى وتنقل ، وتجلى القلوب بها وتصقل ، والحمد لله رب العالمين ، انتهى .

وقال فى « الإحاطة » بعد إيراد نبذة من نثره ما صورته : فهذا ما حضر من

---

(١) اللبث : الإقامة ، وثمة : أى هناك . (٢) جمة : كثيرة .

(٣) تأرج : تعطر ، والشـذا : طيب الرائحة ، ومِمه : أى من أى شىء يكون إن لم يكن منها .

المنثور وحظه عندى من الإجادة ضعيف ، وغرضه كما شاء الله تعالى سخيف ، لـكن الله سبحانه بعباده لطيف ، انتهى .

نماذج قصار من نثر لسان الدين

ومما علق بحفظى من نثره قوله فى تحليته لبعض أهل زمانه : هو إمام الفئة ، وعين أعيان هذه المائة .

وقوله فى وصف فاس : نعم العَرِين[١] لأسود بنى مَرِين ، ذات المشاهد التى منها مطرح الجنة ومسجد الصابرين :

بلد أعارته الحمامة طَوْقَهَا وكساه ريشَ جناحه الطاوسُ
فـكأنما الأنهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس

جمعت ما ولد سام وحام ، وكثرة الالتئام والالتحام ، واشتد الزحام ، إلى أن قال : يلقى الرجل أبا مثواه[٢] فلا يدعوه لبيته ، ولا يُطْعمه من بَقْله وزيته ، ولا يطرق الضيف حِمَاهم ، ولا يعرف اسمهم ولا مسماهم ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم .

وقوله فى وصف مراكش المحروسة : ذات المقاصر والقصور ، ومأوى الليث الهَصُور[٣] ، ومسكن الناصر والمنصور ، إلى أن قال : ومنارها فى الفلَاة ، بمنزلة وَالِي الولاة . ثم قال بعد كلام : إلا أن خرابها هائل ، وزحامها حرب وائل ، وعقاربها كثيرة الدبيب ، منغصة لمضاجعة الحبيب ، انتهى ما كتبته من حفظى لطول العهد .

وقال رحمه الله تعالى فى وصف مدينة بَسْطة من كلام لم يحضرنى جميعه الآن : محل خصيب ، ومنزل رحيب ، وكفاها مسجد الجنة دليلا على البركة و باب

---

(١) العرين : مسكن الأسود .
(٢) أبا مثواه : مضيفه ، وحرفيته صاحب محل إقامته .
(٣) الليث الهصور : السبع الشديد الوثبة على فريسته .

المسك دليلا على الطيب ، ولها من اسمها نصيب ، إذ هى بحر الطعام ، وينبوع العيون المتعددة بتعدد أيام العام ، انتهى .

وصف بسطة للقلصادي

ولما أجرى ذكر بسطة الإمام أبو الحسن القلصادى فى رحلته قال : سقى الله تعالى أرجاءها المشرقة ، وأغصانها المورقه ، شآبيب[1] الإحسان ، ومهدها بالهدنة والأمان ، دار تخجل منها الدور ، وتتقاصر عنها القصور ، وتقر لها بالقصور ، مع ما حوته من المحاسن والفضائل ، من صحة أجسام أهلها وما طبعوا عليه من كرم الشمائل ، وحسبك فيها من عدم الحرج ، أن داخلها باب الفرج ، ثم قال : ولله در القائل :

دار مشى الإتقان فى تنجيدها حتى تناسب روضها و بناؤه
مرقومة الجنبات ذات قرارة يمتد قُدَّامَ العيون فضاؤها
مازال يضحك دائما نوّارها فى وجه ساحته و يلعب ماؤها

لابن الأزرق فى وصف بسطة

ولبعض أصحابنا فيها وهو الأديب الكاتب أبو عبد الله بن الأزرق :

فى بسطة حيث الأباطح مُشْرِقه أضحت جفونى بالمحاسن مغلقه

وله أيضاً فى تورية :

قل لمن رام النوى عن وطن قولَةً ليس بها من حرج
فرّج الهم بسكنى بسطة إن فى بسطة باب الفرج

رجع

من نثر لسان الدين إلى السلطان على لسان جدته

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به السلطان على لسان جدته ، وهو :

إلى قرة أعيننا وأعين المؤمنين ، وفلذة[2] كبدنا الذى نصل للقائه الحنين بالحنين ،

---

(١) الشآبيب : جمع شؤبوب ، وهو الدفعة من ماء المطر .

(٢) الفلذة — بالكسر — القطعة .

وعزنا الذى حللنا من كَنَفه بالحرم الأمين ، وسترنا الذى خلفنا رضاه من أفقده الدهر من كرم البنين ، ووارثنا المستأثر بعدنا بطول السنين ، أمير المسلمين الأسعد المؤيد الموفق الطاهر البر الرحيم الأرضى الكافل الفاضل حفيدنا محمد بن ولدنا الرضى وواحدنا الكريم الحفى السلطان الكبير الجليل السعيد الطاهر الظاهر المقدس ، جعل الله تعالى من عصمته لزيما يرافقه ! وأجرى القدر بما يوافقه ! وحفظ عليه الكمال الذى تناسب فيه خلقه وخلائقه ! والبر الذى حسنت فيه طرقه وطرائقه !

من المستظلة بظلال رضاه وبره ، المبتهلة إلى الله تعالى فى عز نصره وسعادة أمره ، الداعية إلى الله تعالى أن يسترها فى الحياة وما بعدها بستره ، وما يَفْضل عمرها من عمره ، جدته التائقة إليه ، كتبته من كَنَفه العزيز بحَمْرائه العلية عن الخير الدائم بدوامه ، واليسر الملازم ببركة أيامه ، ولا زائد بفضل الله تعالى إلا الشوق إليه ، وتحويم الكبد الخافقة خفوق رايته عليه ، وتجهيز مواكب الدعاء المقبول من خلفه ومن بين يديه .

وقد وصل كتابه العزيز الوفادة والوصول ، الكريم الجُمَل والفصول ، مُطْلع وجه السرور والجذل(١) ، ومُهْدى قَصِىّ الأمل(٢) ، ومجدد العهد بحديثه الذى فى ضمنه شفاء الغلل وبرء العلل ، مُهْديا تحفة عافيته وهى الهدية التى جَلَّتْ عن المكافاة ، وترفعت عن المجازاة ، إنما يجازى عليها مَنْ يصل بفضله عادتها ، ويُوالى بعد الإبداء إعادتها ، ووصفتم يا ولدى ما عرفتم من نعم الله تعالى التى انثالت عليكم سَحَابُها ، وعنايته التى يلقى ركابكم تسهالها وترحابها ، واستبشار الجهات بقدومكم الميمون ، واجتلاء وجهكم الذى فيه للاسلام قرة العيون ، وكيف لا يكون ذلك

---

(١) الجذل — بالتحريك — السرور .

(٢) قصى الأمل : بعيده .

وأنتم ذخرهم العزيز ، وحرزهم الحريز[1] ، والندرة التى خلصها من معادن سلفكم الذهب الإبريز ، فى أيامكم والحمد لله نامت أجفانهم ، وتكيف أمانهم ، نسأل الله تعالى أن يديم لنا ولهم نعمة بقائكم ، ويُعلى الدين بعلوّكم فى معارج العز وارتقائكم ، فقابلنا ما قرره سلطانكم بالحمد والثناء ، والشكر المتصل على الآناء ، ومحضتكم من خالص الدعاء ، مايتكفل لكم بالحسنى وما وعد الله تعالى من نيل الرجاء ، وتمهيد الأرجاء ، وأصدرت هذا الجواب لكم مصدر الهناء ، بنعم الله تعالى المُغْدقة والآلاء ، ونسأل من فضلكم وبركم صلة التعريف بمثل هذه الأخبار السارة والأنباء ، وإتحافنا بمثلها مع الصباح والمساء ، وإن كان مجدكم غنيا عن الشبه لمثل هذه الأشياء ، أدام الله تعالى لكم أسباب البقاء ، وكان لكم فى كل حال ، من إقامة وارتحال ، بعزة وجهه وقدرته ، انتهى .

ويرحم الله تعالى لسان الدين بن الخطيب ، فإنه يعبر فى كل مقام بما يليق ، فتارة يترقى فى أدراج البراعة ، وطوراً يهتك عنان اليراعة .

وأما شعر لسان الدين رحمه الله تعالى فهو من النهاية فى الحسن ، وقد قدمنا فى هذا الكتاب منه نبذة فى أثناء نثره وكلامه الذى جلبناه ، وفى مواضع غيرهما ، جملةً مفيدة من شعره رحمه الله تعالى .

وقال رحمه الله تعالى فى « الإحاطة » ما نصه : الشعر ــ ولنثبت جملة من مطوّلاته ، ونتله[2] بشىء من مقطوعاته ، ونقدم من المطوّلات أمداحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم تبركا بها ، فمن ذلك قولى :

من شعر لسان الدين فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم

هل كنت تعلم فى هبوب الريح ... نفسا يؤجِّجُ لاعج التبريح[3]

أهدتك من شيحِ الحجاز تحية ... فاحت لها عَرْضَ الفجاج الفيح[4]

---

(١) الحريز : المنيع الذى لا يستطاع الوصول إليه

(٢) نتله : نتبعه (٣) يؤجج : يوقد ويشعل ويلهب

(٤) الفيح : الواسعة ، واحدها أفيح ، أو فيحاء

بالله قل لى كيف نيران الهوى ما بين ريح فى الفلاة وشيح(١)
وخضيبة المنقار تحسب أنها نهلت بمورد دمعى َ المسفوح(٢)
باحت بما تخفى وناحت فى الدجى فرأيت فى الآماق دَعْوَةَ نوح
نطقت بما يخفيه قلبى أدمعى ولطالما صمتت عن التصريح
عجبا لأجفانى حمان شهادةً عن خافت بين الضلوع جريح
ولقلما كتبت رُوَاة مدامعى فى صفحتيها حلية التجريح
جاد الحمى بعدى وأجراعَ الحمى جَوْدٌ تكلُّ به متون الريح(٣)
هن المنازل ، ما فؤادى بعدها سالٍ ، ولا وجدى بها بمريح
حسبى وَلُوعا أن أزور بفكرتى زوّارها والجسم رهن نزوح
فأبث فيها من حديث صبابتى وأحث فيها من جناح جنوحى
ودُجُنة كادت تضل بها السرى لولا وَمِيضَا بارقٍ وصفيح(٤)
رعشت كواكب جوّها فكأنها وَرِقٌ تقلبها بنانُ شَحِيحِ
صابرت منها لجة مهما ارتمت وطمت رميت عُبابها بسَبُوحِ
حتى إذا الكف الخضيب بأفقها مسحت بوجه للصباح صَبيحِ
شمت المنى وحمدت إدلاج السرى وزجرت للآمال كل سَنيح
فكأنما لبلى نسيبُ قصيدتى والصبح فيه تخلصى لمديح
لما حَطَطْت لخير من وطىء الثرى بعِنان كل مولَّدٍ وصريح
رحمى إله العرش بين عباده وأمينه الأرضَى على ما يوحى
والآية الكبرى التى أنوارها ضاءت أشعتها بصفحة يُوحِ
رب المقال الصِّدق والآى التى راقت بها أوراق كل صحيح

(١) الشيح ــ بكسر الشين ــ من نبات البادية
(٢) الدمع المسفوح : المنصب المنسكب ، وجعله أحمر كالدم
(٣) الجود ــ بالفتح ــ المطر الكثير ، وتكل به متون الريح : تضعف عن حمله
(٤) الوميض : اللمعان ، والبارق : البرق ، والصفيح : السيوف

كهف الأنام إذا تفاقم مُعْضِلِ مَثَلُوا بساحة بابه المفتوح (١)
يردون منه على مثابة راحم جمّ الهبَاتِ عن الذنوب صَفوحِ
لهفى على عُمْر مضى أنضيته فى ملعبٍ للترّهات فسيح (٢)
يا زاجرَ الوَجْناء يعتسف الفلا والليل يعثر فى فضول مُسُوحِ
يَصِلُ السرى سبقا إلى خير الورى والركب بين مُوَسَّد وطريح
لى فى حمى ذاك الضريح لبانة إن أصبحت لُبْنَى أنا ابن ذَرِيحِ (٣)
و بمهبط الروح الأمين أمانة اليمين فيها والأمان لروحى
يا صفوة الله المكين مكانُهُ يا خير مؤتمن وخير نصيح
أقرضت فيك الله صدق محبتى أيكون تَجْرِى فيك غيرَ ربيح
حاشا وكلا أن تخيب وسائلى أو أن أرى مسعاى غير نجيح
إن عاق عنك قبيحُ ما كسبت يدى يوما فوجْهُ العفو غير قبيح
واخجلتى من حَلبة الفكر التى أغريتها بغرامىَ المشروح
قصرت خطاها بعد ما ضمرتها من كل موفور الجمام جَمُوحِ
مَدَحَتْكَ آيات الكتاب فما عسى يثنى على علياك نظم مديحى
و إذا كتابُ الله أثنى مفصحا كان القصور قصار كل فصيح
صلى عليك الله ما هبت صَبًا فهفت بغصن فى الرياض مَرُوحِ
واستأثر الرحمن جل جلاله عن خلقه بخفى سر الروح

قصيدة له فى ميلاد الرسول

وأنشدت السلطانَ مَلِكَ المغرب ليلة الميلاد الأعظم من عام ثلاثة وستين وسبعمائة هذه القصيدة :

تألق نَجْدِيًّا فأذْكَرَنِي نَجْدَا وهاجَ بى الشوقَ المبرِّحَ والوَجْدَا

---

(١) كهف الأنام : ملجؤهم الذى يأوون إليه، والمعضل : الأمر الذي يصعب احتماله
(٢) أنضيته : أبليته ، والترهات : الأباطيل
(٣) لبنى — بضم اللام وسكون الباء — اسم معشوقة قيس بن ذريح

وَميضٌ رأى بُرْدَ الغمامة مُغْفَلا … فمد يدا بالتبر أعلمت البردا

تبسَّم فى بحرية قد تجهمت … فما بذلت وصلا ولا ضربت وعدا

وراودَ منها فاركاً قد تنعمت … فأهوى لها نصلا وهددها رعدا

وأغرى بها كف الغلاب فأصبحت … ذَلُولاً ولم تسطع لإمرته ردا

فحلتها الحمراء من شَفَق الضحى … نَضَاها وحلَّ المزنُ من جيدها عقدا

لك الله من برقٍ كأن وميضه … يد الساهر المقرور قد قَدَحَتْ زندا

تعلم من سكانه شيم الندى … فغادر أجراع الحمى روضة تندى

وتوّج من نوّارها قنن الربا … وخَتَّم من أزهارها القُضُبَ المُلْدَا(١)

لسرعان ما كانت مناسف للصبا … فقد ضحكت زهرا وقد خجلت وردا

بلاد عهدنا فى قرارتها الصبا … يقلُّ لذاك العهد أن يألف العهدا

إذا ما النسيم اعتلَّ فى عرصاتها … تناول فيها البان والشِّيح والرندا

فكم فى مجانى وردها من علاقة … إذا ما استثيرت أرضها أنبتت وجدا

إذا استشعرتْهَا النفسُ عاهدت الجوى … إذا التمحتها العين عاقدت السهدا

ومن عاشق حر إذا ما استماله … حديث الهوى العذرى صيره عبدا

ومن ذابل يحكى المحبين رقة … فيثنى إذا ماهبَّ عَرْفُ الصبا قدا

سقى الله نجداً مانضحتْ بذكرها … على كبدى إلا وجدت لها بردا

وآنس قلبى فهو للعهد حافظ … وقَلَّ على الأيام مَنْ يحفظ العهدا

صبور وإن لم يبق إلا ذبالة … إذا استقبلت مسرى الصبا اشتعلت وقدا

صبور إذا الشوق استجاد كتيبة … تجوس خلال الصبر كان لها بَنْدَا

وقد كنت جَلْداً قبل أن يُذْهب النوى … ذَمائى وأن يستأصل العظم والجلدا

---

(١) القنن ، جمع قنة ، وهى فى الأصل أعلى مكان فى الجبل ، كالقلة ، وأرادهنا المرتفعات ، والقضب : جمع قضيب ، وهو الغصن ، والملد : جمع أملد ، وهو الناعم الغض

أأجحد حق الحب والدمع شاهد   وقد وقع التسجيل من بعد ما أدى

تناثر فى إثر الحُمُول فريده   فلله عينا من رأى الجوهر الفردا (١)

جرى يَقَقاً فى ملعب الخد أشهبا   وأجهده ركض الأسى فجرى وَرْدَا (٢)

ومرتحل أجريت دمعىَ خلفه   ليرجعه فانْثَنَّ فى إثره قصدا

وقلت لقلبى طِرْ إليه برقعتى   فكان حماما فى المسير بها هدا

سرقت صُوَاع العزم يوم فراقه   فلج ولم يرقب سُوَاعا ولا وُدا

وكحلتُ عينى من غبار طريقه   فأعقبها دمعا وأورثها سهدا

إلى الله كم أهدى بنجد وحاجر   وأكنى بدعد فى غرامى أوسعدى

وما هو إلا الشوق ثار كمينُه   فأذهل نفسا لم تبن عنده قصدا

وما بى إلا أن سرى الركب موهناً   وأعمل فى رمل الحمى النصَّ والوَخْدا

وجاشت جنود الصبر والبين والأسى   لدىَّ فكان الصبر أضعفها جندا

ورُمْتُ نهوضا واعتزمت مودعا   فصدنى المقدور عن وجهتى صدًّا

رقيق بدت للمشترين عيوبه   ولم تلتفت دعواه فاستوجب الردا

تخلف عنى ركب طيبة عانيا   أما آن للعانى المعنَّى بأن يُفْدَى

مخلف سربى قد أصيب جناحه   وطرن فلم يسطع مَرَاحا ولا مغدى

نشدتك يا ركب الحجاز تضاءلت   لك الأرض مهما استعرض السهب وامتدا

وجَمَّ لك المرعى وأذعنت الصُّوَى   ولم تفتقد ظلا ظليلا ولا وردا

إذا أنت شافهت الديار بطيبة   وجئت بها القبر المقدس واللحدا

وآنستَ نورا من جناب محمد   يجلى القلوب الغلف والأعين الرمدا

فنُبْ عن بعيد الدار فى ذلك الحمى   وأذر به دمعا وعَفِّرْ به خدا

---

(١) الحمول : أراد أحبابه الذين شدوا رحالهم للظعن، والفريد أصله الدر، استعاره لدمعه، وأكد هذه الاستعارة بما ذكره في عجز البيت

(٢) يققا : يريد أبيض ، وجرى وردا : يريد أحمر

وقل يا رسول الله عبد تقاصرت خطاه وأضحى من أحبته فَرْدَا
ولم يستطع من بعد ما بعد المدى سوى لوعة تعتاد أو مدحة تُهْدَى
تداركْهُ يا غوث العباد برحمة فجودك ما أجدى وكفك ما أندى (١)
أجار بك الله العباد من الردى وبوّأهم ظلا من الأمن ممتدا
حمى دينُكَ الدنيا وأقطعك الرضا وتوجك العليا وألبسك الحمدا
وطَهَّر منك القلب لما استخصه فجلله نوراً وأوسعه رشـدا
دعاه فما ولَّى ، هَداه فما غَوى سقاه فما يظما ، جلاه فما يَصْدَا
تقدمت مختارا تأخرت مبعثا فقد شملت علياؤك القَبْل والبَعْدَا
وعلة هذا الكون أنت ، وكل ما أعاد فأنت القصد فيه وما أبدا
وهل هو إلا مظهر أنت سره ليمتاز في الخلق المكبُّ من الأهْدَى
ففي عالم الأسرار ذاتُكَ تجتلي ملامح نور لاح للطور فاهدّا
وفي عالم الحس اغتديت مبوأ لتشفي من استشفي وتهدى من استهدى
فما كنت لولا أن ثبتَّ هداية من الله مثل الخلق رسما ولا حدّا
فماذا عسى يثنى عليك مُقَصِّر ولم يأل فيك الذكر مدحا ولا حمدا
بماذا عسى يجزيك هاوٍ على شَفًى من النار قد أوردته بعدها الخلدا
عليك صلاة الله يا كاشف العمى ومُذْهِبَ ليل الروع وهو قد اربدّا
إلى كم أراني في البطالة كانعا وعمري قد ولى ، ووزرى قد عدّا
تقضَّى زماني في لعلّ وفي عسى فلا عزمة تمضى ولا لوعة تَهْدَا
حسام جبان كلما شِيمَ نَصْلُه تراجع بعد العزم والتزم الغمدا
ألا ليت شعرى هل أراني ناهداً أقود القلاص البدن والضَّامر النَّهْدا

---

(١) «ما» في قوله « ما أجدى » وفي قوله « ما أندى » تعجبية ، وكأنه قال : جودك ما أشد نفعه ، وكفك ما أ كثر نداها ! وجملة التعجب إنشائية ، ووقوع الجملة الإنشائية خبراً عن المبتدأ مما جوزه جمهور النحاة ، وخالف فيه ابن الأنبارى ، وهو محجوج

رضيع لبان الصدق فوق شِمِلَّة   مُضمَّرة وَسَّدْتُ من كورها مهدا[1]
فتهدى بأشواق السراة إذا سرت   وتحدى بأشعارى الركاب إذا تُحْدَى
إلى أن أحُطَّ الرحل فى تربك الذى   تضـوَّع ندًّا ما رأينا له نِدًّا
وأطفىءَ فى تلك الموارد غُلَّتى   وأحْسِبَ قربًا مهجة شكت البعدا[2]
لمولدك اهتز الوجود فأشرقت   قصور ببُصْرَى ضاءت الهضب والوهدا
ومن رعبه الأوثان خرَّتْ مهابة   ومن هوله إيوان كسرى قد انهدَّا
وغاض له الوادى وصبح عزه   بيوتاً لنار الفرس أعدمها الوَقْدَا
رعى الله منها ليلةً أطلع الهدى   على الأرض من آفاقها القمر السعدا
وأقرض ملكا قام فينا بحقها   لقد أحرز الفخر المؤثل والمجدا
وحَيًّا على شـط الخليج محلة   يحالف من ينتابها العيشة الرغدا
وجاد الغمام العِدُّ فيها خـلائفا   مآثرهم لا تعرف الحصر والعدَّا
عليا وعثمانا و يعقوب ، لا عـدا   رضا الله ذاك النجل والأب والجدا
حَمَوْا وهُمُ فى حومة البأس والندى   فكانوا الغيوث المستهلة والأسدا
ولله ما قد خلفوا من خليفـة   حوى الإرث عنهم والوصية والعهدا
إذا ما أراد الصعب أغرى بنيله   صدور العوالى والمطَهَّمة الجردا
وكم معتدٍ أردى وكم تائه هَدَى   وكم حكمة أخفى وكم نعمة أبدى
أبا سـالم دينُ الإله بك اعتلى   أبا سـالم ظِلُّ الإله بك امتدا
فدُمْ من دفاع الله تحت وقاية   كفاك بها أن تسحب الحلَقَ السَّرْدَا
ودونكها منى نتيجةَ فكرة   إذا استرشحت للنظم كانت صفا صلدا
ولو تركت منى الليالى صبابة   لأجهدتها ركضًا وأرهقتها شدا

(١) شملة — بكسر الشين والميم وتشديد اللام مفتوحة — الناقة السريعة ، والكور — بضم الكاف — الرحل ، يريد أنه جعل كورها مهدا ينام عليه ، كنى بذلك عن أنه دائم السفر (٢) أحسب : أزيد ، من قولهم « أحسب فلان ماله » يريدون زاده ، وكثره ، و « قربا » مفعول ثان مقدم ، و « مهجة » مفعول أول ، و « شكت البعد » جملة فى محل نصب صفة لمهجة ، يريد أزيد مهجتى التى تشكو البعاد قربا منك

ولكنه جَهْدُ المقل بلغته وقد أوضح الأعذار من بلغ الجهدا

وقلت أخاطب السلطان الملك الكبير العالم أبا عِنان على أثر انصرافى من بابه رحمه الله تعالى :

من نظمه يخاطب السلطان أبا عنان

أَبْدَى لداعِي الفَوْز وَجْهَ مُنيبِ وأفاق من عَذْلٍ ومن تأنيبِ [١]

كَلِفُ الجنان إذا جرى ذكْرُ الحمى والبان حَنَّ له حنينَ النِّيب [٢]

والنفس لا تنفك تكلف بالهوى والشيب يلحظها بعين رقيب

رحل الصبا فطرحت فى أعقابه ما كان من غَزَل ومن تشبيب

أترى التغزل بعد أن ظعن الصبا شأنى الغداة أو النسيب نسيبى

أنَّى لمثلى بالهوى من بعدما للوَخْط فى الفَوْدين أىُّ دبيب

لبس البياض وحَلَّ ذروة منبر منى ووالى الوعظ فِعْلَ خطيب

قد كان يسترنى ظلام شبيبتى والآن يفضحنى صباحُ مشيبى

وإذا الجديدانِ استجدَّا أبليا من لبسة الأعمار كل قشيب [٣]

سلنى عن الدهر الخؤن وأهله تَسَل المهلَّبَ عن حروب شَبيب [٤]

متقلب الحالات فاخْبُرْ تَقْلُهُ مهما أعدت يدا إلى تقليب

فكل الأمور إذا اعترتك لربها ماضاق لطف الرب عن مربوب

قد يخبأ المحبوبَ فى مكروهها من يخبأ المكروه فى المحبوب

واصبر على مَضَض الليالى إنها لحوامل سيلدن كل عجيب

واقنع بحظ لم تنله بحيلة ما كل رام سهمه بمصيب

يقع الحريصُ على الردى ولكم غدا ترك التسبب أنفع التسبيب

مَنْ رام نَيْلَ الشىء قبل أوانه رام انتقالَ يلملم وعسيب

(١) وجه منيب : راجع عما كان عليه تائب من هفواته وذنوبه

(٢) النيب : جمع ناب ، وهو الناقة المسنة ، والإبل مضرب الأمثال فى الحنين إلى معاطنها ، وهم يقولون « فلان يحن إلى وطنه ، حنين الناب إلى عطنه »

(٣) القشيب : الجديد (٤) المهلب : أراد به ابن أبى صفرة الذى اشتهر بقتال الخوارج فى عهد عبد الملك بن مروان ، وشبيب : زعيم من زعماء الخوارج تسمى بامير المؤمنين

فإذا جعلت الصبر مفزعَ مُعْضِلٍ — عاجلْتَ علّتَــه بطب طبيب
وإذا استعنت على الزمان بفارس — لَبّى نداءك منــه خير مجيب
بخليفــة الله الذى فى كفه — غيث يروّض ساح كل جديب
المنتقى من طينة المجد الذى — ما كان يوما صِرْفُه بمَشُوب[1]
يرمى الصعاب بصعبه فيقودها — ذُلُلاً على حسب الهوى المرغوب
ويرى الحقائق من وراء حجابها — لا فرق بين شهادة ومَغيبِ
من آل عبد الحق حيث توشحت — شعبُ العلا ورَبَتْ بأى كثيب
أسد الشرى سُرُجُ الورى فمقامهم — لله بين محــارب وحروب
إمّا دَعَى الداعى وثوّب صارخا — ثابوا وأموا حَوْمَــةَ التثويب
شهب ثواقب فى سماء عجاجة — مأثورهــا قد صح بالتجريب
ما شئت فى آفاقها من رامح — يبدو وكف بالنجيع خَضِيبِ[2]
عجبت سيوفهم لشدّة بأسهم — فتبسمت والجوّ فى تقطيب
نظموا بلَبّات العلا واستوسقوا — كالرمح أنبوبا على أنبوب
تروى العوالى والمعــالى عنهمُ — أثر الندى المولود والمكسوب[3]
من كل موثوقٍ به إسنادُه — بالقطع أو بالوضع غير معيب
فأبو عنان عن على نَصَّــه — للنقل عن عثمان عن يعقوب
جاءُوا كما اتَّسَقَ الحساب أصالة — وغدوا فذالِكَ ذلك المكتوب
متجسداً من جوهر النور الذى — لم تُرْمَ يوما شمسُه بغــروب
متألقا من مطلع الحق الذى — هو نور أبصــار وسر قلوب
قل للزمان وقد تبسم ضاحكا — من بعد طول تجهُّمٍ وقطوب

(١) الصرف ـ بالكسر ـ الخالص من كل شىء ، والمشوب : اسم المفعول من «شاب الشىء يشوبه شوبا» أى خلطه

(٢) النجيع : الدم (٣) فى ب «المولود والمسكوب» بتقديم السين ـ تحريف

هى دعوة الحق التى أوضاعها جمعت من الآثار كل غريب
هى دعوة العدل الذى شمل الورى فالشاة لا تخشى اعتداء الذيب
لو أن كسرى الفُرْس أدرك فارساً ألقى إليه بتاجـه المعصوب(١)
لما حللت بأرضـه مستمليا ما شئت من بر ومن ترحيب
شمل الرضا فـكأَن كل أقاحة تومى بثغـر للسلام شَنِيبِ(٢)
وأتيت فى بحر القرى أم القرى حتى حططت بمرفإ التقريب
فرأيت أمْنَ الله فى ظل التقى والعدل تحت سرادق مضروب
ورأيت سيف الله مَطْرورَ الشَّبا يمضى القضاء بحـدّه المرهوب(٣)
وشهدت نور الحق ليس بآفل والدين والدنيـا على ترتيب
ووردت بحر العلم يقذف موجه للناس من درر الهدَى بضروب
لله من شيم كأزهار الربا غِبَّ انثيال العارض المسكوب
وجمـال مرأى فى رِداء مَهَابة كالسيف مصقول الفرند مهيب
يا جنة فارقت من غرفاتهـا دار القرار بمـا اقتضته ذنوبى
أسفى على ما ضاع من حَظِّى بها لا تنقضى تَرْحَاته ونحيـبى
إن أشرقت شمس شرقت بعبرتى وتفيض فى وقت الغروب غروبى
حتى لقد عَلَّمْتُ ساجعة الضحى شجوى وجانِحَةَ الأصيل شحوبى
وشهادة الإخلاص توجب رجعتى لنعيمها من غـير مس لغوب
يا ناصر الدين الحنيف وأهـله إنضاء مسغبة وفَـلَّ خطوب
حقق ظنون بنيه فيك فإنهم يتعللون بوعـدك المرقوب
ضاقت مذاهب نصرهم فتعلقوا بجناب عز من علاك رحيب

---

(١) فارس : هو أبو عنان

(٢) تومى: تشير ، وأصلها «تومئ» بالهمز، وشنيب : وصف من الشنب ، وهو طيب رائحة الفم (٣) المطرور : المحدد

وَدَجَا ظلام الكفر فى آفاقهم — أوليس صبحك منهمُ بقريب ؟[١]

فانظر بعين العز من ثغر غدا — حَذَرَ العدا يرنو بطرف مُرِيب

نادتك أندلس ومجدك ضامن — أن لا يخيب لديك ذو مطلوب

غَصَبَ العدوّ بلادها وحسامك الـ — ـماضى الشبا مسترجع المغصوب

أرض السوابح فى الجز حقيقة — من كل قعدة محرب وجنيب

يتاوّد الأَسَلُ المثقف فوقها — وتجيب صاهلةٌ رغاءَ نجيب[٢]

والنصر يضحك كل مبسم غرة — واليمن معقود بكل سبيب

والروم فارْمِ بكل نجم ثقب — يذكى بأربُعِها شُوَاظَ لهيب

بذوابل السلب التى تركت بنى — زيان بين مجدّل وسليب

وأضف إلى لام الوغى ألف القنا — تظهر لديك علامة التغليب

إن كنت تعجُمُ بالعزائم عودَها — عود الصليب اليوم غير صليب

ولك الكتائب كالخمائل أطلعت — زهر الأسنة فوق كل قضيب

فمرنّحُ العطفين لا من نشوة — ومورد الخدين غير مريب

يبدو سداد الرأى فى راياتها — وأمورها تجرى على تجريب

وترى الطيورَ عصائبا من فوقها — لحلول يوم فى الضلال عصيب

هذبتها بالعرض يذكر يومه — عَرْضَ الورى للموعد المكتوب

وهى الكتائب إن تنوسى عرضها — كانت مدوّنة بلا تهذيب

قدّمْتَ سابلة العدوّ وبعدها — أخرى بعز النصر ذات وجوب

حتى إذا فرض الجلاد جداله — ورأيت ريحَ النصر ذات هُبوب

وإذا توسط وصل سيفك عندها — جُزْأَىْ قياسِك فزت بالمطلوب

---

(١) أخذ عجز هذا البيت من قوله تعالى : (إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب)

(٢) يتأود : يتثنى ، والأسل : أراد الرماح ، والمثقف : المقوم المعدل ، والصاهلة : الخيل

وتبرأ الشيطان لما أن علا حزبُ الهدى من حزبه المغلوب

الأرض إرث والمطامع جمة كل يهش إلى التماس نصيب

وخلائف التقوى هُمُ وراثها فإليكها بالحظ والتعصيب

لكأننى بك قد تركت ربوعها قفراً بكر الغزو والتعقيب

وأقمتَ فيها مأتما لكنه عرس لنسر بالفلاة وذيب

وتركتَ مقلتها بقلب واجبٍ رهباً وخد بالأسى مندوب[1]

تبكى نوادبها وينقلن الخطا من شلو طاغية لشلو سليب

جعل الإله البيت منك مَثَابة للعاكفين وأنت خير مثيب

فإذا ذكرت كأن هَبَّات الصبا فضت بمدرجها لطيمة طيب[2]

لولا ارتباط الكون بالمعنى الذى قَصُرَ الحجا عن سره المحجوب

قلنا لعالمك الذى شرفته حسد البسيط مزية التركيب

ولأجل قطرك شمسها ونجومها عدلت من التشريق للتغريب

تبدو بمطلع أفقها فضية وتغيب عندك وهى فى تذهيب

مولاى أشواقى إليك تهزنى والنار تفضح عَرْفَ عود الطيب

بحلى علاك أطلتها وأطبتها ولكم مطيل وهو غير مُطِيب

طالبت أفكارى بفرض بديهها فوفت بشرط الفور والترتيب

متنبىء أنا فى حُلَى تلك العلا لكن شعرى فيك شعر حبيب[3]

والطبع فحل ، والقريحة حرة فاقبله بين نجيبة ونجيب

هابت مقامك فاطنبت صعابها حتى غدت ذُلُلاً على التدريب

لكننى سهلتها وأدلتها من كل وحشى بكل ربيب

---

(١) قلب واجب : خافق مضطرب ، ومندوب : مجروح

(٢) فضت : فتحت ، ولطيمة الطيب : وعاؤه الذى يحفظ فيه

(٣) ورى بأبى الطيب المتنبي ، وبحبيب بن أوس أبى تمام

إن كنت قد قاربت فى تعديلها ⁂ لابد فى التعديل من تقريب
عذرى لتقصيرى وعجزى ناسخ ⁂ ويجل منك العفو عن تثريب
من لم يَدِنْ لله فيك بقربة ⁂ هو من جناب الله غير قريب

من نظمه وقد أعذر السلطان أولاده

ولما احتفل السلطان لإعذار ولده نظمت هذه القصيدة مساعدة لمن نظم من الأصحاب، وتشتمل على أوصافٍ من ذكر الحلبة التى أرسلها، والطابة التى نصبها فى الهواء للفرسان يرسلون العصى إليها، والثيران التى أرسل عليها الأكلب الرومية تمسكها فى صورة القرط من آذانها، وهى آخر النظم فى الأغراض السلطانية، قصر الله تعالى ألسنتنا على ذكره، وشغلها به عن غيره!.

شَحَطْتَ وفَوْدُ الليل بَانَ به الوَخْطُ ⁂ وعَسْكَره الزنجىّ هم به القِبْطُ[1]
أتاه وليدُ الصبح من بعد كبرة ⁂ أيولد أجنى ناحلُ الجسم مشمط[2]
كأن النجوم الزهر أعشار سورة ⁂ ومن خَطَرات الرجم أثناءها مَط
وقد وردت نهر المجرة سحرة ⁂ غوائص فيه مثل ما تفعل البط
وقد جعلت تَنْلى بأنملها الفلا ⁂ ويرسل منها فى غدائره مشط
يشفّ عباب الليل عنها جواهراً ⁂ فيكثر فيها النهب للحين واللقط
فسارت خيالا مثلها، غير أنه ⁂ من البث والشكوى يبين له لغط
سَرَتْ سلخ شهر فى تلفت مقلة ⁂ على قَتَب الأحلام تسمو وتنحط
لى الله من نفس شَعَاع ومهجة ⁂ إذا قدحت لم يَخْبُ من زندها سَقْطُ
ونقطة قلب أصبحت منشأ الهوى ⁂ وعن نقطة مفروضة ينشأ الخط
فأقسم لولا زاجر الشيب والنهى ⁂ ونفس لغير الله ما خضعت قط
لريع لها الأحراس منى بطارق ⁂ مَفَارقه شُمْط وأسيافه شُمْط

---

(١) شحطت: بعدت ونأيت، وأصل الفود ـ بالفتح ـ معظم شعر الرأس مما يلى الأذن، والوخط: الشيب

(٢) الأجنى: الأحدب، وأصله «أجنأ» بالهمز

تثاقله كَوْماء سـامية الذرا ويقذفه شهم من النيق منحط[1]
ولولا النهى لم تستهن سُبُل الهدى وكاد وزان الحق يدركه الغمط
ولولا عوادى الشيب لم يبرح الهوى يهيجه نوء على الرمـل مختط
ولولا أمير المسـلمين محمد لهالت بحار الروع واحتجب الشط
ينوب عن الإصباح إن مطل الدجى ويضمن سقى السَّرْح إن عظم القحط
تقر له الأملاك بالشيم العلا إذا بذل المعروف أو نصب القسط
أرادوه فارتدوا وجاروه فانثنوا وساموه فى مرقى الجلالة فانحطوا
تبر على المداح غُرٌّ خـلاله وما رسموا فوق الطروس وما خطوا
تعلم منه الدهر حالَيْـه فى الورى فآونةً يسخو وآونة يسطو
ويجمع بين القبض والبسط كفه بحكمة مَنْ فى كفه القبض والبسط
خلائق قد طابت مَذَاقا ونَفْحـة كما مزجت بالبارد العذب إسفنط[2]
أسبطَ الإمام الغـالبى محمد ويا فخر ملك كنت أنت له سبط
وقتك أواقى الله من كل غائل فأى سلاح ما المجنُّ وما اللمط[3]
لقد زلزلت منك العـزائم دولةً أناخت على الإسلام تجنى وتشتط
إيالة غدر ضيع الله ركنهـا ونادى بأهليهـا التَّبار فلم يُبْطُوا
على قَدَر جلَّى بك الله بؤسها ولا يكمل البحران أو ينضج الخلط
وكانوا نعيمَ الجنتـين تفيئوا ولما يقع منها النزول ولا الهبط
فقد عُوِّضوا بالأثل والخمط بعدها وهيهات أين الأثل منها أو الخمط
فمن طائح فوق العراء مُجَدل ومن راسف فى القيد أرهقه الضغط
وأتحف منك الله أمة أحمـد أمانا كما يضفو على الغادة المرط

(١) الـكوماء : الناقة العالية السنام (٢) الإسفنط : اسم من أسماء الخمر
(٣) المجن : الترس والدرع ونحوهما ، واللمط : الدرق ، منسوبة إلى قبيلة من البربر ، كانوا ينقعون الجلود فى الحليب سنة فيعملونها درقا ، فينبو عنها السيف القاطع

أنمْتَ على مهد الأمان عيونها ... فيسمع من بعد السهاد لها غط

وصم صدى الدنيا فلما رحمتها ... تزاحم مرتاد عليها ومحتط

وأحكمت عقد السلم لم تألُ بعده ... وجاء فصح العقد واستوثق الربط

وأيقن مرتاب ، وأصحب نافر ... وأذعن معتاص ، وأقصر مشتط

ولله مَبْناك الذى معجزاته ... سمت أن توافيها الشفاه أو الخط

وأنسَتْ غريب الدار مسقط رأسه ... ومن دون فرخيه القتادة والخَرْطُ(١)

تناسبت الأوضاع فيك وأحكمت ... على قدر حتى الأرائك والبسط

فجاء على وفق العلا رائق الحلى ... كما سمط المنظوم أو نظم السمط

ولله إعذار دعَوْتَ له الورى ... فهبوا لداعيه المهيب وإن شطوا

تقودهم الزلفى ، ويدعوهم الرضا ... ويحدوهم الخصب المضاعف والغبط

وأغربت بالبهم العلاج تحفيا ... فلم يدخر الشىء الغريب ولا السمط

أتت صورة معلولة عن مزاجها ... وأصل اختلاف الصورة المزج والخلط

قضيت بهادين الزمان ، ولم يزل ... أ كدّ كذوب الوعد يلوى ويشتط

وأرسلت يوم السبق كل طِمِرّة ... كما قذف الملمومة النار والنفط

رنَتْ عن كحيل كالغزال إذا رنا ... وأوفت بهادٍ كالظليم إذا يعْطُو

وقامت على منحوتة من زبرجد ... تخط على الصم الصلاب إذا تخطو

وكل عتيق من تماثل رومة ... تأنق فى أُستخطاطه القس والقمط

وطاعته نحر السكاك أعانها ... على الكون عرق واشج ولحى سبط

تَلَقّفُ حيات العصى إذا هوت ... فثعبانها لا يستقيم له سرط

أزَرْتَ بها بحر الهواء سفينة ... على الجو لا الجودى كان لها حط

---

(١) هذا من قولهم « دون هذا خرط القتاد » والقتاد : الشوك ، وخرطه : أن تمرطه بيدك من الغصن ، وهذا من أشق شىء

وطاردت مقدام الصُّوار بجارح ... يصاب به منه الصماخ أو الإبط[1]
متين الشَّوى فى رأسه سَمْهَرية ... مقصرة عنهن ما ينبت الخط
وقد كان ذاتاج فلما تعلقا ... بسامعتيه زانه منهما قرط
وجىء بشبل الملك ينجد عزمه ... عليه الحفاظ الجعد والخلق السبط
سمحت به لم ترع فرط ضنانة ... وفى مثلها من سنة يترك الفرط
فأقدم مختارا وحكم عاذرا ... ولم يشتمل مسك عليه ولا ضبط
ولو غير ذات الله رامته نضنضت ... قنا كالأفاعى الرقط أو دونها الرقط[2]
وأسد نزالٍ من ذؤابة خزرج ... بَهَالِيلُ لا روم القديم ولا قبط
جلادهم مثنى إذا اشتجر الوغى ... كأن رعاء بالعضاه لها خبط
كتائب أمثال الكتاب تتاليا ... فمن بيضها شكل، ومن سمرها نقط
دليلهمُ القرآن يا حبذا الهدى ... ورهطهم الأنصار ياحبذا الرهط
و بيض كأمثال البروق غمامها ... إذا وشحت سحب القتام دم عبط
ولكنه حكم يطاع وسنة ... وأعمال بر لايليق بها الحبط
وربة نقص للكمال مآله ... ولا غرو فالأقلام يصلحها القط
فهنيته صنعا ودمت ممليكا ... عزيزا تشيد المعلوات وتختط
ودون الذى يهدى ثناؤك فى الورى ... من الطيب ماتهدى الألوّة والقسط
رضيت ومن لم يرض بالله حاكما ... ضلالا فلله الرضا وله السخط
حياتُكَ للاسلام شرط حياته ... ولايوجد المشروط إن عدم الشرط

هذا كاف فى المطوّلات لنجلب منها عرضا يدل على حبوبها ، ونتحف منها

---

(١) الصوار — بضم الصاد ، بزنة الغراب ، وبكسرها بزنة الكتاب — القطيع من البقر الوحشية

(٢) نضنضت: حركت ،والقنا : جمع قناة ، وأرادبها الرماح، والأفاعى:الحيات ، والرقط : جمع أرقط أو رقطاء ، وهى من أخبث الحيات

أنفس الظرفاء بمطلوبها ، منقولة من الكتاب المسمى « بأبيات الأبيات » ومن الكتاب المسمى « بالصيب والجَهَام » .

فمن التورية على طريقة المشارقة قولى :

مضجعى فيك عن قَتَادَة يروى ورَوَى عن أبى الزناد فؤادى[1]

وكذا النوم شاعر فيك أمسى من دموعى يهيم فى كل وادى

ومن هذا الباب أيضا :

ولما رأت عزمى حثيثا على السُّرَى وقد رابها صبرى على موقف البين

أتت بصحاح الجوهرىِّ دموعها فعارضت من دمعى بمختصر العين

وفى هذا المعنى :

كتبت بدمع عينى صفح خدى وقد منع الكرى هجر الخليل

وراب الحاضرين ، فقلت : هذا كتاب العين ينسب للخليل

ومن الأغراض الظريفة فيها :

تعجلت وخط الشيب فى زمن الصبا لخوضى غمار الهم فى طلب المجد

فمهما رأيتم شيبة فوق مفرقى فلا تنكروها إنها شيبة الحمد

ومن التورية بالنجوم والكاتب بيته بيت شرفه :

بَأَوْتَ على زمنى همةً فأعتبنى الزمن العاتب

وشرفنى الله فى موطنى وفى بيته يشرف الكاتب

وأبدع منها قولى لمن يُدْعى بشمس الدين :

قل لشمس الدين وُقِّيتَ الردى لم يدع سقمك عندى جلدا

رَمِدَتْ عينك هذا عجب أوَعَيْنُ الشمس تشكو الرمدا

(١) قتادة : راو من الرواة ، وهو الشوك ، والمراد هنا الأخير ، يعنى أن الرقاد ممتنع عليه ، وأبو الزناد : راو أيضا ، وهو النار ، والمراد هنا الثانى ، يعنى أن قلبه مشتعل بنار المحبة

وقلت فى غرض التورية بما يظهر من الأبيات :

أفل الألى كانوا نجو ... ما للورى فالكون مظلم[١]
وتناكر الناسُ الحديـثَ الحق وافتقد المعلم
أنا كاتب السلطان ما ... طالعت قط كتاب مسلم
إلا سـخاما قادحا ... فى الدين والله المسلِّم

وفى معنى الدعابة مع بعض الطلبة :

قال لى عندما أتى بجدال ... وشُكُوكٍ على أصول الدين
ولسانى يبـدِّل الدال تاء ... عاجز فى الأمور عن تبيين
التمس مخرجا يوافق قولى ... قلت أحسنت يا جلال التين

وفى التورية :

اذمم ذوى التطفيل مهما أتى ... وإن تـكن أجملتهم فاعنه
يمشى على رجليه مع أنه ... من جنس من يمشى على بطنه

وقلت:

أفقد جفنى لذيذ الوسن ... من لم أزل فيه خليع الرَّسَنْ
عذاره المسكى فى خده ... أنبته الله النبات الحسن

وقلت فى رثاء من اسمه حسن :

أشكو إلى الله من بنى ومن شجنى ... لم أجن من محنتى شيئا سوى مِحَنِ
أصابت الحَسَنَ العينُ التى رشقت ... وعادة العين لا تصمى سوى الحسن

وفى الشيب :

تفرّ عن الشيب الغوانى تعززا ... كما يعتريها إن رأت سَامَ أبرصا[٢]

---

(١) أفل : غرب وغاب

(٢) سام أبرص : وزغة

بدا وَضَحًا فى جدة العمر شانيا · فمن سام شيخا فهو قد سام أبرصا

وقلت فى السها من النجوم الجوفية :

قالوا : السها بادى النحول كأنه · متستر تبـــدو مخايل خوفه
أتراه يشكو ؟ قلت : هذا ممكن · والله يعـــلم داره من جوفه

وقلت:

عابوا وقالوا : بساقه شـــعر · لقد عداه الـكمال من ساق
قلت : انظروا ورد روض وجنته · وكل ورد مشوك الساق

وقلت فى التضمين :

رفعت قصة اشتياقى ليحيى · فزَوَى الوجه رافضا للفتوّه[1]
ورمى بالـكتاب ضعف اهتبال · قلت يحيي خذ الـكتاب بقوّه[2]

وقلت:

وذى حيل يُعْيِي التقية أمره · مكايده فى لجة الليل تسبح
يدبُّ شبول الليث والليث ساهر · ويسرق ناب الكلب والكلب ينبح

وقلت :

لما رأوا كلفى به ودَرَوْا · مقدار مالى فيه من حب
قالوا الفتى حلو فقلت لهم · طلعت حلاوته على قلبى

وقلت ، ولهما حكاية :

وذى زوجة تشكو فقلت له : اسقها · دواء من الحبِّ الملين للبطن
فقال : أبت شرب الدواء بطبعها · فقلت : اسقها إن عافت الشرب بالقرن

---

(١) زوى وجهه : لفته عنى
(٢) هذا تضمين لقوله تعالى فى شأن يحيي بن زكريا عليهما السلام (يايحي خذ الـكتاب بقوة)

وقلت :

لعنوا بَرِيًّا من خبائث ظنهم فالله يلعن أهل سوق العنبر
والله لا أوطأت ساقىَ سوقَهم أبد الزمان فتلك سوق العن برى

ومن الفكاهات :

ولما دعانىَ داعى الهوى وأخلف ما كنت أمّلتُهُ
ولم يبق غـير البكاحيلة بكيت بمقـدار ما نلته

وقلت ، وقد رفع للسلطان باكورة بنفسج :

قدم البنفسج وهو نعم الوارد قد نَمَّ منه إلىّ طيب زائد[1]
فسألتـــــه : ماباله؟ فأجابنى والحق لا يُبْغَى عليـه شاهد[2]
أقبلت أطلب من بنان محمد صلة فعاد علىّ منـــه عائد

وقلت من التشبيه :

سهرنا وفى سير النجوم اعتبارنا إلى أن ضَفَا للّيل من فوقنا رَيْط[3]
فخِلْنَا شهاب الرجم إبرة خائط مسوحا ومايبقى من الذنبِ الخيط

وقلت أودع صديقا أنست به :

فلاحةُ مثـلىَ ممقوتةٌ وإن أعْجَبَ البدء منهاوراق
زَرَعْتُ اللقـــاء وعاجلته فلم أستفد منه إلا الفراق

ومن تضمين المثل :

لا تُهِـجْ بالذكر فى كبدى نار وجـــد شق محتمله
ويقول الناس فى مثـــل لا تحرك مــن دنا أجله

---

(١) نم : أراد ذياع عرفه وانتشار طيبه
(٢) يبغى — بالبناء للمجهول هنا — يطلب
(٣) ضفا يضفو : سبغ وعم وغطى ، والريط : جمع ريطة ، وهى الملاءة

ومن المدح :

عجبا لراحتك المليئة بالندى ... أن لا تكون على الغمام غماما

يَهْمِي ووجهك نوره متألق ... والقَطْر إن سحب السحاب أغاما

ومن أبيات المدح :

يا ناصر الدين لما قَلَّ ناصره ... ومطلع الجود فى الدنيا وقد أفلا

لولا التشهد والترداد منك له ... لم يسمع الناس يوما من لسانك لا[(١)]

ومن أوصاف صنيع سلطانى :

ماذا أحدث فى صنيع خلافة ... هشت إليه الشهب فى آفاقها

فكأنما الجوزاء حين تعرضت ... شَدَّتْ لتخدم فيه عَقْدَ نطاقها[(٢)]

ومن قصيدة فى وصف فَرَس :

فبوأته من مهجتى مُتَبَوَّأً ... خفيا على سر الفؤاد المكتم

ويا عجبا منى وفرط تشيعى ... أهيم بوجدى فيه وهو ابن ملجم

ومن الحماسة فى التورية بالمنطق :

حتى إذا فرض الجلاد جداله ... ورأيت ريح النصر ذات هُبُوبِ

قدمت سالبة العدو وبعدها ... أخرى بعز النصر ذات وجوب

وإذا توسط حد سيفك عندها ... جُزْأى قياس فزت بالمطلوب

وفى خاتمة قصيدة :

ما ضرنى إن لم أجئ متقدما ... السبق يعرف آخر المضمار

ولئن غدا رَبْع البلاغة بَلْقعا ... فلرب كنز فى أساسِ جدار

---

(١) أخذه من قول الفرزدق فى على زين العابدين :

ماقال لا قط إلا فى تشهده ... لولا التشهد كانت لاءه نعم

(٢) أخذه من قول الشاعر :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته ... لما رأيت عليها عقد منتطق

ومن المدح :

إن أبهم الخطبُ جلَّى فى دُجُنته — رأيا يفرق بين الغى والرشد[1]

وإن عتا الدهر أبدى من أسرته — وكفه هدى حَيْران وَرِىَّ صَدِ

وإن نظرت إلى لألاء غرته — يوم الهياج رأيت الشمس فى الأسد

ومن الأوصاف فى قصيدة :

كم ليالٍ بتُّ فى ظلمائها — أمتطى من نار شوقى فرشا

وكأن النجم شَرْبٌ نمل — واصَلَ النَّملة حتى ارتعشا

ومن التورية بالكفتين من الحيل العددية :

لاعدل فى الملك إلاوَهْوَ قدنصبه — وصير الخلق فى ميزانه عَصَبَه

والكفتان ترى من كفه درتا — أن تخرج العدد المجهولَ للطلبه

وفى رجل يحتال على الولاية :

حلفْتَ لهم بأنك ذو يسار — وذو ثقة و بر فى اليمين

ليستندوا إليك بحفظ مال — فتأ كل باليسار و باليمين

وقلت ، ولهما حكاية تظهر من الأبيات :

قلت لما استقلَّ مولاى زَرْعِى — ورأى غَلَّةَ الطعام قليلَهْ

دمنتى لانتجاعىَ الحرث كلت — فهى اليوم دمنة وكليلَهْ

ومما صدرتُ به كتابا لأحد الفضلاء :

يا من تقلد للعلاء سلوكا — والفضل صير نهجه مسلوكا

كاتبتنى متفضلا فملكتنى — لازلت منك مُكَاتَباً مملوكا

---

(١) أبهم : خفى وجه الصواب فيه ، وجلى : أظهر ، والدجنة — بضم الدال والجيم وتشديد النون — شدة الظلام

وقلت فى غرض يظهر منه :

جلس المولى لتسليم الورى ولفصل البرد فى الجو احتكام

فإذا ما سـألوا عن يومنا قلت : هذا اليوم برد وسلام

وقلت من التورية :

يا مالكى بخـلال تهدى إلى القلب حيرة

أضرمت قلبى ناراً يا مالك ابن نويرة[1]

وقلت أيضاً :

أضاف إلى الجفون السود شعرا كجنح الليل أو صبغ المداد

فقلت أمير هـذا الحسن تزكو الأجور له بتكثير السواد

وقلت أيضاً :

بأبى بدر غـزانى مستبيحاً شرح صدرى

فأنا اليـوم شهيد الحب من غـزوة بدر

وقلت ، ولهما حكاية :

أيا ليـلة بالخصب لم تأل شهرة كما اشتهرت فى فضلها ليلة القدر

فآمن قلب اللوز من علة النوى وأصبح فيها التين منشرح الصدر

ومن النزعات المشرقية فى التورية :

يا قائدى نحو الغرام بمقـلة نفقت حلاوتهـا بكل فؤادى

ماذاجنيت على من مَضَضِ الهوى الله ينصف منـك يا قوّادى

ومن هذا النمط المشرقى :

وقالت حلقت الكس منى بنورة فقلت لهااستنصرت من ليس ينصر

ألا فابلغى عنى فديتك واصدقى محلق ذاك الـكس أنى مقصر

---

(١) ورى بمالك بن نويرة ، وهو قتيل سيف الله خالد بن الوليد فى حروب الردة ، وأخوه متمم بن نويرة هو الذى اشتعل قلبه عليه نارا فظل يرثيه ويبكيه حتى أسبلت عين له غائرة بالدمع .

ومنها :

قال لى والدموع تنهلُّ سَحًّا ... فى عراض من الخدود محول[(1)]

بك مابى فقلت مولاى عافا ... ك المعافى من عبرتى ونحولى

أنا جفنى القريح يروى عن الأعمش والجفن منك عن مكحول

ومن أبيات التورية أو ما داخلته :

فى مصر قلبى من خزائن يوسف ... حب وعِيرُ مدامعى تمتاره[(2)]

حليت شعرى باسمه فكأنه ... فى كل قطر حله ديناره

ومن المدح أيضا ولا أستحضر لقبه :

رأيت بكفك اعتبارا ... بأساوندى ماإن يبارى

فقلت وقد عجبت منها ... يابحر متى تدعو نوارا

وقلت مما يجرى مجرى الحكم :

إن الهوى لشكاية معروفة ... صبر التصبر من أجلّ علاجها

والنفس إن ألفت مرارَة طعمه ... ضمنت بذاك له صلاح مزاجها

ومن الغرائب فى الأوصاف :

كأنما الروض ملك ... باهى به جلساه

يَرْضَى النديمُ فمهما ... سقى الرياض كساه

وفى غرض النسيب :

أصْبَحَ الخدّ منك جَنَّة عدن ... مُجْتَلَى أعينٍ وشَمّ أنوف

ظللته من الجفون سيوفٌ ... جنة الخلد تحت ظل السيوف

---

(١) سح المطر يسح سحا : نزل متتابعا ، ووقع فى ب «والدموع تنهل سحبا»

(٢) العير : الإبل والمراد ركابها ، وتمتاره : تطلب الميرة ، وهذا مأخوذ من قصة يوسف عليه السلام

وقلت فى النسيب :

أرسلت طرفى فى حُلاكَ بنظرة ... هى كانتِ السببَ الغريب لمابى
وأراكَ بالعـبرات قد عاقبتها ... ليس الرسول بموضع لعقاب

ومن تحسين القبيح :

وأحْوَلَ يعدى القلب سهمُ جفونه ... فتضحى صحيحات القلوب به مرضى
رأى الحسنُ أن اللحظ منه مهند ... فحرّفه كيما يكون له أمضى

ومن النزعات الحسنة :

من لى بذكرى كلما أوجستها ... تمحو سُـلوِّىَ واشتياقى تثبت
وسـحاب دمع كلما أمطرته ... غير القتاد بمضجعى لا ينبت

ومن النسيب :

جاء العذار بظل غـير ممدود ... فمنتهى الحسن منه غير محدود
ناديت قلبىَ إذ لاحت طلائعه ... يا صـبر أيوب هذا درع داود

وفى نقيضه :

ماضر مِنِّىَ أنْ أُخْلَفْتَ موعودى ... وروض خدك أضحى ذَاوِىَ العُودِ[1]
وقال قوسُ عذارٍ فوق صفحته ... سفينة الحسن قد حَطَّت على الجودى

ومن التضمين :

يا من بأكناف فؤادى رَبْع ... قد ضاق بى عن حبك المقسع[2]
ما فيك لى جَدْوَى ولا أرعوى ... شُحٌّ مطاع وهـوى متبع[3]

ومن الأغراض المخترعة :

أنكرت لما أطَلَّ عارضـه ... فقال لى حين رَابَهُ نظرى
ألم تقل لى بأننى قمـر ... فانظر إلى وَبْرِ أرنبِ القمر

---

(١) ذاوى العود : ذابل الغصن ، ذوى يذوى ـ كرمى يرمى ـ ذبل
(٢) الأكناف : جمع كنف ـ بالتحريك ـ وهو الجانب
(٣) الجدوى : المنفعة ، ولا أرعوى : لا أكف ولا أزدجر

ومن التضمين:

يا كوكب الحسن يا معناه يا قمره   يا روضهُ المتناهى الرَّيْعِ يا ثمره
أمرتنى بسلوّ عنك ممتنع   مأمور حسنك لما يقض ما أمره

وقلت :

لما رضيت بفرقتى و بعادى   وصرمت آمالى وخنت ودادى
لاعَنْتُ أم الصبر فيك و بعده   ورّثت للأشجان كنز فؤادى
فالصبر منى أجنبىٌ بعدها   ولواعج الأشجان من أولادى

ومن الأغراض المشرقية :

سار بى للأمير يشكو اعتراضى   يوسف والشهود أبناء جنسه
قال لى ما تقول قلت مجيبا   لم نخف من نكاله أو لحبسه
حصحص الحق يا خوند فدعنى   أنا راودت يوسفا عن نفسه

ومن الأوصاف :

بتنا نطارح هم القحط ليلتنا   وأيد الهَمَّ والسهد البراغيثا
وكان يحمد ما كنا نكابده   من المشقة لو أن البرا غيثا

وفى قريب من المعنى:

وقالوا بدت منكم على الجسم حمرة   فقلت براغيث لكم رَقَّطُونا(١)
عَدَتْ نحونا ليلاومن بعدنا اعتدت   كما رقصت فى القلو بزر قَطُونا(٢)

ومن التضمين:

قال جوادى عند ما   همزْتُ همزا مُعجزه
إلى متى تهمزنى   ويل لكل هُمَزَه

(١) رقطه ترقيطا : نقشه ، وأراد ما أحدثه البراغيث فيه من نقط حمراء باللسع

(٢) القلو : مصدر « قلوت الشىء أقلوه » إذا وضعته على النار ، وبزرقطونا : ضرب من البزر يشبه البراغيث ، قال داود : إنه ثلاثة أصناف : أبيض ، وأحمر ، وأسود (انظر التذكرة ١ / ١٠٤ بولاق)

وفى رثاء السلطان أبى الحجاج رحمه الله تعالى :

غبت فلا عين ولا مخبر ولا انتظار منك مرقوب

يا يوسف أنت لنا يوسف وكلنا فى الحزن يعقوب

وقلت ، ولها حكاية :

طال حزنى لنشاط ذاهب كنت أسقى دائماً من حَانِهِ

وشباب كان يندى نضرة نزل الثلج على ريحانِهِ

وقلت ، وقد أعجبنى نشاطُ ولدى :

سرق الدهر شبابى من يدى ففؤادى مشعر بالكمد[1]

وحمدت الأمر إذ أبصرته باع ما أفقدنى من ولدى

وقلت ، ولها حكاية :

قلت للشيب لا بَرِ بْكَ جَفَائى فى اختصارى لك البرور ومقتك

أنت بالعتب يا مشيبى أولى جئتنى غفلة وفى غير وقتك

ومما خططته فى رملة نزلتها :

أقمنا برهة ثم ارتحلنا كذاك الدهر حال بعد حال

وكل بداية فإلى انتهاء وكل إقامة فإلى ارتحال

ومن سام الزمان دوام أمر فقد وقف ارجاء على المحال

وقلت أيام مقامى بسَلاَ :

أيا أهل هذا القُطْر ساعده القَطْرُ بليت فدلونى لمن يُرْفَعُ الأمر

تشاغلت بالدنيا ونمت مفرّطا وفى شُغُلِى أو نومتى سرق العمر

(١) مشعر بالكمد : معلم بالحزن ، ولو كانت « مسعر بالكمد » بالسين المهملة بمعنى مشتعل بالحزن — لكان أظرف

وقلت ، والبقاء لله وحده ، وبه نختم الهذر :

عدّ عن كيت وكيت ما عليها غير ميت
كيف ترجو حالة البقــيا لمصباح وزيت

انتهى ما نقلته من « الإحاطة » من ترجمة نظمه ، وبعض ماذكر هنا قد تقدم ، وكرّرته لكونه بلفظة فى الإحاطة ، وقد ذكرت أثناء الأبواب غير هذا الباب من نظم لسان الدين ـ رحمه الله تعالى! ـ كثيراً ، ولنعزز ذلك هنا بذكر ما لم يتقدم ذكره ، إذ نظمه بحر لا ساحل له ، ولذا كتب ابنه أبو الحسن على هذا المحل من الإحاطة ماصوته : ولوالدى أيضاً المترجم به ـ رحمه الله تعالى !ـ فى سكين الأضاحى لسلطانه أبى الحجاج يوسف بن نصر فيما يكتب بالسكين المضحية :

لى الفخر إن أبصرتنى أوسمعت بى على كل مصقول الغرارين مرهف
كفانى فخراً أن ترانى قائماً بسنة إبراهيم فى كف يوسف

ومقطوعاته كثيرة لم يتضمن هذا الديوان منها إلا القليل بسبب الاختصار ، ومن أراد الوقوف على جملتها فعلية بكتاب «الصيب والجهام» فى شعره ، رحمه الله تعالى ! قال ذلك ولده على، لطف الله تعالى به ! آمين ، انتهى .

فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى :

عسى خطرة بالركب ياحادىَ العيسِ على الهضبة الشماء من قصر باديس[1]
لنظفر من ذاك الزلال بعَـلَّه وننعم فى تلك الظلال بتعريس[2]
حبست بها ركبى فُوَاقًا ، وإنما عقدت على قلبى بها عقد تحبيس
لقد رسخت آى الجوى فى جوانحى كما رسخ الإنجيل فى قلب قسيس
بميدان جفنى للسهاد كتيبة تغير على سَرْح الكرى فى كراديس

(١) الركب : ركاب الإبل خاصة ، والحادى : أراد به السائق ، وأصله الذى يغنى للإبل ينشطها على السير ، والعيس : الإبل ، واحدها أعيس أو عيساء

(٢) التعريس : النزول ليلا

وما بى إلا نفحـــة حاجرية ... سرت والدجى ما بين وَهْنٍ وتغليس
ألا نَفَّسٌ يا ريح من جانب الحمى ... تُنَفِّسُ من نار الجوى بعض تنفيس
ويا قلب لا تلق السلاح فربما ... تعذر فى الدهر أُطِّراد المقاييس
وقد تُعْتِبُ الأيام بعـد عتابها ... وقد يعقب الله النعيم من البوس (١)
ولا تخشَ لج الدمع يا خطرة الكرى ... إلى الجفن بل قيسى على صرح بلقيس
تقول سليمى ما لجسمك شاحبا ... مقـالة تأنيب يُشَاب بتأنيس (٢)
وقد كنت تَعْطُو كلما هبت الصبا ... بريَّانَ فى ماء الشبيبة مغموس
ومَنْ رَابحَ الأيام يا ابنة عامر ... بِجَوْبِ الفلا راحت يداه بتفليس
فلا تحسبى والصدق خير سجية ... ظهورَ النوى إلا بطون النواميس
وقفراء أما رَكْبُها فمضـــلل ... ومربعها من آنس غير مأنوس
سحبنا بهـا من هَضْبة لقرارة ... ضلالا وملنا من كِناس إلى خِيس (٣)
إذا ما نهضنا عن مقيل غزالة ... نزلنا فعرَّسنا بساحة عِرِّيس
أدرنا بها كأساً دهاقا من السرى ... أَمْلنَا بها عند الصباح من الروس
وحانة خمـــار هدانا لقصدها ... شميمُ الحميا واصطكاك النواقيس
تطلع ربانيُّها من جـداره ... يُهَيْنِم فى جنح الظلام بتقديس
بكرنا وقلنا إذ نزلنا بساحة ... عن الصافنات الجرد والضُمَّر العيس
أيا عابد الناسوت إنا صبابة ... أتينـا لتثليث بلى ولتسديس
وما قَصَدنا إلا المقـام بحانة ... وكم ألبس الحق المبين بتلبيس
فأنزلنَا فوراً على جنباتهــا ... محاريب شتى لاختلاف النواميس
بدرنا بها طين الختام بسجدة ... أردنا بها تجديد حسرة إبليس

---

(١) أعتب فلان فلانا : ترضاه وأزال وجه عتبه ، ويعقبه كذا من كذا : يأتى به عقيبه وبعده (٢) يشاب : يخلط

(٣) الكناس ــ بالكسر ــ مسكن الظباء ، والخيس : بالكسر ــ مسكن السباع

وَدَارَ الدَّرَارِي بالمدام كأنهـــا قَطًا تتهادى فى رياش الطواويس (١)
وصارفنا فيهــا نُضَارا بمثله كأنا ملأنا الكاس ليلا من الكيس (٢)
وقمنا نشاوى عند ما مَتَعَ الضحى كما نهضت غُلْبُ الأسود من الخيس
فقال لبئس المسلمون ضيوفنا أما وأبيك الحبر ما نحن بالبيس
وهــل فى بنى مَثْوَاك إلا مبرز بحلبة شورى أو بحلقة تدريس
إذا هَزَّ عسال اليراعة فاتكا أسال نجيع الحبر فوق القراطيس
يقلب تحت النقع مقلة ضاحك إذا التفت الأبطال عن مُقَل شُوسِ
سبينا عقار الروم فى عقر دارها بحلية تمويه وخدعـــة تدليس
لئن أنكرت شكلى ففضلى واضح وهل جائز فى العقل إنكار محسوس
رسبت بأقصى الغرب ثغر مضلة وكم درة علياء فى قاع قاموس
وأغريت سُوسِى بالعذيب وبارق على وطن دانى الجوار من السوس

ومن أبدع ما صدر عن لسان الدين رحمه الله تعالى لاميته المشهورة التى خاطب بها سلطانه حين عاد من المغرب إلى الأندلس ، وأعاد الله تعالى عليه ملكه الذى كان خلع منه ، ويقال : إن السلطان أمر بكتب هذه القصيدة على قصوره بالحمراء إعجابا بها ، وإنها إلى الآن لم تزل مكتوبة بتلك القصور التى استولى عليها العدوّ الكافر ، أعادها الله تعالى للإسلام ! وأول هذه القصيدة :

الحق يعلو والأباطل تَسْفُلُ والله عن أحكامه لا يُسْأَلُ

قال لسان الدين رحمه الله تعالى : نظمتها للسلطان ـ أسعده الله تعالى ! ـ وأنا بمدينة سَلاَ ، لما انفصل طالباحقه بالأندلس ، كان صُنْعُ الله تعالى براعة استهلالها ،

---

(١) القطا ـ بالفتح مقصورا ـ طائر شبه الحمام

(٢) الصرف ـ بالفتح ـ أصله مبادلة المال بالمال ، وأراد هنا مجرد المبادلة ، والنضار بالضم ، كغراب ـ الذهب ، وأراد أنه أعطاهم الخمر بدل ذهبهم ، وشبهها بالذهب فى اللون ، وهم يسمون الخمر « النضار الذائب »

ووجهت بها إليه إلى رُنْدَة قبل الفتح ، ثم لما قدمت أنشدتها بعد الفتح وفاء بنذرى ، وسميتها « المنح الغريب ، فى الفتح القريب » ومنها :

و إذا استحالت حالة وتبدلت … فالله عز وجل لا يتبدل[1]
واليسر بعد العسر موعود به … والصبر بالفرج القريب موكل
والمستعدُّ لما يؤمل ظافر … وكفاك شاهد قيدوا وتوكلوا[2]
أمحمد والحمد منك سجية … بحليها دون الورى تتجمل
أمّا سعودك فهو دون منازع … عقد بأحكام القضاء مسجل
ولك السجايا الغر والشيم التى … بغريبها يتمثل المتمثل
ولك الوقار إذا تزلزلت الربا … وهَفَتْ من الروع الهضاب الميل
عوّذ كمالكَ ما استطعت فإنه … قد تنقص الأشياء مما يكمل
تاب الزمان إليك مما قد جنى … والله يأمر بالمتاب ويقبل
إن كان ماض من زمانك قدمضى … بإساءة قد سرك المستقبل
هذا بذاك فَشَفِّع الجانى الذى … أرضاك فيما قد جناه الأول
والله قد ولاك أمر عباده … لما ارتضاك ولاية لا تعزل
و إذا تغمدك الإله بنصره … وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل

ومنها :

وظعنت عن أوطان ملكك راكبا … مَتْنَ العُبَاب فأى صبر يحمل
والبحر قد حُنيت عليك ضلوعه … والريح تقطع للزفير وترسل
ولك الجوارى المُنْشَآت وقدغدت … تختال فى برد الشباب وترفل
جوفاء يحملها ومن حملت به … من يعلم الأنثى وماذا تحمل

---

(١) استحالت : تغيرت وتبدلت

(٢) يريد ماورد فى حديث « اعقلها وتوكل »

ومنها :

صبحتهم غُرَرَ الجياد كأنما سَدَّ الثنية عارض متهلل

من كل منجرد أغر محجل يرمى الجلاد به أغر محجل

زَجِلِ الجناح إذا أجد لغاية وإذا تغنى للصهيل فبلبل

جِيدٌ كما التفت الظليم وفوقه أذن ممشقة وطرف أكحل

فكأنما هو صورة فى هيكل من لطفه وكأنما هو هيكل

ومنها :

وخليج هند راق حسن صفائه حتى يكاد يعوم فيه الصيقل

غرقت بصفحته النمال وأوشكت تبغى النجاة فأوثقتها الأرجل

فالصرحُ منه ممرد والصفح منه مورد والشط منه مهدل

وبكل أزرق إن شكت ألحاظه مره العيون فبالعجاجة تكحل

متأود أعطافه فى نشوة مما يعلُّ من الدماء وينهل

عجبا له أن النجيع بطرفه رمد ولا يخفى عليه مقتل

ومنها :

لله موقفك الذى وثَبَاته وثباته مثل به يتمثل[1]

والخيل خَطٌّ والمجال صحيفة والسمر تنقط والصوارم تشكل

والبيض قد كسرت حروف جفونها وعوامل الأسَلِ المثقف تعمل

لله قومك عند مشتجر القنا إذ ثوَّب الداعى المهيب وأقبلوا

قوم إذا لفح الهَجِيرُ وجوههم حجبوا برايات الجهاد وظللوا

وهى طويلة لم يحضرنى الآن منها سوى ما كتبته .

---

(١) وثباته الأولى : جمع وثبة ، الواحدة من « وثب يثب » ووثباته الثانية مؤلف من واو العطف والثبات الذى هو مصدر ثبت ثبت .

ومن نظمه رحمه الله تعالى قوله :

يا إمام الهـدى وأى إمام أوضح الحق بعد إخفاء رَسْمِهْ

أنت عبد الحليم ، حلمكَ نرجو فالمسمى له نصيب من اسمه

من نظمه يخاطب ابن سلطان إفريقية

وقال يخاطب عبد الواحد بن زكريا بن أحمد اللحيانى أبا مالك ابن سلطان إفريقية مودعا :

أبا مالك أنت نجل الملوك غيوث الندى وليوث النزال[1]

ومثلك يَرْتَاح للمكرمات ومالك بين الورى من مثال

عزيز بأنفسنا أن نَرَى ركابك مؤذنة بارتحال

وقد خبرت منك خلقا كريما أناف على درجات الكمال[2]

وفازت لديك بساعات أنس كما زار فى الليل طيفُ الخيال

ولولا تعللنا أننـا نزورك فوق بساط الجلال

ونبلغ فيك الذى نبتغى وذاك على الله سَهلُ المنال

لما فَتَرَتْ أنفس من أسى ولا برحت أدمع فى انهمال[3]

تلقتك حيث احتللت السعود وكان لك الله فى كل حال

وتوفى أبو مالك المخاطب بهذا فى بلاد الجريد سنة ٧٤٠ .

من نظمه حين أشرف على حضرة مراكش

ومن نظم ابن الخطيب قوله لما أشرف على الحضرة المراكشية حاطها الله تعالى :

ماذا أحدث عن بحر سَبَحْت به من البحار فلا إثم ولا حرج

وعاه مبتدع الأشياء مستويا ما إن به درك كلا ولا درج

حتى إذا ما المنار الفرْدُ لاح لنا صحت ابْشِرِى يامطايا جاءك الفرج

---

(١) الليوث : جمع ليث ، وهو السبع

(٢) أناف : زاد وأربى

(٣) انهمل المطر والدمع انهمالا : انصب وتتابع

قربت من عامر دارا ومنزلة والشاهد العدل هذا الطيِّبُ والأرج

وقال رحمه الله تعالى :

كأنا بتامسنا نجوس خلالها وممدودها فى سيرنا ليس يقصر (١)

مراكب فى البحر المحيط تخبطت ولا جهة تدرى ولا البر يبصر

من نظمه ما كتب على مدرسة بناها السلطان أبو الحجاج

وقال سامحه الله تعالى ، وهو مكتوب بالمدرسة التى بناها السلطان أبو الحجاج ابن نصر رحمه الله تعالى :

ألا هكذا تُبْنَى المدارسُ للعلم وَتَبقَى عهود المجد ثابتَةَ الرسم

ويُقْصد وجه الله بالعمل الرضا وتجنى ثمار العز من شجر العزم

تفاخر منى حضرة الملك كلما تقدم خَصْم فى الفخار إلى خصم

فأجدى إذا ضن الغمام من الحيا وأهدى إذا جَنَّ الظلام من النجم (٢)

فيا ظاعنا للعلم يطلب رحلة كُفِيتَ اعتراض البيد أو لجج اليم

ببابى حُطَّ الرحلَ لا تنو وجهة فقد فزت فى حال الإقامة بالغنم

فكم من شهاب فى سمائَىَ ثاقب ومن هالة دارت على قمرتم

يفيضون من نور مبين إلى هُدًى ومن حكمة تجلو القلوب إلى حكم

جزى الله عنى يوسفا خير ماجزى ملوكَ بنى نصر عن الدين والعلم

إجازة بينه وبين ابن الحاج

وقال رحمه الله تعالى : مررت يوما مع شيخنا أبى البركات ابن الحاج ببعض مسالك غرناطة حرسها الله تعالى فأنشدنى من نظمه :

غرناطة ما مثلها حضره الماء والبهجة والخضره

واستجازنى رحمه الله تعالى ، فقلت :

سكانها قد أسكنوا جَنَّةً فهم يُلَقَّون بها نضره

---

(١) نجوس خلالها : نسير .

(٢) أجدى : أكثر جدى ونفعا ، وأهدى : أعظم هداية ، وجن الظلام : ستر الكون أو سكن

من نظمه فى تورية طبية

وقال فى تورية طبية :

إنى وإن كنت ذا اعتلال ... رث القوى بَيِّنَ الهزال
فى عارض التيس لى شفاء ... فكيف فى عارض الغزال

من نظمه يخاطب ابن مرزوق

وقال رحمه الله تعالى يخاطب شيخه سيدى أبا عبد الله بن مرزوق موطئاً على بيت المشارقة فى العذار :

أما والذى تُبْلَى لديه السرائر ... لما كنت أرضى الخسف لولا الضرائر
غدوت لضيم ابن الربيب فريسة ... أما ثار من قومى لنصرىَ ثائر
إذا التمست كفى لديه جرايتى ... كأنىَ جانٍ أو بَقَتْهُ الجرائر[1]
وما كان ظنى أن أنال جراية ... يحكم من جرائها فىَّ جائر[2]
متى جاد بالدينار أخضر زائفا ... ودارته دارت عليها الدوائر
وقد أخرج التعفيت كيسَ مرارتى ... ورقت لبلواى النفوسُ الأمائر
تذكرت بيتا فى العذار لبعضهم ... له مَثَلٌ بالحسن فى الأرض سائر
وما اخضر ذاك الخد نبتاً ، وإنما ... لكثرة ما شقت عليه المرائر
وجاهُ ابن مرزوقٍ لدى ذخيرة ... وللشدة العظمى تُعَدُّ الذخائر
ولو كان يدرى ما دهانى لساءه ... وأنكر ما صارت إليه المصائر

وقال رحمه الله تعالى يخاطب أحد الشرفاء :

أعيا اللقاء علىّ إلا لمحة ... فى جملة لا تقبل التفصيلا
فجعلت بابك عن يمينك نائبًا ... أهديه عند زيارتى تقبيلا
فإذا وجدتك نلت ما أملته ... أو لم أجدك فقد شفيت غليلا

ولما دخل رحمه الله تعالى مدينة أنفا ، ومر منها على دار عظيمة تنسب إلى والى

---

(١) أوبقته : أهلكته ، والجرائر : جمع جريرة ، وهى الذنب

(٢) جار فى حكمه يجور فهو جائر : ظلم واعتدى

من نظمه وقد مر بدار غني

جبايتها عبو من بنى الترجمان قارون قومه وغنى صنفه ، قال :

قد مررنا بدار عبو الوالى وهى ثكلى تشكو صروف الليالى

أقْصَدَتْ ربها الحوادث لما رشقته بصائبــات زوال

كان بالأمس واليا مستطيلا وهو اليــوم ماله من والِ

من نظمه فى الشيخ ابن بطان

وقال فى الشيخ ابن بطان الصنهاجى :

لله درك يا ابن بطان فمـــا لشهير جودك فى البسيطة جاحد

إن كان فى الدنيا كريم واحـد يزن الجميع فأنت ذلك الواحـد

أجريت فضلك جعفراً يحيا به ما كان من مجد فذكرك خالد(١)

فالقوم منـك تجمعوا فى مفرد وَلَدٌ كما شاء العَـلاَء ووالد

وهى الليــالى لا تزال صروفها يشقى بموقعها الكريم الماجـدُ

و بمستعين الله يصلح منك ما قد كان أفسده الزمان الفاسـد

من نظمه وقد انتابه البرغوث

وقال رحمه الله تعالى وقد انتابه البرغوث :

زحفت إلى ركائب البرغوث نَمَّ الظلام بركبهـــا المحثوث

بالحبــة السوداء قابل مقدمى لله أى قِرًى ، أعَـــدَّ ، خبيثِ(٢)

كسحت بهن ذباب سرح تجلدى ليلا فحبل الصبر جـدُّ رَثيثِ

إن صابرت نفسى أذاه تعبدت أو صحت منه أنفت من تخنيثى

جيشان من ليل و برغوثٍ فهل جيش الصباح لصرختى بمغيث ؟

من نظمه يخاطب محمد ابن حسون

وقال يخاطب الوالى محمد بن حسون بن أبى العلاء ، وصدر بها رسالة :

لم يبق لى جود الولاية حاجـة فى الأمن أو فى الجاه أو فى المال

بعد اللقــاء أولو الفضائل بغيتى ورأيت هذا القصد شرط كمال

---

(١) الجعفر : النهر ، وقد ورى بجعفر ويحيي وخالد البرامكة

(٢) « خبيث » نعت لقرى ، وجملة « أعد » معترضة بين النعت ومنعوته

أجملته وتشوفت لبيانه | همم فكنت مفسر الإجمال
وخصصت بالإلقاء غيرك غيرة | وجعلت ذكرك شاهد الأعمال
للبست يا ابن أبى العلا قشب الملا | وتركت أهل الأرض فى أسمال
إن دوّن الفضلاء فضلا مُعْلَما | فلقد أتيت عليه بالإكمال
تثنى عليك رعية آمالها | فى أن تفوز يداك بالآمال
أرعَيْتَهَا هملا فلم يطرق لها | بمنيع سورك طارق الإهمال
من كنت واليه تولتْهُ العلا | ومن اُطرحت فماله من والى

وقال فى عثمان بن يحيى بن عمر بن روح :

أسمى ذى النورين وجهك فى الوغى | شمس الضحى حلت بليث عرين
إن تفتخر بمَرِينَ أرض العدوة القصوى فإنك أنت فخر مرين

من نظمه وقد وقف على مراكش

وقال رحمه الله تعالى عند وقوفه على مراكش واعتباره بما صار إليه أمرها :

بلد قد غزاه صرف الليالى | وأباح المصون منه مُبيحُ
فالذى خرمن بناه قتيل | والذى خرمنه بعض جريح
وكأنَّ الذى يزور طبيب | قد تأتَّى له بها التشريح
أعجمت منه أربعٌ ورسوم | كان قدما بها اللسان الفصيح
كم معانٍ غابت بتلك المغانى | وجمال أخفاهُ ذلك الضريح
وملوك تعبَّدُوا الدهر لما | أصبح الدهر وهو عبد صريح
دوّخوا نازح البسيطة حتى | قال ما شاء ذابل وصفيح [1]
حين شبَّت لهم من البأس نار | ثم هبت لهم من النصر ريح
أثر يندب المؤثر لما | طال بعد الدنوّ منه النزوح [2]

---

(١) نازح البسيطة : بعيد الأرض ، والذابل : أراد به الرماح ، والصفيح : أراد به السيف

(٢) النزوح : البعد

ساكن الدار روحها، كيف يبقى جسد بعد ما تولى الروح؟

وقال رحمه الله تعالى يخاطب أحمد بن يوسف حفيد الولى الصالح سيدى أبى محمد صالح النائم فى ظل صيته رحمه الله تعالى :

من نظمه يخاطب أحمد ابن يوسف

يا حفيد الولى يا وارث الفخـــر الذى نال فى مقـــام وحال

لك يا أحمد بن يوسف جبنا كل قطر يعيى أكف الرحال

وقال فى « نفاضة الجراب » : لما خرجت من أسفى سرت إلى منزل ينسب إلى أبى حذو : وفيه رجل من بنى المنسوب إليه اسمه يعقوب ، فألطف وأجزل ، وآنس فى الليل ، وطلبنى بتذكرة تثبت عندى معرفته فكتبت له :

نزلنا على يعقوب نجل أبى حذو فعرّفنا الفضل الذى ماله حدّ

وقابلنا بالبشر واحتفل القِرَى فلم يبق لحم لم نفلـه ولا زبد

يحق علينا أن نقوم بحـــقه ويلقاه منا البر والشكر والحمد

وقال :

نماذج قصار من نظمه فى أغراض شتى

أأُلقِى إلى الأيام فضل مَقادتى فتجنبنى ما بين كد وإرهاق (١)

وأتلف بين الخلق والرزق فكرتى ولست بخلاق ولست برزاق

إذا كنت بالإثراء لى فى تملق رضيت بعز النفس فى عز إملاق

وقال :

لك الملك ملك الحسن فاقْضِ بنا الذى تشاء فما يُعْصَى لأمرك واجبه

إذاما كسرت اللحظ من تحت حاجب تحكم فى الألباب كسرى وحاجبه

وقال :

سألنا ربيع العام للعام رحمـــة فضَنّ ولم يسمح بذرة إنعـــام

---

(١) ألقى فلان إلى فلان بالمقادة ، وألقى قياده له : سلم له ، وأذعن ، وخضع والمقاد : مصدر ميمي فعله قاده يقوده وقد يراد به العنان الذى هو آلة القيادة

فقلنا وقد رد الوجوه ولم يُبَــلْ قليل الحيا قبحت والله من عام[١]

وقال :

تخوَّنه صرف الزمان وهل ترى بقـــاء لحى أو دواما على أمر[٢]

هو الدهر ذو وجهين يوم وليلة ومن كان ذا وجهين يعقب فى غدر

وقال رحمه الله تعالى فى شجر الجوز :

انظر إلى يَنْعى وحُسْنِ بُسُوقى يهفـــو النسيم بقدىَ الممشوق

يجلو اللواحظ منظرى حسنا كما يجعلو ثغـور العانيات عروقى

وقال رحمه الله تعالى فى ساق :

كيف آمنتما على الشَّرْبِ ظبيا لحظـــه فى القلوب غير أمين

راح يسقى فصَبَّ فى الـكأس نزرا ثقة منه بالذى فى العيون

وقال يخاطب السلطان :

أنت للمسلمين خير عماد ومـــلاذ وأى حِرْزٍ حريز

لو رأى ما شرعت للخلق فيـه عمر الفاضل بن عبـــد العزيز

لجزى ملـكك المباركَ خـيرا وقضى بالشفوف والتبريز

فاشكر الله ما استطعت بفعل و بقول مُطَـــوّل أو وجيز

كل مَلْكٍ يُرَى بصحبة أهل الــعلم قد باء بالمحلّ العزيز

فإذا ماظفرت منهم بإكسير ملأت البـــلاد من إبريز

والبرايا تبيـــد والملك يفنى أين كسرى الملوك مع أبرويز

وقال رحمه الله تعالى :

مالى أهذب نفسى فى مطامعها والنفس تأنف تهذيبى وتهذى بى

---

(١) لم يبل – بضم الياء وفتح الموحدة – أصله « لم يبال » أى لم يهتم ولم يكترث، ولما كثرت هذه الـكلمة فى كلامهم حذفوا الألف من جوفها ، و« قليل الحيا » فيه تورية ، يراد منه أنه لاحياء عنده (٢) تخونه : أنقصه

إذا استعنتُ على أهلى بتجربة   تأبى المقادير تجريبى وتجرى بى

وقال :

من لا نصيب لصَحْبه فى خيره   وإذا سعى لم يقض حاجة غيره
فاقصد أباه متى أردت وقل له   الله يُلهمه العزاء بأيره

وقال رحمه الله تعالى :

أمستخرجا كنز العقيق بآماقى   أناشدك الرحمن فى الرمَقِ الباقى[1]
فقد ضعفت عن حمل صبرى طاقتى   عليك وضاقت عن زفيرى أطواقى

وقال رحمه الله تعالى :

إذا لم أشاهد منك قبل منيتى   نهاية آمالى وغاية غاياتى
فحسْنُ عزائى حيل بينى و بينه   وقرة عينى لم تحل بمرآتى
شهودك أمنى من عداة خواطرى   وقربك حِرْزِى من توقع آفات
فإن لم يكن وصل فهبها إشارة   فيا حسن شاراتى بها من إشارات

وقال رحمه الله تعالى يخاطب الدنيا :

دُنيا خدعت الذى سفرت له   عن صفحة لم يحل بها كرم
سرقت حظ الإله من يده   فهان ما كان منه يحترم
هذا الذى نال منك ليس له   منقطع دائم ومنصرم
وهبه نال الذى أراد أما   بين يديه المشيبُ والهَرَمُ

ولما أورد رحمه الله تعالى قول القائل فى وصف الدنيا :

كلما أنبتَ الزمان قناةً   ركّبَ المرء فى القناة سنانا
وكأنا لم نرض فيها بريْبِ الدهر حتى أعانه من أعانا

---

(١) كنز العقيق : أراد به دمعه ، شبه دمه بالعقيق فى حمرة لونه ، والآماق : جمع مؤق ، وهو جانب العين مما يلى الأنف

قال أثره ما نصه : والحق ما قلته من أبيات تناسب ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله :

والله إن لم يُدَارِكها وقد وحلت ... بلمحة أو بلطف من لدنه خفى
ولم يَجُدْ بتلافيها على عجل ... ما أمرها صائر إلا إلى تلف[1]

فحب الدنيا رأس كل بلية ، ولولاه لم تزل النفس صافية عالية عن سجيتها الأولية .

ومن نظمه رحمه الله تعالى قوله :

إن رأى الحق فيك منه بقيَّهْ ... فاتَّقِ البعد فيه حق التقيه
وإذا لم يكن لذاتك رسم ... قائم تلك حالة حقيه

وقوله رحمه الله تعالى :

فسامح إذا مالم تفدك عبارة ... وإن أشكلت يوما فخذها كما هيا
وتلخيصُ ما دندنت بالقول حوله ... إذا قمت بالباقى فما زلت باقيا[2]

وقال رحمه الله تعالى :

ففى عالم الأسرار ذاتك تجتَلِى ... ملامِحِ نور لاح للطُّور فانهدّا
وفى عالم الحس اغتديت مبوأ ... لتشفى من استشفى وتهدى من استهدى
فما كنت لولا أن ثبت هداية ... من الله مثل الخلق رسما ولاحدا

وهذه الأبيات فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال رحمه الله تعالى :

حمامة البان ما هذا البكاء على ... مر الليالى وما ذا البثُّ والحزن
لا منزل بنت عنه أنت تندبه ... ولا حبيب ولا خل ولا سكن
لو كنت تنفث عن شوق مُنِيتَ به ... إذا لصار رمادا تحتك الغُصُنُ

---

(١) تقول « تلافى الأمر تلافيا » تريد تداركه قبل أن يفوت أوان تداركه

(٢) الدندنة : ترجيع صوت خفى، وتقول« دندن الرجل» تريد أنه صوت ولم يفهم منه كلام ، وقد قالوا « حول هذا ندندن » يريدون أنهم يتغنون بذكره

وقال رحمه الله تعالى مضمنا :

أَمِطْ عنك مهما اسطعت كل إرادة ... وإلا فمغنى القوم عنك بعيد
تكون مريداً ثم فيك إرادة ... إذا لم ترد شيئاً فأنت مريد

وقال رحمه الله تعالى :

تعلقته من دوحة الجود والباس ... قضيبا لعوبا بالرجاء وباليأس (١)
ضروبا بضرب لليراعة والْقَنَا ... طروبا بحمل المشرفية والكاس (٢)
يذكرنيه الصبح عند انصداعه ... جمال رُوَاء فى تأرج أنفاس
ويبدو لعينى شَعْرُه وجبينه ... إذا ماسفحت الحبر فى صفح قرطاس

وقال رحمه الله تعالى :

أحب لحبها جَمَلى ورحلى ... وعزمى والقَتَادة والطريقا
ومَنْ أخشاه من سبع ولص ... فكيف فريقها ؟ سلموا فريقا !
وكيف أخص باسم الحب إن لم ... أحب لأجلها إلا صديقا

وقال رحمه الله تعالى : وقلت من قصيدة :

أنا نسخة الأكوان أدمج خطها ... فسِرٌّ ذوى التحقيق فى طى أوراقى
فمن عالم الأشباح ليلى وظلمتى ... ومن عالم الأرواح نورى و إشراقى

وقال رحمه الله تعالى :

مولاى مولاى إن أرضاك بَذْلُ دمى ... فقد أتيت به أسعى على قدمى
وإن تعاظَمَ ذنب قد جنته يدى ... وطال قَرْعِى عليه السنَّ من ندم
فهبه لى واغتفر ما كان من خطإ ... وزلة وارع لى حبى على القدم

---

(١) أصل الدوحة ـ بالفتح ـ الشجرة العظيمة ، وهم يجعلون نسب الرجل شجرة على التشبيه ، والقضيب : الغصن

(٢) اليراعة : القلم ، والقنا : أراد به الرماح ، والمشرفية : السيوف

وقال رحمه الله تعالى من قصيدته العينية السلوية التى وجهها إلى سَلاَ أيام خلف بها أهله وولده :

بولىِّ الله فابدأ وابتـــدر واحِدِ الآحادِ فى باب الورع

ترجمة ولى الله أحمد بن عاشر

قلت : هذا الولى هو العارف بالله تعالى سيدى الحاج أحمد بن عاشر أحد الصلحاء أصحاب الكرامات المشهورة بالمغرب ، وقد زرت قبره بسلا عام تسعة وألف ، وهو أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر ، الأندلسى ، نزيل سَلاَ ، الولى الزاهد المشهور بالمناقب والأحوال .

قال ابن عرفة : ما أدركت مبرزا[١] فى زماننا هذا إلا الشيخ أبا الحسن المنتصر وأحمد بن عاشر بسَلاَ ، انتهى .

وقال بلدينا أبو عبد الله بن صعد التلمسانى فى كتابه « النجم الثاقب ، فيما لأولياء الله تعالى من المناقب » : كان أحَدَ الأولياء الأبدال ، معدوداً فى كبار العلماء ، مشهوراً بإجابة الدعاء ، معروفا بالكرامات ، مقدما فى صدور[٢] الزهاد ، منقطعاً عن الدنيا وأهلها ، ولو كانوا من صالحى العباد ، ملازما للقبور فى الخلاء المتصل ببحر مدينة سَلاَ ، منفرداً عن الخلق ، لا يفكر فى أمر الرزق ، وله أخبار جليلة ، وكرامات عجيبة مشهورة ، ممن جُمِـع له العلم والعمل ، وألقى عليه القبول من الخلق ، شديد الهيبة ، عظيم الوقار ، كثير الخشية ، طويل التفكر والاعتبار ، قصده أميرُ المؤمنين أبو عنان ، وارتحل إليه عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، فوقف ببابه طويلا ، فلم يأذن له ، وانصرف وقد امتلأ قلبه من حُبِّه و إجلاله ، ثم عاود الوقوف ببابه مراراً ، فما وصل إليه ، فبعث له بعض أولاده بكتاب كتبه إليه يستعطفه لزيارته ورؤيته ، فأجابه بما قطع رجاءه منه ، وأيس من لقائه ، واشتد

---

(١) برز فلان فى كذا : تفوق

(٢) الصدور : جمع صدر ، ويراد به الرئيس ، لأنه يكون فى صدر المجالس

حزنه ، وقال : هذا ولى من أولياء الله تعالى حجبه الله عنا ، انتهى .

ولما أجرى ذكره لسان الدين فى « نفاضة الجراب » قال ما ملخصه :

ولقيت من أولياء الله تعالى بسَلاَ الولى الزاهد الكبير المنقطع القرين ، فراراً عن زهرة الدنيا ، وعزوفا عنها ، وإغفاء فى الورع ، وشهرة بالكشف ، وإجابة الدعوة وظهور الكرامة ، أبا العباس بن عاشر ، يسر الله تعالى لقاءه على تعذره لصعوبة تأتِّيه ، وكثف هيبته ، قاعدا بين القبور فى الخلاء ، رث الهيئة ، مُطْرِق اللحظ ، كثير الصمت ، مفرط الانقباض والعزلة ، قد ضرسه[1] أهل الدنيا ، وتطارحهم ، فهو شديد الاشمئزاز من قاصده ، مُجَرمز للوثبة[2] من طارقه ، نفع الله تعالى به !

وقال ابن الخطيب القسطميني الشهير بابن قنفذ : لقيته بسلا سنة ٧٦٣ ، وهو على أتم حال فى الورع ، والفرار من الأمراء ، والتمسك بالسنة ، وهو الشيخ الفقيه الولى ، توفى فى سنة خمس وستين وسبعمائة ، انتهى .

وممن انتفع به ونال بركته الولى العارف بالله سيدى أبو عبد الله بن عَبَّاد شارح الحكم ، وقد ترجمناه فى هذا الكتاب .

وقال ابن عباد المذكور فى رسائله : وقد كنت قدما خرجت فى يوم مولده صلى الله عليه وسلم صائما إلى ساحل البحر ، فوجدت هناك سيدى الحاج ابن عاشر رحمه الله تعالى وجماعة من أصحابه معهم طعام يأكلونه ، فأرادوا منى الأكل ، فقلت : إنى صائم ، فنظر إلى سيدى الحاج نظرة منكرة ، وقال لى : هذا يوم فرح وسرور يُسْتَقبح فى مثله الصوم كالعيد ، فتأملت قوله فوجدته حقا ، وكأنه أيقظنى من النوم ، انتهى .

وقال ابن قنفذ السابق فى رحلته ما صورته : وكان ابن عاشر رحمه الله تعالى

---

(١) ضرسه أهل الدنيا : جربوه وعرفوا شيمته ، وتطارحهم : أراد أنه لم يخالطهم فكأنه طرحهم ورمى بهم (٢) تقول « فلان يجرمز لينباع » تريد تقبض واجتمع ، وذلك كناية عن أنه متوثب ومستعد لينطلق فى أمره

فريدا فى الورع ، ميسراً عليه فى ذلك أتم تيسير ، محفوظاً من كل ما فيه شبهة ، كثير النفور من الناس ، وخصوصاً أصحاب الولاية فى الأعمال ، وخرجت على يده تلامذة نجباء أخيار ، وطريقه أنه جعل « إحياء علوم الدين »[١] بين عينيه ، واتبع ما فيه بجدّ واجتهاد ، وصدق وانقياد ، وكان الحجة فى ذلك الطريق ، وأول اجتماعى به نَفَر منى ، فجَبَسْتُه بيدى ، وهززته ، فتبسم ووقف معى ، وسألنى عن نسبى ، ودعا لى ، وطلبته بما يطعمنى ، فاعتذر لى بالإقلال[٢] ، ثم قال : أمهل ، فدخل وأخرج لى حبات تين يابسة فى يده اليمنى ، وغطاها باليد اليسرى ، ودفعها إلى ، وضحك معى ، وعجب الحاضرون من ليانته وانشراحه معى ، لأنه لا ينبسط إلى أحد ، وحصل لى بذلك فخر لا يدرى قدره إلا مَنْ حاول بعضه معه ، وقصدنى كثير من الخواص فسألنى عن مجلسى معه وما وقع من جوابه وسؤاله ، وقد حاول ملك المغرب لما ارتحل إليه فى عام سبعة وخمسين وسبعمائة على لقائه فلم يقدر عليه بوجهٍ ، وحجبه الله تعالى حتى تبعه يوم جمعة من الجامع الأعظم على قدمه ، والناس ينظرونه ، وهو لم يره ، فرجع ، ولم يكن قوته إلا من نسخ العمدة فى الحديث ، وكيف يبيعها ، ولمن يبيعها ، ولا يأخذ إلا قيمتها ، ولم تزل حالته وبركته فى زيادة إلى أن توفى سنة ٧٦٥ ، وسأله بعض الأخيار بمحضرى عن الفرق بين مكاشفة المسلم ومكاشفة النصرانى ؛ لوجود ذلك من بعضهم ، فقال : المسلم الذى له هذه الدرجة يبرئ من العاهة ، والنصرانى لا يبرئ ، ثم قال : وهل يبرئ الفقيه من العاهة ؟ فقال له : نعم ، ثم نظر يميناً وشمالاً ليجد صاحب عاهة فيأتى بالعيان ، فلم يجد أحدا ، وكأنه اغتاظ لهذا السؤال ، ثم أخرج يده وقال : يأتى لمن يقعد عن الحركة ، فيحبسُه بيده ، ويقيمه وقد ذهب ألمه بعد أن جثا إلى الأرض فى الصفة ، ثم قال : وسئل بعضهم عن هذا ، وكان السائل نصرانياً فى زى المسلم ، فقال له : الفرق

---

(١) « إحياء علوم الدين » كتاب شهير لحجة الإسلام الغزالى

(٢) الإقلال : يراد به الفقر ، وأراد أنه لا يجد ما يطعمه إياه

بينهما سقوط الزنّار من وسطك ، قال : فسقط ، وفضحه الله تعالى ! وأسلم بسبب ذلك ، انتهى كلام ابن قنفذ القسطميني ، رحمه الله تعالى ! .

وترجمة ولى الله تعالى سيدى الحاج ابن عاشر ـ نفعنا الله تعالى ببركاته ـ ! متسعة جداً ، وكراماته ومناقبه لا نبلغ لها حداً ، ولا نطيق لها عداً ، وإنما ألمعنا بذكره قصدا للتبرك به ، والله ولى التوفيق ، وهو الهادى إلى سواء الطريق .

رجع إلى نظم لسان الدين

رجع إلى نظم لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى ـ فنقول : ومن مداعباته رحمه الله تعالى قوله :

ومولع بالكتب يبتاعها بأرخص السوم ، وأغلاه

فى نصف الاستذكار أعطيته مختصر العين فأرضاه

ويعنى بمختصر العين الزبيدى فافهم ، وقال رحمه الله تعالى من قصيدة :

ووالله ما اعتلَّ الأصيل ، وإنما تعلم من شَجْوِى فبان اعتلاله[1]

وهذا غاية فى المبالغة وحسن التعليل .

وقال رحمه الله تعالى . وقفت على قبر المعتمد بالله فى مدينة أغمات فى حركة حاجة[2] أعملتها إلى الجهات المراكشية ، باعثُها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار ، عام واحد وستين وسبعمائة ، وهو بمقبرة أغمات فى نَشَز[3] من الأرض ، وقد حفت به سِدْرة ، وإلى جنبه قبر « اعتماد » حظية مولاه رُمَيْك ، وعليهما أثر التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما ، فأنشدت فى الحال :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رأيت ذلك من أولى المهمات

لم لا أزورُكَ يا أندى الملوك يدا ويا سراج الليالى المدلهمات

---

(١) الأصيل : الوقت قبيل غروب الشمس ، والهواء حينئذ عليل : أى لاحر فيه ولا برد ، ولكنه صرف ذلك اللفظ إلى العلة التى هى المرض ، وعللها بما ذكر

(٢) فى ب « فى حركة راحة » (٣) نشز من الأرض : أى مكان عال مرتفع

وأنت من لو تخطَّى الدهر مصرعه ... إلى حياتى لجادت فيه أبياتى
أناف قبرك فى هَضْب يميزه ... فتنتحيه حَفِيَّات التحيات (١)
كرمت حيا وميتا واشتهرت علا ... فأنت سلطان أحياء وأموات
مارىء مثلك فى ماض، ومعتقدى ... أن لا يرى الدهْرَ فى حال ولا آت

وقد تقدم هذا فى القسم الأول فى الباب السابع منه ، وكررته هنا ، والله الموفق

وقال رحمه الله تعالى مور ياحين أكل مشرفُ الدار القابِضَ : أى أكل ماله :

مشرف دار الملك ما باله ... منتفخ الجوف شكا نافضا (٢)
فقيل لى ليس به علة ... لكنه قد أكل القابضا

وقال :

يا نفس لا تصغى إلى سلوة ... كم أخلف الموعدَ عرقوبُ
وأنت يا قلبىَ وصاك إبراهيم بالحزن ويعقوب

وقال فى السعيد أبى بكر ابن السلطان أبى عنان :

أمير كأنَّ قمير الدجى ... أفاض الضياء على صفحتيه
تملأ قلبىَ من حبه ... غداة نظرت بعينى إليه
فلَا بسط الدهر كف الردى ... لذاك الشخيصِ وذاك الوجيه

وقال يخاطب الخطيب ابن مرزوق :

تعلم طيفورى خلال سميه ... وإن كان منسوبا إلى غير بسطام (٣)
وجاء فقير الوقت لابس خرقة ... فليس براض غير صحبة صوام
فديتك لا ترْدُدْهُ عنك مخيبا ... ودرسه يامولاى قصة بلعام

وقال : مما كتبت به إلى ابن مرزوق المذكور ، وقد وصل ولده إلى سلا ومنع

---

(١) تنتحيه : تقصده ، والتحيات : جمع تحية ، والحفية : التى تريد الحفاوة به

(٢) النافض ، هنا : الحمى

(٣) أصل الطيفور الطائر الصغير ، وطيفور : اسم أبى يزيد البسطامى ، وهو طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن على (انظر الترجمة رقم ٢٨٩ فى ابن خلكان ٢ / ٢١٣ بتحقيقنا)

ابنَ الخطيب عن لقائه عذرُ مرضٍ ، وكان نزوله بزاوية النساك :

صدنى عن لقاء مجلك عذر يمنع الجسم عن تمام العباده
واختصرتُ القرى لأن حطرحلا فى محل الغنى ودار الزّهاده
وَلَوَ أنى احتفلت لم يعن الدهـر ولا نلت بعض بعض أراده
وعلى كل حالة فقصورى عادة إذ قبولُكَ العذرَ عاده
لاعدمت الرضى من الله والحسـنى كما نص وَحْيُـه والزياده

وقال يخاطبه من ضريح السلطان أبى الحسن بشالة لاستنهاض عزيمته فى قضاء غرضه

برئت لله من حولى ومن حيلى إن نام عنى وليى فَهْوَ خير ولى (١)
أصبحت مالىَ من عطف أؤمله من غيرهِ فى مهمات ولا بدل
ما كنت أحسب أن أرمى بقاصية للهجر أقطع فيها جانب الأمل
من بعدما خلصت نحوى الشفاعة ما بين العلا والدجا والبيض والأسل
إن كنت لست بأهل للذى طمحت إليـه نفسى وأهْوَى نحوه أملى
فكيف يُلْغَى ولا ترعى وسيلته دخيـل قبر أمير المسلمين على (٢)
من بعد ما اشتهرت حالى به وسَرَتْ بها الركائب فى سهل وفى جبل
والرسل تترى ولا تخفى نتائجها عنـد التأمل من قول ولا عمل
ولا لليـلىَ من صبح أطالعه كأن همّىَ قد مدّ الدجُنّـةَ لى (٣)
لو أننى بابن مرزوق عقدت يدى وكان محتـكما فى خيرة الدول
لـكان كربىَ قد أفضى إلى فرج وكان حزنىَ قد أوفى على جذَل
ألحتُ بالعتب لم أحذر مواقعه (أنا الغريق فما خوفى من البلل)
ولست أجحد ما خولت من نعم لـكنها النفس لا تنفك عن أمل

---

(١) الحول : القوة ، والحيل : جمع حيلة
(٢) الوسيلة : كل ماتوصلت به إلى الشىء
(٣) الدجنة ـ بضم الدال والجيم وتشديد النون مفتوحة ـ الظلام

ولست أيأس من وعد وعدت به — وإنما خلق الإنسان من عجل

من شعره يخاطب السلطان أبى الحجاج

وقال رحمه الله تعالى يخاطب السلطان أبا الحجاج :

أمولاى إن الشعر ديوان حكمة — يفيد الغنى والعز والجاه من كانا
وقد وُجِدَ المختار فى الحفل مُنْصِتا — له وحَبَا كعبا عليه وحسانا[1]
وفيما رواه الناقلون وأثبتوا — بذلك ديوانا صحيحا فديوانا
بأن أبا بكر خليفتَه الرضا — وفاروقه الأدنى إليه وعثمانا
وأن عليا قدس الله جمعهم — وكرمنا بالقرب منهم وحَيَّانا
لهم فى ضروب القول إذ هم فحوله — خطابٌ وشعر يستقران تبيانا
وفاض على أهل القريض نوالُهم — فروّض روض القول سحاو تهتانا
وأنت أحق الناس أن تفعل الذى — به فَعَلَ المختـــار دينا و إيمانا
فما زلت تهدى فى البرية هديه — وتقضى بما يرضيه سرا و إعلانا
و إن قيل قدرُ المرء ما هو محسن — فصنعة نظم القول أرفعه شانا

وقال موريا :

بنفسى حبيبٌ فى ثناياه بارق — ولـكنها للواردين عِذَابُ
إذا كان لى منه عن الوصل حاجر — فدمعى عقيق بالجفون مذاب

وقال :

عذبت قلبى بالهوى فقيامه — فى نار هجرك دائما وقعوده
ولقد عهدت القلب وهو موحِّد — فعلام يقضى فى العذاب خلوده

وقال فى التجنيس :

دعوتُكَ للود الذى جَنَبَاته — تداعت مبانيها وهَمَّتْ بأن تهى

---

(١) يريد أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استمع إلى الشعر وأنصت له ، وأنه أجازعليه ، فقد أعطى كعب بن زهير بن أبي سلمى المزنى برده حين أنشده لاميته ، وأكرم حسان بن ثابت الأنصاري ودعى له بالتأييد

وقلت لعهد الوصل والقرب بعد ما ... تناءى وهل أسلو حياتى وأنت هى
ومَنْ شام من جوّ الشبيبة بارقا ... ولم تنهه عنه النُّهَى كيف ينتهى

وقال :

ناديت دمعىَ إذ جد الرحيل بهم ... والقلب من فرَقِ التوديع قد وَجَبَا[١]
سقطت يا دمع من عينى غداة نأى ... عنى الحبيب ولم تقض الذى وجبا

وقال :

شلير لعمرى أساء الجوار ... وسد علىّ رحيب الفضا[٢]
هو الشيخ أبرد شىء يُرَى ... إذا لبس البرنس الأبيضا

وقال : قلت أخاطب بعض من أدل عليه وما أولانى بذلك :

إذا قمت قُلْ بعقيب الكرى ... إلهىَ أنت إله الورى
تباركت أنشأتهم من تراب ... وأنشأتنى بينهم من خرا

قلت : ولا خفاء ببشاعة هذا ، فحذفه أولى من اثباته .

وقال يداعب بعض أصحابه :

شيخ رباط إن أتى شادنٌ ... خلوته عند انسدال الظلام
أدْلَى وقد أبصره دَلْوه ... وقال يا بشراى هذا غلام

وقال فى غرض يظهر :

لم أجد فيه لين بَثٍّ لقلبى ... وقبولا لحجتى واعتذارى
ثقل الله ظهره بعيال ... سود الله وجهه بعذار

وقال من قصيدة :

أخذْتَ وأمواجُ الردى متلاطمه ... بضَبْعِىَ يا نجل الوصى وفاطمه

---

(١) الفرق — بالتحريك — الخوف ، ووجب قلبه يجب : خفق يخفق
(٢) شلير : اسم جبل فى أعمال البيرة لايفارقه الثلج شتاء ولا صيفا ، وفيه يقول بعض المغاربة :

يحل لنا ترك الصلاة بأرضكم ... وشرب الحميا ، وهو شىء محرم
فرارا إلى نار الجحيم ؛ فإنها ... أخف علينا من شلير وأرحم

وقال :

ووجه غرست الورد فيه بنظرة فياليت كفى متعت بجَـنى غرسى
كأن سواد الخال فى وجناته علامة مولانا على أحمر الطرس
وبينهما فى باطن الأمر نسبة لذلك أمضيت الغرام على نفسى

وقال يشير إلى بعض طبقات الغناء :

ضرط الفقيه فقلت ذاك غريبة ما كان ذلك منـه بالمعلوم
فدَنَا إلى وقال قد أصرفتكم من ضرطتى بغريبة المزموم

من نظمه يهنىء السلطان أبا حم

وفى آخر سنة أربع وسبعين وجه إلى السلطان أبى حم سلطان تلمسان أبياتا لزومية فى غرض الهنَاء ، وهى :

وقف الغرام على ثناك لسانى رعيا لما أوليت من إحسان
فكأنما شكرى لمـا أوليته شكر الرياض لعارض النيسان
أنا شِيعَةٌ لك حيث كنت ، قضية لم يختلف فى حكمها نفسان
ولقد تشاجرت الرماح فكنت فى ميدان نهرك فارس الفرسان
ورويت غر مآثر أسندتها لعلاك بين صحائح وحسان
ولأنت أولى بالتشيع شيمة لم تتفق لسواك من إنسان
الشمس أنت قد انفردت وهل يرى بين الورى فى مطلع شمسان
جبرت بجبرك كل نفس حرة وشدا بشكر الله كل لسان
وبَدَتْ سعودك مستقيما سيرها وعلت ففرَّ أمامها النحسان
فاستقبل السعد المعاود سافرا عن أى وجـه للرضا حُسَّانِ (١)
وابغ المزيد بشكر ربك ولتثق بمضاعف الإنعام والإحسان

(١) حسان ـ بضم الحاء وتشديد السين المهملة ـ أى حسن ، ويقال أيضا حسان ـ بضم الحاء وتخفيف السين ـ ونظير ذلك قولهم « كبار » قالوه بضم الكاف مع تخفيف الباء وتشديدها ، وفى القرآن الكريم (ومكروا مكرا كبارا) بالتشديد ، وقال الشاعر فى التخفيف :

كلفة من أبى رياح يسمعها لاهه الكبار

فالشكر يقتاد المزيد ركائبا تنقاب بابك منه فى أرسان[١]
ثم السلام عليك يُزْرى عَرْفه طيبا بعَرْفِ العود والبَلَسانِ[٢]

وقال :

بحق ما بيننا يا ساكنى القصَبه ردوا على حياتى فهى مغتصبهْ
ماذا جنيتم على قلبى ببينكم وأنتم الأهل والأحباب والعصَبَهْ

قلت : ولعل ابن زَمْرَك قال أبياته التى على هذا الروى المذكورة فى غير هذا الموضع من هذا الكتاب جوابا لهذه حين كان ابن زمرك من جملة أتباع لسان الدين ، رحم الله تعالى الجميع ! .

وقال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى :

حين ساروا عنى وقد خَنَقَتْنى عبرات قد أعربت عن وَلُوعى
صحت من ينصر الغريب ؟ فلما لم أجد ناصرا بلعت دموعى

وقال :

قال لى والدموع تنهل سُحْبًا فى عراض من الخدود محول
بك ما بى فقلت مولاى عافا ك المعافى من عَبْرتى ونحولى
أنا جفنى القريح يروى عن الأعمـش والجفنُ منك عن مكحول

وقال :

أشكو لمبسمه الحريق وقد حمى عنى لَمَاه المشْتَهَى ورحيقه
يا ريقه حيرتنى ومطلتنى ما أنت إلا بارد يا ريقه

وقال فيمن ركب البحر وماد :

ركب السفينة واستقل بأفقها فكأنما ركب الهلال الفرقد

---

(١) الأرسان : جمع رسن — بالتحريك — وهو ما تقاد به الدابة
(٢) البلسان : شجر أبيض الزهر يستعمل زهره فى الأدوية ، والأكثر تحريك اللام

وشكوا إليه بميده فأجبتهم لا غرو إن ماد القضيب الأملد (١)

وقال عند ما خرج السلطان ابن الأحمر من فاس متوجها إلى الأندلس لطلب حقه :

ولما حثثت السير والله حاكم لملكك فى الدنيا بعز وفى الأخرى

حكى فرس الشطرنج طرفك لا يرى ينقل من بيضاء إلا إلى حمرا

ويعنى بالبيضاء فاسا الجديدة ، و بالحمراء حمراء غرناطة .

وتذكرت هنا أن بعض علماء الأندلس ، وأظنه أبا عبد الله بن جزى ، لما رَمِدَت عينُ بعض أهل فاس سأله عنها ، فقال :

يا سيدى عينىَ قد أودى قذاها بالأَنَسْ

فانظر إليها ترها دار مليك الأندلس

يعنى حمراء ، فأجابه بقوله :

وُقِّيتَ مما تشتكى من القذى والوصب

ما رمدت عيناك بل عينُ العلا والأدب

فلتحمدن إن لم تكن دار مليك المغرب

يعنى بيضاء ، وهذا من غريب ما يحاضَرُ به .

رجع — وقال لسان الدين رحمه الله تعالى :

أجاد يراع الحسن خطَّ عذاره وأودعه السِّرَّ المصون الذى يدرى

ولم يفتقر فيه لختم وطابع فمبسِمُهُ أغناه عن طابع السر

وقال فى غرناطة :

أحييك يا مَعْنَى الكمال بواجب وأقطع فى أوصافك الغُرِّ أوقاتى

تقسم منك الترب قومى وجيرتى ففى الظَّهر أحيائى وفى البطن أمواتى

(١) ماد القضيب يميد : تثنى واهتز

وقال فى غرض ينحو نحو المشارقة :

رموا بالسلوّ حليف الغرام وأدمُعُه كالحيـا الهاطل (١)
أعوذ بعزك ياسـيدى لذلّىَ من دعوة الباطل

وقال :

ياليلُ طُلْتَ ولم تجـد بتبسم وأريتنى خلق العبوس النادم
هـلاَّ رحمت تغربى وتفرقى لله ما أقساك يا ابن الخادم

وقال فى مروحة سلطانية :

كأنىَ قوس الشمس عند طلوعها وقد قدمت من قبلها نسمة الفجر
وإلا فما هبت بمحتـدم الوغى بنصر ولكن من بنودبنى نصر (٢)

وقال يخاطب شيخه ابن الجيَّاب :

بين السهام و بين كُتْبِكَ نسبة فبها يصاب من العدوّ المقتل
وإذا أردت لها زيادة نسبة هذى وهذى فى الكنانة تجعل (٣)

وقال يتغزل ، وفيه معنى غريب :

إن اللحاظ هى السيوف حقيقة ومن استراب فحجتى تكفيه
لم يُدْعَ غمدُ السيف جفنا باطلا إلا لشبه اللحظ يغمد فيه

قيل : وأحسن منه قول غيره :

إن العيون النُّجْل أمضى موقعا من كل هندىٍّ وكُلِّ يمانى
فضل العيون على السيوف بأنها قتلت ولم تخرج من الأجفان

وأصل ماقال لسان الدين قول الأول :

بين اللحاظ وعينيه مناسبةٌ من أجلها قيل للأغماد أجفان

---

(١) الحيا : المطر ، والهاطل : المنهمر

(٢) فى ب « وإلا كما هبت بمحتدم الوغى » وأصلحته إلى ماترى

(٣) الكنانة ـ بكسر الكاف ـ وعاء السهام

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى فى الساعة ، وتسميها المغاربة المنجانة :

تأمل الرمل فى المنجان منقطعاً ... يجرى وقد رَدَّ عُمْراً منك منتهيا

والله لو كان وادى الرمل ينجده ... ما طال كامله إلا وقد ذهبا

وقال :

أقول لعاذلى لما نَهَانِى ... وقد وجد المقالة إذ جفانى

علمت بأنه مُرُّ التجنِّى ... وفاتك أنه حلو اللسان

وقال فى غرض صوفى :

لا تنكروا إن كنت قد أحببتكم ... أو أننى استولى علىّ هواكم

طوعا وكرها ما ترون فإننى ... طُفْتُ الوجود فما وجدت سواكم

وقال يمدح ، وفيه تورية :

وإن نَظَرْتَ إلى لألاء غـرته ... يوم الهياج رأيت الشمس فى الأسد[1]

وقال مما يكتب على طاق الماء بباب القبة :

أنا طاق تزهو بىَ الأيام ... تعبت فى بدائعى الأفهام

وتبدَّيْتُ للنواظر محرا ... با كأن الإناء فى إمام

واقف للصلاة حتى إذا ما ... جئت للشرب حان منى سلام

وقال فى ذلك أيضا :

يا صانعى لله ما أحكمتـه ... فلأنت بين العالمين رئيسُ

أحكمت تاجى يوم صغت رقوشه ... فصبت إليه مَفَارِق ورؤس

وأقمت فى محرابه فكأنه ... مجلى إناء الماء فيه عروس

وقال فى المشيب :

إنى لمبلى بالهوى من بعـدما ... للوَخْط فى الفوْدَين أى دبيب[2]

---

(١) أراد بالشمس غرته ، وأراد بالأسد الممدوح نفسه ، والأسد منزله من منازل الشمس ، ومن هنا جاءت التورية (٢) الوخط ، هنا : الشيب ، والفودان : جانبا الرأس

لبس البياضَ وحَلَّ ذروة منبر … منى ووالى الوعْظَ ، فعل خطيب

وقال رحمه الله تعالى :

والله ما جانٍ على مالِهِ … أوجاهه مَنْ ذبَّ عن عرضه

والناس فى خير وفى ضده … هم شهداء الله فى أرضه

وقال :

إلهىَ بالبيت المقدَّس والمسعى … وجَمْع إذا ما الخلق قد نزلوا جمعا[(١)]

وبالموقف المشهود يا رب فى منى … إذا ما أسال الناسُ من خوفك الدمعا

وبالمصطفى والصحب عجل إقالتى … وأنجح دعائى فيك ياخير من يُدْعَى

صُدِعْتُ وأنت المستغاث جنابه … أَقِل عثرتى يا موئلى واجبر الصدعا

وقال رحمه الله تعالى فى بنيونش سبتة :

بنيونش أسنى الأماكن رقعةً … وأجلُّ أرض الله طراً شانا

هى جَنَّة الدنيا التى مَنْ حَلَّها … نال الرضا والرَّوْحَ والريحانا

قالوا القرود بها فقلت فضيلة … حيوانُها قد قارب الإنسانا

وفى بينونش هذه يقول أبو عبد الله بن مجبر[(٢)] :

بينونش جنة ولكن … طريقها يَقْطَع النياطا[(٣)]

وجنة الخلد لا يراها … إلا فتى يقطع الصراطا

وقال ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

إن الهوى لشكاية معروفة … صبر التصبر من أجل علاجها

---

(١) جمع — بفتح الجيم وسكون الميم — هو المزدلفة ، وهو مكان يؤدى فيه نسك من مناسك الحج

(٢) وقع هنا « مجبر » بالباء الموحدة ، وتقدم ذكره فى ب « مجير » بالمثناة ، ونبهنا عليه مرارا ، وهناك « أبو بكر بن مجبر » ويضبط بالباء وعلى زنة اسم المفعول من نحو أكرم

(٣) النياط — بكسر النون ، بزنة الكتاب — عرق غليظ ، نيط به القلب إلى الوتين وإذا قطع مات صاحبه

والنفس إن ألفت مرارة طعمه ... يوما ضمنت لها صلاح مزاجها

وقال رحمه الله تعالى :

ولما رأت عزمى حثيثاً على السرى ... وقد رابها صبرى على موقف البين

أتت بصحاح الجوهرى دموعُهَا ... فقابلت من دمعى بمختصر العين

وقال رحمه الله تعالى :

تذكرت عهداً كان أحلى من الكرى ... وأقصر من إلمام طيف خياله(١)

فيا ليت شعرى مَنْ أتاح لى المنى ... وعذب بالى هــل أمر بباله(٢)

وقال رحمه الله تعالى :

عينى جنت فعَلاَمَ تحرق أضلعى ... أبما جنى جار يعذب جار

يا قلب لا تدهشك نيران الهوى ... فكنار إبراهيم تلك النار(٣)

فاصبر على ما حُمِّلُوا تنل المنى ... بالسبك أدرك نقشهُ الدينار

وقال رحمه الله تعالى :

وما كان إلا أنْ جَنَى الطرفُ نظرةً ... غدا القلب رهنا فى عقوبة ذنبه

وما العدل أن يأتى امرؤ بجريرة ... فيؤخــذ فى أوزارها جار جنبه

وقال رحمه الله تعالى :

بَرَى جسدى فيكم غرام ولوعة ... إذا سكن الليـل البهيم تثور

فلولا أنيني ما اهتدى نحو مضجعى ... خيالُكم بالليــل حين يزور

ولو شئت فى طى الكتاب لزرتكم ... ولم تدر عنى أحْرُفٌ وسطور

وقال رحمه الله تعالى :

بلد تحف به الرياض كأنه ... وجه جميل والرياض عذاره

---

(١) الكرى : النوم ، والإلمام : الزيارة

(٢) أتاح : هيأ ويسر ، والمنى : جمع منية ــ بالضم ــ وهى ما يتمناه المرء

(٣) يريد أنها برد وسلام كنار إبراهيم

وكأنما واديه مِعْصَمُ غادة ومن الجسور المحكمات سوارُهُ

وقال رحمه الله تعالى يخاطب السلطان أبا حمو صاحب تلمسان ويشكره على ما كان أعان به أهل الأندلس :

لقد زار الجزيرة منك بحرٌ يمدُّ فليس نعرف منه جَزْرَا
أعدت لها بعهدك عهدَ موسى سميك فهى تتلو منه ذكرا
أقمت جدارها وأفدت كنزاً ولو شئت اتخذت عليه أجرا

وقال أيضا :

وقالوا الجزيرة قد صوحت فقلت غمامَ النَّدَى تنتظر
إذا وكفت كف موسى بها غماما يعود الجناب الخضر

وقال رحمه الله تعالى عقب الإياب من الرحلة المراكشية :

أفادت وجهتى بندَاك مالا قضى دينى وأصلح بعضَ حالى (١)
ومُتِّعَتِ الخواطر بانشراح وأطرفت النواظر باكتحال
وأبتُ خفيف ظهر ، والمطايا بجاهك تشتكى ثقل الرحال (٢)
وشانى للمعالم غير شان وحالى بالمكارم جد حال
فحبُّ علاك إيمانى وعقدى وشكر نداك دينى وانتحالى
كما قد صَحَّ لله انقطاعى بتأميلى جنابك وارتحالى
وما يبقى سوى فعل جميل وحال الدهر لا تبقى بحال
وكل بداية فإلى انتهاء وكل إقامة فإلى ارتحال
ومَنْ سام الزمان دوام أمر فقد وقف الرجاء على المحال

---

(١) أفادت : كسبت وحصلت الفائدة ، والندى ــ بالفتح مقصورا ــ الجود

(٢) أبت : رجعت ، وخفيف ظهر : يريد أنه لم يمتن عليه فيثقل حمل امتنانه ، و « المطايا تشتكى إلخ » كناية عن كثرة ما أعطاه

وقال رحمه الله تعالى فى الضَّرَاعة إلى ربه ، والاعتراف بذنبه :

مولاى إن أذنبت ينكر أن يرى … منك الكمال ومنى النقصان

والعفو عن سبب الذنوب مسبب … لولا الجنايةُ لم يكن غفران

وقال رحمه الله تعالى :

سلام على تلك المرابع ؛ إنها … معاهد ألاَّفِى وعهد صحابى[1]

ويا أسة المغنى انعَمِى فلطالما … سكبت على مثواك ماء شبابى

وقال سامحه الله تعالى :

أموطنىَ الذى أزعِجْتُ عنه … ولم أرزأ به مالا ولا دَمْ[2]

لئن أزعجت عنك بغير قصد … فقبلىَ فارَقَ الفردوسَ آدمْ

ومن ميلادياته رحمه الله تعالى قوله :

ما على القلب بعدكم من جُنَاح … أن يرى طائراً بغير جَنَاح

وعلى الشوق أن يَشُبَّ إذا هب … بأنفاسكم نسيم الصباح

جيرة الحى والحديث شجون … والليالى تلين بعد الجماح

أترون السلو خامر قلبى … بعدكم ؟ لا وفالق الإصباح

ولَوَ أنى أُعْطَى اقتراحى على الأيام … ما كان بُعْدُكم باقتراحى

ضايقتنى فيكم صروفُ الليالى … واستدارت علىَّ دَوْرَ الوشاح

وسقتنى كأس الفراق دِهاقا … فى اغتباق مواصل واصطباح

واستباحت من جدتى وفتائى … حَرَمًا لم أَخَلْه بالمستباح

ومنها :

يا ترى والنفوسُ أسرى أمانٍ … ما لها من وَثَاقها من سَرَاح

---

(١) المرابع : جمع مربع ، وهو منزل القوم زمن الربيع ، والألاف : جمع آلف اسم فاعل من « ألفه يألفه » أى أحبه

(٢) أزعجت عنه : اضطررت إلى زياله ومفارقته

هل يباح الورود بعد ديار   أو يتاح اللقاء بعد انتزاح
وإذا أعوز الجسومَ التلاقى   ناب عنه تعارف الأرواح

وهى طويلة لم يحضرنى منها الآن سوى ما ذكرته .

وقد حذا حَذْوَهَا الفقيهُ الكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون أخو قاضى القضاة ولى الدين بن خلدون صاحب التاريخ ، فقال فى مولد عام ثمانية وسبعين وسبعمائة ، واستطرد لمدح السلطان أبى حمو موسى صاحب تلمسان الذى تقدم ذكره قريبا :

ماعلى الصب فى الهوى من جُنَاح   أن يرى حِلْفَ عبرة وافتضاح
وإذا ما المحب عيل اصطبارا   كيف يصغى إلى نصيحة لاحِ (١)
يا رعى الله بالمحصَّبِ ربعا   آذنت عهده النوى بانتزاح (٢)
كم أدرنا كأس الهوى فيه مزجا   رب جد من الجوى فى المزاح
هل إلى رَسْمه المحيل سبيل   يا حُداة المطى تلك الطلاح (٣)
نسأل الدار بالخليط ونسقى   ذلك الربْعَ بالدموع السِّفاح
أى شجو عاينت بعد نَوَاها   من أسى لازم وصبر مزاح
أهْلَ ودى إن رابكم بَرْح وجدى   من صبا بارق وبرق لباح
فاسألوا البرق عن خفوق فؤادى   والصبا عن سقام جسمى المتاح
يا أهَيْلَ الحمى نداءَ مشوق   ماله عن هوى الدُّمَى من بَرَاح
طالما استعذب المدامع وِرْدًا   فى هواكم عن كل عذب قراح
عاده بالطلول للشوق عيدٌ   من حمام بدوحهن صداح
من لِقَلبٍ من الجوى فى ضِرام   ولجفن من البكا فى جراح

(١) عيل اصطبارا : لم يطق حمل الصبر ، وشق عليه ، واللاحى : اللائم المتسخط
(٢) المحصب ــ بتشديد الصاد مفتوحة ــ مكان بين مكة ومنى
(٣) الرسم : مابقى من آثار الديار لاصقا بالأرض ، والمحيل : المتغير الذى تحول عن الحال التى كنا نعهدها

ولصب يهيجه الذكر شوقا فهو سكرا يرتاد من غير راح
وليال قضيت للهو فيهـــا وطراً والشباب ضافى الجناح
راكباً فى الهوى ذَلُولَ نقاب ساحباً فى الغرام ذيل مراح
ونجوم المنى تنير إلى أن روعَ الشيب سِربْهَا بالصباح(١)
أى مَسْرًى حمدت لم أخل منه بسوى حسرة وطول افتضاح
واخَسَارِى يوم القيامة إن لم يغفـــر الله زَلَّتِي واجتراحى(٢)
لم أقدم وســـيلة فيه إلا حب خير الورى الشفيع الماحى
ســيد العالمين دنيا وأخرى أشرف الخلق فى العلا والسماح
سيد الكون من سماء وأرض سِرُّه بين غاية وافتتــاح
زهرة الغيب مظهر الوحى معنى النـــور كنه المشكاة والمصباح
آية المكرمات قطبُ المعالى مصطفى الله من قريش البطاح
أول الأنبياء تخصيصَ زُلْفَى آخرُ المرسلين بَعْثَ نجاح
صفوة الخلق أرفع الرسل قدرا وسراج الهدى وشمس الفلاح
من لميلاده بمكة ضاءت من قرى قيصر جميعُ الضواحى
وخَبَتْ نار فارس وتداعت من مَشِيدِ الإيوان كل النواحى
من رَقَى فى السماء سبعا طباقا ورأى آى ربه فى اتضاح
ودنا منه قابَ قوسين قربا ظافرا فى العلا بكل اقتراح
مَنْ هدى الخلق بين حمر وسود وجلا ليـل غَيِّهِمْ بالصباح
من يجير الورى غدًا يوم يجزى كل عاص وطائع باجتراح(٢)
من إلى حوضه وظلٍّ لواه يلجأ الناس بين ظام وضاحى(٣)

---

(١) فى ب « روح الشيب سربها بالصباح » وروع : أى أخاف ، والسرب ـ بالكسر ـ أصله جماعة القطا والظباء ونحوها

(٢) اجترح : ارتكب الإثم (٣) الضاحى : المتعرض للشمس والحر

أحمـــد المجتبى حبيباً ، وأنَّى فوق عز الحبيب مَرْمَى طماح ؟
فى أناجيله المسيح تـــلاه باسمه والـكليم فى الألواح
واَـكم حجة و برهان صدق فى سماع أتى بهـــا والتماح
إن فى النجم والنبات لآيا بهرَتْ والجمـادِ والأرواحِ
معجزات فُتْنَ المدارك وَصْـفاً وحساباً كالزُّهْرِ أو كالصباح[1]
يا رواة القريض والشعر عجزا ما عسى تدركون بالأمـداح
إنمـا حسبنا الصـلاة عليه وهى للفـــوز آية استفتاح
يا إلهى بحقِّ أحمـــد عفـوا عن ذنوب جنيتهن قباح
وأدم دولة الخليفـــة موسى ذى المعـالى المبينة الأوضاح
مفخر الملك مُسْتَقَر المزايا مظهر اللطف ذو التقى والصلاح
ناصر الحق خاذل الجور عدلا مَلْجَـأ الخائفين بحر السماح
يتلقى الندى بوجـــه حَيِيٍّ ويلاقى العـدا بباس صفاح
وله المكرمات إرثا ولبســا حاز حمـدا بهـا مُعَلَّى القداح
من عُلاً باذِخٍ وفخر صميم وكمال بحت ومجـــد صُراح
وأحاديث فى المعالى حسان رُوِيَتْ عنه فى العوالى الصِّحاح
عاقد صفقة العـلا كل حين فائز فيــــــه سعيُهُ بالرباح
للندى والهدى يروح و يغدو أى مغدًى إلى العـلا ومَرَاح
ملك تشرق الأسرَّةُ منـه فى سمـاء السرير نور صباح
وإذا ما علا بعـالى العوالى صَهْوة الجُرْدِ فهو ليث الـكفاح
لبس الدهر منـه حُلَّة حسن وثنى للسرور عِطْفَ مراح

---

(١) المدارك : أراد بها العقول ، وفتن المدارك : جاوزن مدى ماتستطيع العقول إدراكه ، والزهر ـ بالضم ـ أى النجوم ، واحدها أزهر ، أو زهراء

وعلى عاتق الخلافة منـــه طرز فخر سبى النهى بالتماح
ورث الملك شامخاً عن سراة شيدوا ركنه بأيدى الصفاح
من بنى القاسم الذين تحلوا بالمعـــالى واستأثروا بالفلاح
فَرَعُوا هضبة الخلافة مجـــدا رفعوا ســقفه على الأرماح
نشروا راية المفــاخر حمــدا خافق النور بالربا والبطاح
يا إماما بَذَّ الملوك جـــلالا وجمـــالا فُدِيتَ بالأرواح
أنت شمس الـكمال دمت عليها فى اغتباق من المنى واصطباح
وبنوك الأعلون أنجم ســعد زاهرات بنورك الوضـــاح
وأبو تاشفين بدر منــــير زانه الله بالخلال الصِّباح
أكمل العالمين خَلْقا وخُلْقا أشرف الناس فى الندى والـكفاح
وبكم زينت سمــاء المعــالى واهتدى الناس فى الدجى والصباح

احتفال السلطان أبى حمو بالمولد النبوى

وكان السلطان أبو حمو الممدوح بهذه القصيدة يحتفل لليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الاحتفال ، كما كان ملوك المغرب والأندلس فى ذلك العصر وماقبله .

ومن احتفاله له ما حكاه شيخُ شيوخ شيوخنا الحافظ سيدى أبو عبد الله التنسى ثم التلمسانى فى كتابه « راحُ الأرواح ، فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح ، ومايوافق ذلك على حسب الاقتراح » ونصه : أنه كان يُقيم ليلة الميلادالنبوى ـ على صاحبه الصلاة والسلام !ـ بمشورة من تلمسان المحروسة مَدْعاة حفيلة يحشر فيها الناس خاصة وعامة ، فما شئت من نَمَارِقَ(1) مصفوفة ، وزَرَابىَّ مبثوثة ، و بُسُطٍ مُوَشَّاه ، ووسائد بالذهب مغشاه ، وشمع كالأسطوانات(2) ، وموائد كالهالات ، ومباخر منصوبة كالقباب ، يَخَالُها المبصرُ تبراً مذاب ، و يفاض على

(1) النمارق : جمع نمرقة ـ بضم النون والراء بينهما ميم ساكنة ـ وهى الوسادة
(2) الأسطوانات : جمع أسطوانة ، وهى العمود ، يريد عظم الشموع

الجميع أنواع الأطعمة ، كأنها أزهار الربيع المنمنمة ، فتشتهيها الأنفس وتستلذها النواظر ، ويخالط حسن ريّاها الأرواح ويخامر ، رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيبَ احتفال ، وقد علت الجميعَ أبهة الوقار والإجلال ، وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومكفرات ترغب فى الإقلاع عن الأنام ، يخرجون فيها من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب ، وبالقرب من السلطان رضوان الله تعالى عليه خزانة المنجانة(١) قد زخرفت كأنها حُلّة يمانية(٢) ، لها أبواب موجفة على عدد ساعات الليل الزمانية ، فمهما مضت ساعة وقع النقْر بقدر حسابها ، وفتح عند ذلك بابٌ من أبوابها ، وبرزت منه جارية صورت فى أحسن صورة ، فى يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باُسمها مسطورة ، فتضعها بين يدى السلطان بلطافة ، ويُسْرَاها على فمها كالمؤدية بالمُبَايعة حق الخلافة ، هكذا حالهم إلى انبلاج عَمُود الصباح ، ونداء المنادى حى على الفلاح ، انتهى .

وقال التنسى المذكور فى كتابه المسمى « بنظم الدر والعقيان ، فى شرف بنى زيّان ، وذكر ملوكهم الأعيان » ما نصه : وكان السلطان أبو حمو يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم ، يقيم مَدْعَاة يحشر لها الأشراف والسوقة ، فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ، وشمع كالأسطوانات ، وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم وِلْدَان قد لبسوا أقبية الخز الملوّن وبأيديهم مباخر ومرشاة ينال كل منها بحظه ، وخزانة المنجانة(١) ذات تماثيل لُجَين محكمة الصنعة ، بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ، ويختله فيها أرقم خارج من كُوَّة بجذر الأيكة صاعدا ، وبصدرها أبواب مرتجة

---

(١) المنجانة : هى الساعة ، بلغة أهل المغرب

(٢) اليمانية : المنسوبة إلى اليمن ، وكانت اليمن مشهورة بصناعة الحرير ونحوه

بعدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان كبيران ، وفوق جميعها دُوَيْن رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره فى الفلك ، ويُسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عُقَابان فى يد كل واحد منهما صنجة صُفْر (١) يلقيها إلى طست من الصفر مُجَوَّف بوسطه ثقب يفضى بها إلى داخل الخزانة فيرنّ ، وينهش (٢) الأرقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبوه ، فهنالك يفتح باب الساعة الذاهبة ، وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء ، بيُمْناها إضبارة (٣) فيها اسم ساعتها منظوما ، ويُسْرَاها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة ، والُمسْمِع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دَوْرا ، والرياض نَوْرا ، وقد اشتملت من أنواع محاسن المطاعم على ألوان تشتهيها الأنفس وتستحسنها الأعين ، وتلذ بسماع أسمائها الآذان ، ويَشْرَه مبصرها للقرب منها والتناول وإن كان ليس بغَرْثَان ، والسلطان لم يفارق مجلسه الذى ابتدأ جلوسه فيه ، وكل ذلك بمرأى منه ومَسْمَع حتى يصلى هنالك صلاة الصبح ، على هذا الأسلوب تمضى ليلة المصطفى صلى الله عليه وسلم فى جميع أيام دولته ، أعلى الله تعالى مقامه فى عليين ! وشكر له فى ذلك صنيعه الجميل آمين ! وما من ليلة مولد مرت فى أيامه إلا ونظم فيها قصيدا فى مديح مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أول ما يبتدئ المسمع فى ذلك الحفل العظيم بإنشاده ، ثم يتلوه إنشاد مَنْ رفع إلى مقامه العلى فى تلك الليلة نظما ، انتهى وهو أتم مَسَاقا مما فى « راح الأرواح » .

ولا بأس أن نلم ببعض المقطوعات التى أنشاها الكاتب أبو زكريا يحيى

---

(١) الصفر — بالضم — النحاس الأصفر .

(٢) النهش : العض ، والأرقم : الثعبان .

(٣) إضبارة : أراد ورقة ، والأصل فيها الحزمة من الصحف ومن السهام .

ابن خلدون المذكور على لسان جارية المنجانة فى مخاطبة السلطان أبى حمو معلمة بما مر من ليل ، ففى مضى ساعتين قوله :

أخليفة الرحمن والملك الذى ... تعنو لعز عُـلاَه أملاك البشر
لله مجلسك الذى يحكى عـلا ... بك مالـكى أفق السماء لمن نظر
أو ما ترى فيه النجوم زواهرا ... وَجْـهُ الخليفة بينهن هو القمر
والليل منه ساعتان قد انقضت ... تثنى عليك ثنَاَ الرياض على المطر
لازال هذا الملك منصورا بكم ... و بَلَغْتَ مما ترتجى أسنى الوطر

وقوله فى مضى ثلاث ساعات :

أمولاى يا ابن الملوك الألى ... لهم فى المعـالى سنىّ الرتب[(١)]
تولت ثلاث من الليل أبقت ... لك الفخر فى عجمها والعرب
فدم حجة الله فى أرضـه ... تنال الذى شئتـه من أرب

وقوله فى مضى ست ساعات :

يا ماجدا وهو فرد ... تخـاله فى عساكر
ست من الليل ولت ... ما إن لها من نظائر
دامت لياليك حتى ... إلى المعـاد نواضر

وقوله فى مضى ثمان ساعات :

يا أكرم الخلق ذاتا ... وأشرف الناس أسْرَهْ
مرت ثمانٍ وأبقت ... فى القلب منى حسره
فيهنّ كان شبابى ... أخا نعـيم ونضره
وَلّى بها الدهر عنى ... تُرَى لها بعدُ كَرَّهْ[(٢)]

---

(١) سنى الرتب : رفيعها وعاليها ، والرتب : جمع رتبة — بالضم — وهى المنزلة
(٢) الـكرة — بفتح الـكاف وتشديد الراء — الرجعة .

فالله يبقيك مولى يطيل فى السعد عمره

وقوله فى مضى عشر ساعات :

يا مالك الخير والخيل التى حكمت له بعــز على الأيام مقتبل
هذا الصباح الذى لاحت بشائره والليل وَدَّعَنَــا توديع مرتحل
لله عشر من الساعات باهرة مضين لا عن قلى منا ولا ملل (١)
كذا تمر ليالى العمر راحلة عنا ونحن من الآمال فى شُغُلِ
نمسى ونصبح فى لهو نسر به جهلا وذلك يُدْنينا من الأجل
والعمر يمضى ولا ندرى فوا أسفى عليه إذ مر فى الآثام والزلل
ياليت شعرى غدا كيف الخلاص به ولم نقدم له شيئا من العمل
يارب ، عَفْوَكَ عما قد جَنَتْه يدى فليس لى بجزاء الذنب من قِبَلِ
يا رب وانصر أمير المسلمين أبا حمو الرضا وأنله غاية الأمل
وأبق فى العز والتمكين مدته وأعل دولته الغرَّا على الدول

رجع إلى نظم لسان الدين رحمه الله تعالى ، فنقول :

حديث عن الموشحات والأزجال

وأما مُوَشَّحاته وأزجاله فكثيرة ، وقد انتهت إليه رياسة هذا الفن ، كما صرح بذلك قاضى القضاة ابن خلدون فى مقدمة تاريخه الكبير ، ولنذكر بعضَ كلامه ، إذ لا يخلو من فائدة زائدة ، قال رحمه الله تعالى ما ملخصه : وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر فى قُطْرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فنا منه سَمَّوْه بالموشح ، ينظمونه أسماطا أسماطا وأغصانا أغصانا ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويُسَمون المتعددَ منها بيتا واحدا ، ويلتزمون عدد قوافى تلك الأغصان وأوزانها متتاليا فيما بعدُ إلى آخر القطعة ، وأكثر ما ينتهى عندهم إلى سبعة أبيات ، ويشتمل

---

(١) القلى — بكسر الكاف مقصورا — البغض ، والملل : السآمة .

كل بيت على أغصان عددُها بحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ، ويمدحون ، كما يفعل فى القصائد ، ويتجاوزون فى ذلك إلى الغاية ، واستظرفه الناسُ وجملة الخاصة والكافة ؛ لسهولة تناوله ، وقرب طريقه ، وكان المخترعُ لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القبرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى ، وأخذ عنه ذلك ابنُ عبد ربه صاحب العقد ، ولم يذكر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشَّحاتهما ، فكان أول من برع فى هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صُمَادح صاحب المَرِيَّة ، وقد ذكر الأعلم البَطَلْيَوْسى أنه سمع أبا بكر بن زُهْر يقول : كلُّ الوشَّاحين عِيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بَدْرُ تم شمس ضحى غصن نَقَى مسك شَمْ
ما أتم ما أوضحا ما أوْرَقَا ما أنم
لا جرم مَنْ لَمَحَا قد عشقا قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاحٌ من معاصريه الذين كانوا فى زمان ملوك الطوائف ، وجاء مصليا خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طُلَيْطلة ، قالوا : وقد أحسن فى ابتدائه فى الموشحة التى طارت له حيث يقول :

قد ترنم بأبدع تلحين وشقت المذانب[1] رياض البساتين

وفى انتهائه حيث يقول :

تخطِر ولم تَسلم عساك المأمون مُرَوِّع الكتائب[2] يحيى بن ذى النون

ثم جاءت الحَلْبة التى كانت فى مدة الملثَّمين فظهرت لهم البدائع ، وفُرْسان حلبتهم : الأعمى التطيلى ، ثم يحيى بن بَقى ، وللتطيلى من الموشحات المذهبة قوله :

كيف السبيل إلىٰ صبرى وفى المعالم أشجانُ

---

(١) المذانب : جمع مذنب — بزنة المنبر — وهو الجدول : أى النهر الصغير

(٢) الكتائب : جمع كتيبة ، وأراد الجيش ، ومروعها : مخيفها

والركب وسط الفلا بالخرّد النواعم قد بانوا[1]

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا فى مجلس بإشبيلية ، وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة وتأنق فيها ، فتقدم الأعمى التُّطيلى للإنشاد ، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله :

ضاحك عن جُمان سافر عن بَدْرِ

ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

خرّق ابنُ بقى موشحته ، وتبعه الباقون

وذكر الأعلم البَطَلْيَوْسى أنه سمع ابن زُهْر يقول : ما حسدت قط وشاحا على قول إلا ابن بقى حين وقع له :

أما ترى أحمد فى مجده العالى لا يلحق

أطلعه المغرب فأرنا مثله يا مشرق

وكان فى عصرهما من الوشّاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض ، وكان فى عصرهم أيضاً الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة ، ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سَرَقُسْطة فألقى عليه بعض موشحته * جرر الذيل أيما جر * فطرب الممدوح لذلك ، وختمها بقوله :

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبى بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح « واطرباه » وشَقّ ثيابه ، وقال : ما أحسن ما بدأت وما ختمت ، وحلف الأيمان المغلظة أن لا يمشى ابنُ باجة لداره إلا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء العاقبة ، فاحتال بأن جعل ذهبا فى نعله ومشى عليه .

ثم قال ابن خلدون بعد كلام : واشتهر بعد هؤلاء فى صدر دولة الموحّدين

---

(١) الركب : ركاب الإبل ، أو الركاب عامة ، والفلا — بالفتح مقصورا — الصحارى ، والخرد — بضم الخاء وتشديد الراء مفتوحة — أحد جموع الخريدة ، وأصلها اللؤلؤة قبل أن تثقب ، وأطلقوها على الفتاة العذراء تشبيها بها ، وبانوا : فارقوا الديار وانفصلوا عنها وبعدوا

محمد بن أبى الفضل بن شَرَف ، إلى أن قال : وابن هردوس الذى له :

يا ليلة الوصل والسعود   بالله عـــودى

وابن مؤهل الذى له :

ما العيد فى حلة وطاق   وشم طيـــب

وإنما العيد فى التلاقى   مع الحبيـــب

وأبو إسحاق الدوينى ، قال ابن سعيد : سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول : إنه دخل على ابن زُهْر ، وقد أسنَّ ، وعليه زىُّ البادية ، إذ كان يسكن بحصن سبتة ، فلم يعرفه ، فجلس حيث انتهى به المجلس ، وجَرَّت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها :

كحل الدجى يجرى   من مقلة الفجر   على الصباح

ومعصم النهـــر   فى حُلَل خضر   من البطاح

فتحرك ابن زُهْر ، وقال : أنت تقول هذا ؟ قال : اختبر ، قال : ومن تـكون ؟ فأخبره ، فقال : ارتفع ، فوالله ما عرفتك

قال ابن سعيد : وسابقُ الحَلْبة التى أدركت هوأبو بكر بن زُهْر ، وقد شرقت موشحاته وغرّبت ، قال : وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول : قيل لابن زُهْر : لو قيل لك : ما أبدع ماوقع لك فى التوشيح ؟ فقال : كنت أقول :

ما للمـــولَّه   من سـكره لا يُفِيق   يا له سكران

[من غـير خمر   ما للـكئيب المَشُوقْ   يندبُ الأوطان][(١)]

هـل تستعاد   أيامنــا بالخليج   ولياليـنـــا

إذ يســتفاد   من النسيم الأريج   مسك دَارينا

وإذ يــكاد   حسن المـكان البهيج   أن يُحَيِّينا

(١) سقط من الأصول كلها مابين المعقوفين ، ونظام التوشيح لايتم إلابه ، وقد أثبتناه عن ابن خلدون (١/ ٥٢٠) الذى ينقل المؤلف هذا الموضع كله عنه .

نهــرٍ أظَلَّه دوح عليـــه أنيق مؤنق فينان

والماء يجــرى وعائم وغــريق من جنى الريحان

واشتهر بعده ابن حيون ، إلى أن قال : و بعد هؤلاء ابن حزمون بمُرْسية ، ذكر ابن الرائس أن يحيي الخزرجى دخل عليه فى مجلسه ، فأنشده موشحة لنفسه ، فقال له ابن حزمون : ما الموشح بموشح حتى يكون عارياً من التكلف ؟ فقال على مثل ماذا ؟ فقال : على مثل قولى :

يا هاجــرى هل إلى الوصال منــك سبيل

أو هــل يرى عَنْ هواك سال قلب العليل

وأبو الحسن سهل بن مالك بغَرْنَاطة ، قال ابن سعيد : كان والدى يعجب بقوله :

إنَّ سَيْلَ الصباح فى الشرق عاد بحرا فى أجمع الأفق

فتداعت نوادب الوُرْق أتراها خافت من الغرق

فبكت سحرة على الورق

واشتهر بإشبيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل ، قال ابن سعيد عن والده : سمعت سهل بن مالك يقول له : يا ابن الفضل ، لك على الوشّاحين الفضل ، بقولك :

أوا حسرتى لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى

وأفرِدْتُ بالرغم لا بالرضا وبِتُّ على جمرات الغضى

أعانق بالفكر تلك الطلول وألثم بالوهم تلك الرسوم

قال : وسمعت أبا بكر بن الصابونى ينشد الأستاذ أبا الحسن الدبّاج موشحاته غير ما مرة ، فما سمعته يقول « لله درك » إلا فى قوله :

---

(١) الدوح : الشجر العالى الملتف ، والأنيق : الذى يعجب الناظر إليـه ، والفينان : الفارع الطويل والكثير الأفنان .

قسما بالهوى لذى حِجْر   ما لليل المشوق من فجر(١)

خمَدَ الصبح ليس يطرد   ما لليلى فيما أظن غد(٢)

صَحَّ ياليل أنك الأبد

أو نقصت قوادم النسر   فنجوم السماء لا تسرى

ومن موشحات ابن الصابونى قوله :

ما حال صب ذى ضنى واكتئاب   أمرضه يا ويلتاه الطبيب

عامله محبوبه باجتناب   ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب

جفى جفونى النوم لكننى   لم أبكه إلا لفقد الخيال

وذو الوصال اليوم قد غرنى   منه كما شاء وشاء الوصال

فلست باللائم مَنْ صدنى   بصورة الحق ولا بالمثال(٣)

واشتهر ببر العُدْوَة ابن خلف الجزائرى صاحب الموشحة المشهورة :

يد الإصباح   قد قدحت   زناد الأنوار   من مَجامر الزهر

وابن خزر(٤) البجائى ، وله من موشحة :

ثغر الزمان موافق   حياك منه بابتسام

ومن محاسن الموشَّحات موشحة ابن سَهْل شاعر إشبيلية وسبتة من بعدها :

هل دَرَى ظَبْىُ الحمى أنْ قد حَمَى   قلبَ صبٍّ حَلَّه عن مكنَسِ

فهو فى حَرٍّ وخَفْقٍ مثل ما   لعبت ريحُ الصبا بالقبس

وقد نسج على منواله فيها صاحبُنَا الوزيرُ أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره فقال :

---

(١) الحجر — بكسر الحاء وسكون الجيم — العقل .

(٢) فى ب « حمد الصبح ليس يطرد » وهو تحريف ، وأثبتنا ما فى ابن خلدون (٥٢٢/١) . (٣) فى ب « ولا بالمحال » . (٤) فى ابن خلدون « وابن هزر » .

جادكَ الغيثُ إذا الغيث هَمَى | يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حُلُمًا | فى الكَرَى أو خِلْسة المختلِسِ

إذ يقود الدهر أشتات المنى | ينقل الخطو على ما يُرْسَمُ (١)
زمرا بين فرادى وثُنًا | مثل ما يدعو الوفودَ الموسِمُ (٢)
والحيا قد جَلَّل الروض سنى | فثغور الزهر منه تبسم

وروى النعمان عن ماء السما | كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا مُعْلَمًا | يزدهى منه بأبهى ملبس

فى ليالٍ كتمت سر الهوى | بالدجى لولا شموس الغرر
مال نجم الكأس فيها وهَوَى | مستقيم السير سعد الأثر
وَطَر ما فيه من عيب سوى | أنه مر كلمح البصر

حين لذا الأنس شيئا أو كما | هجم الصبح هجومَ الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما | أثرت فينا عيونُ النرجس

أى شىء لامرئ قد خلصا | فيكون الروض قد مكن فيه
تنهب الأزهار منه الفُرَصَا | أمنت من مكره ما تتقيه
فإذا الماء تناجى والحَصَا | وخلا كل خليل بأخيه

تبصر الورد غيورا بَرِمًا | يكتسى من غيظِهِ ما يكتسى
وترى الآس لبيبا فهما | يسرق السمع بأدنى فرس

---

(١) فى ابن خلدون « ينقل الخطو على مانرسم » وهو أحسن

(٢) الزمر : الجماعات ، واحدها زمرة ، وفرادى وثنا : كقولهم « شفع ووتر »

يا أهيل الحي من وادي الغَضَى وبقلبي سكن أنتم به
ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا لا أبالِي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى تعتقوا عانيكم من كربه

واتقوا الله وأحيوا مغرما يتلاشى نَفَسًا في نفس[1]
حبس القلب عليكم كرما أفترضون عَفاء الحُبُسِ[2]

وبقلبي منكم مقترب بأحاديث المنى وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب شقوة المُغْرَى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب في هواه بين وعد ووعيد

ساحر المقلة معسول اللَّمى جال في النَّفْسِ مجال النَّفَسِ
سدد السهم وسَمَّى ورمى ففؤادي نهبة المفترس

إن يكن جار وخاب الأمل وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول ليس في الحب لمحبوب ذنوب
أمره معتمل ممتثل في ضلوع قد براها وقلوب

حكم اللحظ بها فاحتكما لم يراقب في ضعاف الأنفس
منصف المظلوم ممن ظلما ومجازي البَرِّ منها والمُسِي

ما لقلبي كلما هبت صَبَا عاده عيد من الشوق جديد
كان في اللوح له مكتتبا « قوله إن عذابي لشديد »
جلب الهم له والوصبا فهو للاشجان في جهد جهيد

---

(١) يتلاشى : يفنى ويذهب
(٢) العفاء ـ بفتح العين ، بزنة السحاب ـ الذهاب والانمحاء ، والحبس ـ بضمتين ـ جمع حبيس ، وهو المال الموقوف ، وهذا من اصطلاح الفقهاء

لاعج فى أضلعى قد أضرما ... فهى نار فى هَشِيمِ اليَبَس (١)

لم يدع فى مهجتى إلا ذَمَا ... كبقاء الصبح بعد الغلس (٢)

سلمى يانفس فى حكم القضا ... واعمرى الوقت بِرُجْعَى ومتاب

دعك من ذكرى زمان قد مضى ... بين عتبى قد تقضت وعتاب

واصرفى القول إلى المولى الرضا ... ملهم التوفيق فى أم الكتاب

الكريم المنتهى والمنتمى ... أسد السَّرْج وبدر المجلِسِ

ينزل النصر عليه مثل ما ... ينزل الوحى بروح القدس

إلى هذا الحد انتهى ابن خلدون من موشحة لسان الدين ، ولا أدرى لم لم يكملها ، وتمامها قوله :

مصطفى الله سَمِىُّ المصطفى ... الغنى بالله عن كل أحد

مَنْ إذا ما عقد العهد وَفَى ... وإذا ما قبح الخطب عقد

من بنى قيس بن سعد وكفى ... حيث بَيْتُ النصر مرفوعُ العَمَدْ

حيث بَيْتُ النصر محمى الحمى ... وجنى الفضل زكى المغرس

والهوى ظل ظليل خيما ... والندى هب إلى المعترس

ها كها ياسبط أنصار العلا ... والذى إن عَثَرَ الدهرُ أقال

غادة ألبسها الحسن ملا ... تبهر العين جلاء وصقال

عارضت لفظا ومعنى وحلى ... قول من أنطقه الحب فقال

هل درى ظبى الحِمَى أن قد حمى ... قلبَ صَبٍّ حله عن مَكْنَسِ (٣)

---

(١) الهشيم : الحطب الذي جف حتى تكسر ، واليبس - بفتح الياء والباء جميعا - اليابس

(٢) الذما - بفتح الذال - بقية الروح فى البدن ، وأصله ذماء - بالمد - فقصره

(٣) المكنس - ومثله الكناس بزنة الكتاب - مسكن الظباء

فهو فى حَرٍّ وخَفْقٍ مثل ما لعبت ريح الصبا بالقبس (١)

ثم قال ابن خلدون : وأما المشارقة فالتكلف ظاهر على ما عانَوْهُ من الموشحات ، ومن أحسن ما وقع لهم فى ذلك موشحة ابن سناء الملك المصرى التى اشتهرت شرقا وغربا ، وأولها :

حبيبى ارفع حجاب النور عن العذار

تنظر المسك على كافور فى جلنـــار

كللى يا سُحْبُ تيجانَ الربا بالحُلِى واجعَلِى سوارك منعطف الجدول

الزجل

ولما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلاسته ، وتنميق كلامه ، وتصريع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على مِنوَاله ، ونظموا فى طريقتهم بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعرابا ، واستحدثوا فنا سموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هـذا العهد ، فجاؤا فيه بالغرائب ، واتسع فيـه للبلاغة مجال ، بحسب لغتهم المستعجمة ، وأوّل من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان ، و إن كانت قيلت قبله بالأندلس ، لـكن لم تظهر حلاها ، ولا انسبكت معانيها ، واشتهرت رَشَاقتها ، إلا فى زمانه ، وكان لعهد الملثّمين ، وهو إمام الزجالين على الإطلاق ، قال ابن سعيد : رأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب ، قال : وسمعت أبا الحسن بن جَحْدر الإشبيلى إمام الزجالين فى عصرنا يقول : ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة ، وقد خرج إلى منتزه مع بعض أصحابه ، فجلسوا تحت عَريش ، وأمامهم تمثال أسد من رُخَام يصب الماء على صفائح من الحجر ، فقال :

---

(١) الخفق : الاضطراب ، والقبس ـ بفتح القاف والباء جميعا ـ النار

وعريش قد قام على دكان بحال رواق

وأسـد قد ابتلع ثعبان من غلظ ساق

وفتح فمو بحال إنسان به الفُـوَاق

وانطلق من ثم على الصفاح وألقى الصياح

وكان ابن قزمان مع أنه قرطبى الدار كثيراً ما يتردد إلى إشبيلية ، وينتاب نهرها ، إلى أن قال ابن خلدون : وجاءت بعدهم حَلْبة كان سابقها مدغليس ، وقعت له العجائب فى هذه الطريقة ، فمن قوله فى زجله المشهور :

ورذاذ دق ينزل وشعاع الشمس يضرب

فترى الواحد يفضض وترى الآخر يذهب

والنبات يشرب ويسكر والغصون ترقص وتطرب

وتريد تجى إلينـا ثم تستحيي وترجع

ومن محاسن أزجاله قوله :

* لاح الضيا والنجوم سكارى *

ثم قال : وظهر بعـد هؤلاء فى إشبيلية ابن جَحْدر الذى فضل على الزجالين فى فتح مَيُورقة بالزجل المشهور الذى أوّله :

من يعاند التوحيد بالسيف يمحق أنا برى ممن يعـاند الحق[1]

قال أبو سعيد : لقيته ولقيت تلميذه البعبع صاحب الزجل المشهور الذى أوّله :

ياليتنى إن رِيت حبيبى أقبـل أذنو بالرسيلا[2]

لش أخـذ عنق الغزيل وسرق فم الحجيـلا[3]

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سَهْل بن مالك إمام الأدب ، ثم من بعدهم لهـذه

---

(١) محقه ـ يمحقه ـ من باب فتح يفتح ـ أتى عليه واستأصله

(٢) ريت : أصله رأيت

(٣) لش بكسر اللام ـ محرفة عن «لأى شىء» وهذا كقولهم «أيش» تحريفا عن «أى شىء» .

العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب إمام النظم والنثر فى الملة الإسلامية غير مدافع ، فمن محاسنه فى هذه الطريقة :

امزج الأكواس واملالى نُجَدِّد ما خُلِقَ المال إلا أن يبدد

ومن قوله على طريقة الصوفية و ينحو منحى الششترى منهم :

بين طلوع و بين نزول اختلطت الغزول

ومضى من لم يكن وبقى من لم يزول

ومن محاسنه أيضا قوله فى ذلك المعنى :

البعد عنك ياابنى أعظم مصائبى وحين حصل لى قربك سيبت قاربى[١]

انتهى المقصود جلبه من كلام ابن خلدون ، وقد أطال رحمه الله تعالى فى هذا المقصد ، ولم أرد إيراد جميع كلامه لطوله وعدم تعلق الغرض به ، وفيما ذكرته منه كفاية لتعلقه بأمر لسان الدين رحمه الله تعالى ، وشهادته له أنه شاعر الإسلام غير مدافع ، وأنه انتهت إليه رياسة الصناعة الزجلية والتوشيحية .

ترجمة أبى بكر ابن باجة

وأبو بكر بن بَاجَّةَ الذى أشار إليه ابن خلدون : هو أبو بكر بن الصائغ التُّجيبى السَّرَقُسْطى ، الذى قال فى حقه لسان الدين فى « الإحاطة » : إنه آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس ، وكان بينه و بين الفتح بن خاقان صاحب « القلائد » معاداة فلذلك هجاه فى القلائد ، وجعله آخر ترجمة فيها إذ قال ما نصه : الأديب أبو بكر بن الصائغ ، هو رَمَدُ عين الدين ، و كَمَدُ[٢] نفوس المهتدين ، اشتهر سُخْفاً وجنونا ، وهَجَرَ مفروضا ومسنونا ، فما يتشرع ، ولا يأخذ فى غير الأضاليل ولا يشرع ، ناهيك من رجل ماتطهر من جنَابة ، ولاأظهر مَخِيلة[٣] إنابة ، ولااستنجى من حدث ، ولا أشجى فؤاده بتوَارٍ فى جَدَث ، ولا أقرَّ بباريه ومصوّره ، ولاقر

(١) سيبت : تركت ، وقاربى : أراد أقاربى .

(٢) الكمد — بالتحريك — الحزن .

(٣) أصل المخيلة مكان الظن ، والإنابة : الرجوع إلى الله والتوبة .

بتباريه فى ميدان تهوّره ، الإساءة إليه أجدى [١] من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان ، نظر فى تلك التعاليم ، وفكر فى أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتابَ الله الحكيم العليم ، ونبذه وراء ظهره ثانىَ عِطْفِه ، وأراد إبطال مالا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واقتصر على الهيئة ، وأنكر أن تكون منه إلى الله تعالى فَيْئة [٢] ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترم على الله اللطيف الخبير ، واجترأ عند سماع النهى والإيعاد ، واستهزأ بقوله تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى مَعَاد) فهو يعتقد أن الزمان دور ، وأن الإنسان زبات أو نَوْر ، حمامه ، تمامه ، واختطافه ، قِطافه ، قد محى الإيمان من قلبه فماله فيه رَسْم ، ونسى الرحمنَ لسانُه فما يمرّ له عليه اسم ، وانتمت نفسه [٣] إلى الضلال وانتسبت ، ونفت (يوم تجزى كل نفس بما كسبت) ، فقصر عمره على طَرَب ولهو ، واستشعر كل كبر وزهو ، وأقام سوق الموسيقى ، وهام بحادى القطار وسقى ، فهو يعكف على سماع التلاحين ، ويقف عليه كل حين ، ويعلن بذلك الاعتقاد ، ولا يؤمن بشىء قادنا إلى الله تعالى فى أسلس مَقَاد ، مع منشأ وَخيم [٤] ، ولؤم أصل وخِيم [٥] وصورة شوّهها الله تعالى وقبحها ، وطَلْعة إذا أبصرها الكلب نبحها ، وقذار يؤذى البلاد نفسها ، ووضارة يحكى الحدادَ دَنَسُها ، وفند لا يعمر إلا كنفه ، ولدة لا يقيم إلا الصِّعادُ جنفَه ، وله نظم أجاد فيه بعضَ إجاده ، وشارف الإحسان أو كاده ، فمن ذلك ما قاله فى عبد حبشى كان يهواه ، فاشتمل عليه أسْرٌ سعى إلى حَشاه ، ونقله إلى حيث لم يعلم مَثْوَاه ، فقال :

يا شائقى حيث لا أسطيع أدركه	ولا أقول غداً أغدو فألقاه
أمّا النهار فليلى ضم شملته	على الصباح فأولاه كأخراه
أغر نفسى بآمال مزوّرة	منها لقاؤك والأيام تأباه

(١) أجدى : أنفع وأعظم فائدة . (٢) الفيئة : الرجوع .
(٣) انتمى إلى الشىء : انتسب إليه (٤) الوخيم هنا : الوصف من الوخامة ، وهو الوبىء . (٥) وخيم ، هنا : مؤلف من كلمتين : الأولى واو العطف ، والثانية « خيم » بكسر الخاء — وهو الطبع .

وله فيه حين بلغه موته ، وتحقق عنده فوْته :

ألا يا رزق والأقدار تجرى بما شاءت نَشَا أو لا نشاء
هَلَ اَنتَ مطارحى شجوى فتدرى وأدرى كيف يحتمل القضاء
يقولون الأمور تكون دورا وهذا فقده فمتى اللقاء

وله فى الأمير أبى بكر بن إبراهيم قدس الله تعالى تربته ، وآنس غربته ، مدائح انتظمت بلَبَّات الأوان ، ونظمت على كل شتيت من الإحسان ، فمن ذلك قوله :

توضح فى الدجى طرف ضرير سَنًا بلوى الصريمة يستطير
فيا بأبى ولم أبذل يسيرا وإن لم يكفهم ذاك الكثير
بريق لا تقل هو ثغر سلمى فتأثم ، إنه حُوبٌ وزور (١)
فكيف وما أطل الليل منه ولا عبقت بساحته الخمور
تراءى بالسدير فزاد قلبى من البُرَحَاء ما شاء السدير
فلولا أن يوم الحشر يقضى على بحكم مولى لا يجور
دعوت على المشقَّر أن يجازى بما تجزى به الدار الغرور

ومنها :

لقد وسع الزمان عليه عدوى وضر بشِبْلِهِ الليثُ الهَصُور (٢)
وقلبن الزمان فلا بُطُون تضمنت الوفاء ولا ظهور
سوى ذكر أطارحه فلولا الأمير لقد عفا لولا الأمير
همام جوده يصف السَّوارى وسطوته يغيرها البحير
وقلنا نحن كيف وراحتاه بحور يلتطى فيها سرور (٣)
فهل فيا سمعت به خصام يكون الخصم فيه هو العزير

---

(١) الحوب — بضم الحاء المهملة — الإثم .

(٢) الليث الهصور : السبع الذى يهصر فريسته : أى يكسرها .

(٣) يلتطى : من قولهم « لطى الرجل بالأرض » أى لزق ، وأصله لطأ يلطأ — بالهمز من باب فتح يفتح — فلما سهلت الهمزة بقى بحاله

وكان الأمير أبو بكر يعتقد له هذه الماتَّة(١) ويراها ، ويجُود أبداً ثَرَاها(٢) ، فلما ولى الثغر والشرق لم يغفله من رَعْى ، ولم يَكِلْه إلى شفاعة وسَعْى ، وحمله على ما كان يعتقده فيه من المقت ، واستعمله على ما كان يقتضيه خلق الوقت ، من إقامة الوعد، وتسويغه كل نعيم رَغْد ، وتغليب حجة داحضة(٣) ، وإنهاض عَثْرة غير ناهضة ، فتقلد وزارته ودولته تزهى منه بأندى من الوَسْمِىِّ المبتكر ، وأهدى من النجم فى الليل المعتكر ، وألويته تميس زهوًا مَيْسَ الفتاة ، ورعيته تبتهج بملكه ابتهاجَ حيي بابن المومـاة ، ومذاهبه يبسطها الفضل وينشرها ، وكتائبه لا يكاد العدو يعشرها ، فجاش إليه وانبرى ، وراش فى تفكيلهم وبَرَى ، وأقطعهم ما شاء من مُقَابحته ، وأسمعهم ما يصم بين ختمه ومفاتحته ، فوغِرَتْ صدورهم السليمة ، واعتلَّتْ صحةُ ضمائرهم بنفوسهم الأليمة ؛ ولم يزل يأخذ فى الإضرار بهم ولم يَدَعْ ، ويعلن به ويصدع ، حتى تفرق ذلك الجمع ، وألقاه بين بصر السباب والسمع ، وأفرد الدولة من وُلاَتها ، وجردها من حُماتها ، فاستعجل العدو بذلك واستشرى ، وزأر منه على سَرَقُسْطة ليث شَرَى ، ولما رأى الشرقد ثار قتَامُه ، و بدا من ليلِهِ إعتامه ارتحل واحتمل ، وقال «لا ناقة لى فى هذا ولا جمل» ، وأقام ببلنسية يشفى نفسه ، ويستوفى أنسه ، ونجوم سعدها كل يوم غائرة ، والعدو يتربص بها أسوأ دائرة ، ويروم منازلتها ثم يدع الاقتحام ، ويريد التقدم إليها فيؤثر الإحجام ، تهيبا لذلك الملك السرىّ ، والليث الجرىّ ، وفى خلال هذه المحاولة ، وأثناء تلك المطاولة ، عاجل الأميرَ أبا بكر حمامُه ، واستشعر فيها تمامه ، وأجَنَّه الثرى ، وحاز منه بدر دُجُنَّة وليث شَرَى ، فعطلت الدنيا من علاء وجود، وأطَلَّتْ عليها بفقده حوادث أجدبت تهائمها والنجود ، وفيه يقول يرثيه بما يسيل الفؤاد نجيعا ، و يبيت به الأسى لسامعه ضجيعا :

---

(١) الماتة : ما يمت به إليه : أى يتوصل .

(٢) الثرى : التراب ، ويجوده : يمطره .

(٣) الحجة الداحضة : الباطلة المدفوعة .

أيها الملك قد لعمرى نعى الـ ـمجدَ نَوَاعيك يَوْمَ قمن فنحنا

كم تقارعت والخطوب إلى أن غادرتك الخطوب فى الترب رهنا

غير أنى إذا ذكرتك والدهـ ـر إخَالُ اليقين فى ذاك ظنا

وسألنا متى اللقاء فقيل الـ ـحشر قلنا صبرا إليه وحزنا

وكثيراً ما يُغِير هذا الرجل على معانى الشعراء ، وينبذ الاحتشام من ذلك بالعَرَاء ، ويأخذها من أربابها أخذ غاصب ، ويعوضهم منها كل هم ناصب[1] ، فهذا مما أطال به كمد أبى العلاء وغمه ، فإنه أخذه من قوله يرثى أمه :

فيا ركب المنون ألا رسول يبلغ روحهـا أرج السلام

سألت متى اللقاء فقيل حتى يقوم الهامدون من الرجام

ولما فاتت سرقسطة من يد الإسلام ، وباتت نفوس المسلمين فَرَقاً منهم[2] فى يد الاستسلام ، ارتاب بقبح أفعاله ، وبرئ من احتذائه بتلك الآراء وانتقاله ، وأخافه ذنبه ، ونبا عن مضجع الأمنِ جَنْبُه ، فكر إلى الغرب ليتوارى فى نواحيه ، ولا يتراءى لعين لائمه ولاحيه ، فلما وصل شاطبة حضرة الأمير إبراهيم بن يوسف ابن تاشفين وَجَدَ باب نفاذه وهو مُبْهَم ، وعاقه عنه مدلول عليه مُلْهَم ، فاعتقله اعتقالا شفى الدين من آلامه ، وشهد له بعقيدة إسلامه ، وفى ذلك يقول ، وهو معقول ، ويصرح بمذهبه الفاسد ، وغرضه المستاسد :

خَفِّضْ عليك فما الزمان وريبه شىء يدوم ، ولا الحياة تدوم

واذهب بنفس لم تضع لتحلها حيث احتللت بها وأنت عليم

يا صاحبي لفظا ومعنى خلته من قبلُ حتى بُيِّنَ التقسيم

دع عنك من معنى الإخاء ثقيله وانبذ بذاك العبء وهو ذميم

---

(١) هم ناصب : حزن يعيي من ينزل به ويتعبه .

(٢) الفرق — بالتحريك — الخوف .

واسمح وطارحنى الحديث فإنه ... ليـل كأحداث الزمان بهيم[1]
خذنى على أثر الزمان فقد مضى ... بؤس على أبنـائه ونعيم
فعسى أرى ذاك النعيمَ وربه ... مرح ورب البؤس وهو سقيم
هيهات ساوت بينهم أجداثهم ... وتشابه المحسود والمحـروم[2]

ولما خلص من تلك الحِبالة ونجا ، وأنار من سلامته ما كان دَجاَ ، احتال فى إخفاء ماله ، واستيفاء آماله ، فأظهر الوفاء للأمير أبى بكر بالرثاء له والتأبين ، وتداهيه فى ذلك واضحٌ مستبين ، فإنه وصل بهذه النزعَة من الحماية إلى حرم ، وحصل فى ذمة ذلك الـكرم ، واشتمل بالرَّعْى ، وأمن من كل سَعْى ، فاقتنى قِيانا ، ولقنهن أعاريضَ من القريض وركب عليها ألحانا أشجى من النَّوْح ، ولطف بها إلى إشادة الإعلان باللوعة والبَوْح ، فسلك بها أبدع مسلك ، وأطلعها نيرات مالها غير القلوب من فلَك ، فمن ذلك قوله :

إن غرابا جرى ببينهم ... جاوَبَه بالثنيـة الصُّرَدُ[3]
طاروا فها أنت بعدهم جسد ... قد فارق الروحَ ذلك الجسدُ
واكتتموا صَيْحَةً ببينهم ... أليس لله بئس ما اعتمدوا

وكقوله :

سلام وإلمام ووسْمِىٌّ مزنةٍ ... على الجدث النائى الذى لا أزوره
أحقًّا أبو بكر تقضى فلا يرى ... ترد جماهير الوفود ستوره
لئن أنِسَتْ تلك القبور بلحده ... لقد أوحشت أنصاره وقصوره

ومن قلة عقله ونزارته ، أنه فى مدة وزارته ، سَفَر بين الأمير أبى بكر رحمه الله تعالى وبين عماد الدولة بن زهو[4] رحمه الله تعالى بعد سعايات عليه أسلفها ، وذخائر كانت

---

(١) ليل بهيم : أصل معناه تنبهم فيه المرئيات ولا تتميز ، وهم يريدون بذلك شدة ظلامه

(٢) الأجداث : القبور ، واحدها جدث (٣) الصرد — بضم الصاد وفتح الراء — طائر أبقع ، أبيض البطن ، أخضر الظهر ، ضخم الرأس والمنقار ، له مخلب ، يصطاد العصافير وصغار الطير ، وهو مما يتشاءم به من الطير .

(٤) كذا ، وفى القلائد « بن هود »

له على يديه أتلفها ، فوافاه أوْغَرَ[١] ما كان عليه صَدْرا ، وأصغر ما كان لديه قدرا ، فآل به ذلك الانتقال ، إلى الاعتقال ، فأقام فيه شهورا يغازله الحمام بمقلة شوهاء ، وتنازله الأوهام بفطرته الورْهاء ، وفى ذلك يقول :

لعلك يا يزيد علمت حالى فتعلم أى خطب قد لقيت
وإنى إن بقيت بمثل ما بى فمن عجب الليالى إن بقيت
يقول الشامتون شقاء بخت لَعَمْرُ الشامتين لقد شقيت
أعندهم الأمان من الليالى وسالمهم بها الزمن المَقِيتُ
وما يدرون أنهم سَيُسْقَوْا على كره بكأس قد سقيت[٢]

وعزم عماد الدولة يوما على قتله ، وألزم المرقبين به التحيل على خَتْله ، فنُمِى إليه الأمر الوَعْر ، وارتمى به فى لجج اليأس الذعر ، فقال :

أقول لنفسى حين قابلها الردى فراغَتْ فراراً منه يسرى إلى يمنى
قِرِى تحمدى بعض الذى تكرهينه فقد طالما اعتدت الفرار إلى الأهنى

ثم قضى له قدر قضى بإنظاره ، وما أمضى من إباحته ما كان رهين انتظاره ، ويمهل الفاجر حكمةً من الله تعالى وعلما (وإنما نملى لهم ليزدادوا إثما) انتهى نص القلائد .

وأين هذا من تحليته له فى بعض كتبه بقوله فيه ما صورته : نور فهم ساطع ، وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوّجت بعصره الأعصار ، وتأرَّجَتْ من طيب ذكره الأمصار ، وقام وزن المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فَنَناً وتهدّل ، وعَطَّل بالبرهان التقليد ، وحقق بعد عدمه الاختراع والتوليد ، إذا قدح زَنْدُ فهمه أورى بشرر للجهل محرق ، وإن طما بحر خاطره فهو لكل شيء مغرق ، مع نزاهة النفس وصَوْنها ، وبعد الفساد من كونها ، والتحقيق ، الذى هو للإيمان شقيق ،

---

(١) وغر صدر فلان على فلان — من بابى ضرب وعلم — إذا توقد من الغيظ وأصل الوغر شدة حر الشمس .

(٢) « سيسقوا » هكذا ، وقد حذف نون الرفع من غير ناصب ولا جازم ، وله نظائر فى شعر العرب ، ولكنه مذهب غير مسلوك وطريق غير مرضى .

والجد ، الذى يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يودُّ عُطَارد أن يلتحفه ، ومذهب يتمنى المشترى أن يعرفه ، ونظم تعشقه اللبَّات والنحور ، وتدَّعيه مع نفاسة جوهرها البحور ، وقد أثبتُّ منه ما تهوى الأعين النُّجْلُ[(١)] أن يكون إثمدها ، ويزيل من النفوس حزنها وكَمَدَها ، فمن ذلك قوله يتغزل :

أسكان نعْمَان الأراك تيقنوا	بأنكم فى ربع قلبى سكان
ودوموا على حفظ الوداد فطالما	بلينا بأقوام إذا استحفظوا خانوا
سلوا الليل عنى إذ تناءت دياركم	هل اكتحلت لى فيه بالنوم أجفان
وهل جُرِّدت أسياف برق سمائكم	فكانت لها إلا جفونى أجفان

وله :

أتأذن لى آتى العقيق اليمانيا	أسائله ما للمعالى وماليا
وهل داركم بالحزن قفراء ، إننى	تركت الهوى يقتاد فضل زماميا
فيا مَكْرع الوادى أما فيك شربة	لقد سال فيك الماء أزرق صافيا[(٢)]
ويا شَجَرات الجزع هل فيك وقفة	وقد فاء فيك الظل أخضر ضافيا[(٣)]

وأورد له فى المطمح أنه استأذن على المستعين بالله ، فوجده محجوبا ، فقال :

من مبلغ خير إمام نشا	ذا عزة وساميا قَدْرَا
قول امرئ لو قاله للصفا	أنبت فيه ورقا خضرا
عبدك بالباب له خجلة	لو أنها بالنرجس أحمرا

وحكى غير واحد أنه مات له سَكَن كان يَهْوَاه ، فبات مع بعض أصحابه عند ضريحه ومَثْوَاه ، وكان قد عرف وقت كسوف البدر بصناعة التعديل ، فزوّر فى نفسه بيتين فى خطاب القمر أتقنهما ولحنهما ، حتى إذا كان قبيل وقت الكسوف

---

(١) النجل — بالضم — جمع نجلاء ، وهى الواسعة

(٢) المكرع : المكان الذى يكرع منه : أى يشرب

(٣) فاء : عاد ورجع ، والضافى : السابغ

بقليل تغنى فيهما بذلك الصوت المشجى ، واللحن يسوق الشوق ويُزْجِى ، وهما :

شقيقك غُيِّبَ فى لحده وتُشْرِقُ يا بدر من بعده
فهلا كسِفْتَ فكان الكسوف حداداً لبست على فقده

فكسف القمر فى الحال ، وعدت هذه من نوادره التى جِيدُ الأخبار بفرائدها حال ، سامحه الله تعالى !.

ثم رأيت فى « الإحاطة » نسبة ذلك لغيره ونصه : محمد بن أحمد بن الحداد ، الوادى آشى ، يكنى أبا عبد الله .

محمد بن أحمد الحداد الوادى آشى

شاعر مفلق ، وأديب شهير ، مشار إليه فى التعاليم ، منقطع القرين منها فى الموسيقى ، مضطلع بفك المعمَّى ، سكن المرية ، واشتهر بمدح رؤسائها من بنى صُمادح ، وقال ابن بسَّام : كان أبو عبدالله هذا شمس[1] ظهيرة ، وبحر خبر وسيرة ، وديوان تعاليم مشهورة ، وضح فى طريق المعارف وضوح الصبح المتهلِّل ، وضرب فيها بقداح ابن مُقبل[2] ، إلى جلالة مقطع ، وأصالة مَنْزع ، ترى العلم ينم على أشعاره ، ويبين فى منازعه وآثاره .

تآليفه ـ ديوان شعره كبير معروف ، وله فى العروض تصنيف مشهور مزج فيه بين الألحان الموسيقية والآراء الخليلية

بعض أخباره ـ حدَّث بعض المؤرخين مما يدل على ظَرْفه أنه فقد سكنا عزيزاً عليه ، وأحوجت الحاجة إلى تكلف سلوة ، فلما حضر الندماء ، وكان قد رصد الخسوف القمرى ، فلما حقق أنه ابتدأ أخذ العود وغنى « شقيقك غُيِّبَ ـ إلى آخره » وجعل يرددها ويخاطب البدر ، فلم يتم ذلك إلا واعترضه الخسوف ، وعظم من الحاضرين التعجب .

---

(١) شمس ظهيرة : كناية عن شهرة أمره ووضوحه

(٢) القداح : جمع قدح ، وهى سهام الميسر ، وابن مقبل : هو تميم بن أبى بن مقبل ويضرب قدحه مثلا فى حسن الأثر ، وهو الذى يقول فى وصف قدح له :

غدا وهو مجدول ، وراح كأنه من المس والتقليب فى الكف أفطح
خروج من الغماء إن صك صكة بدا والعيون المستكفة تلمح

ثم قال لسان الدين فى ترجمة شعره : وقال :

أقبلن فى الحِبَرَاتِ يقصرن الخطا ... ويُرِينَ فى حُلَلِ الوَرَاشِينِ القطا[1]

سرب الجوى لا الجو عوّد حسنه ... أن يرتعى حَبَّ القلوب و يلقطا

مالت معاطفهن من سكر الصبا ... ميلا يخيف قدودها أن تسقطا

و بمسقط العلمين أوضح معلم ... لمهفهف سكن الحشى والمسقطا

ما أخجل البدر المنير إذا مشى ... يختال والغصن النضير إذا خطا

ومنها فى المدح :

يا وافدى شرق البلاد وغربها ... أكرمتما خيل الوفادة فاربطا

ورأيتما ملك البرية فاهنأ ... ووردتما أرض المرية فاخططا

يدمى نحور الدارعين إذا ارتأى ... و يذل عز العالمين إذا سطا

انتهى المقصود منه ، وأورد له فى الإحاطة قصيدة ثانية أولها :

* حديثك ما أحلى ، فزيدى وحدثى *

وهى طويلة .

وكتب عليها ابن المؤلف ما صورته : سمعتها من لفظ شيخى أبى جعفر ابن خاتمة بالمرية فى سنة خمس وستين وسبعمائة ، قاله على ابن الخطيب ، انتهى .

رجع إلى ابن باجة

رجع إلى أخبار ابن الصائغ ، ومن نظمه قوله :

ضربوا القباب على أقاحى روضةٍ ... خطر النسيمُ بها ففاح عبيرا

وتركْتُ قلبى سار بين حُمُولهم ... دامى الكلوم يسوق تلك العيرا

هلا سألت أميرهم هل عندهم ... عانٍ يفك ولو سألت عبورا

لا والذى جعل الغصون معاطفاً ... لهم وصاغ الأقحوان ثغورا

---

(١) الحبرات : جمع حبرة — بكسر الحاء المهملة وفتح الباء — وهو ضرب من برود اليمن ، وليس حبرة موضعا ولا شيئا معلوما ، إنما هو وشى ، كقولك : ثوب قرمز ، والقرمز صبغه ، والوارشين : جمع ورشان ، وهو طائر .

ما مر بى ريح الصبا من بعدهم ... إلا شهقت له فعـاد سعيرا[1]

وتوفى ابن الصائغ فى شهر رمضان سنة ٥٢٣ ، وقيل : سنة خمس وعشرين ، مسموما فى باذنجان بمدينة فاس ، وهو تُجِيبى بضم التاء وفتحها ، و بَاجَّة : بالباء الموحدة ، و بعد الألف جيم مشددة ، ثم هاء ساكنة ، وهى القصة بلغة الفرنج . وسرقسطة ــ بفتح السين والراء وضم القاف وسكون السين الثانية و بعدها طاء مهملة ــ مدينة كبيرة بالأندلس ، استولى عليها العدو سنة ٥١٢ .

وقال الأمير ركن الدين بيبرس فى تأليفه « زبدة الفكرة ، فى تاريخ الهجرة » إن ابن الصائغ كان عالما فاضلا ، له تصانيف فى الرياضات والمنطق ، و إنه وَزَرَ لأبى بكر الصحراوى صاحب سَرَقُسْطة ، ووزر أيضا ليحيى بن يوسف بن تاشفين عشرين سنة بالمغرب ، و إن سيرته كانت حسنة ، فصلحت به الأحوال ، ونجحت على يديه الآمال ، فحسده الأطباء والكتاب وغيرهم ، وكادوه ، فقتلوه مسموما ، انتهى

وأنشد له بعضهم :

هم رحلوا يوم الخميس عشية ... فودعتهم لما استقلوا وودعوا

ولما تولَّوْا والت النفس مَعْهُمُ ... فقلت ارجعى قالت إلى أين أرجع

إلى جَسَدٍ ما فيه لحم ولا دم ... وما هو إلا أعظم تتقعقع

وعينين قد أعماهما كثرة البكا ... وأذن عَصَتْ عذالها ليس تسمع

وقد قال بعضهم فى تعزيز بيتى الحريرى : إنه لابن الصائغ الأندلسى ، وليس هو بهذا فيما أعلم :

أُنقدَّ مهوى أزره فاتنى ... مه ياعذولى فى الذى انقدَّمَهْ

مندمة قَتْلُ المعنَّى فلا ... ترسل سهام اللحظ تأمَنْ دَمَهْ

---

(١) ريح الصبا ــ بفتح الصاد ــ معروفة بالرخاء واللين ، ولكنه إذا تنفس فى هذه الريح انقلبت شواظا من نار ، كناية عن شدة احتراق جوفه .

رجع إلى ابن باجّه ـ وقد ذكر لسان الدين فى « الإحاطة » سببَ العداوة بينه و بين الفتح فى ترجمة الفتح ولنذكرها بنصه فنقول : قال رحمه الله تعالى :

ترجمة الفتح بن خاقان ، وفيها سبب العداوه بينه وبين ابن باجه

الفتح بن محمد بن عبيد الله ، الكاتب ، من قرية تعرف بقلعة الواد من قرى يَحْصُب ، يكنى أبا نصر ، ويعرف بابن خاقان .

حاله ـ كان آية من آيات البلاغة لا يُشَق غُباره ، ولا يُدْرك شأوه ، عذب الألفاظ ناصعها ، أصيل المعانى وثيقها ، لعوبا بأطراف الكلام ، معجزا فى باب الحلى والصفات ، إلا أنه كان مجازفاً مقدورا عليه ، لايملّ من المعاقرة والقَصْف[1] ، حتى هان قَدْرُه ، وابتذلت نفسه وساء ذكره ، ولم يدع بلدا من بلاد الأندلس إلا دخله مسترفداً أميرَه واغلافى عليته ، قال الأستاذ فى « الصلة » : وكان معاصرا للكاتب أبى عبدالله بن أبى الخصال ، إلا أن بطالته أخلدت[2] به عن مرتبته ، وقال ابن عبد الملك : قصد يوما إلى مجلس قضاء أبى الفضل عياض مخمرا ، فتنسم بعضُ حاضرى المجلس رائحة الخمر ، فأعلم القاضى بذلك ، فاستثبت وحَدَّهُ حدا تاما ، و بعث إليه بعد أن أقام عليه الحد بثمانية دنانير وعمامة ، فقال الفتح حينئذ لبعض من أصحابه : عزمت على إسقاط القاضى أبى الفضل من كتابى المرسوم بقلائد العقيان ، قال : فقلت : لا تفعل ، وهى نصيحة ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت له : قصتك معه من الجائز أن تنسى ، وأنت تريد أن تتركها مؤرخة ، إذ كل من ينظر فى كتابك يجدك قد ذكرت فيه مَنْ هو مثلُه ودونه فى العلم والصيت ، فيسأل عن ذلك ، فيقال له ، فيتوارث العلم عن الأكابر الأصاغر ، قال : فتبين ذلك ، وعلم صحته وأقر اسمه .

وحدثنى بعض الشيوخ أن سبب حقده على ابن باجه أبى بكرٍ آخِرِ فلاسفة

---

(١) المعاقرة : شرب الخمر ، والقصف : إقامة الرجل فى أكل وشرب ولهو ، ويقال : هى كلمة مولدة

(٢) أخلدت به : أراد هنا أنها نزلت به ، وأصل معناه جعلته يسكن إليها

الإسلام بجزيرة الأندلس ما كان من إزرائه به فى تكذيبه إياه فى مجلس إقرائه ، إذ جعل يكثر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس ووصف حليا ، وكان يبدو من أنفه فضلة خضراء اللون ، فقال له : فمن تلك الجواهر إذن الزمردة التى على شاربك؟ فثلبه فى كتابه بما هو معروف ، وعلى ذلك فأبو نصر نسيجُ وَحْدِهِ ، غفر الله تعالى له ! .

مشيخته ـ روى عن أبوى بكر بن سليمان بن القصيرة ، وابن عيسى بن اللبانة ، وأبى جعفر بن سعدون الكاتب ، وأبى الحسن بن سراج ، وأبى خالد بن بشتغير ، وأبى الطيب بن زرقون ، وأبى عبد الله بن خلصة الكاتب ، وأبى عبد الرحمن ابن طاهر ، وأبى عامر بن سرور ، وأبى محمد بن عبدون ، وأبى الوليد بن حجاج ، وابن دريد الكاتب .

تواليفه ـ ومصنفاته شهيرة : منها « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس والمطمح أيضا[1] ، وترسيله مدوّن ، وشعره وسط ، وكتابته فائقة .

شعره ـ من شعره قوله ، وثبت فى قلائده ، يخاطب أبا يحيى بن الحاج :

أكعبة علياء وهَضْبَةَ سودد ... وروضة مجد بالمفاخر تمطر

هنيئا لملك زار أفقك نوره ... وفى صفحتيه من مَضَائك أسطر

وانى لخفاق الجناحين كلما ... سَرَى لك ذكر أو نسيم مُعَطَّر

وقد كان واش هاجنا لتهاجر ... فبت وأحشائى جوى تتفطر

فهل لك فى ود ذَوَى لك ظاهرا ... و باطنه يَنْدَى صفاء و يقطر

ولست بعلق بيع بخسا وإننى ... لأرفع أعلاق الزمان وأخطر

(١) ذكره مرتين لأن الكتاب من نسختين : إحداهما أكبر من الأخرى ، وسيأتى ذكر ذلك فى كلام المؤلف ، ويذكر أن ابن خلكان حكى أن المطمح ثلاث نسخ : صغيرة ، ووسيطة ، وكبيرة (انظر صفحة ٢٤٧ الآتية) .

فروجع عنه بما ثبت أيضا فى قلائده مما أوّله :

ثنيت أبا نصر عنانى ، وربما ثنت عزمة السهم المصمم أسطر

نثره ـ ونثره شهير ، ونثبت له من غير المتعارف من السلطانيات ظهيرا كتبه عن بعض الأمراء لصاحب الشرطة ، ولا خفاء بإدلاله وبراعته ، وهو هذا : كتاب تأكيد اعتناء ، وتقليد ذى منة وغَنَاء ، أمر بإنفاذه فلان ، أيده الله تعالى ! لفلان ابن فلان ، صانه الله تعالى ! ليتقدم لولاية المدينة الفلانية وجهاتها ، ويُصَوِّح ما تكاثف من العُدْوَان فى جَنَبَاتها ، تنويها أحظاه بعلائه ، وكساه رائق مُلاَئه ، لما علمه من سنائه ، وتوسَّمه من غَنَائه ، ورجاه من حسن مَنَابه ، وتحققه من طهارة ساحته وجَنَابه ، وتيقن ـ أيده الله تعالى ! ـ أنه مستحق لما ولاه ، مستقل بما تولاه ، لا يعتريه الكَسَل ، ولا تثنيه عن المَضَاء الصوارم والأسل ، ولم يَكِل الأمر منه إلى وَكِل[1] ، ولا ناطهُ بمناط عجز ولا فَشَل ، وأمره أن يراقب الله تعالى فى أوامره ونواهيه ، وليعلم أنه زاجِرُه عن الجور وناهيه ، وسائله عما حكم به وقضاه ، وأنفذه وأمضاه ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ، فليتقدم إلى ذلك بحزم لا يخمد توقده ، وعزم لا ينفد تفقده ، ونفس مع الخير ذاهبه ، وعلى متن البر والتقوى راكبه ، ويقدّم للاحتراس مَنْ عرف اجتهاده ، وعلم أرقه فى البحث وسُهَاده ، وحمدت أعماله ، وأمن تفريطه وإهماله ، ويضم إليهم من يحذو حذوهم ، ويقفو شأوهم ، ممن لا يستراب بمناحيه ، ولا يصاب خلل فى ناحية من نواحيه ، وأن يُذْكِى العيون على الجُنَاة ، وينفى عنها لذيذ السِّنَات[2] ، ويفحص عن مكامنهم ، حتى يغص بالريق نفس آمنهم ، فلا يستقر بهم موضع ، ولا يفر منهم خب ولا مُوضِع[3] ، فإذا ظفر منهم بمن ظفر بحث عن باطنه ، وبث السؤال فى مواضع

---

(١) الوكل ـ بفتح الواو وكسر الكاف ـ الذى يترك أموره لغيره ويتكل عليه فى قضائها

(٢) السنات : جمع سنة ـ بكسر السين ـ وهى النوم أو أوائله .

(٣) الموضع ، هنا : اسم الفاعل من الإيضاع ، وهو السير السريع .

تصرفه ومواطنه ، فإن لاحت شبهة أبداها الكشف والاستبراء ، وتعدّاها البغى والافتراء ، نَكَّله[1] بالعقوبة أشدّ نكال ، وأوضحله منهاما كانذا إشكال ، بعد أن يبلغ أناه ، ويقف فى طرفه مَدَاه ، وحدّ له أن لا يكشف بشرة إلا فى حد يتعين ، وإن جاءه فاسق أن يتبين ، وأن لا يطمع فى صاحب مال موفور ، وأن لا يسمع من مكشوف فى مستور ، وأن يسلك السَّنَن المحمود ، وينزه عقوبته من الإفراط وعفوه من تعطيل الحدود ، وإذا انتهت إليه قصة مشكلة أخرها إلى غده ، فهو فى العقاب أقدر منه على رده ، فقد يتبين فى وقت مالا يتبين فى وقت ، والمعاجلة بالعقوبة من المَقْت ، وأن يتغمد هفوات ، ذوى الهيآت ، وأن يستشعر الإشفاق ، ويخلع التكبر فإنه من مَلاَبس أهل النفاق ، وليحسن لعباد الله تعالى اعتقاده ، ولا يرفض زمام العدل ولا مَقَاده ، وأن يعاقب المجرم قدر زلته ، ولا يعتز عند ذِلَّته ، وليعلم أن الشيطان أغواه ، وزين له مَثْوَاه ، فيشفق من عثاره ، وسوء آثاره ، وليشكر الله تعالى على ما وهبه من العافيه ، وألبسه من ملابسها الضافيه ، ويذكره جل وعلا فى جميع أحواله ، ويفكر فى المحشر وأهواله ، ويتذكر وعدا ينجز فيه ووعيدا ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحْضَراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمَداً بعيدا ، والأمير أيده الله تعالى ولى له ما عدل وأقسط ، وبرىء منه إن جار وقَسَط ، فمن قرأه فليقف عند حدّه ورَسْمه ، وليعرف له حق قطع الشر وحَسْمه ، ومن وافقه من شريف أو مشروف ، وخالفه فى نهى عن منكر أو أمر بمعروف ، فقد تعرض من العقاب لما يذيقه وَبَالَ خَبْله ، ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ، وكتب فى كذا .

وفاته - بمراكش ليلة الأحد لثمان بقين من محرم ، من عام تسع وعشرين وخمسمائة ، ألفى قتيلا ببيت من بيوت فندق أحد فنادقها ، وقد ذُبح وعبث به ،

---

(١) أصل التنكيل : التقييد ، والنكل - بالكسر - القيد ، ويراد منه التعذيب من باب إطلاق المقيد وإرادة المطلق .

وما شعر به إلا بعد ثلاث ليال من قتله ، انتهى نص الإحاطة .

ترجمة الفتح بن خاقان عن « المغرب »

وقال فى « المغرب » ماملخصه : فخر أدباء إشبيلية بل الأندلس : أبو نصر الفتح ابن محمد بن عبيد الله القيسى ، الإشبيلى ، صاحب « القلائد » و « المطمح » ذكره الحجارى فى المسهب ، الدهر من رواة قلائده ، وحملة فرائده ، طلع من الأفق الإشبيلى شمسا طَبَّقَ الآفاق ضياؤها ، وعم الشرق والغرب سناها وسناؤها ، وكان فى الأدب أرفعَ الأعلام ، وحسنة الأيام ، وله كتاب « قلائد العقيان » ومن وقف عليه لايحتاج فى التنبيه على قدره إلى زيادة بيان ، وهو وأبوالحسن بن بَسَّام الشنتمرى مؤلف الذخيرة فارسا هذا الأوان ، وكلاهما قَسٌّ وسحبان ، والتفضيل بينهما عسير ، إلاأن ابنَ بسام أكثر تقييداً ، وعلما مفيداً ، وإطنابا فى الأخبار ، وإمتاعا للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تعلقا وتعشقاً بالأنفس ، ولولا ما اتسم به مما عُرف من أجله بابن خاقان ، لكان أحَدَ كتاب الحضرة المرابطية بل مجليها المستولى على الرهان ، وإنما أخل به ما ذكرناه ، مع كونه اشتهر بذم أولى الأحساب ، والتمرين بالطعن على الأدباء والكتاب ، وقد رماه الله تعالى بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر بن باجَّه ، فوجد فى فندق بحضرة مراكش قد ذبَحَهُ عبد أسود خلا معه بما اشتهرعنه ، وتركه مقتولا ، وفى دبره وتد ، والله سبحانه يتغمده برحمته .

ومن شعره قوله من أبيات فى المدح :

إلى أين تَرْقَى قد علوتَ على البدر ... وقد نلت غايات السيادة والقدر ؟

وجُدْتَ إلى أن ليس يذكرحاتم ... وأغنيتَ أهل الجدب عن سَبَلِ القطر (١)

وكم رام أهل اللوم باللوم وقفة ... وبحرك مَدٌّ لا يؤول إلى جزر

---

(١) جدت : منحت وأعطيت ، وحاتم الطائى مضرب المثل فى الجود ، والجدب : القحط ، وسبل القطر ــ بفتح السين والباء جميعا ــ المطر ، وأصله أن يسمى به المطر قبل وصوله إلى الأرض .

ولو لم يكن فيك السماح جِبِـلّةً لأثر ذاك اللوم فيك مع الدهر

وذكره ابن الإمام فى « سمط الجمان » وأنشد له :

لله ظبى من جنابك زارنى يختال زهواً فى مُلاَء مراح
ولى التماسك فى هواه كأنه مروان خاف كتائب السفاح(١)
فخلعت صبرى بالعرَا ونبذته وركبت وجدى فى عنان جماح
أهدى لى الورد المضعف خده فقطفته باللحظ دون جُناح
وأردت صبراً عن هواه فلم أطق وأريت جداً فى خلال مزاح
وتركت قلبى للصبابة طائراً تهْفُو به الأشواق دون جَنَاح

وذكره ابن دَحْية فى « المطرب » ونعته بابن خاقان ، قال : والشيخ أبو الحجاج البياسى ينكر هذا ، وقيل : إنما قيل له ابن خاقان لما تقدم ذكره فى كلام الحجارى وقال ابن دحية : إنه قتل ذبحا بمسكنه فى فندق ببيت من حضرة مراكش صدر سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، أشار بقتله على بن يوسف بن تاشفين .

وقال أبو الحسن بن سعيد : رأيت فضلاء الأندلس ينتقدون على الفتح أول افتتاحه فى خطبة قلائده « الحمد لله الذى راض لنا البيان حتى انقاد فى أعنتنا ، وشاد مثواه فى أجنتنا » لكون ما تضمنته الفقرة الأولى أصوب مما تضمنته الفقرة الثانية ، والصواب ضد ذلك ، انتهى .

وقال ابن الأبار فى « معجم أصحاب الصدفى » : إنه لم يكن مرضيا ، وحذفه أولى من إثباته ، انتهى .

ولذا لم يذكره فى التكملة .

وقال ابن خاتمة : إنه لم يُعْرَف من المعارف بغير الكتابة والشعر والآداب .

---

(١) مروان : ابن محمد ، المعروف بالجعدى ، آخر ملوك بنى أمية الذى سقطت فى عهده الدولة الأموية ، والكتائب : جمع كتيبة ، وهى الجيش أو الفصيلة منه ، والسفاح : لقب أول خلفاء العباسيين .

وما حكاه فى « الإحاطة » من تاريخ وفاته مخالف لما حكاه ابن الأبار أنه ليلة عيد الفطر من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، قال : وقرأت ذلك بخط من يوثق به .

وحكى ابن خلكان قولا آخر أنه توفى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، قيل : وهو خطأ ، على أنه حكى القول الآخر أيضا .

ودفن بباب الدباغين ، رحمه الله تعالى ! .

وقد قيل : إن قتله كان بإشارة أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين أخى إبراهيم الذى ألف برسمه « قلائد العقبان » .

وقد ذكر ابن خلكان أن المطمح ثلاث نسخ : صغرى ، ووسطى ، وكبرى ، والذى قاله ابن الخطيب وابن خاتمة ، وغير واحد من المغاربة أنه نسختان فقط : صغرى ، وكبرى ، ولعله الصواب ، إذ صاحب البيت أدرى بما فيه .

ومن تأليف الفتح « بداية المحاسن ، وغاية المحاسن » ومجموع فى ترسيله ، وتأليف صغير فى ترجمة ابن السِّيد البَطَلْيَوْسى نحو الثلاثة كراريس على منهاج القلائد .

ومن بديع إنشاء الفتح المذكور سامحه الله تعالى قوله : أطال الله تعالى بقاء الوزير الأجل عَتَادِى الأسْرَى [1] ، وزنادى الأوْرَى ، وأيامه أعياد ، وللسعد فى زمانه انقياد ، أما أنا ـ أدام الله تعالى عزه ! ـ فجوّى عاتم [2] ، وأعيادى مآتم ، وصُبْحى عِشاء ، ومالى إلا من الخطوب انتشاء ، أبيت بين فؤاد خافق وطرف مُسَهَّد [3] ، نائى المحلة من مزار العُوَّد ، حين لا أرى الروض المنوّر ، ولا أحس سُهَيْلاً إذا لاح ثم تهوَّر ، وقد بعدت دار إلىّ حبيبه ، ودنت منى حوادث بأدناها تؤذى الشبيبه ، وأى

---

(١) الأسرى : أفعل تفضيل من السراوة ، وهى السخاء فى مروءة .

(٢) عاتم : مظلم . (٣) الطرف ، هنا : العين ، ومسهد : مؤرق لا ينام .

عيش لمن لزم المفاوز لا يَرِيمُها[١] ، حتى ألفه رِيمُها[٢] ، قدرمته النوائب فما اتّقَى ، وارتقت له الجوائح فى وُعُور المرتقى ، يُوَاصل النوى ولا يهجر سيرا ، ولم يزجر فى الإراحة طيرا ، قد هام بالوطن ، هيام أبى طالب بالحوض والعطن ، وحَنَّ إلى تلك البِقاع ، حنينه إلى أثلاَت القاع ، ولاسبيل أن يَشْعَبَ[٣] صدر بينه شاعب ، أو تكلمه أحجار للدار وملاعب[٤] ، وليس له إلى أن يجنح ، ولا يرى أمله يَسْنَح ، قد طوى البلاد و بسطها ، وتطرف الأرض وتوسطها ، ولم يُلْفِ مَقِيلا ، ولا وجد مُقِيلا ، إلى الله أشكو ما أقاسى وأقاصى ، و بيده الأقدام النواصى ، ولقاؤه موعد لكل موعد ، وكل معمر سيد ركه يوما حمام الموعد ، وأنفذته وقد صدرت عن فلانة بعد أهوال لقيتها ، وأنكال سقيتها ، وسفر لقيت منه نَصَبا ، وكَدَر أعقبنى وَصَبا ، و إلى متى يعتزلنى السعد ؟ ولله الأمر من قبل ومن بعد ، انتهى .

وكتب رحمه الله تعالى من رسالة : سيدى لاعدمت ارتفاقا ، ولا حرمت تكيفا من السعد واتفاقا ، أنا الآن مشتغل البال ، لا أفرق بين الإعراض والإقبال ، وعند توجهى أفرغ لك ما حضر ، ومثلُك أرجَأَ الأمر وأنظر ، وفى علم الله تعالى لو أمكننى لحملتك على كاهل ، وأوردتك منه أعذبَ المناهل ، وأبحت لك السعد ثغرا ترتشفه ، وخلعته بُرْدًا عليك تلتحفه ، لكن الزمان لايجد ، وصروفه لا تنجد ، وعلى أى حال فلابد أن تجد قراك ، وتحمد سُرَاك ، إن شاء الله تعالى .

وكتب إلى أبى بكر بن على عند ولايته إشبيلية : أطال الله تعالى بقاء الأمير الأجل أبى بكر للأرض يتملكها ! و يستدير بسعده فَلَكَها ! استبشر الملك وحق له الاُستبشار ، وأومأ إليه السعد فى ذلك وأشار ، بما اتّفق له من توليتك ، وخَفَق عليه من ألْوِيَتِك ، فلقد حُبِىَ منك بملك أمضى من السهم المسدَّد ، طويل نجاد

(١) المفاوز : الصحارى ، واحدها : مفازة ، ولا يريمها : لايبرحها ولا يفارقها

(٢) الريم ـ بالكسر ـ الظبى . (٣) يشعب : يجبر ويصلح .

(٤) أخذ هذه الفقرة من قول كثير عزة :

وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمنى أحجاره وملاعبه

السيف رَحْب المقلّد، يُقْدِم حيث يتأخر الذابل(١)، ويكرم إذا بخل الوابل، ويحمى الحمى كربيعة بن مُكَدَّم، ويسقى الظُّبَا نجيعاً كلون العَنْدَم، فهنيئاً للأندلس لقد استردت عَهْد خلفائها، واستمدَّتْ تلك الإمامة بعد إغفائها، حتى كأن لم تمر أعصارها، ولم يمت حَكَمها ولا ناصِرُها، اللذان عمرا الرصافة والزَّهْرا، ونكحا عقائل الروم ومابذلا إلا المشرفية(٢) مَهْرا، والله تعالى أسأله انتصار أيامك، وبه أرجو انتشار أعلامك، حتى يكون عَصْرُكَ أعجب من عصرهم، ونصرك أعز من نصرهم، والسلام، انتهى.

وقال بعضهم: من أحسن ما رأيت له قوله: معاليك أشهر رُسُوما، وأعطر نَسِيما، من أن يغرب شهاب مَسْعَاها، أو يجدب لرائدٍ مَرْعَاها، فإن نبهتك فإنما نبهت عُمَرا، وإن استنرتك فإنما أستنير قمرا، والأمير أيده الله تعالى أجل من أعتصم فى ملكه، وأنتظم فى سلكه، فإنه حسام بيد الملك، طلاقته فِرِنْدُه، وشهامته حده، وقضيب، فى دوحة الشرف رطيب، بشره زَهَره، وبره ثَمَره، وقد توسمت نارك لعلى أفوز منها بقَبَس، أو تكون كنار موسى بالوادى المقدس، وعسى الأمل أن تعلو بكم قِدَاحُه، ويشف من أفقكم مصباحُه، فجرد ـ أيدك الله تعالى! ـ صارم عزم لا يفل غروبه، وأطلع كوكب سعد لا يخاف غروبه، انتهى.

ولنذكر بعض كلامه فى المطمح لغرابته فى هذه البلاد المشرقية بخلاف القلائد فإنها موجودة بأيدى الناس فيه.

قال رحمه الله تعالى فى ترجمة أبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى:

من ترجمة أبى بكر الزبيدى

إمام اللغة والإعراب، وكعبة الآداب، أوْضَحَ منها كل إبهام، وفضح دون دون الجهل بها محل الأوهام، وكان أحد ذوى الإعجاز، وأسعد أهل الاختصار

---

(١) الذابل: أراد به الرمح، والوابل: المطر الكثير.
(٢) المشرفية: السيوف، منسوبة إلى مشارف اليمن

والإيجاز ، نَجَمَ والأندلس فى إقبالها ، والأنفس أول تَهَمُّمها بالعلم واهتبالها ، فنفقت له عندهم البضاعة ، واتفقت على تفضيله الجماعة ، وأشاد الحَكَمُ بذكره ، فأورى بذلك زناد فكره ، وله اختصار « العين » للخليل ، وهو معدوم النظير والمثيل ، و « لحن العامة » و « طبقات النحويين » وكتاب « الواضح » وسواها من كل تأليف مُخْجل لمن أتى بعده فاضح ، وله شعر مصنوع ومطبوع ، كأنما يتفجر من خاطره يَنْبُوع ، وقد أثبت له منه ما يقترح ، ولا يطرح ، فمن ذلك قوله :

كيف بالدَّيْنِ القديم ... لك من أم تميم

ولقد كان شفاء ... من هوى القلب السقيم

يُشْرِقُ الحسن عليها ... فى دجى الليل البهيم

وكتب مراجعاً :

أغرقتنى فى بحور فكر ... فكدت منها أموت لما

كَلَّفْتنى غامضاً عويصا ... أرجم فيه الظنون رجما

مازلت أسرو السجوف عنه ... كأننى كاشف ظُلْما(١)

أقرب من ليله ، وأنأى ... مستبصراً تارة وأعمى

حتى بدا مشرق المحيَّا ... لما اعتلى طالعا وتما

لله من منطق وجيز ... قد جَلَّ قدرا وجل فهما

أخلصت لله فيه قولا ... سَلَّمت لله فيه حكما

إذ قلت قول امرئ حكيم ... مراقب للإله علما

الله ربِّى ولىٌّ نفسى ... فى كل بوسٍ وكلِّ نُعْمى

وكتب إلى أبى مسلم بن فهد وكان كثير التكبر ، عظيم التجبر ، متغيرا لسانه ، مقفرا من المعالم جنانه :

---

(١) أسرو السجوف : ألقيها وأزيحها ، والسجوف : جمع سجف ـ بالكسر ، وبالفتح ـ الستر .

أبا مسلم ، إن الفتى بفؤاده ومِقْوَلِهِ لا بالمراكب واللبس (١)
وليس رُوَاء المرء يغنى قُلامة إذا كان مقصوراً على قصر النفس
وليس يفيد الحلم والعلم والحجا أبا مسلم طول القعود على الكرسى

واستدعاه الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين فعجل إليه وأسرع ، فأمرع من آماله ما أمرع ، فلما طالت نوَاه ، واستطالت عليه لَوْعَتُه وجَوَاه ، وحَنَّ إلى مستكنه بإشبيلية ومَثْوَاه ، استأذنه فى اللحوق بها فلومه ولَوَاه ، فكتب إلى من كان يألفه ويهواه :

وَيحك ياسلْمَ لا تُرَاعِى لابدّ للبين من مساع
لا تحسبينى صبرت إلا كصبر ميت على النزاع
ما خلق الله من عذاب أشدّ من وقفة الوداع
ما بينها والحِمَام فرق إلا المناحات فى النواعى
إن يفترق شملُنا وَشيكا من بعد ما كان فى اجتماع
فكل شمل إلى افتراق وكل شَعْب إلى انصداع
وكل قرب إلى بعاد وكل وصل إلى انقطاع

وقال ــ سامحه الله تعالى ! ــ بعد ترجمة السلطان بالمرية المعتصم بن صُمَادح ما نصه :

من ترجمة أبى مروان بن المعتصم بن صمادح

ابنه عز الدولة أبو مروان عبد الله ، فتى الراح المعاقِرُ لِدِنانها ، المهتصر لأغصان الفتوة وأفنانها ، المهجِّر لفلاة الظِّباء والآرام ، المشتهر فى باب الصَّبابة والغرام ، نشأ فى حِجْر أبيه نديم قَهْوَه ، ومُديم صَبْوه ، وخديم شَهْوه ، لا يريم كاسا ، ولا يروم إلا اقتضاء وانتكاسا ، ما شهد قَتْلا ولا قتالا ، ولا تقلد صارماً إلا مختالا ، قد أمن منه جَنَان الجبان ، وعدّت له غصون البان ، وما زال مرتضعا لأخلاف

(١) هذا من قول زهير بن أبى سلمى المزنى :

لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وقول الآخر :

ليس الجمال بأثواب تزيننا إن الجمال جمال العلم والأدب

البَطَاله ، مقتطعا ما شاء من إطاله ، متوغلا فى شعاب الفتَّاك ، متغلغلا فى طريق الانتهاك ، إلى أن وجهه أبوه إلى أمير المسلمين سفيراً عند ما بدت له وجوه الفتنة تُسْفِر ، ومَعَاهد الهدنة تُقفِر ، مع أكامل أصحبهم نُقْصانه ، وذوى أديان جعلهم خُلْصانه ، يسمعون بوادر بَذَاذته ، وينظرون مناكر لذاذته ، فآلت سَفْرته إلى الاعتقال ، وقصرت نخوته ما بين قيد وعقال ، فجاء كالمهر لا يعرف لجاما ، وصار حبيسَ قوم لا يألونه استعجاما ، وحين شالت نَعَامته ، وسالت عليه ظلامته ، كتب إلى أبيه :

أبعد السنا والمعالى خمول ... وبعد ركوب المَذَاكى كُبُولْ[1]

ومن بعد ما كنت حرّاً عزيزا ... أنا اليوم عبد أسير ذليل

حللت رسولا بغرناطة ... فحل بها فىّ خطب جليل

وثُقِّفْتُ إذ جئتها مرسلا ... وقبلىَ كان يعز الرسول

فقدت المرية أكرم بها ... فما للوصول إليها سبيل

فراجعه أبوه بقطعة منها :

عزيز علىّ ونوحى دليل ... على ما أقاسى ودمعى يسيل

وقطعت البيض أغمادها ... وشُقَّتْ بُنُود وناحت طبول[2]

لئن كنت يعقوب فى حزنه ... ويوسفُ أنتَ فصبر جميل

ولم يزل يتحيل فى تخلصه ، وأخذه من يد مُقْتَنِصه ، فسُرِق وحراسه منه بمكان السلك من النحر ، وطرق به على ثَبَج البحر ، فوافى المَرِيَّة ، وقد أخذ البحث عليه آفاق البرية ، فهنئ المعتصم بخلاصه ، وبقى مستقرا بعِرَاصِه ، إلى أن أخلوها ومضوا لطلبة ما نووها ، فنجا أخوه إلى حيث ذكرنا من بلاد الناصر ، ولجأ هو

---

(١) المذاكى : الخيل ، والكبول : القيود وزناً ومعنى .

(٢) البيض : السيوف ، واحدها : أبيض ، والبنود : الأعلام ، واحدها : بند ، بالفتح .

إلى أحد المرابطين لأذِمَّة[1] كانت بينهما وأواصر ، وأقام معه سميرلهوه ، وأمير سهوه ، إلى أن انقرض أمَدُه ، وطواه سروره لا كمدُه ، فلم يُرَ إلا خالعا لعِذاره ، طالعا فى ثنيَّات اغتراره ، غـير مكترث باتِّضاعه ، ولا منحرف عن ارتشاف الغى وارتضاعه ، و بدامنه فى هذه الحال ندى كاثَرَ به السحاب ، وظاهر بسببه الصِّحاب ، وتخدم الأوطار ، وتقدم لذوى الرتب فيها والأخطار ، حسنا من ذكره ، وأولع الألسن بشكره ، فارتفع عنه الـكَدْح ، وشَفَع له فى الذم ذلك المدح ، وكان نظمه بديع الوصف ، رفيع الرَّصْف ، وقد أثبتُّ له ما يشهد بإجادته و إحسانه ، شهادة الروض بجود نيسانه .

أخبرنى ابن القطان أنه ساير الأمير يحيى بن أبى بكر إلى طُلَيْطلة فى جيوش فاضت سَيْلا ، وخاضت المطايا قتامَها لَيْلا ، وكان ملـكا لم يُعْقَد على مثله لِواء ، ولم يحتوِ على شِبْهِهِ حواء ، جمال مُحَيَّا ، وكمال عَلْيا ، وحسن شيم ، و بعد هِمَم ، أغنى العُفَاة ، وأحيا الرفات ، والغى الأجواد ، وأنسى كعب بن مامة وابن أبى دُوَاد ، فلما شارف طُلَيْطلة وكشفها ، واشْتَفَّ بلالتها وارتشفها ، وضرب بكنفها مَضَاربه ، وأجال بساحتها زَنْجَه وأعارِبَه ، سقط أحَدَ ألويته عن يد حامله ، وانـكسر عند عامله ، فطائفة تفاءلت ، وطائفة تطيرت ، وفرقة ابتهجت ، وأخرى تغيرت ، فقال :

لم ينكسر عودُ اللِّواء لطِيَرةٍ ... يُخْشَى عليك بها وأن تتأولا
لـكن تحقَّق أنه ينْدقُّ فى ... نحر العِدَا ولدى الوغى فتعجلا

وأخبرنى أخوه رفيعُ الدولة أن ابن اللبانة كتب إليه والخلع قد نضا لبوسه ، وقصر

---

(١) الأذمة : جمع ذمام ، وهو العهد ، والأواصر : جمع آصرة ، وهى : كل ما يربطك بغيرك من قرابة ، أو صهر ، أو صداقة .

بوسه ، وكدر صفاءه ، وعذر وفاءه ، وطوى ميدان جوده ، وأذوى أفنان وُجُوده ، قوله :

ياذا الذى هز أمداحى بحليته وعَزَّه أن يهز المجد والكرما
واديك لا زرع فيه اليوم تبذله فخذ عليه لأيام المنى سَلَمَا[1]

فدَعَتْه دواعى الندى ، وأولعته بالجدا فى ذلك المدى ، فتحيل فى برّ طبعه ، وكتب معه :

المجد يخجل من تقديك فى زمن ثناه عن واجب البر الذى علما
فدونك النزر من مُصْفٍ مودته حتى يوفيك أيام المنى سلما

ابنه الثانى : رفيع الدولة أبو يحيى بن المعتصم .

من ترجمة أبي يحيي رفيع الدولة ابن صمادح

من بيت إماره ، والى السعد طوافه بها واعتماره ، عمرت أنديته ، ونشرت به رايات العز وألويته ، إلى أن خوى كوكبهم ، وهوى مرقبهم ، فتفرقوا أيادى سَبَا ، وفرقوا من وقع الأسنة والظبا ، وفارقوا أرضاً كأرض غَسَّان ، ووافقوا أياما كيوم أهل اليمامة مع حَسَّان ، بعد ما خامرت النفوس مكارمهم مخامرة الرحيق ، وأَمَّهُمْ النـاس من كل مكان سحيق ، وانتجعوا انتجاع الأنواء ، واستطعموا فى المحل واللأواء ، وصالوا بالدهر وسَطَوْا ، و بين النهى والأمر فيه خَطَوْا ، ورفيع الدولة هذا فجر ذاك الصباح ، وضوء ذلك المصباح ، وغصن تلك الدَّوْحَة ، وعَرْف تلك النفحة ، لم يمتهن والدهر قد بذله ، ولا ترك الانتصار والأمر قد خَـذَله ، فالتحف بالصَّوْن وارتدى ، وراح على الانقباض واغْتَدَى ، فما نلقاه إلا سالـكا جَدَداً ، ولا تراه إلا لابسا سُودَدَا ، وله أدب كالروض المَجُود إذا زهر ، ونظم كزهر التهائم والنجود

(١) السلم : السلف وزنا ومعنى ، وهو فى اصطلاح الفقهاء : أن تعطى غيرك جزءا من المـال على أن يسلمك بعد مضى عدة سلعة موصوفة بأوصاف تمنع المنازعة عند الاستلام .

بل كالصبح إذا أسفر واشتهر ، أوقفه على النسيب ، وصرفه إلى المحبوبة والحبيب ، فمن ذلك قوله :

مالى وللبدر لم يسمح بزورته ... لِعِلَّةٍ ترك الإجمال أو هجرا

إن كان ذاك لذنب ماشعرت به ... فأكرم الناس من يعفو إذا اقدر

وله أيضاً :

يا عابد الرحمن كم ليـلة ... أرقْتَنِي وجـدا ولم تشعر[1]

إذ كنت كالغصن ثَنَتْهُ الصَّبَا ... وصحن ذاك الخد لم يشعر[2]

وله أيضاً :

وأهيف لا يلوى على عتب عاتب ... ويقضى علينا بالظنون الكواذب

يحكم فينـا أمره فنطيعه ... ونحسب منه الحكم ضربة لازب

وله أيضاً رحمه الله تعالى :

وعَلِقْته حلو الشمائل ماجنا ... خنث الكلام مرنح الأعطاف

ما زلت أنصفه وأوجب حقه ... لكنه يأبى من الإنصاف

وله أيضاً :

حبيب متى ينأى عن العين شخصُه ... يكاد فؤادى أن يطير من البين

ويسكن ما بين الضلوع إذا بدا ... كأن على قلبى تمائم من عين

وله أيضاً :

أفدّى أبا عمرو وإن كان جانياً ... علىّ ذنوبا لا تعدد بالعتب

فما كان ذاك الود إلا كبارق ... أضاء لعينى ثم أظلم للقلب

وله وقد بلغه موتى ، وتحقق عنده فوتى :

---

(١) لم تشعر ، هنا : معناه لم تعلم ولم تفطن لما أنا فيه من السهد والأرق ،

(٢) لم يشعر ، هنا : معناه لم يثبت فيه الشعر .

مثنى الوزارة قد أودى فما فعلت   تلك المحابر والأقلام والطُّرُس
ما كنت أحسب يوما قبل ميتته   أن البلاغة والآداب تختلس

واستأذن ليلة على أحد الأمراء وأنا عنده فى أسنى موضع ، وأبهى مطلع ، وجوانب حَفَدِهِ[1] بين يدىَّ محتله ، وسحائب رفده على مُنْهَلَّة ، وكان أجمل مَنْ مُقِلَ[2] ، وأكمل مَنْ مِنَ المهد إلى سرير الملك قد نُقِل ، وكتب إلى يهنينى بقدوم من سفر :

قدمت أبا بكر على حال وَحْشة   فجاءت بك الآمال واتصل الأنس
وقرّت بك العينانِ واتّصل المنى   وفازت على يأس ببغيتها النفس
فأهلا وسهلا بالوزارة كلها   ومن رأيُهُ فى كل مظلمة شمس

من ترجمة أبى الوليد ابن حزم

وقال فى المطمح فى ترجمة الوزير أبى الوليد بن حزم .

واحدٌ دونه الجمع ، وهو للجلالة بصر وسمع ، روضَة علاه رائقة السنى ، ودوحة بهاه طيّبة الجنى ، لم يتزر بغير الصَّوْن ، ولم يشتهر بفسادٍ بَعْدَ الكون ، مع نفس برئت من الكبر ، وخلصت خلوص التبر ، وعفاف التحف به بُرُوداً ، وما ارتشف به ثغراً بَرُودا ، فعَفَتْ مواطنه ، وما استرابت ظواهره ولا بواطنه ، وأما شعره ففى قالب الإحسان أفرغ ، وعلى وجه الاستحسان يلقى ويبلغ ، وكتب إليه ابن زُهْر :

أأبا الوليد وأنت سيد مَذْحج   هلا فككت أسير قبضة وَعْدِهِ
وحياة مَنْ أمَدُ الحياة بوصله   وذهابُها حتما بأيسر صَدِّهِ
لأقاتلنك إن قطعت بمُرْهَف   من جفنه و بصَعْدة من قدّه[3]

فراجعه أبو الوليد .

لبيك يا أسد البرية كلها   من صادق عبث المطال بوعده

---

(١) الحفد : جمع حافد ، وهو : التابع ، والخادم ، والناصر .

(٢) مقل : نظر وزنا ومعنى .

(٣) المرهف : السيف المرقق الحد ، والصعدة ـ بالفتح ـ القناة المستوية ، تنبت هكذا ، فلا تحتاج إلى تثقيف وتعديل ، شبه قوامه بها فى اعتداله .

يمضى بأمرك سار أو سد الفضا ويَفُلُّ حد النائبات بحده
إيه ووافقت الصبا فى معرض ذهب المشيب بهزله وبجده

من ترجمة أبى بكر الغسانى

وقال فى المطمح فى ترجمة أبى بكر الغسانى ، ما صورته :

صليب العود ، مَهيب الوعود ، لو دعى له الأسد الوَرْد لأجاب ، ولو رمى بذكره الليلُ البهيم لانجاب ، ولو قعدت بين يديه الأطواد لتحرك سكونها ، ولو عصته الطيور ما آوتها وُكونها ، مع وقار تخاله يَذْبُلا[1] ، وفخار يفضح بُلْبُلا ، وشيَم لو كانت بالروض ما ذَوَى ، أو تقاسمت فى الخلق ما رمِد أحد بعد ما شوى ، وسجايا تنجلى عنها الظلماء ، كأن مزاجها عسل وماء[2] ، انتهى .

وهذا الغسانى هو صاحب تفسير القرآن وقد عرَّف به «الإحاطة» فليراجع ثمة

من ترجمة أبى عامر ابن عقال

وقال أيضا فى المطمح ما صورته : أبو عامر بن عقال .

كان له ببنى قاسم تعلق ، وفى سماء دولتهم تألق ، فلما خوت نجومهم[3] ، وعَفَتْ رسومهم ، انحط عن ذلك الخصوص ، وسقط سقوط الطائر المقصوص ، وتصرف بين وجود وعدم ، وتحرف قاعداً حينا وحينا على قَدَم ، وفى خلال حاليه ، وأثناء انتحاليه ، لم يدع حظه من الحبيب ، ولا ثنى لحظه عن الغزال الربيب ، ولم يزل يطير ويقع ، والدهر يخرق حاله ويرقع ، إلى أن أرقاه الأمير إبراهيم بن يوسف ابن تاشفين رحمه الله تعالى أعلى رَبْوَه ، وأراه أبهى حُظْوة ، فأدرك عنده رتبة أعلام التحبير والإنشا ، وترك الدهر قَلِقَ الحشا ، وتسنم منزلة لا يتسنمها إلا من تطهر من درَنه ، وجمح إحسانه فى ميدان حرنِه ، والحظوظ أقسام لا تُسَام ، والدنيا إنارة وإعتام .

ولو لم يَعْلُ إلا ذو محَلٍّ تعالى الجيش وانحطَّ القتَامُ

---

(١) يذبل ــ بوزن ينصر ــ اسم جبل ، وفيه يقول امرؤ القيس :
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل
(٢) قد أخذ هذه الفقرة من قول حسان بن ثابت :
كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء
(٣) خوى النجم : غرب وسقط

وقد أثبتُّ عنه بعض ما انتقيته ، والذى أخذته مباين لما أبقيته ، فمن ذلك قوله :

يا ويح أجســام الأنا م فما تطيق من الأذى
خلقت لتقوى بالغـذا ء وسقمها ذاك الغـذا
وتنال أيام الســلا مة بالحيــاة تلذذا
فاذا انقضى زمن الصِّبَا ورمى المشيبُ فأنفذا
وجد السقام إلى المفا صل والجوانح منفــذا
ويقول مهمـــا يعط شيئاً ناولونى غــير ذا

وحذا فى هذه القصيدة حَذْوَ الصابى فى قوله :

وجع المفاصل وهو أيْسَرُ ما لقيتُ من الأذَى
رَدَّ الذى استحسنتهُ والناسُ من حَظِّى كذا
والعمر مثل الكاس ير سُبُ فى أواخره القذى

وله يعتذر عن زيارة اعتمدها ، ومواصلة اعتقدها ، فعاقَتْه عنها حوادثُ لَوَتْه ، وعدَتْه عن ذلك وثَنَتْه :

بينما كنت راجيـــا للقائه والتشفِّى بالبشر من تلقــائه
وترقبت من سماء نزاعى قمر الأنس طالعا من سمــائه
إذ دهانى اعتراض خطب ثنانى عن غمـــام يشفى الغليل بمائه
فتدلَّهت وانزويت حيــــاء منه والعـــذر واضح لسنائه[١]

وله فصل كتب به عن الأمير إبراهيم يصف إجازة أمير المسلمين البحر سنة خمس عشرة وخمسمائة : وفى الساعة الثانية من يوم الجمعة كان جوَازه ـ أيده الله تعالى! ـ من مرسى جزيرة طَريف على بحر ساكن قد ذل بعد استصعابه ، وسَهُل بعد

---

(١) تدله تدلها : تحير وأخذته الدهشة ، وانزوى : انقبض ، والسناء : أصله أن يقال بالقصر بمعنى الضوء ، وبالمد بمعنى الرفعة ، والظاهر أنه أراد هنا معنى الضوء ، ولكنه مده حين اضطر .

أن أرى الشامخ من هضابه ، وصار حَيُّه مَيْتا ، وهـذره صَمْتَا ، وجبالُه لا ترى فيها عِوَجا ولا أَمْتَا ، وضعف تعاطيه ، وعَقَد السلم بين مَوْجه وشاطيه ، فعبر آمنا من لَهَوَاته ، متملكا لصَهوَاته ، على جواد يقطع الجوّ سَبْحَا ، ويكاد يسبق البرق لَمْحَا ، لم يحمل لجاما ولا سَرْجَا ، ولا عهد غير اللجة الخضراء مَرْجَا ، عِنانه فى رجله ، وهُدْبُ العين يحكى بعض شكله ، فلله هو من جوَاد ، له جسم وليس له فؤاد ، يخرق الهوى ولا يَرْهَبُه ، ويركض الماء ولا يشربه .

من ترجمة أبى مروان الطبنى

وقال فى ترجمة الفقيه أبى مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبنى ، ما نصه :

من ثَنِيَّة شرف وحسَب ، ومن أهل حديث وأدب ، إمام فى اللغة متقدم ، فارعٌ لرُتَب الشِّعر مُتَسنّم ، له رواية بالأندلس ورحلة إلى المشرق ، ثم عاد وقد توّج بالمعارف المفرِق ، وأقام بقرطبة علما من أعلامها ، ومتسنما لترفعها وإعظامها ، تؤثره الدُّوَل ، وتصطفيه أملاكها الأول ، ما زال فيها مقيما ، ولا برح عن طريق أحانيها مستقيما ، إلى أن اغتِيلَ فى إحدى الليالى بقضية يطول شرحها فأصبح مقتولا فى فراشه ، مذهولا كل أحد من انبساط الضرب إليه على انكماشه ، وقد أثبتُّ من محاسنه ما يعجب السامع ، وتُصْغِى إليه المسامع ، فمن ذلك قوله :

وضاعف ما بالقلب يوم رحيلهم ... على ما به منهم حنينُ الأباعر
وأصبر عن أحباب قلب ترحلوا ... ألا إن قلبى سائر غير صابر

ولما رجع إلى قرطبة وجلس ليرى ما احتقبه من العلوم ، اجتمع إليه فى المجلس خلق عظيم ، فلما رأى تلك الكثرة ، وماله عندهم من الأثَرة ، قال :

انى إذا حضرتنى ألف محبرة ... يكتبن حدّثنى طورا وأخبرنى
نادت بمفخرىَ الأقلامُ معلنة ... هذى المفاخر لا قَعْبَانِ من لبن [1]

---

(١) عجز هذا البيت من قول أبى الصلت يمدح ذا يزن :

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا ... فى رأس غمدان دارا منك محلالا
هذى المكارم لاقعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وكتب إلى ذى الوزارتين أبى الوليد بن زيدون :

أبا الوليد وما شطت بنا الدار — وقَلَّ منا ومنك اليوم زوّار
وبيننا كل ما تدريه من ذِمَمٍ — وللصبا ورق خضر وأنوار
وكلّ عتب وإعتاب جرَى فله — بدائع حلوة عندى وآثار
فاذكر أخاك بخير كلما لعبت — به الليالى فإن الدهر دوار

من ترجمة ابن عبد ربه صاحب العقد

وقال فى ترجمة صاحب العقد الفقيه العالم أبى عمر أحمد بن عبد ربه :
عالم ساد بالعلم ورأس ، واقتبس به من الحظوة ما اقتبَس ، وشهر بالأندلس حتى سار إلى المشرق ذكره ، واستطار شرَرَ الذكاء فكره ، وكانت له عناية بالعلم وثقة ، ورواية له مُتَّسِقة ، وأما الأدب فهو ـ كان ـ حُجَّتُه[١] ، وبه غمرت الأفهامَ لجته ، مع صيانة ووَرَع ، وديانة ورَدَ ماءها فكَرَع ، وله التأليف المشهور الذى سماه بالعقد ، وحماه عن عثرات النقد ، لأنه أبرزه مُثقَّف القناة[٢] ، مُرْهَف الشَّباة[٣] ، تقصُر عنه ثواقب الألباب ، وتبصر السحر منه فى كل باب ، وله شعر انتهى منتهاه ، وتجاوز سِماكَ الإحسان وسَماه .

أخبرنى ابنُ حزم أنه مر بقصر من قصور قرطبة لبعض الرؤساء فسمع منه غناء أذهب لبه ، وألهب قلبه ، فبينما هو واقف تحت القصر إذ رش بماء من أعاليه ، فاستدعى رقعة ، وكتب إلى صاحب القصر بهذه القطعة :

يا من يضنّ بصوت الطائر الغرد — ما كنت أحسب هذا الضن فى أحد
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة — أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضن على سمعى ومُنّ به — صوتا يجول مجال الروح فى الجسد
أما النبيذ فإنى لست أشربه — ولا أحبل إلا نسوتى بيدى

---

(١) « كان » فى هذه الفقرة زائدة ، و « حجته » مرفوع على أنه خبر المبتدأ .
(٢) القناة ، هنا : الرمح ، ومثقفها : معدلها مقومها .
(٣) الشباة ـ بفتح الشين ـ طرف السنان ، ومرهفها : محددها .

وعَزَم فتى كان يتألفه ، وخامره كَلَفُه[1] ، على الرحيل فى غَدِه ، فأذهبت عزمته قوى جَلَدِه ، فلما أصبح عاقته السماء بالأنواء[2] ، وساقته مكرها إلى الثَّواء ، فاستراح أبو عمر من كَمَدِه[3] ، وانفسح له من التواصل ضائق أمَدِه ، فكتب إلى المذكور ، العازم على البكور :

هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر ... هيهات يأبى عليك الله والقَدَرُ
ما زلت أبكى حذار البين ملتهبا ... حتى رثى لىَ فيك الريح والمطر
يا برده من حَيًا مزنٍ على كبد ... نيرانها بغليل الشوق تستعر[4]
آليت أن لا أرى شمسا ولا قمرا ... حتى أراك فأنت الشمس والقمر

ومن شعره الذى صَرَّح به تصريحَ الصب ، و برّح به وقائع اسم الحب ، قوله :

الجسم فى بلد والروح فى بلد ... ياوحشة الروح بل ياغربة الجسد
إن تبك عيناك لى يامن كلفت به ... من رحمة فهما سهماك فى كبدى

ومنه قوله :

وَدَّعَتْنِى بزفرة واعتناق ... ثم نادت متى يكون التلاقى
و بدت لى فأشرق الصبح منها ... بين تلك الجيوب والأطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم ... بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أفظع يوم ... ليتنى مت قبل يوم الفراق

وله أيضا :

ياذا الذى خَطَّ الجمالُ بخده ... خطين هاجا لوعة و بلابلا
ماصح عندى أن لحظك صارم ... حتى لبست بعارضيك حمائلا

وأخبرنى بعضهم أن الخطيب أبا الوليد بن عيال حج ، فلما انصرف ، تطلع إلى

---

(١) خامره : داخله ، وكلفه : حبه .

(٢) الأنواء ، هنا : الأمطار ، واحدها نوء . (٣) الكمد : الحزن .

(٤) فى ب « على كبدى » وحذف ياء المتكلم أدق وأظرف .

لقاء المتنبي واستشرف ، ورأى أن لقياه فائدة يكتسبها ، وحلة فخر لا يحتسبها ، فصار إليه فوجده فى مسجد عمرو بن العاص ، ففاوضه قليلا ، ثم قال : أنشدنى لمليح الأندلس ، يعنى ابن عبد ربه ، فأنشده :

يا لؤلؤا يَسْبِي العقول أنيقا ورَشاً بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله درا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك فى سناه غريقا
يا من تقطَّع خصرُهُ من رقة مابال قلبك لا يكون رقيقا

فلما أكمل إنشادها استعادها منه ، وقال : يا ابن عبد ربه ، لقد تأتيك العراق حَبْوا .

وله أيضا :

ومُعَذَّر نقش الجمالُ بخطه خدا له بدم القلوب مضرجا[1]
لما تيقَّن أن سيف جفونه من نرجس جعل النِّجاد بنفسجا

وله أيضا :

وساحبة فَضْلَ الذيول كأنها قضيب من الريحان فوق كثيب
إذا مابدت من ثغرها قال صاحبى أطعنى وخذ من وصلها بنصيب

وله أيضا :

هيج الشوقُ دواعى سقمى وكسا الجسمَ ثيابَ الألم
أيها البين أقِلْنِي مرة فإذا عُدْتُ فقد حل دمى
يا خلىَّ الروع نم فى غبطة إنَّ من فارقته لم ينم
ولقد هاج بجسمى سَقَماً حُبُّ من لوشاء داوى سقمى

---

(١) المعذر ــ بزنة المعظم ــ الذى نبت عذاره ، وهو شعر الوجه .

وبلغ سنَّ عَوْف بن مُحَلم(١) ، واعترف بذلك اعتراف متألم ، عندما وَهَتْ شدته ، وبليت جِدَّتُه ، وهو آخر شعر قال ، ثم عثر فى أذيال الردى وما استقال :

كلانى لمابى عاذلىَّ كفانى طويت زمانى برهة وطوانى
بليت وأبليت الليالىَ مكرها وصرفان للأيام معتوران
ومالى لا أبلى لسبعين حجة وعشر أتت من بعدها سَنَتَانِ
فلا تسألانى عن تباريح علتى ودونكما منى الذى تريان
وإنى بحول الله راج لفضله ولى من ضمان الله خير ضمان
ولست أبالى من تباريح علتى إذا كان عقلى باقيا ولسانى

وفى أيام إقلاعه عن صَبْوَته ، وارتجاعه عن تلك الغفلة وأَوْبَتِه ، وانثنائه عن مجون المجون إلى صفاء توبته ، محص أشعاره فى الغزل بما ينافيها ، ونصل من قوادمها وخوافيها ، بأشعار فى الزهد على أعاريضها وقوافيها ، منها القطعة التى أوّلها :

* هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر *

محصها بقوله :

يا راقد العين يغفو حين يقتدر ماذا الذى بعد شيب الرأس ينتظر
عاين بقلبك إن العين غافلة عن الحقيقة واعلم أنها سقر
سوداء تزفر من غيظٍ إذا سفرت للظالمين فلا تبقى ولا تذر
لو لم يكن لك غير الموت موعظة لكان فيه عن اللذات مُزْدَجَرُ
أنت المقول له ما قلت مبتدئا هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر

---

(١) هو عوف بن محلم ـ بزنة معظم ـ خزاعى ، شيبانى ، بلغ الثمانين ، وهو الذى يقول فى مدحة مدح بها عبد الله بن طاهر :

إن الثمانين ــ وبلغتها ــ قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

من ترجمة أبي القاسم المنيشى

وقال فى ترجمة أبى القاسم المنيشى ، ما صورته :

أبو القاسم المنيشى ، أحد أبناء حضرة إشبيلية المقلين ، الناهضين بأعباء الضرائر المستقلِّين ، لم يزل يَعْشُو لكل ضوء ، و ينتجع مَصَاب كل نَوْء[1] ، فيوما يخصب ، و يوما يُجْدِب ، وآونة يفرح وأخرى ينتدب ، إلى أن صدقت مخايله ، فرمقت بخوته وتحايله ، وأتى من العجب ، بمنسدل الحُجُب ، ومن الأشَر ، ما لم يأت من بَشَر ، وما تصرف إلا فى أنزل الأعمال ، ولا تعرّف إلا بأخْوَن العمال ، لم يَفْرَعْ رَبْوَة ظهور ، ولم يقرع باب رجل مشهور ، وله أدب ولَسَن ، ومذهب فيهما يُسْتَحْسَن ، لكنه نكب عن المقطع الجزل ، وذَهَب مذهب الهزل ، إلا فى النادر فربما جَدّ ، ثم أخلق منه ما استجد ، وعاد إلى دَيْدَنه ، عودة أبى عباد إلى واواته ومُدنه ، وأخذ فى ذلك الغرض ، وليس شرط كتابى بذاه ، ولا أن يقف حذاه ، وقد أثبتّ له ما هو عندى نافق ، ولغرض كتابى موافق ، فمن ذلك قوله :

يا رَوْضَة باتت الأنداء تخدمها ... أتى النسيم وهذا أوّل السحر
إن كان قدُّكَ غصنا فالثراء به ... مثل الكمائم قد زُرَّتْ على الزهر
ازرأ بخديك عن ورد وعن زهر ... اغْناً بقرطيك عن شمس وعن قمر
يا قاتل الله لحظى كم شقيتُ به ... من حيث كان نعيم الناس بالنظر

وله من رثاء فى والدتى رحمة الله عليها :

يا ناصحى غير مفتات ولا شجن ... على النصائح والنصاح مفتات
لا أستجيب ولو ناديت من كَثَبِ ... وقد قذتنى تعلات وعلات
إن كان رأيك فى برى وتكرمتى ... بحيث قد ظهرت منه علامات
لا ترض لى غير شجو لا أفارقه ... فذاك أختاره والناس أشتات

(١) ينتجع : يقصد ، ومصاب : اسم مكان من « صاب المطر يصوب » أى نزل ، والنوء ـ بالفتح ـ المطر ، وأصله سقوط نجم بصعود آخر ، وكأنه قال : يقصد مكان نزول كل مطر ، والعبارة كناية عن غشيانه منازل الكرماء .

ومنها :

يا ذا الوزارات من مثنى وواحدة لله ما اصطنعت منك الوزارات
لله منك أبا نصر أخو جلد إذا ألمت ملمات مهمات
أستودع الله نورا ضمه كفن كما توَارى بدورَ التم هالاتُ
قضت وليت شبابى كان موضعها هيهات ! لو قضيت تلك اللُّبانات
مضت ولما يقم من دونها أحد هلا وقد أعذرت فيها المروآت

وله يصف زرزورا :

أمنبر ذاك أم قضيب يفرعه مِصْقَع خطيب
يختال فى بردتى شباب لم يتوضح بها مشيب
كأنما ضَمَّخَتْ عليه أبراده مسكة وطيب
أخرس لكنه فصيح أبله لكنه لبيب
جَهْم على أنه وسيم صعب على أنه أريب

من ترجمة أبى حسن البرقى

أبو الحسن البرقى :

بلنسي الدار ، نفيسى المقدار ، ما سمعت له بشرف ، ولا علمت له بسلف ، ولا اطلعت منه على غير سرف ، ورد إشبيلية سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، واتصل بابن زُهْر ، فناهيك من حظ فى أكنافه[1] جال ، ومن لحظٍ فيما أراده أجال ، ومن أمل استوفر ، وحظ مسك أذفر ، ومن وجه جاه له أسفر ، سلك به ساحة الرغائب ، وتملك بسببه إباحة الحاضر والغائب ، وقال فما نبذت[2] مقالته ، وأقال فما قُيِّدَتْ إقالته ، وكان حلو المجالسة ، مجلوّ المؤانسة ، ذا نَشَب وافر ، ومذهب فى المساهمة سافر[3] ، إلا أنه كان كلفا بالفتيان ، مُعَنًّى بهم فى كل الأحيان ، ونيف على السبعين

(١) الأكناف : جمع كنف ، وهو الناحية والجانب ، وجال : تحرك .
(٢) نبذت ـ بالبناء للمجهول ـ طرحت . (٣) سافر : أراد ظاهرا واضحا

وهو برداء الصبوة مرتد ، و بعترها معتمد ، مع أدب زهرته تَرِفٌّ ، وكأنه بحر والألباب منه تغترف ، وقد أثبتُّ له بعض ما وجدت له فى الغلمان ، وأنشدت له فى تلك الأزمان ، فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى :

إن ذكرت العقيق هاجك شوق رب شوق يهيجه الأُدّكار

يا خليلى حدثانى عن الركب سحيراً أأنجدوا أم أغاروا(١)

شغلونا عن الوداع وولوا ما عليهم لو ودعوا ثم ساروا

أنا أهواهُمُ على كل حال عدلوا فى هواهم أم جاروا

وعلق بإشبيلية فتى يعرف بابن المكر ، وبات من حبه طريحا بين أيدى الوساوس والفكر ، لا يمشى إلا صبًّا ، ولا يفشى إلا غراما وحُبًّا ، وما زال يقاسى لوعته ، مقاساة يناجى بها صرعته ، ويكابد جواه ، و يلازم هواه ، حتى اكتسى خده بالعذار ، وانمحت عنه بهجة آذار ، فسَلاَ من كلفه ، وتصدى ذلك لمواصلته بصلته ، فقال :

الآن لما صوّحت وجناته شوكا وأصحت سلوة العشاق(٢)

واستوحشت منه المحاسن واكتست أنوار وجهك واهن الأخلاق

أمسيت تبذل لى الوصال تصنعا خلق اللئيم وشيمة المَذّاقِ

هلا وصلت إذ الشمائل قهوة وإذ المحيَّا روضة الأحداق

يا كم أطَلْتَ غرام قلب مُوجَعٍ كم قد ألبَّ إليك بالأشواق

ما كنت إلا البدر ليلة تمه حتى قضت لك ليلة بمحاق

لاح العذار فقلت وجد نازح إن ابن داية مؤذن بفراق

وله فيه مناقضا لذلك الغرض ، معارضا للوعة سلوه الذى كان عرض :

يلومون فى ظبى تزايد حسنُه بخطين خطا لوعتى وغراميا

---

(١) أنجدوا : أتوا نجدا ، وأغاروا : أتوا الغور .

(٢) تقول : « صوح النبت » تريد أنه جف ويبس ، وأراد أن وجناته نبت فيها الشعر .

وقد كنت أهوى خده وَهوْ عاطل فكيف وقد أضحى لعينى حاليا

وله أيضا فى مثله :

أجيل الطرف فى خد نضير يردد ناظرى نظرى إليه

إذا رَمِدَتْ بحمرته جفونى شفاها منه إثمد عارضيه

أبو الحسن على بن جودى :

من ترجمة أبى الحسن على بن جودى

برّز فى الفَهْم ، وأحرز منه أو فر سَهْم ، وعانى العلوم بقريحة ذكِيَّة ، وواخى بنفس فى المعارف زكية ، وله أدب واسعٌ مَدَاه ، يانع كالروض بلله نَدَاه ، ونظم أرق من دمع العانى ، ولطيف المعانى ، وأعْبَق من نفَس الخمائل ، فى أكف الصَّبا والشمائل ، ونثر كالزهر المَطْلُول [1] أو السلك المحلول ، إلا أنه سَهَا فأسرف ، وزها بما لا يعرف ، وتصدى [2] إلى الدين بالافتراء ، ولم يراقب الله تعالى فى ذلك الاجتراء ، واشتهرت عنه فى ذلك أقوال سَدَّد إلى الملة نِصالهَا ، وأبدى بها ضلالَها ، فعظُمت به المحنة ، وكمنت له فى كل نفس إحْنَة [3] ، ومازال يتدرَّج فيها وينتقل ، حتى عثر وما كاد يستقل ، فمر لا يُلوِى على تلك النواحى ، وفرّ لا ينثنى إلى لوائم ولواحى ، ومازال يركب الأهواء ويَخُوضها ، ويذلل النفس بها ويَرُوضها ، حتى أسمحت ببعض الإسماح ، وكفت عن ذلك الجماح ، واستقر عند أبى مالك فآواه ، ومهد له مَثْوَاه ، وجعله فى جملة من اختص من المبطلين ، واستخلص من المعطلين ، فكثيراً مايصطفيهم ، ولا يدرى أيدّخرهم أم يقتنيهم ، وقد أثبتُّ له ما يبهر سامعا ، ويظهر برقاً لامعا ، فمن ذلك قوله :

أحنُّ إلى ريح الشمال فإنها تذكرنا نجدا وما ذكرنا نجدا

تمرُّ على ربع أقام به الهوى وبدل من أهليه جاثمةً رُبْدَا

---

(١) المطلول : الذى نزل عليه الطل ، وهو المطر الخفيف .

(٢) تصدى : تعرض . (٣) كمنت : استترت ، والإحنة : الحقد .

فيا ليت شعرى هل تقضى لبانة فأرتشف اللَّمْيا وأعتنقُ القَدَّا(١)
خليلى لا والله ما أحمل الهوى وإن كنت فى غير الهوى رجلا جَلْدا

وقوله أيضا :

سل الركب عن نجد فإن تحية لساكن نجد قد تحملها الركب
وإلا فما بالُ المطى على الْوَجَا خفافا وما للريح مرجعُها رَطْبُ

وقوله أيضا :

إذا ارتحلت غربية فاعرضا لها فبالغرب من نهوى له البلد الغربا
لقد ساءنا أنا بعيد وأننا بأرضين شَتَّى لا مرورا ولا قربا
يفجعنا إما بعاد مبرح وإما أمور باعثات لنا كربا
ظعنَّا على حكم الليالى وخطبها فيا ليت لم ندر الليالى ولا الخطبا
وكنت أرجِّى الدهر بعد الذى مضى ديارا وقربا والأصادق والصحبا
أحقا يسير الركب لم ترتحل بنا إليك ولم تحدُ الحداةُ لنا ركبا

وقوله أيضا :

لقد هيج النيران يا أم مالك بتدمير ذكرى ساعدتها المدامعُ
عشية لا أرجو لقاءك عندها ولا أنا أن يدنو مع الليل طامع

وقوله أيضا :

حننت إلى البرق اليمانى ، وإنما نعالج شوقا ما هنالك هانيا
فيا راكبا يطوى البلاد تحملَنْ تحيتنا إن كنت تلجأ لاقيا
لياليَنا بالجزع جزع محجر سقى الله يا فيحاء تلك اللياليا
وما ضر صحبى وقفة بمحجر أحيى بها تلك الرسوم البواليا

---

(١) اللبانة ــ بضم اللام ــ الحاجة ، واللميا : أراد الشفة اللميا ، وهى السمراء ، وأصلها لمياء ــ بالهمز ــ فحذف الهمزة حين اضطر لإقامة الوزن .

وله أيضا :

خليليّ من نجد فإن بنجدهم مَصِيفاً لبيت العامرى ومَرْبعَا
ألا رجعا عنها الحديث فإننى لأغبط من ليلى الحديث المرجَّعَا
عزيز علينا يا ابنة القوم أننا غريبان شتى لا نطيق التجمعا(١)
فريق هوى منا يمانٍ ومُشْئِم يحاول يأسا أو يحاول مطمعا(٢)
كأنا خُلقنا للنوى ، وكأنما حرام على الأيام أن نتجمعا

من شعر الفتح ابن خافان

ووجدت له فى بعض نسخ « المطمح » قوله أيضا :

سقى دارك اللائى ببطن مُحَصَّبٍ مثاكيل من وفد الغمام المرنّح
ألم تعلمى يا فتنـة القلب أننى تطارحت من حبى لـكم كل مطرح
إذا نعبت غربان دار وجدتنى وشـــوقى مقيم بين ناء ونُزَّحِ

وله أيضا :

ألا خـــبر وللبلوى ضروب وفيك لـكل مشتاق حبيب
حَبَـاك الله بالنعمى فنونا وجرَّ لـكم مع النعمى خطوب
متى تقضى بخسفتك الليالى وتعصف فيكم ريح هبوب
فإنكم تجرّون المنـــايا وتعمر من مجانيكم قلوب

وقد ذكر فى « المطمح » له تخميساً جارياً على ألسنة الناس إلى الآن ، وهو :

أيا ساكنين بأرض اللوى وصـــالكم لسقَامى دوَا
وعافاكُمُ الله من ذا الجوى ملـكتم فؤادى فصار الهوى

علىّ رقيب رقيب رقيب

ولمـــا تبدت لهم حالتى وما حرك الهجر من زفرتى

---

(١) غريبان شتي : أى متفرقان ، وفى القرآن الـكريم . (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى)

(٢) مشئم : قد أتى الشأم .

بكوا رحمة لى من ساعتى فقلت متى الوصل ياسادتى

فقالوا قريب قريب قريب

وهو وإن لم يكن فى ذروة البلاغة فقد ذكرته لأنه مطروق بالمغرب عند أهل التلاحين وغيرهم .

من نثر أبى نصر الفتح ابن خاقان

ولنذكر بعض نص خطبة المطمح ، قال رحمه الله تعالى فيه : أما بعد حمد الله الذى أشعرنا إيمانا وإلهاما ، وصير لنا أفهاما ، ويسر لنا برود آداب ، ونَشَرَنا[1] للانبعات لإثباتها والانتداب ، وصلى الله على سيدنا محمد الذى بعثه رحمة ، ونبأه منة منه ونعمة ، وسلم تسليما ، فإنه كان بالأندلس أعلام ، فتنوا بسحر الكلام ، ولقوا منه كل تحية وسلام ، فشعشعوا البدائع ورَوَّقوها ، وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها ، ثم هَوَوْا فى مهاوى المنايا ، وانطووا بأيدى الرزايا ، وبقيت مآثرهم الحسان ، غير مثبتة فى ديوان ، ولا مجملة فى تصنيف تجتلى فيه العيون ، وتجتنى منه زهر الفنون ، إلى أن أراد الله تعالى إظهار إعجازها ، واتصال صدورها بأعجازها ، فحلت من الوزير أبى العاصى حكم بن الوليد عند من رَحَّبَ وأَهَّلَ ، وأَعَلَّ بمكارمه وأنهل ، وندبنى إلى أن أجمعها فى كتاب ، وأدركنى من التنشط إلى إقبال ما نَدَب إليه ، وكتابة ما حث عليه ، فأجبت رغبته ، وحليت بالإسعاف لبَّتَه ، وذهبت إلى إبدائها ، وتخليد عليائها ، وأمْلَيْت منها فى بعض أيام ، ثلاثة أقسام : القسم الأول يشتمل على سَرْد غرر الوزراء ، وتناسق درر الكتاب والبلغاء . القسم الثانى : يشتمل على محاسن أعلام العلماء ، وأعيان القضاء والحكماء . القسم الثالث : يشتمل على ذكر محاسن الأدباء ، النوابغ النجباء ، انتهى .

وهذه خطبة المطمح الصغير ، وأما الكبير والأوسط فضمنهما ذكر الملوك

---

(١) فى ب « ونشرت للانبعاث لإثباتها والانتداب » وأثبتنا ما فى المطمح ، والنشر فى الأصل ضد الطى ، والمراد به أثارنا لهذا العمل وحرك همتنا له .

والسلاطين حسبما نقلنا بعضه فيما مر من هذا الكتاب ، على أننا نقلنا بعضا من الصغير أيضا ، فليعلم ذلك من يقف على هذا الكتاب ، ومن له أدنى ممارسة ، وليراجع من الترجمة الفرقَ بين كلامه فى الصغير وغيره ، وبالجملة فما رأيت ولا سمعت أحلى من عبارة الفتح رحمه الله تعالى فى تحلية الناس ، ووصف أيام الأنس ، وليس الخبر كالعيان ، وقد سردنا بعض كلامه فى القلائد وفى المطمح .

عود إلى ذكر الموشحات

ولنرجع الآن إلى ما كنا بصدده من أمر التوشيح فنقول :

موشحة ابن سهل

وتمام موشحة ابن سهل التى عارضها لسان الدين هو قوله :

هل درى ظبى الحمى أن قدحمى ... قلبَ صب حله عن مكنس

فهو فى حَرٍّ وخَفْقٍ مثل ما ... لعبت ريح الصبا بالقَبَسِ

يا بدورا أطلعت يوم النوى ... غررا تسلك فى نهج الغرر

ما لقلبى فى الهوى ذنب سوى ... منكم الحسن ومن عينى النظر

أجتنى اللذاتِ مكلومَ الجوى ... والتذاذى من حبيبى بالفكر

كلما أشكوه وجدا بسَماَ ... كالربا بالعارض المنبجس (١)

إذ يقيم القطر فيها مأتما ... وهى من بهجتها فى عُرُسِ

غالب لى غالب بالتؤده ... بأبى أفديه من جاف رقيق

ما رأينا مثل ثغر نَضَّدَهْ ... أقحوانا عصرت منه رحيق (٢)

أخذت عيناه منه العربَدَهْ ... وفؤادى سكره ما إن يفيق

فاحم الجمة معسول اللمى ... أكحل اللحظ شهى اللعَسِ (٣)

وجهه يتلو الضحى مبتسما ... وهو من إعراضه فى عبس

(١) الربا : جمع ربوة ، وهى المكان المرتفع ، والعارض : السحاب ، وأراد به المطر ، والمنبجس : المتفجر بالماء ، يريد ابتساما كابتسام الربا عند نزول المطر عليها .

(٢) الرحيق : الخمر ، شبه ريقه بها .

(٣) الجمة ـ بضم الجيم ـ مجتمع شعر الرأس ، واللمى ـ بالفتح مقصورا ـ الريق ، واللعس ـ بفتح اللام والعين ـ سواد فى الشفة ، وهو مما يستحسنه العرب .

أيهـا السائل عن ذُلّى لديه لى يجنى الذنب وهو المذنب
أخذت شمس الضحى من وجنتيه مشرقا للصب فيـه مغرب
ذهبت أدمع أجفانى عليـه وله خـد بلحظى مذهب
يطلع البدر عليـــه كلما لاحظته مقلتى فى الخُلَسِ(١)
ليت شعرى أى شىء حَرَّمَا ذلك الوردَ على المغــترس
كلما أشكو إليه حُرَقِى غادرتنى مقلتـــاه دنِفا(٢)
تركت ألحاظه من رَمَقِى أثر النمـل على صُمِّ الصفا(٣)
وأنا أشكره فـيما بقى لست ألحـاه على ما أتلفا
فهو عنـدى عادل إن ظلما وعذولى نطقـه كالخرس
ليس لى فى الحب حكم بعدما حل من نفسى محل النَّفَسِ
منه للنار بأحشائى اضطرام يلتظى فى كل حين ما يشا
وهى فى خديه برد وسلام وهى ضر وحريق فى الحشا
أتقى منـه على حكم الغرام أسَـدَ الغاب وأهواه رَشَا
قلت لما أن تبدى معلما وهو من ألحاظه فى حَرَسِ
أيها الآخذ قلبى مغـنما أجعل الوصل مكان الخُمُسِ

بعض أهل المغرب يعارض ابن سهل

وقد عارض هذا الموشح أيضا بعض متأخرى المغاربة فقال :

يا عُرَيْبُ الحى من حى الحمى أنتم عيـدى وأنتم عرسى
لم يحل عنكم ودادى بعد ما حُلتمُ لا وحيـاة الأنفس
من عذيرى فى الذى أحببته مالك قلبى شـديد البرحا
بدرتم أرسلت مقلتـه سهم لحظ لفؤادى جـرحا
إن تبدى أو تثنَّى خلته غصن بان فوقه شمس ضحا

---

(١) الخلس : جمع خلسة ـ بالضم ـ وهى الاسم من « اختلس فلان الشىء » إذا أخذه فى نهزة ومخاتلة . (٢) دنفا ـ بفتح فكسر ـ مريضا .
(٣) الصفا : جمع صفاة ، وهى الصخرة الملساء

تَطْلُعُ الشمس عشاء عندما تنجلى منه بأبهى ملبس
وترى الليل أضا منهزما وترى الصبح أضا فى الغَلَسِ (١)

يا حياة النفس صِلْ بعد النوى وَالِهاً مُضْنًى شديد الشغف (٢)
قد براه السقم حتى ذا الهوى كاد أن يُفْضِى به للتلف
آه من ذكر حبيب باللوى وزمان بالمنى لم يسعف

كنت أرجو الطيف يأتى حلما عائدا يا نفس من ذا فايأس
هل يعود الطيف صبا مغرما ساهرا أجفانه لم تنعس

هِمْتُ فى أطلال ليلى وأنا ليس فى الأطلال لى من أرَبِ
ما مرادى رَامَةٌ والمنحنى لا ولا ليلى وسعدى مطلبى
إنما سؤلى وقصدى والمنى سيد العجم وتاج العرب

أحمد المختار طه من سما الشريف ابن الشريف الكَيِّسِ
خاتم الرسل الكريم المنتمى طاهر الأصل زكى النفس

وقال فى مباراة هذه الموشحات السابقة :

لا تلمنى يا عذولى تأثما ماترى جسمى بسُقْم قد كُسى
مثل ما شرح غرامى علما حيث أشكو وحشة من مؤنس

ظبى أنس عن فؤادى نفرا وفؤادى مكتو من صده
وعذولى فى هوى الحب فرَى بملام مذنهى عن وده
أنت أعمى يا عذولى ما ترى يانع الورد بدا من خدّه

وله ثغر إذا ما ابتسما كبروق أو مَضَتْ فى الغلس
وثناياه كدُرٍّ نظما فضياها فى الدجى كالقبس

---

(١) أضا : أصله « أضاء » فحذف الهمز حين اضطر ، وعامله معاملة الممدود ، وهذه ضرورة أخرى .

(٢) الواله : الوصف من الوله ـ بفتح الواو واللام جميعا ـ وهو الحيرة من شدة الحب

كم ترى سحرا بجفنيـه بدا لفؤاد فى الهوى أضحى كَلِيمْ[(١)]
ليس سحر مقلتى هـذا سدى يافؤادى إن شفى السحر السقيم
خيفة أوجسَ قلبى وغـدا راحلا صبرى وهاشوقى مقيم

يا إله العـرش يارب السما يا عليما بضـمير الأنفس
قلبىَ الولهان يشكو ألما من جفَاظبى أغنّ أكيس

أُغَيـدٍ يسبى البرايا بالمقل أدعج الجفن بعينيه حَـوَرْ
لورأته الشمس أضحت فى خَجَلْ وهو للبـدر بوجه قد قمر
من معانى حسنه رَقّ الغزل فى غزال قد غزانى بالنظـر

آخـذ بالروح منى كُلَّمَا رمق الصب بطرف أنعس
يقنص الأسد بلحظٍ قد رمى أسهما تفتك من غير قِسِى

يا رعى الله زمانا سلفـا بلويلات تقضَّتْ بانشراح
مثل دينـار وها قد صرفا فى ألذ العيش مع حب وراح
فاعذروا القلب الذى قد شغفا بحبيب ماله عنـه بَرَاحْ

بدر تم أهيف حـلو اللمى ريقـه شهد شهى اللَّعَسِ
كسُلَاف عهـدها قد قدما تنجلى فى كأسها كالعرس

قهوة بكر عجـوز عتقت زمنا فى دنها من قبل نوح
هى لما فى زجاج أشرقت شمس راح غَرَبَتْ فى كل روح
جددت بسطا وكم قد مزقت قلبَ صب فى غَبوق وصَبوح

حلف الخمـار عنها قسما أنها بالمكث كادت تنقسى
فاسقنى صِرْفاً ولا تمزج بما راحة كم أذهبت من عبس

(١) وقع فى ب « لفؤادى فى الهوى » وهو بدون ياء المتكلم أرق وأدق ، وقد وقف على « كليم » المنصوب بالسكون ، على لغة ربيعة ، ولغة الجمهرة من قبائل العرب أن يوقف على المنصوب المنون بالألف ، فيقال « أضحي كليما » .

في رياض قد شدا شحروره عاطفها بين أكناف الشجر (١)
وانظم الشمل ودع منشوره حول ورد وأقاح وَزَهَرْ
وإذا الطل بدا شبوره كلل الأوراق منه بالدرر

ما ترى الريحان عبدا خدما حيث أضحى واقفا فى المجلس
جلس النسرين لكن ربما اسْتَحَتْ منه عيونُ النرجس

فتنزه فى رياض خضر وغصون غرّدت فيها هزار
وانتشق عرف زهور عطر ياسمين زينته الجلنار
وشذا الزهر كمسك أذفرِ واقبل العذر لابن البزددار

طامع فى رحمة الله وما خاب عبد طامع لم ييأس
يا إلهى جد علينا كرما يا كريما قبل أخذ الأنفس

رجع إلى مُوَشَّحات ابن الخطيب .

موشحة للسان الدين

قال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى : ومما قلته من الموشحات التى انفرد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها :

رب ليل ظفرت بالبدر ونجوم السماء لم تدر
حفظ الله ليلنا ورعى أى شمل من الهوى جمعا
غفل الدهر والرقيب معا ليت نهر النهار لم يجر
حكم الله لى على الفجر

علل النفس ياأخا العرب بحديث أحلى من الضَّرَبِ
فى هوى مَنْ وصاله أربى كلما مرّ ذكر مَنْ تدرى
قلت يا برده على صدرى

(١) شدا : غنى ، والشحرور — بزنة العصفور — طائر أسود فويق العصفور يحبس لحسن صوته ، ويقال له « شحور » أيضا ، وعاطفيها : اسقفيها ، وأكناف الشجر : نواحيه وجوانبه ، واحدها كنف ، بالتحريك .

صاح لا تهتمم بأمر غـد   وأجز صَرْفَهَا يداً بيد[(١)]
بين نهر و بلبل غـرد   وغصون تميل من سُكْرِ
أعلنَتْ يا غمامُ بالشكر

يا مرادى ومنتهى أملى   هاتها عَسْجَدِية الحلل
حلت الشمس منزل الحَمَلِ   و برودُ الربيع فى نَشْرِ[(٢)]
والصَّبَا عنبرية النَّشْرِ[(٣)]

غرة الصبح هذه وضحت   وقيان الغصون قد صَدَحَتْ
وكأن الصبا إذا نفحت   وهفا طيبها عن ا َصْر
مدحة فى علا بنى نَصْر

هم ملوك الورى بلا ثُنْيـا   مهدوا الدين زينوا الدنيا
وحمى الله منهم العَلْيَـا   بالإمام المرفَّعِ الخَطْـــر
والغمام المبارك القَطْر

إنما يوسف إمام هُدَى   حاز فى المعلوات كل مَدَى
قل لدهر بملكه سـعدا   افتخر جملةً على الدهر
كافتخار الربيع بالزهر

يا عماد العَلَاء والمجـد   أطلع العيدُ طالع السعد
ووفى الفتح فيـه بالوعد   وتجلت فيه على القصر
غُرَرٌ من طلائع النصر

فتهنأ من حسنه البَهِـجِ   بحيـاة النفوس والمهج
واستمعها ودع مقال شجى   قسما بالهوى لذى حِجْر
ما لِلَيْلِ المَشُوق من فجر

---

(١) يدا بيد : أى مقابضة لا يتأجل فيها أحد البدلين .
(٢) النشر ، هنا : ضد الطى ، من قولهم « نشر ثوبه » مثلا .
(٣) النشر ، هنا : طيب الرائحة .

ومن بديع موشحات لسان الدين رحمه الله تعالى قوله :

كم ليوم الفراق من غُصَّه　　فى فؤاد العميـــد[1]
نرفع الأمر فيه والقصـــة　　للولى الحميـــد

رحل الركب يقطع البِيدَا　　بسفين النياق
كل وَجْنَاً تتلع الجيـدا　　وتبــذُّ الرفاق
حسبت ليـلة اللقا عيدا　　فهى ذات اشتياق
صائمات لا تقبل الرُّخصه　　قبل فطر وعيـد
فهى مذ أمّته مختصه　　بجهاد جهيـد

ومنه فى آخره :

يا إمام العــلاء والفخر　　ذا السنا المبهج
ها كَهَا لا عدمْتَ فى الدهر　　آمــلا يرتجى
عارَضَتْ قول بايع التمر　　بمقــال شجى
غربوك الجمال يا حفصه　　من مكان بعيـد
من سجلماسة ومن قفْصَه　　وبلاد الجـريد

لسان الدين يؤلف كتابا فى الموشحات ويذيل عليه القشتالى

وقد ألف ـ رحمه الله تعالى! ـ فى هذا الفن كتابه المسمى بجيش التوشيح ، وأتى فيه بالغرائب ، وذيل عليه صاحبنا وزير القلم بالمغرب العلم الشهير المنفرد فى عصره بحيازة قصب السبق فى البلاغة سيدى عبد العزيز بن محمد القشتالى ـ رحمه الله تعالى! ـ بكتاب سماه « مَدَد الجيش » واستهله بقوله : حمدا لمن أمدَّ جيش محمد بعترته ، وأتى فيه بكثير من موشحات أهل عصرنا من المغاربة ، وضمنه من كلام أمير المؤمنين مولانا المنصور أبى العباس أحمد الشريف الحسنى ـ رحمة الله تعالى

(١) الغصة ــ بضم الغين وتشديد الصاد ــ الشرق ونحوه ، ويراد منها هنا الضيق ، والعميد : فعيل بمعنى مفعول ، تقول « عمده الحب » أى أضناه وأوجعه وفدحه

ورضوانه عليه !ـ ما زاده زَيْنًا ، وأخبرنى ـ رحمه الله تعالى !ـ أنه ذكر فيه لأهل العصر فى أمير المؤمنين ولأمير المؤمنين المذكور أزيد من ثلثمائة موشح ، ولا حرج فى إيراد بعضها هنا ، فمنها قولُ أحد الوافدين من أهل مكة على عَتَبة السلطان مولانا المنصور ، وهو رجل يقال له « أبو الفضل بن محمد العقاد » وقد عارض بها موشَّحتى لسان الدين وابن سهل السابقتين :

موشحة ابن العقاد

ليت شعرى هل أروّى ذا الظما — من لَمَى ذاك الثُّغَير الألعس [1]
وترى عيناى ربّات الحمى — باهيات بقُدُودٍ مُيَّسِ [2]

يُدْخلون السُّقْم من دار اللوى — كَلَم الهجر فؤادى وأسر
هد من ركن اصطبارى والقوى — مبدلا أجفان نومى بالسهر
حين عز الوصل عن وادى طوى — هملت أعين دمعى كالمطر

فعساكم أن تجودوا كرما — بلقاكم فى سواد الحِنْدِسِ
وتداووا قلب صب مغرما — من جراحات العيون النعس

كلما جن ظلام الغسق — هزنى الشوق إليكم شغفا
واعترانى من جفاكم قلقى — مذ تذكرت جيادا والصفا
وتناهت لوعتى من حُرَقى — ثم زاد الوجد فىّ التلفا

فانعموا لى ثم جودوا لى بما — يُطْفِ نيران الجوى ذى القبس
ساعة لى من رضاكم مغنما — وتداوى جنتى مع نَفَسى

كنت قبل اليوم فى زهووتيه — مع أحبابى بسلع العسب
ومعى ظبىٌ بإحدى وجنتيه — مشرق الشمس وأخرى مغرب
فرمانى بسهام من يديه — ضارب البين فقلبى متعب

(١) اللمي ـ بفتح اللام مقصورا ـ الريق ، والثغير ـ بزنة التصغير ـ مصغر ثغر ، وهو الفم ، والألعس : الوصف من اللعس ، بالتحريك ، وهو سمرة الشفة

(٢) القدود : جمع قد ، وأراد القامة ، والميس ـ بتشديد الياء ـ جمع مائس ، وهو المتبختر

لست أرجو للقاهم سلما غير مدحى للامام الأرأس
أحمـد المحمود حقا من سما الشريف ابن الشريف الكيس

موشحة لبعض أهل مراكش

ومنها قول بعض المراكشيين :

واخَجْلتا للصَّـبَاحِ والشمس إذ لاح جؤذر[١]
ساقٍ يدير الكؤسا تضىء حمرا وتزهر
تقادمت فى الدنان من عهد نوح تروّق
فى لونهـا البهرمانى تدار فينا وتعبـق
قد أطلعت من عنان من عن صَبُوح يرقق
يسعى بها من ملاح مَنْ كان باللحظ يسكر
بالحسن يصبى الجليسا ويستخف الموقـر
يثير كامنَ وجـدٍ فى قلب كل سقيم
يسطو علينا بقـد يزرى بغصن قويم
أشـقى بعشقى ووُدِّى فى جنـة ونعيم
من ذى الوجوه الصباح ياشـادنا غنّ واذكر
وهات لحنا نفيسـا نرويه عنـك ونأثر
فى مدح من ساد طفـلا هـذى البرايا وفاقا
من حاز مجدا وفضـلا بين الأنام وفاقا
فى عـدله قال قولا يسرى فيعـدو العراقا[٢]
فى أحمـد ذى السماح فى الشرق والغرب ينصر
أحيا الهدى والنفوسـا وذل مـلة قيصر

(١) الجؤذر — بضم الجيم وسكون الهمزة — ولد المها

(٢) يعدو العراق : يجاوزه ، وكني بهذا عن سرعة نفاذ قوله

تراه سلماً وحربا من رأيه فى جنود[١]
يختال لم يبغ عجبا من عزه فى برود[٢]
يهوى المعالى كسبا ويقتنيها بجود

فخار أهل البطاح وعز من قد تمصَّرْ
ثناه يملا الطروسا عن صورة المجد عبر

ملك بنى فى البديع منازلا كالدرارى
فيا له من صنيع الروض والماء جارى
وقل بصوت رفيع إذ بان فجر النهار

أهدى نسيم الصباح مسكا شميما وعنبر
وجىء بها خندر يسا من خد ساقيه تعصر

موشحة للسلطان المنصور

ومن موشحات السلطان المنصور المذكور :

ريان من ماء الصبا أهيف وممتلى البرد

كالغصن هزته الصَّبَا فوق الربا الشهب
قد قلت لما أن سَبَى بحسنه يسبى
من عينه سَلَّ ظُبَا وغمدها قلبى[٣]

أسرنى ماضى الشبا أوْطَف مرنح القد

يا فاضح الروض سنى ومخجل البدر
وقاطعى ظلما عنا ومَنْ مقره صدرى
ألم تكن شمس دُنَا فإنها تجرى

علقته من الظبا أسجف يسطو على الأسد

---

(١) يريد أن له جنودا يعاونونه من رأيه

(٢) البرود : جمع برد ــ بالضم ــ وهو فى الأصل الثوب

(٣) الظبا : جمع ظبة ــ بضم الظاء ــ وهى حد السيف ، شبه ألحاظه بها

قلت له وقد نَهَدْ وجَدَ فى حـــربى
وغَلَبَ الظبىُ الأســد وفاز بالغلـــب
الشمس بُرْجُهَا الأســـد فاســـعى إلى قلبى

ولم يحضرنى الآن تمامها .

موشحة أخرى للسلطان المنصور

ومنها قوله يعارض لسان الدين وابن الصابونى :

وليالى الشعور إذ تسرى ما لنهر النهار من فجـــر
حبذ الليل طال لى وحدى لو ترانى جعلتـــه بردى
فاطميًّا فى خلعة الجعدى هى ليلى أخت بنى بشر
فأين أنت يا أبا بدر

كم سقطنا ألطف من طَلِّ واجتمعنا وما درى ظلى[1]
واسترحنا من كاشح نذل رب ليل ظفرت بالبـــدر
ونجوم السماء لم تدر

وبنفسى مهفهف ألْمى ومطيع قد غرنى لما[2]
سألتـــه وقانعى ممــا فى رباط قسمتنى صدرى
لحنين وناظرى بدر

وهلال فى حسنه اكتملا هو شمس وأضلعى الحملا
قام يشدو يفثنى فى مـــلا قسما بالهوى لذى حِجْر
ما لليل المشوق من فجر

ثم عنّ لنا أن نورد هنا جملةً من مقطوعات مولانا السلطان المنصور مما تلقيناه عنه أيام كوننا فى إيالته الشريفة ؛ فمن ذلك قوله راداً على من قال فى ابن أبى الحديد :

---

(١) الطل – بفتح الطاء وتشديد اللام – خفيف المطر ، وأراد به الندى
(٣) الألمى : الأسمر باطن الشفة ، وهى صفة محمودة عند العرب

من مقطعات السلطان المنصور

لقد أتى بارداً ثقيلا ولم يرث ذاك من بعيد
فهو كما قد علمت شيء أشهر ما كان فى الحديد

ما صورته :

لقد أتى صارما صقيلا ولم يرث ذاك من بعيد
شديد بأس متى يعادى وشدة البأس فى الحديد

ومن نظمه قوله :

لله تمــــــر طيب وافى على البشرى انطوى
يا حسنــــه مجتمعا يحلو لنــــا بلا نوى(١)

وقوله معميا فى قمر على طريقة الاكتفاء :

معذبى أعجزنى نيـله من لى بمن مسكنه فى السما
لم أنس إذ قال ألا تكتفى قلت بمن بالطرف قلبى رمى

وقوله:

تبدى وزند الشوق تقدحه النوى فتوقد أنفاسى لظاه وتضرم
وهَشَّ لتوديعى فأعرضت مشفقا على كبد حَرَّا وقلب يقسم
ولولا ثواه بالحشى لأهنتها ولكنها تعزى إليه فتكرم
فأعجب لآساد الشرى كيف أحجمت على أنه ظبى الكناس ويقدم

وقال قدس الله تعالى روحه موريا :

إن يوما لناظرى قد تبدى فتملَّى من حسنه تكحيلا
قال جفنى لصنوه لا تلاقى إن بينى وبين لقياك ميلا

وقد تبارى خُدَّام حضرة هذا السلطان فى تخميس هذين البيتين ، ومن أشهر ذلك

---

(١) فى هذا البيت تورية ، والمعنى القريب هو نوى التمر ، والمعنى البعيد — وهو المقصود — البعاد

قول الأستاذ الحافظ سيدى أحمد الزمورى رحمه الله تعالى ، وكان يصلى بالسلطان التراويح :

ورقيب يردد اللحظ ردا ليس يرضى سوى ازديادى بُعْدَا
ساه الطرف مذجنى الخدوردا إن يوما لناظرى قد تبدى
فتملَّى من حسنهِ تكحيلا

وتصدى من فحشه فى استباق يمنع اللحظ من جَنًى واعتناق
أيأس العين من لحاظ ائتلاق قال جفنى لصنوه لا تلاقى
إن بينى و بين لقياك ميلا

ومن نظم السلطان المذكور ، وهو من أوّليات شعره قوله فى وردة مقلوبة بين يدى محبوبه :

ووردة شفعت لى عند مرتهِنِى راقت وقد سجدت لفاتر الحدق
كأن خضرتها من فوق حمرتها خال على خده من عنبر عَبِقِ(١)

وقال أيضاً من أوّلياته :

شادن نَمَّ عليـــه عَرْفُه من خلاصى من سهام كامنه
أحلال فيـــه أنى خائف وحلالى بعـد خوفى آمنه

وقال فى وصف رقيب ملازم :

رقيبى كأن الأرض مرآة شخصه فأين تَوَلَّى الطرف منى يراه
مقيم بوجه الوصل حتى كأنما وصالى هلال والسواد صداه

وقال :

أيا روضة ضنت على بزهرها ولم يتلق ناظراى سـواك

---

(١) الخال : نكتة يخالف لونها لون سائر الجسد ، وتكون سمراء فى الخد الأبيض ولهذا يشبهونها بالمسك ، والعبق — بفتح فكسر — ذو الريح الطيب .

أبيحى لنفسى من شذاك بقاءها إذا فت طرفى عل الأنف يراك

وقال أيضاً :

على جدْول غطت عليه بشعرها لئلا يرى الشمس الرقيبة لى طرَفْ
فبتُّ أرى فى جدول بدر وجهها غريقا ونقطات العبير به كلَفْ

وقال :

طرقت حِماهُ والأسود خوادر به فتولَّى بالظُّبا وهو يبعد
فعلمت آساد الشرى كيف تقدم وعلم غزلان النقا كيف تشرد

وقال :

لما نأى المحبوب رق لىَ الدجى وأتى يعللنى برَعْى كواكبه
أولى غراب البين ردك يا حشا والبين مُزْنِيُّ الصباح كواكبه

وقال معمِّيا باسم حَظِيته الشهيرة الحسن والإحسان « نسيم » .

يا هلالا طلوعه بين جفنى وغزالا كِناسه بين جنبى(١)
إن سهما رمَيْتَ غادر همًّا لو تناهى ما شك آخر قلبى(٢)

ورأيت بخطه على هذا المحل ما صورته : قولى «إن سهما» تنصيص ، و«غادرهما» إسقاط ، وهو إشارة لإسقاط «هما» من هذا الاسم ، وقولى « لو تناهى » انتقاد ، والانتقاد : الإشارة إلى بعض أجزاء الكلمة ليؤخذ جزء الاسم المطلوب ، كأن يذكر الوجه أو الصدر أو التاج أو الرأس ، ويعنى به الحرف الأول من الكلمة ، والقلب والجوف والحشا والخصر ، ويراد به الوسط ، والآخر والمنتهى والختام ، ويقصد به آخر الكلمة ، فقولى « لو تناهى » معناه أنه أخذ لفظة هم غير متناه ، فبقيت الميم من هما ، وقولى « ما شك آخر قلبى » انتقاد أيضاً ، وأردت بآخر

---

(١) الكناس — بالكسر ، بزنة الكتاب — مسكن الظباء

(٢) شك آخر قلبى : أصابه .

قلبي الياء ، ويسمى أيضاً التسمية ، وهو : أن تذكر الاسم وتريد المسمى ، أو تذكر المسمى وتريد الاسم ، وقد تم الاسم .

واعلم أنهم لم يشترطوا فى استخراج الاسم بطريق التعمية حصولها بحركاتها وسكناتها ، بل اكتفوا بحصول الكلمة من غير ملاحظة لهيئاتها الخاصة فإذا وقع ذلك فمن المحسنات ، ويسمى العمل التذييلى ، انتهى كلامه على البيتين فى اسم نسيم .

وقال فى اسم «غزال» وقد جمع تعميتين ولغزاً :

وأَمْلَدَ مطوى الحشا زال ردفه ... فلاخصر إلا أن [ذا لم يكن وصما][1]

بنصف اسمه يرمى القلوب وعكس ما ... بقى أبداً إذن المحب به أصمى

وكتب عليه ما صورته : قولى «أملد» أردت به بعمل الترادف غصن ، و « مطوى الحشا » انتقاد ، و «زال ردفه» قضيت به غرضين ، أزلت به النون بعمل الإسقاط الباقى بعد طى الصاد التى بوسطه ، وأثبته ــ أعنى «زال» ــ فى موضعها : أى النون من غصن ، والحال أن الصاد محذوفة ، وذلك بعمل الانتقاد ، وأوضحت ذلك بقولى « فلاخصر » وإن كنت لا أحتاج إليه ، لئلا يكون فى البيت شىء خارج عن التعمية ، انتهى تفسيره ، رحمه الله تعالى ! .

ويعنى بقوله « بنصف اسمه يرمى القلوب » غز ؛ لأنه نصف غزال ، ويعنى بقوله « وعكس ما بقى إلى آخره » لفظة «لا» لأنها مقلوب ما بقى وهو أل .

وقال فى اسم «سلاف» على منهاج ما تقدم .

وأحْوَرَ وَسْنَانَ الجفون كأنما ... سقى لَحْظَه من ريق فِيهِ بقرقف

نضا صارما لا فُلَّ صارمه لحظه ... تزايد فيه منــــذ سل تلاه فى

وفسره بقوله : قولى « تلاه » من طريق التسمية ، و « فى » من العمل التذييلى

---

(١) الأملد : الناعم من الناس والغصون ، ومطوى الحشا : ضامر البطن ، وهو مما يتمدحون به ، والوصم — بالفتح — العيب ، وقد سقط ما بين المعقوفين من أصلى ب ، وأثبتناه تبعا لناشرها .

وهو أن يأتي بالكلمة بحركاتها أو سكناتها ، وهي من المحسنات كما سبق .

وقال في اسم « آمنة » من التعمية أيضا :

من شقائي قنصتيه وهو خَشْفٌ في رضاه عن الملوك ابتذلْتُ[1]

أملد منه مذ تحلل خصر وتثني عن حبه ما عدلت

وكتب عليه ما صورته : قولي « أملد » أردت الألف بعمل التشبيه ، و « خصر منه » انتقاد ، وأردت بالخصر وسط لفظة « منه » وتحلله : أن ينحل منه السكون الذي على النون ، وقولي « وتثني » أي الألف من التثنية ، لا التثني ، فتم الاسم بحركاته وعدده ، انتهى تفسيره .

وقال وقد لبس منصورية من النوع الذي يقال له «قلب حجر» والمنصورية : نوع لبس معروف بالمغرب استخرجه السلطان المذكور وأضافه إلى اسمه :

وصَفُوا اشتياقي للحبيب وسَرَّهم قول الحبيب أنا أنا فيه

قلبي له حجر ، فقلت مغالطا للعاذل المؤذي أنا فيه

قال : وفي هذين البيتين عدة من المحسنات غير التعمية : منها جناس التركيب المسمى بالملفق ، وحَدُّوه : بأن يكون كل من الركنين مركبا من كلمتين ، وهذا هو الفرق بينه وبين المركب ، وقَلَّ مَنْ فرق بينهما ، ومنها الانسجام ، ومنها الاستخدام .

وعهدي بالفقيه علي بن منصور الشيظمي تعرض إلى شرحهما في كراسة .

والتعمية في هذين البيتين بالعمل الحسابي وهو كثير ، إلا أن هذا العمل أحسبني أبا عذرته إذ لم أره لغيري ، ومادة التعمية فيه « أنا أنا فيه ، قلبي له حجر » فقولي «أنا أنافيه» معناه أن تضرب « أنا » في ه ، وقولي « في ه » نص في الضرب ،

---

(١) قنصته : صدته ، والخشف — بسكون الشين وتثليث الخاء المعجمة — ولد الظبية .

ويخرج من هذا مائتان وستون عدد حروف هيمانى وحقك ى ، وقولى « قلبى له حجر » بعمل القلب يصير «رجح» فصار المجموع « هيمانى وحقك يرجح » ، وفيه التورية ، و«هيمانى وحقك» الخارج من هذا الضرب فيه تهكم بالواشى ، فهو من المحسنات أيضا ، أعنى قوله «وحقك» ويصلح أن تسمى هذه التعمية بالافتتان ، لأن الافتتان عندهم : أن يفتن الشاعر فيأتى بفنين متضادين من فنون الشعر فى بيت واحد ، وهذا وقع التضاد فيه فى كلمة واحدة ، فظاهر « أنا أنافيه » يضاد « هيمانى وحقك يرجح » الذى يخرج بطريق الحساب ، فافهمه ، ويمكن استخراج تعمية أخرى من قولى للعاذل المؤذى « أنافيه » انتهى .

والاستخدام الذى أشار إليه هو فى قوله « أنا فيه » أى فى هذا الثوب المسمى بقلب حجر ، كما دلت عليه الحكاية ، وأما المعنى الثانى لقوله «أنا فيه» فظاهر .

وقال وقد قطف وردة من روض المسرة فى زمن النرجس :

وافى بها البستان صنوك وردة ... يقضى بها لما مَطَلْتَ وعودا
أهدى البَهَار محاجراً وأتى بها ... فى وقته كيما تكون خدودا
فبعثتها مرتادة بنسيمها ... تثنى من الروض النضير قُدُودا

وقال :

لى حبيب يأتى بكل غريب ... هو عندى مُنَكَّر ومعرف
لست أشكو لصيرفى ونحوى ... إنه بى نحَا وفىَّ تصرف
فعله فىَّ لازم متعد ... ومزيد مجرَّد ومضعف

وقال :

لا وطيفٍ علم السيف فقد ... فى قوام كقَنَا الخط نَهَدْ[1]

---

(١) القوام — بالفتح كسحاب — القامة ، والقنا : جمع قناة ، وهى الرمح ، وإضافة الرمح إلى الخط الذى هو مرفأ بالبحرين لأنه موطن ابتياعها ، ونهد : ماض من باب فتح : أشرف

ووميض لاح لمـــا بسمت فأرتْنا منــه دُرًّا أو بَرَدْ(١)

ما هلالُ الأفق إلاحاسـد منه حسنا وعَلَاء وغَيَــدْ(٢)

ولذا عاش قليلا ناحــلًا كيف لا يَفْنَى نحولا مَنْ حسد

وقد ضمن قوله « ما هلال الأفق » أديب زمانه الشيخ إمام الدين الخليلي الوافد على حضرته من بيت المقدس فقال :

قَسَما بالبيت والركن الذى طاب حجًّا واستلاما للأَبدْ

ما هلال الأفق إلا حاسد منه حسنا وعلاء وغيــد

وقد اتفق لإمام الدين هذا أنه اجتمع بالحضرة المنصورية ، هو والعقاد المكى السابق والشريف المدنى ، وهو رجل وافد من أهل المدينـة انتمى إلى الشرف ، فقال إمام الدين : يا أمير المؤمنين ، إن المساجد الثلاثة التى تُشَدُّ إليها الرحال شَدَّ أهلُها إليك الرحال : هذا مكى ، وذاك مدنى ، وأنا مَقْدِسى ، ثم أنشد :

إن أمير المؤمنين أحمـد بحر الندى وفضله لا يجحد

فطيبة ومـكة أهلهـــما والمسجد الأقصى بذاك شهدوا

رَجْع إلى نظم المنصور ، وقال :

وكيف بقلبٍ فى هواه مقلَّب وأنَّى له بين الضلوع مقام

فياشادنا يرعى الحشا أنت بالحشا أما لمحلٍّ أنت فيـه ذِمام

وقال يخاطب رئيس كتابه صاحبنا سيدى عبد العزيز القشتالى السابق الذكر :

يا كاتبـاً ألفـاظه تغرس روضاً ذا فنن

إن جوابى للذى يشكودناه أُردد حزن

---

(١) الوميض : اللمعان والبريق ، والبرد — بفتح الباء والراء جميعاً — حب الغمام

(٢) الغيد — بفتح الغين والياء جميعاً — لين الأعطاف .

وقال مُوَرِّيا بمصانِعِه الثلاثةِ : البديعِ ، والمسرةِ ، والمشتهى :

بستان حسنك أبدعت زهراته ولكم نهيت القلب عنه فما انتهى

وقوام غصنك بالمسرة يَنْثَنِي يا حسنه رمانة للمشتهى

ولولا خوف الإطالة المُمِلة لذكرت من محاسن مولانا أمير المؤمنين المنصور ـ رحمه الله تعالى ! ـ بعضَ ما أؤدى به حقه ، سقى الله تعالى عِهاده ! وقد بسطت الكلام على السلطان المذكور فى كتابى « روضة الآس ، العاطرة الأنفاس ، فى ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس » وأطال الكلام على ترجمته صاحبُنا الوزير الكبير الشهيد سيدى عبد العزيز بن محمد القشتالى فى كتابه المسمى « بمناهل الصفا ، فى فضائل الشُّرَفا » وعهدى به أكملَ منه ثمانَ مجلدات ، وهو مقصور على دولة السلطان المذكور وذويه ، وألف كاتبُ أسراره الرئيس أبو عبد الله محمد بن عيسى فيه كتابا سماه «الممدود والمقصور ، من سَنَا السلطان المنصور» وهذه التسمية وحدها مطربة ، رحم الله تعالى الجميع !

عود إلى التوشيح

رجع إلى التوشيح .

كتب إلىَّ بعضُ أذكياء الأصحاب الأعيان موشحا يمدحنى به فى آخره عارض به موشح لسان الدين السابق الذى أوله :

جادك الغيث إذا الغيث هَمَى يا زمان الوصل بالأندلس

ونصه :

عَطَّرَ الأرجاءَ لما نَسَمَا شَمْألٌ للصبح عند الغَلَسِ

وأتت شمسُ الضحى تنسخ ما يقرأ الليلُ لنا من عَبَسِ

طاف بالكأس من الزهر فَتَى مُولَع بالصد عنى مذ فَتِي[1]

---

(١) فتى يفتى — بوزن رضى يرضى — فتى ، وفتاء ، وفتوة : إذا صار فتى ، والمولع بالشىء : المغرم به .

فتن الألباب لما التفتا واحتسى منه ببعض الشفة[1]

وأنا ما بين حَتَّى ومتى صَدَّه تيهُ الهوى عن أُلفتى

وكؤوس الراح بين النُّدَمَا أرجت بالعرف أفق المجلس[2]

خمرة صفراء فى البلورما أشبه الحان بروض النرجس

بادرِ اللذة واجمع شملها بمدام وغلام مُطْرِبِ

ذى عيون ناعسات كم لها من فنون السحر ما يلعب بى

وافر الأرداف عانى حملها ناحِلِ الخصر، وذا من عجب

كلما أترع كأسا قال ما أنت بالشارى حياة الأنفس

فابذل الجهد وكن مغتنما لنفيس النفس طيب الأنفس

فُرَصُ الأيام كن منتهزا مبتداها قبل حذف الخبر

ورحاب الأنس لُجْ منتجزا قبل أن تمضى كلمح البصر

واجْنِ من زهر الهوى محترزا من جنايات هجوم الكبر

لا تخف لوما ويمم حيثما لاحتِ اللذات كالمختلس

ما مضى أنسٌ ووافى مثل ما كان ذا الدهر لنا بالحرس

للرياض اذهب ترى بُلْبلها لا شتياق الورد مثل الثكل

وخدود الورد قد كللها دمعُ طَلٍّ لاشتياق البلبل

وقدود البان قد قام لها مانع الوصل بحد الأسل

والربا فاحت تحاكى خدمَا وعليهن ثياب السندس

جيبها زرر بالزهر كما زر بالفضة ثوب الأطلسِ

(١) احتسى : شرب .

(٢) أرجت : تعطرت ، والعرف — بالفتح — طيب الرائحة .

وجلا الروض لنا أشجاره مائساتٍ فى قَبَاءٍ أخضر

وترى فى جيـدها نواره يتلألأ كعقودِ الجـوهر

خلع الليـل به أطماره فغـدا كالصبح باهى المنظر (١)

وبقاياهُ زهت فيـه أما فى شفاهِ الغيد حسن اللَّعَسِ (٢)

كعذار فى محيا علمـا فبدا للغير لا الملتمس

حبـذا الصبوة أيام الصبا وعيون الشيب فى سَهْوِ الوسن

فإذا أيقظها دهـرٌ صَبَا لصروف حـد شفريها وسن

جرد الشيب لنا بيض الشَّبَا واقتنى شرخ شَبَابٍ وظعن

وغدا الإنسان شيخا هرِما واعتراه لاعج من وجس

فات إذ مات فيقضى ندما واغتنام الوقت شغل الـكَيِّسِ

لا تدع عمرك يمضى هدرا أنت إذ ذاك جبان غافل

وارْقَ بالجهد من السؤل الذرا واجتهد والضرع ضخم حافل

إنما الأيام أمثال السرى والجرىء الشهم ليث باسل

ووحوش الإنس تسعى مغنما بارداً للأسـد المفـترس

ترك الوهم وخاض الظُّلَمَا وله العزمُ أضا كالقبس

ليس يحظى بالمنى إلا الذى كابَدَ الأهوال حتى ظفـرا

كان للراحة كالمنتبذ من وراء الظهر أنَّى ظهرا

مثل ماقد بات ذا طرفٍ قَذِى يقطع الليـل جميعا سهرا

فى طلاب العلم حتى علما أنه يملا بروح القـدس

---

(١) الأطمار : جمع طمر ـ بالـكسر ـ وهو الثوب البالى الخلق الرث .

(٢) اللعس ـ بالتحريك ـ سمرة فى الشفة .

أحمد الناصب فينا علما ... للتقى فاز به مَنْ يأتسى (١)
حَلَّ فى مصر وإن كان العلا ... قد عفت لما اعتراها فى خلل
ورياض الفضل لما أن علا ... نَقْعُ جهلٍ جف منهن البلل
ازدَرَتْ أغصانها حتى خلا ... قاعُهَا مِنْ عَذْب مايَشْفِى العلل
نفرت إذ حل فيها كالسما ... وهو بدر بكمال مكتسِ
حوله الطلاب كالشهب سما ... قدرها من نوره المقتبس
أيها الطالب للعلم اتئد ... ليس إلا بابه ينفعكا
إن ترم نَيْلَ المرجَّى فاجتهد ... فى اتباع للذى يرفعكا
علم من يعمل إكسير فزد ... منه واترك حاسداً يدفعكا
والزم الأعتاب وانزل بالحمى ... خالع الربقَةِ من قول المسى
باعتقاد فاز من قد لثما ... نعله والكبر شأن المُبْلِسِ (٢)
مذ خَبَرْتُ الناس طراً نظرا ... لمناط الأمر فى هذا الزمان
لم أجد إلا مقالا صدرا ... عن دعاوٍ أخلفت عند العيان
غير ما يمليه فانظر لترى ... دُرَرَ الألفاظ فى سِمْط البيان
ببديع النطق لما نظما ... بُهِتَ المنطيق مثل الأخرسِ
وأتى يخضع جمعُ العلما ... نحو ذا المفرد فى الملتمس
إنما المجد الرفيع الممتطى ... أرؤس الآساد قسراً مثل ذا
يَدَعُ المرفوع كالمنهبط ... ثم للنازل يعلى منفذا
ناظراً فى أمره بالأحْوَطِ ... خافض الطرف على حرّ القذى
كل من أم حماهُ قد حمى ... بحُسام العزم هش الملمس
فإذا جرد منه انفصما ... جَلْمد الصخر بذاك الميس

---

(١) يأتسيه : يقلده ويجعله أسوة له .

(٢) المبلس : المتحير الذى أصابته الدهشة .

حبذا المغرب قطراً بالسنا　فضله يَبْهر بَدْر الأفق[1]
قطره الشامخ قد أهدى لنا　سيدا قد فاق شمس المشرق
كل من فاتَتْه أسباب المنى　بعلاه للثريا يرتقى
قل لمن يَرْجو سوى المذكورما　ينبت الزهر بأرض اليبس
لا ، ولا النـاس سواء إنما　رأىُ مَنْ سوّاهم فى هوس

لُذْ بشهم فازمَنْ أمّـله　بنوال فاق سَحَّ الهامـل[2]
أثقـل السؤدد إذ حمله　وَقْرَ فضل مستبين شامل
وحمـاه الأمن من أمله　بلغ القصد فبشرى الآمل

بحره الوافر بالعلم طما　كامل الأمداد لم يحتبس
نال منه النـاس حتى عمما　مشرقا والغرب للأندلس

رجع إلى مُوَشَّحات لسان الدين بن الخطيب ، رحمه الله تعالى!

من موشحات لسان الدين

فمن المنسوب إلى محاسنه قوله :

قد حرك الجلجل بازى الصباح　والفجر لاح
فيا غراب الليل حُثَّ الجناح

وهذا مطلع موشح بديع له لم يحضرنى الآن تمامه ؛ لكونى تركته وجملة من كلام لسان الدين فى كتبى بالمغرب جبرها الله تعالى على ، وهو معارض للموشح الشهير الذى أوله :

بنفسج الليـل تذكى وفاح　بين البطاح
كأنه يسقى بمسك وراح

---

(١) يبهر : أراد يفوقه ويزيد عليه ، وحرفيته يصيبه بالبهر وهو الإعياء .
(٢) سح الهامل : انصباب المطر وانسكابه .

وهذا المنحى هو الذى سلكه الجمالُ ابنُ نُبَاتة إذ قال مادحا لجلال الدين الخطيب رحم الله تعالى الجميع :

ما سح محمرٌ دموعى وساح على الملاح
إلا وفى قلبى المعنَّى جراح
بى من بنى الأتراك حلو الشباب مُرُّ السَّطَا
عشقته حين عدمت الصواب من الخطا
تشكو حشا الغزلان منه النهاب إذا عطا
وربما تشكو الغصون اكتئاب إذا خطا
ما ماس ذاك الغصن بين الوشاح إلا وراح
قول عذولى كله فى الرياح
آها لصبٍّ دمعه حيث كان دمع أريق
هذا أسير فى وجوه الحسان وذا طليق
أرَّقَ جسمى بالضنا يوم بان بدر الفريق
فها أنا اليوم له يا فلان عبد رقيق
يزيد أجفانى ندى وارتياح نَهْىُ اللَّوَاح[1]
مثل جلال الدين يوم السماح
حبر له فى الخلق ذكر جميل لا يُفْتَرَى[2]
ماح على غيظ الغمام البخيل مَحْلَ الثرى[3]
ما رأت العين له من مثيل ولا تَرَى
يوقد فى أوطانه للنزيل نار القرى

(١) اللواح : جمع لاحية ، وهى اسم الفاعل المؤنث من « لحاه يلحاه » إذا لامه وعذله . (٢) لا يفترى : لا يخلق ولا يقال كذبا .

(٣) المحل : الجدب .

شرارها فى الكيس حمر صحاح لها اقتداح
لكنها فى القلب عذب قراح

يا مالك العلم وفيض الندى جزت المدى
فابق وكل العالمين الفدا دع العدا
أنت الذى أصبح غيث الجدا صبح الهدى (١)
كم يُقتفَى منك وكم يُقتدَى ويجتدى
علم أجلىّ ونوال صُرَاح صفو مباح
يروى به راوى الرجا عن رباح

ومغرم لا يختشى من رقيب ولا عذول
معلق القلب بشجو عجيب ولا وصول
يسكر لكن بصفات الحبيب لا بالشَّمُول (٢)
لما رنا الظبى وماسَ القضيب أضحى يقول
كم ينتضى جفنك وعطفك صفاح على رماح
ماذى محاسن ، ذى خزائن سلاح

موشحة لعثمان الملطى فى مديح القاضى الفاضل

ومن الموشحات الصادرة من المشارقة المعارضة للمغاربة قولُ عثمان الملطى يمدح القاضى الفاضل :

ويلاه من روّاغ بجوره يقضى
ظبى له إغذاذ منه الجفاحظى

ولم أقف على تمامها ، وقد بارى بها التوشيح المشهور للمغاربة ، وهو :

عقارب الأصداغ فى السوسن الغض

---

(١) الجدا ــ بفتح الجيم مقصورا ــ العطاء .
(٢) الشمول ــ بفتح الشين ــ اسم من أسماء الخمر .

تَسْبِي تُقَى من لاذ بالنسك والوعظ[١]

من قبل أن يعدو علىَّ لم أحسب
أن تخضع الأسد لجؤذر الربرب[٢]
ظبى له خد مُفَضَّض مذهب
وشادن يبدو فى صدغه عقرب

رقة زهر الباغ فى جسمه الفضى
وقسوة الأفلاذ فى قلبه الفظ

مهفهف بدع أصبحت مغرى به
قلبى له رَبْعُ لو كنت فى قلبه
أصابنى صدع مذلج فى عَتْبه
السهد والدمع حظىَ من قربه

والعين لا ينساغ لها جنى الغمض
والدمع ذو إغذاذ ناهيك من حظ

ومن أحسن ما للمشارقة من التوشيح قولُ الشهاب العزازى يعارض أحمد ابن حسن الموصلى :

موشحة للشهاب العزازى

يا ليلة الوصل وكأس العقار دون استتار
عَلَّمتانى كيف خلع العذار

اغتنم اللذات قبل الذهاب واشرب فقد طابت كؤس الشراب
تحكى ثغورها الثنايا العذاب

---

(١) تسبيه : تأسره ، والمراد تغلبه على أمره ، ولاذ بكذا : لجأ إليه .
(٢) الجؤذر : ابن البقرة الوحشية ، والربرب – بزنة جعفر – جماعة بقر الوحش

على خدود تنبت الجلنار ذات احمرار

طرزها الحسن بآس العذار

الراح لا شك حياة النفوس فحلِّ منها عاطلات الكؤوس

واستجلها بين الندامى عَرُوسْ

تُجْلى على خطابها فى إزار من النُّضار[١]

حَبَابُهَا قام مقام النثار[٢]

أما ترى وجه الهنا قد بدا وطائر الأشجار قد غردا

والروض قد وَشَّاه قَطْر الندى

فكمل اللهو بكأس تدار على افترار

مباسم النوّار غبَّ القِطار[٣]

أجْنِ من الوصل ثمار المنى وأوصل الكأس بما أمكنا

مع طَيِّبِ الريقة حلو الجنى

بمقلة أفتك من ذى الفَقَار ذات احورار[٤]

منصورة الأجفان بالانكسار

زار وقد حل عقود الجفا وافتر عن ثغر الرضا والوفا

فقلت والوقت لنا قد صفا

ياليلة أنعَمَ فيها وزار شمسُ النهار

حييت من بين الليالى القصار

موشحة أخرى للعزازى

ويعجبنى من موشحات العزازى المذكور قوله :

ما عَلَى مَنْ هام وَجْدًا بذوات العلا

(١) النضار ـ بالضم ـ الذهب ، شبه الخمر به فى اللون .

(٢) النثار ـ بالكسر ـ ما ينثر فوق رأس العروس عند الجلوة .

(٣) القطار : جمع قطر ، وهو المطر .

(٤) المقلة ـ بالضم ـ العين ، وذو الفقار : سيف أمير المؤمنين على بن أبى طالب

مبتـــلى بالحدق السـود و بيض الطلا(١)

باللـــوى مَلِيٌّ حسن لديونى لَوَى

كم نوى قتلى وكم عذّبنى بالنوى

قد هوى فى حبه قلبى بحكم الهوى

واصــطلى نار تجنيــه ونار القِلَى

كيف لا يذوب من هام بريم الفـلا(٢)

هل ترى يجمعنا الدهر ولو فى الـكرى

أم ترَى عينى مُحَيَّـا مَنْ لجسمى برَى

بالـسرى يا حادِيَىْ ركب منى بليلى سرى

عـــللا قلبى بتذكار اللقا عـــللا

وانـــزلا دون الحمى ، حى الحمى منزلا!

بى رَشـاَ دمعى جرى فى هواه فشـا

لويَشَـــا بَرَّدَ منى جمـــراتِ الحشـا

ما مشـى إلا انثنى فى سكره وانتشى

عطـــلا من الحميا يا مدير الطــــلا

ما حـــلا إذا أدار الناظر الأكحـــلا

هل يلام من غلب الحب عليـه فهام

مستهـــام بفاتر اللحظ رشيق القوام

ذى ابتسام أحسن نظما من حَباب المـدام

---

(١) الحدق : جمع حدقة ، وأراد بها العين ، والطلا : الأعناق .

(٢) الريم ـ بالـكسر ـ الظبي ، والفلا : جمع فلاة ، وهى الصحراء .

لومــــلا   من ريقه كأسا لأحيا المـــلا
أوجــلا   وجها رأيت القمر المجتلى
لوعفـــا   قلبك عمن زَلَّ أو من هفا
أَوْصَفـــاَ   ماكان كالجلْمَدِ أو كالصَّفاَ
بالــــوفا   سَلْ عن فتى عذبته بالجفا
هل خــلا   فؤاده من خطرات الولا
أو ســلا   أوخان ذاك الموثق الأوّلا

وقوله أيضا يعارض الموصلى :

موشحة أحري للعزازى

ما سُلَّت الأعين الفواتر   من غمد أجفانها الصفاح
إلا أسالت دَمَ الحناجر   من غير حرب ولا كفاح
تالله ما حرّك السواكن   غير الظِّباء الجآذر
لما استجاشت بكل طاعن   من القدود النواضر[1]
وفوّقت أسهم الكنائن   من كل جفن وناظر[2]
عُرْب إذا صحن يا لَعامر   بين سَرَايا من الملاح
طلت علينا من المحاجر   طلائع تحمل السلاح
أَحْبِبْ بما تطلع الجيوب   منها وما تُبْرِز الكُلَلْ
من أقمر مالها مغيب   وأغْصُن زانها المَيَلْ
هيهات أن تعدل القلوب   عنها ولو جارت المُقَلْ
لما توشحن بالغدائر   سَفَرْنَ عن أوجه صِباح
فانهزم الليل وهو عاثر   بذَيْلِه واختفى الصباح

(١) شبه القدود بالرماح التى يطعن بها .
(٢) الكنائن : جمع كنانة ـ بكسر الكاف ـ وهى في الأصل وعاء السهام .

وأهيف ناعم الشمائل تهزه نَسْمة الشمال (١)
فينثني كالقضيب مائل كما انثنى شارب ومال
له عِـذار كالنَّدِّ سائل لله كم من دم أسـال
شُقِّتْ على نبتـهِ المرائر من داخل الأنفس الصحاح
تكِلُّ فى وصفه الخواطر وتخرس الألسن الفصاح (٢)
ظبى إلى الأنس لا يميـل الشمس والبدر من حُلاه
الحسن قالوا ولم يقولوا مَبْدَاه منـه ومنتهاه
وطرفه الناعس الكحيل هيهات من سيفه النَّجَاه
أذلَّ بالسحر كل ساحر فهو له خافِضُ الجناح
يجول فى باطن الضمائر كما يجول القَضَا المُتاَح
أما ترى الصبح قد تطلع مذ غمضت أعين الغسق
والبدر نحو الغروب أسرع كهـارب ناله فَرَقْ (٣)
والبرق بين السحاب يلمع كصارم حين يمتشق (٤)
وتحسب الأنجم الزواهر أسِـنَّةً ألقت الرماح
فانهزم النهر وهو سائر فـدرَّعَتْه يد الرياح

موشحة الموصلى

وموشحة الموصلى التى عارضها العزازى هى قوله :

رنا بأجفانه الفواتر لما انثنى واحِدُ الملاح
فسَلَّ من طرفه بواتر وهز من عِطْفه رماح
ناظـره جرَّد المهنَّدْ وغمده مِنِّىَ الحشَـا
وعامل القد فهو أملد يطعن للقلب إن مشى

---

(١) الأهيف : الوصف من الهيف ـ بالتحريك ـ وهوضمور البطن ورقة الخصر
(٢) تكل : تضعف . (٣) الفرق ـ بالتحريك ـ الخوف .
(٤) الصارم : السيف ، ويمتشق ـ بالبناء للمجهول ـ يسل ويخرج من غمده .

والعارض القائم المزرد لفتنة الناسِ قد نشَا

والحاجب القوس بالفواتر لنَبْله فى الحشا جِراح
ومشرف الصدغ فهو جائر سلطانُه للدما أباح

بجفنه الفاتك الـكِنانَى من ثُعَل رَاشَ لى نبال (١)

وهو الخفاجىُّ قد غزانى وجهه من بنى هلال
عَبْسى لحظٍ له سبانى جسم زبيدى بالدلال

والردف يدعى مِنَ ال عامر وأوضح الصَّلْت من صباح
وخصره من هَشيم ضامر يدور من حوله وشاح

فوجهه جَنَّـــة وكوثر رُضَابه العذب لى حلا
والنار فى وجنتيه تسعر والخال خيالها اصطلى
عجبت من خاله المعنبر إذ يعبد النار كيف لا

يحرق بالنار وهو كافر وما سقى ريقه القراح
كامل حسن معناه وافر بسيطُ وصفٍ كالمسك فاح

ما اخْضَرَّ نبت العذار إلا بآسه سيح الشقيق
وهو كنمل سَعَى ووَلَّى ولم يجد للجنى طريق
من ربقة البدر إذ تجلى فى هالة العارض الأنيق

لما تبدَّى بالوجه دائر وحَيَّر العقل حين لاح
شق على خده المرائر وقطع الأنفس الصِّحاح

(١) الـكنانى : تورية ، يراد المنسوب إلى كنانة قبيلة ، أو المنسوب إلى كنانة السهام وهى وعاؤها ، وثعل : قبيلة من طيء مشهورة بجودة الرمى وإصابة الغرض وفيها يقول امرؤ القيس :

رب رام من بنى ثعل متلج كفيه فى قتره

ومتلج : مدخل ، والقتر : جمع قترة ـ بالضم ـ وهى بيت الصائد الذى يكمن فيه للوحش لئلا يراه فينفر منه .

ورب يوم أتى وحَيَّـا كالشمس والنجم والقمر
بالكأس والراح والمحيا ثلاثة تفتن البشر
وقال قم يانديم هَيَّا اقض بنا لذة الوطر
فالخمر تُجْلَى على المزاهر من اغتباق إلى اصطباح
وطافت الراحُ بالمجامر من عنبر الزهر فى البطاح

ومما يُطْرِبنى من الموشحات قولُ بعضهم :

مالى شمولْ إلا شـجون مزاجُهَا فى الكاس دمع هتون
لله ما بَذَرْ من الدموع صب قد استعبر من الولوع
أودى به جـؤذَر يوم الطلوع
فهو قتيل لا بلاطعين بين الرجا والياس له مَنُون
جرحت للحَيْنِ(١) كفى بكفى وحيل ما بينى وبين إلفى
لاشك بالبين يكون حتفى
حال الرحيل ولى ديون إن رَدَّها العباس فهو الأمين
أماترى البدرا بدر السعود قد اكتسى خُضْرَا من البرود
إذا انثنى نضرا من القدود
أضحى يقول مت ياحزين قد اكتسى بالآس الياسمين(٢)
قلت وقد شرد النوم عنى وأيأس العوّد السقم منى
صد فلما صد قرعت سِنِّى
جسمى نحيل لا يستبين يطلبه الجلاس حيث الأين(٣)
تجاوز الحد قلبى اشتياقا وكلف السهد من لا أطاقا
قلت وقدمدّ ليلى رواقا
ليلى طويل ولا معين ياقلبَ بَعْضِ الناس أما تَلين

(١) الحين ـ بالفتح ـ الهلاك . (٢) أراد بالآس العذار ، وبالياسمين الخد .
(٣) يقول : لولا أنينى ما عرفنى جلاسى لأنى لا أظهر لشدة نحولى .

الباب السادس

في مصنفاته في الفنون ، ومؤلّفاته المحقِّقَةِ للواقف عليها الآمالَ والظنون ، وما كمل منها أو اخترَمَتْهُ دون إتمامه المَنُون[1] .

اعلم أن تصانيف لسان الدين التي علمتُ نحوُ الستين ، وكلها في غاية البراعة ، بحيث إنه لم يأت أحد من أهل عصره بمثل ما جاء به ، بل وكثير من غير أهل عصره رحمه الله تعالى ، وقد وقفت بالمغرب على كثير منها ، وفيها أقول مضمنا ببعض تغيير :

تصانيف الوزير ابن الخطيب	ألذ من الصَّبا الغَضِّ[2] الرَّطيبِ
فأية راحـــة ونعيم عيش	توازى[3] كتبـه أم أى طيب

لسان الدين يذكر مؤلفاته

قال رحمه الله تعالى في تعريفه بنفسه آخر « الإحاطة » ما صورته :

التواليف : « التاج المحلى ، في مساجلة القدح المعلى » ، و « الكتيبة الكامنة ، في أدباء المائة الثامنة » ، و « الإكليل الزاهر ، فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر » ثم « النقاية ، بعد الكفاية » هـذا في نحو القلائد والمطمحين لأبي نصر الفتح بن محمد ، و « طرفة العصر ، في دولة بني نصر » في أسفار ثلاثة ، و « بستان الدول » موضوع غريب ما سمع بمثله ، قل أن شذَّ عنه فن من الفنون ، يشتمل على شجرات عشر : أولها شجرة السلطان ، ثم شجرة الوزارة ، ثم شجرة الكتابة ، ثم شجرة القضاء والصلاة ، ثم شجرة الشرطة والحِسْبة ، ثم شجرة العمل ، ثم شجرة الجهاد ، وهي فرعان : أسطول ، وخيول ، ثم شجرة ما يضطر

---

(۱) المنون : المنون ، واخترمته : أخذته ، والمنون يذكر ويؤنث .

(۲) الغض : الطرى .　　(۳) توازى : أراد تساوى .

باب الملك إليه من الأطباء والمنجمين والبيازرة [1] والبياطرة والفلاحين والندماء والشطرنجيين والشعراء والمغنين ، ثم شجرة الرعايا ، وتقسيم هذا كله غريب يرجع إلى شعَب ، وأصول ، وجراثيم ، وعمد ، وقشر ، ولحاء ، وغصون ، وأوراق ، وزهرات مثمرة ، وغير مثمرة ، مكتوب على كل جزء من هذه الأجزاء بالصبغ اسم الفن المراد به ، و برنامجه صورة بستان ، كمل منه نحو من ثلاثين سفرا ، ثم قطَع عنه الحادثُ على الدولة ، وديوان شعرى فى سفرين سميته « الصيب والجَهام ، والماضى والـكَهام » والنثر فى غرض السلطانيات كثير ، والـكتاب المسمى باليوسفى فى صناعة الطب فى سفرين كبيرين ، كتاب ممتع ، و « عائد الصلة » وصلت به صلة الأستاذ أبى جعفر بن الزبير ، فى سفرين ، وكتاب « الإحاطة ، بما تيسر من تاريخ غرناطة » كتاب كبير فى أسفار تسعة ، هذا متصل بآخرها ، و « تخليص الذهب ، فى اختيار عيون الـكتب الأدبيات الثلاثة » ، و « جيش التوشيح » فى سفرين ، ومن بعد الانتقال من الأندلس وما وقع من كياد الدولة « نُفَاضة الجراب ، فى علالة الاغتراب » موضوع جليل فى أربعة أسفار ، وكتاب « عَمَلُ مَنْ طَبَّ لمن حب » ومنزلته فى الصناعة الطبية بمنزلة كتاب أبى عمرو بن الحاجب المختصر فى الطريقة الفقهية ، لانظيرله ، ومن الأراجيز المسماة « برقم الحلل ، فى نظم الدول » والأرجوزة المسماة « بالحلل المرقومة ، فى اللمع المنظومة » ألفية من ألف بيت فى أصول الفقه ، والأرجوزة المسماة « بالمعلومة » معارضة للمقدمة المسماة بالمجهولة فى العلاج من الرأس إلى القدم إذا أضيفت إلى رجز الرئيس أبى على كملت بها الصناعة كمالا لا يشينه نقص ، والأرجوزة المسماة « بالمعتمدة ، فى الأغذية المفردة » والأرجوزة فى السياسة المدنية ، إلى ما يشذ عن الوصف كالرجز فى عمل الترياق

---

(١) البيازرة : جمع بيزر — بزنة جعفر — والتاء للتعريب عن الأعجمية ، والبيزر — فيما أحسب — العالم بالأدوية المفردة ومنافعها ، ولست من ذلك على ثبت .

الفاروقى ، والكلام على الطاعون المعاصر ، والإشارة ، وقطع السلوك ، و « مُثْلَى الطريقة ، فى ذم الوثيقة » حتى فى الموسيقى ، و «البيطرة» و « البيزرة » ، هذر كَشُفَ به الحجاب ، ولعب بالنفس الإيجاب ، وضاع الزمان ولا تسل بين الرد والقبول والنفى والإيجاب ، ولله در القائل :

والكون أشراك نفوس الورى   طُوبى لنفس حرة فازت

إن لم تحز معرفة الله قد   أورطها الشىء الذى حازت

وكل مُيَسر لما خلق له ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، انتهى ماله فى آخر الإحاطة بحروفه .

استدراك بما ألف بعد كتابته ترجمة نفسه

قلت : ولنذكر ما تأخر تأريخه عن الإحاطة أو أشير إليه فيها مجملا فنقول : من أشهر تواليفه رحمه الله تعالى كتاب « ريحانة الكتاب ، وَنُجْعَة المنتاب » فى عدة مجلدات ، وهو داخل فى قوله السابق فى الإحاطة « والنثر فى غرض السلطانيات كثير » ، وهذا الكتاب قد اشتمل من الإنشاء على كثير فى أغراض شتى من مخاطبات الملوك على اختلاف أجناسهم وصدقاتهم وغير ذلك من أحوالهم وأحوال الكبراء ومخاطباتهم حتى ملوك النصارى ، وذكر فى صدره خُطَبَ بعض كتبه ، وفى آخره بعض مقاماته وتحليته لأهل عصره ، وغير ذلك ، و بالجملة فهو كتاب مفرد فى بابه .

ابن الأحمر يتحدث عن مصنفات لسان الدين

وقال الأمير الشهير العلامة أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر رحمه الله تعالى فى كتابه « نثير فرائد الجمان ، فيمن يضمنى و إياه الزمان » ما صورته : لابن الخطيب الأوضاع المصنفات ، التى آذانُ إحسانها هى المُقَرَّطات المُشَنَّفات [1] ، منها فى التصوف ، الذى أكثر أهل الحقائق إليه نظر التشوف « روضة التعريف ،

(١) قرطه : ألبسه القرط ، وهو حلية تلبس فى شحمة الأذن ، وشنفه : ألبسه الشنف ـ بالكسر ـ وهو من حلى الأذن يلبس فى أعلاها ، هذا هو الأصل فى استعمال هذين اللفظين ، وقد يراد بهما مجرد التحسين والتزيين .

بالحب الشريف » انتهى ، وسَرَدَ غير هذا الكتاب مما قدمنا ذكره وغيره .

حديث عن « روضة التعريف » أحد مؤلفات لسان الدين

وهذا الكتاب - أعنى « روضة التعريف » - غريب المنزع ، وعارض به « ديوان الصبابة » لابن أبى حجلة صاحب السكردان ، وضمنه من التصوف وعبارات أهله العجب العُجاب ، وتكلم فيه على طريقة أهل الوحدة المُطْلَقة ، وبذلك سجل عليه أعداؤه فى نكبته الآخرة التى ذهبت فيها نفسه ، ونَسَبُوه إلى مذهب الحلول[1] وغيره ، مما ذكره يطول حسبما ألمعنا بذلك ، وقد جعل هذا الكتاب شجرة ذات أفنان وعمود ، مشتمل على القشر والعود ، وأوراق ، وصورة طائر فوقها ، ولم أر فى فنه مثله ، جازاه الله تعالى عن نيته ! فإنه فى الحب الشريف الربانى ، مبلغ الناظر فيه غاية أمنيته .

بقية مؤلفاته

ومن تواليفه رحمه الله تعالى غير ما سبق « اللمحة البدريه ، فى الدولة النصرية » وكتاب « السحر والشعر » و « معيار الأخبار » و « مفاضلة مالقة وسلا » و « خطرة الطيف ، ورحلة الشتاء والصيف » وقد ذكرهما فى الريحانة بنصهما ، وجعلهما من جملة ما اشتملت عليه ، و « المسائل الطبية » فى مجلد ، و « الكتيبة الكامنة ، فى شعراء المائة الثامنة » ورسالة « تكوّن الجنين » ، و « الوصول ، لحفظ الصحة فى الفصول » وكتاب « الوزارة » و « مقامة السياسة » و « الغيرة ، على أهل الحيرة » و « حمل الجمهور ، على السَّنَن المشهور » و « الزبدة الممخوضة » و « الرد على أهل الإباحة » و « سد الذريعة ، فى تفضيل الشريعة » و « تقرير الشبه ، وتحرير الشبه » و « استنزال اللطف الموجود ، فى سر الوجود » و « أبيات الأبيات » فيما اختاره رحمه الله تعالى من مطالع ماله من الشعر ، « وفُتَات الخوان ، ولقط الصوان » فى سفر يتضمن المقطوعات فقط ، و « كناسة الدكان ، بعد انتقال

(١) الحلول : عبارة عن اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر كحلول ماء الورد فى الورد ، ويسمى السارى حالا ، ويسمى المسرى فيه محلا ، وهذا هو الحلول السريانى ، وللرافضة مذهب خبيث يزعمون أن البارى - جل وعلا ! - يحل فى أجسام بعض رجالاتهم ، لعنهم الله ! .

السكان » و « الدرر الفاخرة ، واللجج الزاخرة » جمع فيه نظم ابن صفوان ، و « أعمال الأعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الإسلام ، وما يجر ذلك من شجون الكلام » و « والمباخر الطيبية ، فى المفاخر الخطيبيه ، و « خلع الرسن ، فى أمر القاضى ابن الحسن »[1] وتدوين شعر شيخه ابن الجياب ، وجمع نثر المذكور وسماه « تافه من جم ، ونقطة من يَمّ » وشرحه لكتاب نفسه « رقم الحلل فى نظم الدول » ؛ فهذا ما حضرنى علمه من تواليف لسان الدين رحمه الله تعالى ، فأما البيزرة ففى مجلد ، وأما البيطرة فكذلك فى مجلد جامع لما يرجع إليه من محاسن الخيل وغير ذلك ، وأما « رجز الأصول » فقد شرحه قاضى القضاة ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ المشهور ، وأما « رقم الحلل ، فى نظم الدول » فهو فى غاية الحلاوة والعذوبة والجزالة ، وقد كنت بالمغرب أحفظ أكثره ، فنسيته الآن ، وابتداؤه بقوله :

الحمدُ لله الذى لا ينكره ⁂ من سَرَحَتْ فى الكائنات فِكَره

وعلق بحفظى الآن منه قوله فى الوليد بن يزيد :

ثم الوَليدُ بْنُ يزيدَ العائثُ ⁂ قد نُقلت من فعله خبائث

وفى آخر دولة بنى أمية قوله :

وصار قصْر الملك من أميه ⁂ أقْفَرَ ربعا من ديار مَيَّهْ

وفى الأمين :

باع العُلَا بشادنٍ وكاس ⁂ وصحبة الشيخ أبى نُوَاسِ[2]

وفى المعتصم :

وهو الذى تألَّفَ الأتراكا ⁂ فَنصَبُوا لقومه الأشراكا

---

(١) سبق أن نقل المؤلف من هذا الكتاب فارجع إلى الجزء السابع من تجزئتنا

(٢) الشادن : الظبى إذا شدن وترعرع .

ومن أبيات هذا الكتاب قوله :

وَيَفْسُدُ الملك بالاحتجاب كذاك بالزَّهْو وبالإعجاب[١]

وما أحسن قوله فيه عند ذكر موت بعض الملوك :

سبحان من لا ينقضى سلطانه وأقفرت من ملكه أوطانُهُ[٢]

حديث عن كتاب «الإحاطة» ومختصره

وأما كتاب « الإحاطة » فهو الطائر الصيت بالمشرق والمغرب ، والمشارقة أشد إعجابا به من المغاربة ، وأكثر لهجاً بذكره ، مع قلته فى هذه البلاد المشرقية ، وقد اعتنى باختصاره الأديب الشهير البدر البشتكى ، وسماه « مركز الإحاطة ، فى أدباء غَرْناطة » وهو فى مجلدين بخطه ، رأيت الأخير منهما بمصر ، وقال فى آخره ما نصه : هذا آخر ما أردت إيراده ، وفوَّفْتُ أبرادَهُ ، من كل طرفة ، وتحفة ، وفائدة أدبية ، ونادرة تاريخية ، فى كتاب « الإحاطة ، بتاريخ غرناطة » ولما كان المعول عليه ، والباعث الداعى إليه ، ذكر أدبائه ، ومآثر علمائه ، سميته « مركز الإحاطة ، بأدباء غرناطة » والحمد لله أولا وآخراً ، وباطنا وظاهراً ، علقه لنفسه ثم لمن شاء الله تعالى من بعده الفقيرُ إلى عفو ربه محمد بن إبراهيم بن محمد البدر البشتكى ، لطف الله تعالى به بمنه وكرمه ! مستهل صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، انتهى .

وقد جعل كل أربعة أجزاء من الأصل فى مجلد ، إذ هو فى مجلدين كما سبق ، ونسخة الأصل فى ثمان مجلدات ، فنقص من الأصل ثلاثة أرباع أو نحوها .

حجة سلطانية بوقف كتاب «الإحاطة»

ولما وقف سلطان الأندلس من كتاب الإحاطة نسخة على بعض مدارس غرناطة كتب ابنُ عاصم حجةَ الوقفية بخطه ، ولنثبتها لما فيها من الفوائد ، قال الأديب الفقيهُ أبو عبد الله محمد بن الحداد الشهير بالوادى آشى نزيل تلمسان

(١) الزهو : الكبر .

(٢) أقفرت : خلت .

المحروسة : كان على ظهر النسخة الرائقة الجمال ، والفائقة الكمال ، من « الإحاطة، بتاريخ غرناطة » المحبّسة على المدرسة اليوسفية ، من الحضرة العلية ، بخط قاضى الجماعة ، ومنفذ الأحكام الشرعية المطاعة ، صَدْر البلغاء ، وعَلَم العلماء ، ووحيد الكبراء ، وأصيل الحسباء ، الوزير الرئيس المعظم أبى يحيى بن عاصم ـ رحمة الله تعالى عليه !ـ ما نصه : الحمد لله الجاعل الاستدلالَ بالأثر على المؤثر مما سلمه الأعلام ، وشهدت به العقولُ الراجحة والأحلام ، وهو الحجة المعتمدة حين تتفاضل الألباب وتتقاصر الأفهام ، وبه الاستمساك إن طرقت الشكوك أو عَرَضت الأوهام ، وحَسْبُك بما يسلم فى هذا المقام العالى من الأدلة ، وما يعتمد فى هذا المجالِ المتضايق من البراهين المستقلة ، فحقيق أن يتلقى هذا النوعُ من الاستدلال فيما دون الفن المشار إليه بالقَبُول ، ويستنبل[1] المهتدى لاستنباطه لما فيه من التبادر للأفهام والتسابق للعقول ، وإذا ثبت أن المستدل بهذه الأدلة سالك على سواء سبيل ، ومُنْتَمٍ[2] من صحة النظر إلى أكرم قَبيل ، فلا خفاء أن كتاب « الإحاطة » للشيخ الرئيس ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الخطيب ـ رحمه الله تعالى ! ـ من أثر هذه الدولة النَّصْرية أدامها الله تعالى بكل اُعتبار ، ومآثرها التى هى عبرة لأولى الألباب وذكرى لذوى الأبصار ، أما الأول فلأن الأنباء التى أظهرت بهجتها ، وأوضحت حجتها ، وشرفت مقصدها ، وكرمت مصعدها ، إنما هى مناقب ملوكها الكرام ، ومكارم خلفائها الأعلام ، أو أخبار من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور حملة السيوف والأقلام ، وأفذاذ حَفَظِة الدِّين والدنيا ، والشرف والعليا ، والملك والإسلام ، أو ما يرجع إلى مفاخر حضرة الملك ، وينتظم نظمَ الجُمَان فى ذلك السلك ، من حصانة قلعتها ، وأصالة منعتها ، وقديم اختطاطها ، وكريم جهادها ورِباطها

---

(٢) يستنبل : يعتبر ويعد نبيلا .

(٢) منتم : منتسب .

وحسن ترتيبها ووَضْعها ، وما اشتمل عليه من مقاصد الأنس آهل رَبْعها[١] ، وماسوى هذه الأقسام الثلاثة فمن قبيل القليل ، ومما يرجع إلى شرف الحضرة ممن انتابها[٢] من أهل الفضل الواضح والمجد الأثيل ، وأما ثانيا فإن راسم آياتها المتلوة ، ومُبدع محاسنها المجلوة ، وناقل صورتها من الفعل إلى القوّة ، إنما هو حسنة من حسنات هذه الدولة النَّصْرية الكريمة ، ونشأة من نشآت جودها الشامل النعمة الهامل الدِّيمة[٣] ، فما ظهر عليه من كمالات الأوصاف ، على الإنصاف ، فأخْلاف[٤] هذه المكارم النصرية أرضعته ، وعناياتها الجميلة أسْمَته فوق الكواكب ورَفَعَتْه ، وإليها ينسب إحسانه إن انتسب ، ومن كريم تشريفها اكتسب ، والحضرة هى منشؤه الذى عظم فيه قَدْره ، بل أفقُه الذى أشرق فيه بدره ، والتشريفات السلطانية التى فَتَقَت اللَّها باللُّها[٥] ، واحتلت من مراقى العز فوق السها ، وأمكنت الأيدى من الذخائر والأعلاق ، وطوّقت المنن كالقلائد فى الأعناق ، وقلدت الرياسة والأقلام أقلام ، وثنت الوزارة والأعلام أعلام ، فبهرت أنواعُ المحاسن ، وورد معين البلاغة غير المطروق ولا الآسن ، وبرعت التواليف فى الفنون المتعددة ، واشتهرت التصانيف ومنها هذا التصنيف المشار إليه لماله من الأذمة المتأكدة ، إذ أظهر هذا الاستدلال ، وأوضح البيان ما كتمه الإجمال ، فلنُفْصِح الآن بما قَصَد ، ولنحقق من أنجم السعادة ما رَصَد ، وذلك أن لمولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، الغالب بالله المؤيد بنصره أبى عبد الله محمد ابن الخلفاء النصريين ، أيده الله ونصره ! وسنى له الفتح المبين ويَسَّره ! مآثِرَ لم يُسْبق إليها ، ومكارم لم يجر أحد ممن وسم بالكرم عليها ، لجلالة قدرها ، وضخامة أمرها ، من ذلك هذا المقصد الذى أثرِ لها كالكتاب المذكور وسواه ، مماهو واحد فى فنه وقد

(١) الربع : المنزل ، وآهل : عامر بأهله وسكانه . (٢) انتابها : قصدها .

(٣) الديمة : المطر الدائم . (٤) الأخلاف للناقة : بمنزلة الثدى للمرأة .

(٥) اللها : جمع لهاة ـ بفتح اللام ـ وهى هنا بأقصى الحلق ، واللها ـ بضم اللام ـ العطايا ، وقد قالوا « اللها تفتح اللها »

فى معناه ، عَقَد فى جميعها التحبيس [1] على أهل العلم والطلبة بحضرته العليا هنالك ليشمل به الإمتاع ، ويعم به الانتفاع ، والله تعالى ينفع بهذا القصد الكريم ، ويتولى المَثُوبة على هذا العقد الجسيم ، وهذه النسخة فى اثنى عشر سفرا متفقة الخط والعمل ، اكتتب هذا على ظهر الأول منها ، و بتاريخ رجب الفرد من عام تسعة وعشرين وثمانمائة عرّف الله تعالى بركته بمنه ! انتهى .

وقفية لسان الدين كتاب « الإحاطه » بخانقاه سعيد السعداء بمصر

وكان لسان الدين بن الخطيب ـ رحمه الله تعالى ! ـ أرسل فى حياته نسخة من « الإحاطة » إلى مصر ، ووقفها على أهل العلم ، وجعل مقرها بخانقاه سعيد السعداء ، وقد رأيت منها المجلد الرابع ، وهذا نص وقفيته : الحمد لله وحده ، وقف الفقير إلى رحمة الله تعالى الشيخ أبو عمرو بن عبد الله بن الحاج الأندلسى ـ نفع الله تعالى به ! ـ عن موكله مصنفه الشيخ الإمام العلامة بركة الأندلس لسان الدين أبى عبد الله محمد ابن الشيخ أبى محمد عبد الله بن الخطيب الأندلسى السَّلْمَانى ـ فَسَحَ الله تعالى فى مدته ! وفتح لنا وله أبواب رحمته ! ومنحنا و إياه من رِفْده وعطيته ! وأسكننا و إياه أعالى جنته ! ـ جميعَ هذا الكتاب « تاريخ غرناطة » ، وهو ثمانية أجزاء ، هذا رابعها ، عن مصنفه المذكور بمقتضى التفويض الذى أحضره ، وهو أنه فوّض إليه النيابة عنه فى جميع أموره المالية كلها ، وشئونه أجمعها ، والنظر فى أحواله على اختلافها وتباين أجناسها ، تفويضا تاما على العموم والإطلاق ، والشمول والاستغراق ، لم يستثن شيئاً مما تجوز النيابة فيه إلا أسنده إليه ، وهو ثابت على سيدنا ومولانا قاضى القضاة يومئذ بثغر الإسكندرية المحروس ـ أدام الله تعالى أيامه ! ـ كمال الدين خالصة [2] أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد بن الربعى المالكى ثبوته مؤرخ بثالث ذى الحجة عام سبعة وستين وسبعمائة ، وقفا شرعيا

---

(١) التحبيس : أراد الوقف .

(٢) هذا الرجل خالصة هـذا الرجل : أى أنه استخلصه لنفسه واختصها به من بين سائر الأنام .

على جميع المسلمين ينتفعون به قراءة ونَسْخاً ومطالعة ، وجعل مقره بالخانقاه الصالحية سعيد السعداء ، رحم الله تعالى واقفها ! وجعل النظر فى ذلك للشيخ العلامة شهاب الدين أبى العباس أحمد بن حجلة ، حرسه الله تعالى ! ثم من بعده لناظر أوقاف الخانقاه المذكورة ، فلا يحل لأحد يؤمن بالله العظيم ، ويعلم أنه صائر إلى ربه الكريم ، أن يبطله ولا شيئاً منه ، ولا يبدله ولا شيئاً منه ، فمن فعل ذلك أو أعان عليه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ، إن الله سميع عليم ، ومَنْ أعان على إبقائه على حكم الوقف المذكور جعله الله تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأشهد الواقف الوكيل عليه فى ذلك فى الثانى والعشرين لشهر الله تعالى المحرم عام ثمانية وستين وسبعمائة ، انتهى .

المؤلف يرى خطوط جماعة من العلماء على نسخة « الإحاطة » بمصر

وقد رأيت بظهر أول ورقة من هذه النسخة خطوطَ جماعة من العلماء ، فمن ذلك ما كتبه الحافظ المقريزى المؤرخ ، ونصه : انتقى منه داعيا لمؤلفه أحمدُ بن على المقريزى فى شهر ربيع سنة ثمان وثمانمائة .

وما رقمه[1] الحافظُ السيوطى ونصه : الحمدلله وحده ، طالعته على طبقات النحاة واللغويين ، وكتبه عبدُ الرحمن بن أبى بكر السيوطى سنة ثمان وستين وثمانمائه ، انتهى .

و بعد هذين ما صورته : انتقى منه داعيا لمؤلفه محمد بن محمد القوصونى سنة أربع وخمسين وتسعمائة .

و بعده ما صورته : أنهاه نظرا وانتقاء على الحموى الحنفى ، لطف الله به .

و بخط مولانا العارف الربانى علامة الزمان و بركة الأوان الشيخ محمد البكرى الصديق ما نصه : طالعته مبتهجا برياضه المونقة[2] ، وأزهار معانيه المشرقة ، مرتقيا

---

(١) رقمه : كتبه وسطره .

(٢) المونقة : المعجبة .

فى دَرَج كلماته العذاب سماء الاقتباس ، مقتنيا من لطائفه دررا وجواهر بل أحاشيها بذلك القياس ، كتبه محمد الصديقى غفر الله له ! انتهى .

ورأيت بهامش هذه النسخة كتابةَ جماعة من أهـل المشرق والمغرب كابن دُقْمَاق والحافظ ابن حجر وغيرهما من أهل مصر ، ومن المغاربة ابن المؤلف أبى الحسن على الخطيب ، والخطيب الـكبير سيدى أبى عبد الله بن مرزوق ، والعلامة أبى الفضل ابن الإمام التلمسانى ، والنحوى الراعى ، والشيخ الفهامة الشهير يحيى العجيسى شارح الألفية وصاحب التآليف ، وغير هؤلاء ممن يطول تعدادهم ، رحم الله تعالى جميعهم !

ابن الأحمر يبين مأخذ ابن الخطيب كتابه الإحاطة

وقد أشار ابن الأحمر حفيد الغنى بالله تعالى الذى كان ابن الخطيب وزيراً له ثم انفصل عنه حسبما تقدّم إلى مايتعلق بكتاب « الإحاطة » فى جملة كلام نصه : وتلقينا ممن نثق به أن الـكاتب المجيد الأصيل حسبا ، البارع أدبا ، أبا عبد الله ابن جُزَى وفَد على السلطان أبى عنان صاحب المغرب فى حدود عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، فأكرم جَنَابه ، وكمل من تقريبه واصطناعه آرابه[1] ، فانتدب إلى ذكر وطنه الأندلسى ، وصاح بمن عَذَله أيا وَيْحَ الشجى من الخلى[2] ، وبرع غاية البراعة فى التاريخ الذى جمعه ، ورفع راية البلاغة لما كلف به ووضعه ، فلم يكن شىء من الـكلام إلا قال الإحسان وأنامعه ، استوعب ماشاء ، وأبدع فى كل ما نقل سواء كان شعرا أو إنشاء ، لـكن سابق أجله مَنَعَ من الإمتاع بمجمله ومُفَصَّله ، وجاءت الحادثة العظمى من وفاة مولانا والد جدّنا أمير المسلمين أبى الحجاج فى غرّة شوّال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة فعين لتعريف صاحب المغرب بالـكائنة خاص الدولة ورئيس الجملة أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب ، فوقف من تاريخ

---

(١) الآراب : جمع أرب ، بالتحريك ، وهو الحاجة .

(٢) هذا مثل ، يقولون « ويل للشجى من الخلى » ويشددون ياء « الشجى » وأصلها كياء القاضى ؛ لوقوعها مع « الخلى » المشدد الياء ، ومعناه : العذاب حاصل للعاشق المبتلى من الخلى البال من العشق .

ابن جُزَى على شاطىء نهر فياض ، وانتشق من وَرَقاته أزاهر رياض[١] ، وحمله النظر فى بدائعه على أن يأخذ فى جَمْع كتابه المسمى بالإحاطة فيما تيسر من تاريخ غرناطة ، ووجد لذلك موجبا أغراه بجمعه ، وهو أن الشيخ الحجة الشاعر المفلق أبا إسحاق بن الحاج وَفَدَ على الأندلس بعد جَوْبه الآفاق[٢] ، وترحله إلى ما وراء الشام والعراق ، و إعلامه أنه يذهب فى بداْة تاريخ مذهب ابن جُزَى وغيره ، وكان وحيدا فى فنون الآداب ، والمساجلة لأعلام الكتاب ، و بحكم الاتفاق على أثر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسلطان أبى عنان وجَدَ الحاجبَ الخطير أبا النعيم رضوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة وأقنعه بالاسم من ذلك المسمى ، و بأن وقفَه دون طُموحه إلى عادته من المرقب الأسمى ، فأنتج الانتباذ من تلك الرياسة الخطيبية أن ألفى الخطبة على جلالة مقدارها ، وتوضح أنوارها ، فى مرتقى إجلالها و إكبارها ، وأخذ فى تأليف «الإحاطة» مستدعيا تصحيح الموالد والوفيَات ، والأسماء والمسميات ، ومستكثرا من طُرَف[٣] المصنفات ، ليتم قصده من الإطناب ، ونقله العيونَ الرائقةَ من كل كتاب ، وألقى جميع مقاصده ، والمعظم من تنظيم فرائده ، بيد الشيخ العمدة معلم الجملة منا كتابَ الله وسنةَ رسوله صلى الله عليه وسلم أبى عبد الله الشريشى ، قدس الله تعالى ضريحه ! وهذا الشيخ الذى لم يجاوز سنّ الكهولة فى ذلك الوقت هو الذى تولى من المبيضات نَقْله ، وأحكم جنسه وفَصْله ، وانختم على مجلدات ستة ، ولما عاد ابنُ الخطيب إلى الأندلس بعودة جدنا الغنى بالله تعالى إلى ملكه عام ثلاثة وستين وسبعمائة تلاحقت الفروع من كتاب «الإحاطة» بالأصول ، وأنجز من التبحر فيه الوَعْدَ الممطول ، ووضعت بخانقاه سعيد السعداء النسخة المتممة من اثنى عشر سفرا ، انتهى كلامه .

---

(١) انتشق : شم . (٢) جاب الآفاق : قطع النواحى سيرا .
(٣) الطرف : جمع طرفة — بالضم — وهى الشىء النادر الذى لا مثيل له تطرف به أصحابك : أى تتحفهم به .

وقد علمت أن المكتوب فى الوقفيّة كامر ثمان مجلدات ، لا اثنا عشر ، فلعل ذلك الاختلاف بسبب الكبر والصغر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

والكاتب أبو عبد الله بن جُزَى الذى أشار إليه قد عرّفنا به فيما سبق فليراجع .

ترجمة أبى إسحاق بن الحاج الغرناطى

وأما العلامة ابن الحاج ، فهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن إبراهيم بن عبد العزيز بن إسحاق بن أحمد بن أسد بن قاسم الكاتب القاضى النميرى ، ويعرف بابن الحاج ، الغرناطى ، قال فى الإحاطة : نشأ على عفاف وطهارة ، وبروصيانة ، وبلغ الغاية فى جودة الخط ، وارتسم فى كتاب الإنشاء عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، مع حسن صمت[1] ، وجودة أدب وخط ، وظهور كفاية ، يقيد ولا يفتر[2] ، ويروى الحديث مع الطهارة والنزاهة ، مليح الدعابة ، طيب الفكاهة ، شرق وحج وتطوف وقيد واستكثر ودون رحلة سفره ، وناهيك بها طرفة ، وقفل لإفريقية ، وخدم بعض ملوكها ، وكتب ببجاية ، ثم خدم سلطان المغرب أبا الحسن ، ثم كتب عن صاحب بجاية ، ثم تنزه عن الخدمة ، وانقطع بتربة الشيخ أبى مَدْين مؤثر الخمول ، ذاهبا مذهب العكوف بباب الله تعالى ، حجة على أهل الحرص والتهافت ، ثم جبر على الخدمة عند أبى عنان ، ثم أفلت عند موته فلحق بالأندلس ، وألقى ببر وتنويه وعناية ، وولى القضاء بقرب الحضرة ، وهو الآن من صدور القطر وأعيانه ، متوسط الاكتهال ، روى عن مشيخة بلده واستكثر ، وأخذ فى رحلته عن ناس شتى ، وألف تواليف منها « إيقاظ الكرام ، بأخبار المنام » وجزء فى بيان الاسم الأعظم كثير الفائدة ، و « نزهة الحدق ، فى ذكر الفرق » وكتاب « اللباس والصحبة ، فى جمع طرق المتصوفة » المدعى أنه لم

---

(١) كذا ، ولعله « مع حسن سمت » أى هيئة .

(٢) لا يفتر : لا يضعف ولا يمل .

يجمع مثله ، وجزء فى الفرائض على الطريقة البديعة التى ظهرت بالمشرق ، وجزء فى الأحكام الشرعية سماه « بالفصول المقتضبة ، فى الأحكام المنتخبة » ورجز فى الجَدَل ، ورجز صغير فى الحجب والسلاح ، ورجز صغير سماه « بمثالب القوانين ، فى التورية والاستخدام والتضمين » مولده بغرناطة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وامتحن بالأسر مع جماعة بعد قتال عام ثمانية وستين ، ثم فكه الله تعالى . انتهى ملخصا

وأخذ عنه جماعة كالقاضى أبى بكر بن عاصم صاحب التحفة وغيره ، وهو من الأدباء المكثرين ، وكان عندى بالمغرب مجلد من رحلته التى بخطه ، وقد أتى فيه بالعجب العُجَاب ، وتمهر فى الحديث على طريقة أهل المشرق ، لأنه لقى جماعة من الحفاظ كالذهبى والبرزالى والمزى ، وناهيك بالثلاثة ، وغيرهم ممن يطول تعداده وله النظم الرائق ، العذب الجامع بين جزالة المغاربة ورقة المشارقة ، كما ستراه ، فمن نظمه يمدح الحافظ جمال الدين يوسف بن الزكى عبد الرحمن المزى ، وقد أبصره على أسِرَّة دار الحديث الأشرفية بدمشق :

جمال الدين للإقراء يعلو أسرته إذا اصطف الرجالُ

فمذ جليت محاسنه بدالى مُحيا فى أسرته الجمالُ

ضمن قول المعرى :

أهَلَّ فبشَّرَ الأهلين منه محيا فى أسرته الجمال

وقوله فى الحافظ علم الدين أبى القاسم محمد بن يوسف البرزالى :

نوى النَّوَى علم الدين الرضا فأنا من بعد فرقته بالشام ذو أَلَم[1]

فلا تَلُمنى على حبى دمشق فقد أصبحت فيها زمانا صاحب العَلَم[2]

---

(١) نوى : قصد وعزم ، والنوى : الفراق والبعد .

(٢) العلم ـ بالتحريك ـ الجبل ، وهو جزء لقب الحافظ البرزالى ، ومن هنا جاءت التورية

وقال فيه أيضا :

نوى النوى علم الدين الرضا فذكت　　نارُ اشتياقىَ حتى استعظموا ألمى

فقلت : إنىَ من قوم شعارهم　　جود فلا تنكروا نارى على علم(١)

وقال فى الحافظ شمس الدين الذهبى :

رَحَلْت نحو دمشق الشام مبتغياً　　رواية عن ذوى الأحلام والأدب

ففزت فى كتب الآثار حين غدت　　تُرْوَى بسلسلة عظمى من الذهب(٢)

وقال فى الحافظ المزى أيضا :

جَمَال الدين أضحى فى دمشق　　إماما نحوه طال الذميل

فلم أعدم بمنزله جميلا　　فحيث هو الجمال هو الجميل

وقال حين بُدُوره على الأمير الصالح المحدّث الجليل قطب الدين أبى إسحاق إبراهيم ابن الملك المجاهد سيف الدين إسحاق بن السلطان الملك الرحيم بدر الدين بن لؤلؤ ابن عبد الله النورى صاحب الموصل ليروى عنه :

إلى قَصْد قُطْب الدين وافيت عندما　　أقمت على الترحال فى الشرق والغرب

وأصبحت كالأفلاك فى السير والسُّرَى　　فها أنا فى مصر أدور على القطب

وقال فى قاضى القضاة العالم الشهير صاحب التفسير عماد الدين الكندى ، وهو ممن أخذ عنه بثغر الإسكندرية :

ولما اختبرت ذوات الورى　　تعجّبْتُ من حسن ذات العماد

فتلك التى لم أكن مبصراً　　مَدَى عمرنا مثلَها فى البلاد

وقال فى القاضى وجيه الدين يحيى بن محمد الصنهاجى :

أضحى وجيه الدين أسبق سابق　　فى العلم والعلياء والخلق النبيه

---

(١) يقولون « فلان أشهر من نار على علم » والتورية فى هذين البيتين كالتى ذكرناها فى السابقين .

(٢) من اصطلاحات المحدثين قولهم عن الإسناد الذى فى غاية الصحة « سلسلة الذهب » وقد أطلقوها على مالك عن نافع عن ابن عمر .

عجب الورى من سبقه وتعجبوا فأجبتهم لا تنكروا سبق الوجيه(١)

ومن بديع نظمه رحمه الله تعالى قوله :

قد قارب العشرين ظبي لم يكن ليرَى الورى عن حبه السلوانا
وبدا الربيعُ بخده فكأنما وافى الربيع ينادم النعمانا

وقوله :

وعارضٍ فى خده نباتُه بحسنهِ بين الورى يَسْحَرُنَا
أجرى دموعى إذ جرى شوقا له فقلت : هذا عارض ممطرنا

وقال وقد توفى أبو يحيى أبو بكر صاحب تونس وولى ابنه أبو حفص عمر بعد قتله لإخوته :

وقالوا أبو حفص حَوَى الملكَ غاصبا وإخوتُه أولى وقد جاء بالنُّكْرِ
فقلت لهم كفوا فما رَضِيَ الورى سوى عمر من بعد موت أبى بكر

وقال :

أتونى فعابوا من أُحِبُّ جماله وذاك على سمع المحب خفيف
فما فيه عيب غير أن جفونه مِرَاضٌ ، وأن الخصر منه ضعيف

وقال :

أيا عجبا كيف تهوى الملوك محلى ومَوْطن أهلى وناسى
وتحسُدُنى وهى مخدومة وما أنا إلاّ خديم بفاس

وقال :

لىَ المدح يروى منذ كنتُ كأنما تصوّرت مدحا للورى وثناء
ومالى هجاء فاعجبنَّ لشاعر وكاتب سر لا يقيم هجاء(٢)

---

(١) الوجيه : فيه تورية ، والوجيه : اسم فرس من الخيل المبرزة فى السبق مثل لاحق . (٢) المراد بالهجاء فى آخر البيت التهجية .

وقال فى حقه القاضى أبو البقاء خالد البلوى : نقلت من خط سيدى ورفيقى وصديقى إمام المسلمين ، برهان الدين ، أبى إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله بن الحاج ، وأكثره مما كان أنشدنيه قديما من نظمه فى التورية قوله :

ومَهاَة تقــــول إن هى كلت ودعا للمزاح خــــل ممازج

وازِرِ الردف إنَّ فى الأزر منى رَمْــلَ يَبْرِين يا طبيب وعالج(١)

وقوله :

وروض ممحِل جَـدْب المراعى سريع القيظ وَقْدًا والتهــــابا

حكى ابن أبى ربيعة لاشُجُوناً ولـكن كونه يهـــوى الربابا(٢)

وقوله :

وظبى طرّ عارضُه وأعفى عذارا بعد يزهو باخضرار

رأى سقما بمقلتـــــه فوافى بآسٍ عاد لـكن من عِذار

وقوله :

أتونى بنمام من الروض يانع سَقَتْه الغَوادى كل أسْجَمَ مِدْرار

فلا غرو إن أصـليته نار زَفْرتى وحكم على النمام الإلقاء فى النار

وقوله :

هذه الشمس بالحجاب توارت بعــــد نور لها ورحب و بشر

وأتى الليلُ بالنسيم عليــــلا فهو يمشى من أفقه لابن زهر

يعنى بذلك الوزير الـكبير الشهير الطبيب ابن زهر الإشبيلى الأندلسى ، فإنه كان وحيد دهره فى الطب ، فجاءت التورية بسبب ذلك محكمة إلى الغاية .

وقال أبو إسحاق النميرى المذكور :

---

(١) يبرين وعالج : موضعان مشهوران بكثرة الرمل ، ويقال « هذا أكثر من رمل عالج » وعالج ، أيضا : فعل أمر من المعالجة وهى التطبيب.

(٢) ورى بابن ربيعة عن زمان الربيع ، وبالرباب عن المطر.

أيا ضوء الصباح ارْفُقْ بصَبٍّ تسيل دموعه فى الخد سَيْلا
وكنت بليلة ليلاء طالت فها أنا فى الورى مجنون ليلى[١]

وقال يخاطب شيخَه سيف الدين :

لمولاى سيف الدين فى الفقه بيننا مقامُ اجتهادٍ ليس يلحقه الحيف
فتقليده فرض على أهل عصرنا ولا عَجَب عندى إذا قلد السيف

وقال :

رعى الله معطار النسيم فإنه رأى من غصون البان ما شاء من عطف
وأبدى حديث الغيث وَهْوَ مُسَلسل لذاك لعمرى ليس يخلو من الضعف

وترشحت التورية بكون المحدثين يقولون « الحديث المسلسل لا يخلو من الضعف ، ولو فى التزام التسلسل ، مع كون متن الحديث صحيحا » كما قرر فى محله .

وقال رحمه الله تعالى :

نظرت إلى روض الجمال بوجهه وسَقَّيته دمعا به العين تكلف
فصحَّ حديثُ الحسن عن ورد خدّها وإن كان أضحى وهو راو مضعف

وقال رحمه الله تعالى :

بدا عارض المحبوب فاحمرَّ خجلة وأهدى لنا وردا به الحسن ناهض
فقلت له لا تنكر الورد ناضرا فقد سال فى خديك من قبلُ عارضُ

وقال :

النوم عن إنسان عينى نافر كالوحش ليس يقارب الإنسانا
والدمع منها فاض طوفانا فلا عجب إذا ما غرّق الأجفانا

---

(١) مجنون ليلى : لقب غلب على قيس بن الملوح ، و « مجنون ليلي » فى هذا البيت من إضافة الشىء إلى زمان وقوعه ، وكان حقه أن يكتب « مجنون ليلة » إلا أن قصد التورية دعا إلى هذا التغيير .

وقال رحمه الله تعالى :

بكت شجنا فعاض الدمع يحكى ... يتـامى الدر إذ يَهْوِى تُؤاما[1]

وسَلَّتْ من محاجرها سـيوفا ... فخفت على المحاجر واليتامى

وقال القاضى خالد البلوى رحمه الله تعالى : من نظم صاحبنا أبى إسحاق بن الحاج النميرى يخاطب شيخه وشيخنا أيضاً صاحبَ ديوان الإنشاء الإمامَ جمالَ الدين إبراهيم بن الإمام العلامة صاحب ديوان الإنشاء ملك الكلام قس الفصاحة شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبى ، وقد تقرب إليه فى قصد الرواية عنه :

إلى ابن شهاب الدين طال تغربى ... فلما سَرَتْ عِيسِى له وركابى

رويت حديث الفضل عنه فصحَّ لى ... كما شئت مرويا عن ابن شهاب

وقوله يخاطب كمال الدين بن جمال الدين المذكور :

أشبهت والدك الرضا فى فضله ... وأخذته عنـه بخير مناب

وملكتنى فحديث فضلك فى الورى ... عن مالك يروى عن ابن شهاب

وقال رحمه الله تعالى :

لعمرك ما ثغـره باسم ... ولـكنه حَبَبٌ لاعب

ولو لم يكن ريقـه مسكرا ... لما دار من حوله الشارب

وقال رحمه الله تعالى ملغزاً فى القلم :

سألتك ما واش يراد حديثه ... ويهوى الغريبُ النازحُ الدارِ إفصاحَهْ

تراه مدى الأيام أصفر ناحـلا ... كمثل عليل وهو قد لازم الراحه

وقال وقد وقف حاجب السلطان على عين ماء ببعض الثغور وشرب منها :

تعجبت من ثغر هذى البلاد ... ومولاى من عينهـا شارب

---

(١) التؤام : جمع توءم ، وهو الذى معه نظيره ، مثل قولهم « زوج » وانظر إلى قول البحترى :

غرائب من فنون النبت فيها ... جني الزهر الفرادى والتؤاما

فلله ثغر أرى شاربا وعين بدا فوقهـــا حاجب

وقال :

وحمراء فى الكأس مشمولة تحث على العود فى كل بيت
فلا غرو أن جاءنى سابقا إلى الأنس خل يحث الكميت

وقال :

بروضتنا الظَّمْياء طال اكتئابنا فلله غيث ميتَ آمالنـــا أحيا
وأشبه مهيارا فيها تلك عينه تفيض إذا شام البروق على ظميا

وقال :

أثنان عَزَّا فلم يظفر بنيلهما وأعوزا مَنْ هما فى الدهر مطلبه
أخ مودته فى الله صادقة ودرهم من حلال طاب مكسبه

وقال مورّيا بالقائد نافع على ما اختاره البخارى وجماعة أن أصح الأسانيد مالك عن نافع[1] :

عن نافع أَسْنِدْ حديثَ أحبتى يا مالكا رِقِّى بحسن صنائع
فأجَلُّ إسناد وخير رواية عندى رواية مالك عن نافع

وقال :

إنى لأعجب من فعالك فى الهوى لما حللت بحسن ذاتك ذاتى
ونفيت نومى ثم أثبتَّ الأسى فجمعت بين النفى والإثبات[2]

وقال :

ألا معصم للصب من وَشْى معصم أطلت إليه نظرة المتوسم
فأبقت به عينى حُلَى من سوادها وبعض سوادٍ وَسْطُ قلبى المتيم

---

(١) قد ذكرنا فيما مضى أن المحدثين يسمون الإسناد « مالك عن نافع عن ابن عمر » سلسلة الذهب (٢) اجتماع النفى والإثبات على شىء واحد فى وقت واحد محال ؛ لأنه جمع بين النقيضين ، وهذا من اصطلاح المناطقة

وليس خضابا ما علاه ، وإنما جرى فيه بعد الدمع ماعز من دمى
ولم يعدمنى اللون لون سواده خلا أننى أشقى وقيل له أُنعم

وقال وقد جاء الشاعر المفلق أبو العباس أحمد بن عبد المنان بيت الكتاب وفى عينه خضرة :

أيا أحمدُ المرتَضَى للعلا ومَنْ حاز فى صنعهِ كلَّ زين
تراءيت فى العلم روضا نضيرا فلا تنكرن خضرة حول عين

وله فيه :

لك الخير عدم السبك أبدل ناظرى زمردة مخضرةً من لجينهِ
فلا تنكروا ما راع من ذاك إننى لصائغ تبر القول ناقد شينه
ولا عجب إن أعوز السبك صائغاً فأوجب عدم السبك خضرة عينه (١)

وقال فيمن يعرف بالصهال :

ألا رب فرسان توافوا فأدركوا مع الليل أوتارا لهم دون إمهال
وأجْروا بصهال كميتا كما ابتغوا فلا تنكروا الإجراء منهم بصهال (٢)

ولما كتب الرئيس الكاتب الجليل أبو عبد الله العزفى مداعبا :

يا عصبة كل فتى منهم عَلَمْ فرغتمُ من كتبكم ردوا القلم

أجابه ابن الحاج المذكور بقوله :

ألا احتسبوا ما قد أعرتم لفتية تَكَرَّمَكم بالصفح عن فعلهم قاضى
ولا تطمعوا فى الرد فالناس كلهم رأوا أن مولانا له القلم الماضى

وقال الوادى آشى : مما نقلت من خط الكاتب العلامة الصدر البارع الحاج

(١) أعوزه : عز عليه ولم يجده .
(٢) أصل الصهال الفرس ، ومن هنا جاءت التورية .

القاضى الناظم الناثر الجامع للمحاسن والمفاخر أبى إسحاق إبراهيم بن الحاج النميرى ما نصه : كتب إلى الفاضل النخبة أبو الفضل بن رضوان متمثلا بقول المأمون :

* ملك الثلاث الآنسات عنانى * (١)

فكتبت إليه فى التورية :

هنيئاً لك البشرى بهنّ فدم كما تريد بنعمى للسعادة جامعه

وإن كنت من أهل الصلاح فلا تكن بمائل قلب منك عن حب رابعه

فأجابنى بقوله :

ياسيدى ذكرتنى بالرابعه لعلها لكل خير جامعه

إنى أخاف أن تكون باقعه فتفرك المغازل المطاوعه (٢)

ولابن الحاج المذكور من قصيدة طويلة :

لمن الخيام سطت ببيض صفاح وارت سواداً غال كلّ صباح

إن مزقت رقعت بنقع كتائبٍ أو قوضت عمدت بسمر رماح

وله فى رثاء الطبيب ابن عمار ، واقترح عليه ذلك ابن جُزَى :

ألا أسعدا عينى على السهد والبكا فقد واصل السهد المبرّحُ تذكارى

وأبدى الردى فتك ابن عباد أُذسطا فلا غرو أن أبكى لفقد ابن عمار

وقال مما يكتب فى الترس :

أنا الترس قد أنشئت بالأمر عُدَّة ليوم جهاد مطلع غرة النصر

فلاقوا بى الأعداء فى زَحْفهم ولا تبالوا بقرع الزرق والبيض والسمر

ولا تنكروا سترى لمقتل حاملى ففى أُسمى كما شاهدتم أحرف الستر

---

(١) تكملة هذا قوله : * وحللن من قلبى بكل مكان *

(٢) الباقعة : الداهية . وتفرك : تغضب وتكره .

وله يهنى السلطان أبا عنان أمير المؤمنين المَرِينى بالإبلال من المرض :

مطالب إلا أنهن مواهب ... قضى الله أن تقضى ، فنعم المطالب

شفاء أمير المؤمنين وإنه ... لأكرم من تُحْدَى إليه الركائب[1]

وكم قلت غاب البدر والشمس ضلة ... ورانَتْ على قلبى الهموم النواصب

ولم يَغِبا لكن شكا الضر فارس ... وأوحش منه مجلس الملك غائب

لك الله يا خير الملوك وخير مَنْ ... تحنّ له حتى العتاق الشوازِب[2]

وقَلَّ لمن وافى بشيرا نفوسنا ... فما هى إلا بعض ما أنت واهب

أقول لجرد الخيل قُبًّا بطونها ... معقدة منها لحرب سباسب

طوالع من تحت العجاج كأنها ... نَعام بكُثْبان الصَّريم خواصب

مُحَجَّلة غرًّا كأن رِعالها ... بحار جرَتْ فيها الصبا والجنائب

من الأعْوَجِيَّات الصَّوَافن ترتمى ... إذا رجفت يوم القراع مقانبُ

هنيئا فقد صح الإمام الذى به ... تُفَلُّ السيوف المرهفات القواضب

ومستأصل الفل المُغِذِّ جياده ... لضرب كما ترغو الفحول الضوارب

ومن حطم السُّمْر الطوال كعوبها ... بطعن كما امتاح الركية شارب

وكرّ على أرض العدا بفوارس ... كأنهمُ فى الحرب أسْدٌ غوالب

كأن ظباهم فى الهياج أكفهم ... تجود وأرواح العداة مواهب

كأن رماح الخط أحسابهم ، وما ... حوت من نفوس المعتدين مناقب

هم ماهم ، حَدِّثْ عن البحر أو بنى ... مَرِينٍ فنَهْجُ القول أبلج لا حب

من البيت شادت قيس عيلان فخره ... فطالت معاليه وطابت مناسب

وأحيا له ملك الخليقة فارس ... مآثر غالتها الليالى الذواهب

---

(١) تحدى — بالبناء للمجهول — تساق .

(٢) العتاق : الجياد ، والشوازب : الضامرة اليابسة ، واحدها شازب ، ووقع فى ب « الشوارب » بالراء المهملة — تحريف .

كريم فلا الحادى النجائب مخفق لديه ، ولا المُضْنِى الركائِبِ خائبُ
أرى بذله النعمى فقضت مكاسب أرى بأسه الأنضى فقضت كتائب
أنامله يروى الورى صَوْبَ جودها فلولا دوام الرأى قلت السحائب
وكم خلت برقا فى الدجى نور بشره تَشِيمُ سناه الناجيات النجائب (١)
فأخجلنى أنى أرى البرق خُلَّباً فلا الصوب هام لا ولا الجود ساكب
أعرنى أمير المؤمنين بلاغة فإنىَ عن عجز لمدحك هائب
وأنطق لسانى بالبيان معلما فإنى فى التعليم للجود راغب
وكيف ترى لى بعدُ فى الجود رغبة وجودك لى فوق الذى أنا طالب
وقد شبت الآمال إذ شبت ثم إذ تفقدتها لم يدر ما شب شائب
بلغت بك الآمال حتى كأنها وقد صدَقَتْ ما شئت صدقا كواذب
عجبت وما تولى ، وأوليت معجبا فلا برِحَتْ تنمو لديك العجائب
وحسبى دعاء لو سكتُّ كُفيتُهُ كما قيل لكن فى الدعاء مذاهب
وما أنا إلا عبدك المخلص الذى يراقب فى إخلاصه ما يراقب
فخذها تبثُّ العذر لا المدح ؛ إنه هو البحر قُلْ هل يجمع البحرَ شاجبُ
بقيت بقاء الدهر ملكك قاهر وسيبك فياض وسيفك غالب
وعوفيت من ضر وأعطيت أجره ولا روَّعَتْ إلا عداك النوائب

وقال رحمه الله تعالى :

ولولا ثلاث جاء جبريل سائل لخير الورى عنها لآثَرْت فقدانى (٢)
مقامات إسلام أريد لفعله ثوابا وإيمان أديم وإحسانى

(١) خلت : ظننت ، وتشيم : تنظر أين يقع مطره ، هذا أصله ، والمراد هنا مجرد النظر ، والناجيات : جمع ناجية ، وهى السريعة السير ، والنجائب : جمع نجيبة وهى الكريمة الأصل . (٢) يشير إلى حديث عمر بن الخطاب أن جبريل جاء فسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان ، رواه الشيخان ، وهو أول حديث فى الأربعين النووية .

وقال رحمه الله تعالى : أنشدنى السلطانُ أميرُ المؤمنين أبو عنان فارس ابن أمير المسلمين أبى الحسن المرينى رحمهما الله تعالى :

يا ملما بأرض تلك البلاد حَىِّ فاسا وحَىِّ أهل الوداد[1]

إن تناءت بشخصها عن عيانى فحماها مُصَوَّر فى فؤادى

قلت : تذكرت بهذا البحر والروى والغرض قولَ الفقيه الكاتب العلامة الناظم الناثر أبى عبد الله محمد بن يوسف الثغرى كاتب سلطان تلمسان أمير المسلمين أبى حَمُّو موسى بن يوسف الزيانى يمدحه ويذكر تلمسان المحروسة :

قصيدة لمحمد ابن يوسف الثغرى، يمدح أباحمو سلطان تلمسان

أيها الحافظون عهد الوداد جدّدوا أنسنا بباب الجياد[2]

وصِلُوهَا أصائلا بليال كلآلٍ نظمن فى الأجياد[3]

فى رياض مُنَضَّدات المجانى بين تلك الربا وتلك الوهاد

وبروج مُشَيَّدات المبانى باديات السنى كشهب بَوَاد

رق فيها النسيب مثل نسيبى وصفا النهر مثل صفو ودادى

وزها الزهر والغصون تثنت وتغنت عليه وُرْقٌ شَوَاد

وانبرى كل جدول لحسام عارىَ الغمد سندسىّ النجاد

وظلال الغصون تكتب فيه أحرفا سُطِّرت بغير مداد

تذكر الوشم فى معاصم خَوْدٍ قضب فوقه ذوات امتداد

وكؤس المنى تُدَار علينا بجنى عفـة ونقل اعتقاد

واصفرار الأصيل فيها مُدَام وصفير الطيور نغمة شاد

كم غَدَوْنَا بها لأنس ورحنا جادها رائح من المزن غاد

ولـكم روحة على الدوح كادت أن تريح الصبا لنا وَهْوَ غاد

رقت الشمس فى عشاياه حتى أحدثت منـه رقة فى الجماد

---

(١) ألم بالدار إلماما : نزلها وزارها .

(٢) باب الجياد : أحد أبواب فاس (٣) الأجياد : الأعناق ، واحدها جيد .

جددت بالغروب شجو غريب هاجه الشوق بعد طول البعاد(١)

يا حَيَا المزنِ حَيِّهَا من بلاد غرس الحب غرسها فى فؤادى

وتعاهَدْ معاهد الأنس منها وعهود الصبا بصَوْب العِهاد(٢)

حيث مغنى الهوى وملهى الغوانى ومَرَاد المنى ونيل المراد

ومقر العلا ومرقى الأمانى ومجرّ القنا ومجرى الجياد

كل حسن على تلمسان وَقْفٌ وخصوصا على ربى العباد

ضحك النَّور فى رُبَاها وأربى كهف ضحا كها على كل ناد

وسما تاجها على كل تاج ونما وهدها على كل واد

يدّعى غيرها الجمال فيقضى حسنها أن تلك دعوى زياد

وبشعرى فهمت معنى علاها من حلاها فهمت فى كل وادى

حَضْرة زانها الخليفة موسى زينةَ الحلى عاطلَ الأجياد

وحبَاها بكل بذل وعدل وحماها من كل باغ وعاد

ملك جاوز المَدَى فى المعالى فالنهايات عنده كالمبادى

مَعْقِل للهدى منيع النواحى مظهر للعلا رفيع العماد

قاتل المحل والأعادى جميعا بغرار الظبا وغرّ الأيادى

كلما ضنت السحائب أغنت راحتاه عن السحاب الغوادى

كم هبات له وكم صدقات عائدات على العُفَاة بواد

فأيادى خليفة الله موسى أبحرٌ عَذْبة على الوراد

ركب الجود فى بسيط يديه فتلافى به تلاَفَ العباد

جل باريه ملجأ للبرايا كالحيا ضامنا حياة البلاد

---

(١) الشجو — بالفتح — الحزن .

(٢) العهاد : المطر .

جل مَنْ خَصَّه بتلك المزايا باهرات من طارف وتلاد
شيم حلوة الجنى وسَجَايا شهد المجد أنها كالشِّهاد[١]
يا إمام الهدى وشمسَ المعالى وغمام الندى وبدر النادى
لك بين الملوك سر خفى ليس معناه للعقول بباد[٢]
فكأن البلاد كَفُّكَ مهما كان فيها من ينتمى لعناد[٣]
قبضت كفك البنان عليه فأتى بالإذعان حِلْفَ انقياد
بكم تصلح البلاد جميعا إن آراءكم صلاح البلاد
لم تزل دائما تحنّ إليكم كحنين السقيم للعوّاد
لو أعينت بمنطق شكرتكم مثل شكر العفاة للأجواد
قد أطاعتكم البلاد جميعا طاعة أرغمت أنوف الأعادى
فأريحوا الجياد أتعبتموها وأقِرُّوا السيوف فى الأغماد
واهنئوا خالدين فى عز ملك قائم السعد دائم الإسعاد
وإليكم من مذهبات القوافى حِكَماً سَهَّلت ليان المقاد
كل بيت من النظام مشيد عطر الأفق بالثناء المجاد
ذو ابتسام كزهر روض مَجُودٍ وانتظام كسلك در مجاد

لأبى المكارم منديل فى فاس

ولأبى المكارم منديل ابن الإمام الشهير صاحب المقدمة الآجرومية قصيدة فى المنحى وافقت قصيدة الثغرى فى البحر و بعض المطلع ، فلا ندرى أيهما نسج على منوال الآخر ؛ إذهما متعاصران ، إلا أن ذاك قالها فى تلمسان ، وهذا فى مدينة فاس ، وهى :

أيها العارفون قَدْر الصَّبوح جَدِّدوا أنسنا بباب الفتوح

---

(١) الشهاد — بالكسر ، بزنة الكتاب — العسل .

(٢) بدا يبدو فهو باد : ظهر .

(٣) ينتمى : ينتسب .

يعنى بباب الفتوح أحَدَ أبواب فاس ، كما أن باب الجياد فى كلام الثغرى أحد أبواب تلمسان .

ثم قال ابن آجروم بعد المطلع :

جددوا ثم أنسنا ثم جدوا ... يَسْرَح الطرف فى مجال فَسيح (١)

حيث شابت مفارق اللوز نورا ... وتساقطن كاللجين الصريح (٢)

وبدا منه كلما أحمر يحكى ... شفقا مزقته أيدى الريح

وكأن الذى تساقط منه ... نُقَطٌ لُحُنَ من دم مسفوح (٣)

وإذا ما وصلتم للمصلى ... فلتحلوا بموضع التسبيح

وبطيفورها فطوفوا لكيما ... تبصروا من ذَرَاه كل سطوح (٤)

ولتقيموا هناك لمحة طرف ... لتردُّوا به ذماء الروح (٥)

ثم حطوا رحالكم فوق نهر ... كَلَّ فى وصفه لسانُ المديح

فوق حافاته حدائق خضر ... ليس عنها لعاشق من نزوح (٦)

وكأن الطيور فيها قِيانٌ ... هتفت بين أعجم وفصيح

وهى تدعوكم إلى قبة الجوْ ... زِ هَلُموا إلى مكان مليح

فيه ما تشتهون من كل لون ... مغلق فى الكمام أو مفتوح

وغصون تهيج رقصا إذا ما ... سمعت صوت كل طير صَدُوح

فأجيبوا دعاءها أيها السر ... ب وخَلُّوا مقال كل نصيح

واجنحوا للمجون فهو جدير ... وخليق من مثلكم بالجنوح

واخلعوا ثَمَّ للتصابى عِذارا ... إن خلع العذار غير قبيح

---

(١) الطرف — بالفتح — العين ، والمجال — بفتح الميم — المكان الذى تجول فيه : أى تتحرك ، وفسيح : واسع . (٢) اللجين — بزنة التصغير — الفضة .
(٣) دم مسفوح : سائل . (٤) ذرى كل شى : أعلاه .
(٥) الذماء — بالفتح — بقية الروح (٦) النزوح : البعد .

و إذا شئتمُ مكاناً سـواه هوأجلى من ذلكم فى الوضوح
فاجمعوا أمركم لنحو خليج جاء كالصِّلِّ من قفار فسيح (١)
عطرت جانبيـه كف الغوادى بشَذَا عَرْف زهرها الممنوح
قل لمهيار إن شممت شذاها قول مستخبر أخى تجريح
أين هذا الشَّذَا الذكى من القيصوم والرند والغضى والشِّيح (٢)
حبـذا ذلك المهاد مهادا بين دان من الربا ونَزُوح
ثم من ذلك المهاد أفيضوا نحو هَضْب من الهموم مريح
فيـه للحسن دَوْحة وروايا وانشراح لذى فؤاد قريح
وحجار تدعى حجـار طبول غير أن التطبيل غير صحيح
تنثر الشمس ثم كل غدير زعفرانا مبللا بنضـوح
وسوى مَنْ هناك يسبى عقولا ويجـلى لحاظ طرف طموح
وعيون بها تقر عيـون وكلاها يأسو كلوم الجريح
فرشت فوقها طَنَافس زهـر ليس كالعهن نسجها والمسوح
كلما مر فوقهن طَليح عاد من حسنهن غير طليح
فانهضوا أيها المحبون مثلى لترى ذات حسنها المملوح
هكذا يربح الزمان و إلا كل عيش سواه غير ربيح

للثغرى يمدح تلمسان وسلطانها

وما أحسن قول الكاتب الثغرى يمدح تلمسان وسلطانها المذكور آنفا :

تاهت تلمسان بحسن شبابها وبدا طراز الحسن من جلبابها
فالبشر يبدو من حباب ثغورها متبسما أو من ثغور حبابها
قد قابلت زهر النجوم بزهرها و بروجها ببروجها وقبابها
حسنت بحسن مليكها المولى أبى حمو الذى يحمى حمى أربابها

---

(١) الصل — بكسر الصاد — الثعبان (٢) القيصوم، والشيح: من نبات البادية ، والغضى : شجر شديد الاتقاد سريعه ، والرند : زهر .

ملك شمـــائله كزهر رياضها ونَدَاه فاض بها كفيض عُبَابها[١]

أعلى الملوك الصِّيد من أعلامها وأجلها من صفوها ولُبَابها[٢]

غارت بغرة وجهه شمس الضحى وتنقبت خجلا بثوب ضبابها

والبدر حين بدت أشعتها له حسنا تضاءل نوره وخبَابها[٣]

لله حضرته التى قد شرفت خدامها فسَمَوْا بخدمة بابها

فاللثم فى يمنـــاه يبلغها المنى والمدح فى علياه من أسبابها

للثغري في مدح سلطان تلمسان أيضا

وللثغرى المذكور قصيدة لامية بديعة فى مدح السلطان أبى حمو ، ووصف بلاد تلمسان ، وأجاد فيها إلى الغاية ، وهى :

قم مبصرا زمن الربيع المقبل ترما يسر المجتنى والمجتـــلى

واشْقَ نسيم الروض مطلولا وما أهداك من عَرْف وعرف فاقبل

وانظر إلى زهر الرياض كأنه در على لبات ربات الحـــلى

فى دولة فاضت يداها بالندى وقضت بكل مُنًى لـكل مؤمل

بسطت بأرجاء البسيطة عدلها وسطت بكل معاند لم يعـدل

سلطانها المولى أبو حمو الرضا ذو المنصب السامى الرفيع المعتلى

تاهت تلمسان بدولتـــه على كل البلاد بحسن منظرها الجلى

راقت محاســنها ورقَّ نسيمها فحلا بها شعرى وطاب تغزلى

عرج بمنعرجات باب جيادها وافتح بها باب الرجاء المُقْفَلِ

ولتغد للعباد منها غـــدوة تصبح همومُ النفس عنك بمعزل

وضريح تاج العارفين شعيبها زره هناك فحبـــذا ذاك الولى

فمزاره للدين والدنيا معـــا تمحى ذنوبك أو كروبك تنجلى

---

(١) شمائله : طبائعه وسجاياه ، واحـدها شمال ، والندى : الجود والـكرم ، والعباب — بالضم بزنة غراب — معظم ماء البحر أو موجه .

(٢) لباب كل شيء : خالصه . (٣) خبا : سكن .

و بكهفها الضحاك قف متنزها ... تسرح نفوسك فى الجمال الأجمل

وتمشَّ فى جناتهـا ورياضها ... واجنح إلى ذاك الجناح المخضل(١)

تسليك فى دَوْحاتها وتِلاعهـا ... نغم البلابل واطراد الجـدول(٢)

و بر بوة العشاق سـلوة عاشق ... فتنت وألحاظ الغزال الأكحل

بنواسم و بواسم من زهـرها ... تهديك أنفاسا كعَرْفِ المندل(٣)

فلو امرؤ القيس بن حجر راءهـا ... قدما تسلَّى عن معاهد مأسل

لو حام حـول فنائها وظبائها ... ما كان محتفلا بحومـة حومل

فاذ كر لهـا كلفى بسقط لوائها ... فهواى عنها الدهرَ ليس بمُنْسَلِ

كم جاد لى فيها الزمان بمطلب ... جادته أخلاقُ الغمام المسبل

واعمد إلى الصفصيف يوما ثانيا ... و به تسلَّ وعنـه دأبا فاسأل

وادٍ تراه من الأزاهر خاليا ... أحْسِنْ به عُطُلاً وغيرَ معطل

ينساب كالأيم انسيابا دائما ... أو كالحسام جلاه كف الصَّيْقَل

فزلاله فى كل قلب قد حلا ... وجماله فى كل عين قد حَلِي

واقصـد بيوم ثالث فوّارة ... و بعذب منهلها المبارك فانهل

تجرى على در لجينا سائلا ... أحلى وأعذب من رحيق سلسل

واشرف على الشرف الذى بإزائها ... لترى تلمسان العلية من عَلِ

تاج عليـه من المحاسن بهجة ... أحْسِنْ بتاج بالبهـاء مكلل

و إذا العشية شمسها مالت فمل ... نحو المصـلى ميلَةَ المتمهل

و بملعب الخيل الفسيح مجاله ... أجِلِ النواظر فى العتاق الحفَّلِ

فلحلبة الأشراف كل عشية ... لعب بذاك الملعب المتسهل

---

(١) أخضل الشىء : ابتل ، وأخضلته : بللته ، لازم متعد .

(٢) الدوحات : جمع دوحة ، وهى الشجرة العاليـة الوارفة ، والتلاع : جمع تلعة — بالفتح — وهى ما علا من الأرض .

(٣) العرف — بالفتح — طيب الرائحة ، والمندل — بزنة جعفر — من عود الطيب

فترى المجلى والمصلى خلفه وكلاهما فى جريه لا يأتلى(١)

هـــذا يكر وذا يفر فينثنى عطفا على الثانى عنان الأول

من كل طِرْف كلَّ طَرْف يستبى قيد النواظر فتنة المتأمل

وَرْد كأن أديمَهُ شَفَق الدجى أو أشهب كشهاب رجم مرسل

أو من كُمَيْتٍ لا نظير لحسنه سام معم فى السوابق مخول(٢)

أو أحمر قانى الأديم كعسجد أو أشقر يزهو بعرف أشعل

أو أدهم كالليـــل إلا غرة كالصبح ، بورك من أغر محجل

جمع المحاسن فى بديع شِياته مهما ترقَّ العين فيه تسهل(٣)

عقبان خيل فوقها فرسانها كالأسد تنقضُّ انقضاض الأجدل

فرسان عبد الواد آساد الوغى حامو الذمار أولو الفخار الأطول

فإذا دنت شمس الأصيل لغربها فإلى تلمسان الأصيلة فادخل

من باب ملعبها لباب حديدها متنزها فى كل ناد أحفــل

وتأنَّ من بعد الدخول هنيهة واعدل إلى قصر الإمام الأعدل

فهو المؤمل والديار كناية والسر فى السكان لا فى المنزل

فإذا أمير المؤمنين رأيته فالثم ثرى ذاك البساط وقَبِّلِ

فالحمد لفظ فى الحقيقة مجمل وحُلاَه تفصيل لذاك المجمل

بشرى لعبد الواد بالملك الذى خلصوا به من كل خطب معضل

بأعزهم جارا وأمنعهم حمى وأجلهم مولى وأعظم موئل

بالعادل المستنصر المنصور والـــمأمون والمهدىِّ والمتوكل

(١) المجلى : اسم لأسبق خيل الحلبة ، والمصلى : اسم للفرس الثانى ، ولا يأتلى : لا يقصر . (٢) معم مخول : يراد أنه كريم الأبوين .

(٣) أخذ عجز هذا البيت من قول امرىء القيس فى وصف فرس :

ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه متى ما ترق العين فيه تسهل

ووقع فى ب « مهما ترف » تحريف .

وكفاهم سعـدا أبو حمو الذى يحمى حماهم بالحسام الفيصل
وبحسن نيته لهم وبجـده وبسعده وبسعيه المتقبـلِ
ذو الهمة العليـا التى آثارها حلت به فوق السماك الأعزل[1]
بحر الندى الأخلى وفخر المنتدى وسَنَا الدجى الأجلى وزين المحفل
ينهلُّ منه لنا الجدا وبه الدجى تجلى بمُشْرِقِ وجهـه المتهلل
هنئ به زمن الربيع وقـل له بشرى بأملح من حلاك وأجمل
وعلى علاه من صنيعة فضـله ترداد نافحة السلام الأكمل[2]

للمزدغى فى مدينة فاس

وكأنه عارض بهذه القصيدة قطعـة فى بحرها ورويها فى مدح مدينة فاس لبعض العلماء ، وأظنه القاضى المزدغى ، وهى :

يا فاس حيا الله أرضك من ثرى وسقاك من صَوْب الغمام المُسْبِلِ
يا جنة الدنيا التى أربت على حمص بمنظرها البهى الأجمل
غرف على غرف ويجرى تحتها ماء ألذ من الرحيق السلسـل
وبَسَاتن من سندس قد زخرفت بجـداول كالأيم أو كالفيصل
وبجامع القروين شرف ذكره أنس بذكراه يهيج تملـلى
وبصَحْنه زمن المصيف عجائب فمع العشىِّ الغرب فيه استقبل
واشرب بتلك البيلة الحسنا به واكرع بها عنى فديتك وانهل

وقد تمثل لسان الدين رحمه الله تعالى فى مدينة فاس بقول القائل :

بلد أعارته الحمامـة طوقها وكساه ريشَ جناحِهِ الطاوُوس
فكأنما الأنهار فيـه مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس

للسان الدين فى تلمسان

وما أحسن قوله ـ أعنى لسان الدين ـ فى مدح تلمسان :

حيا تلمسان الحيـا فربوعُهَا صدف يجود بدرها المـكنون

---

(١) السماك ـ بكسر السين ـ كوكب نير ، وهما سماكان يقال لأحدهما : السماك الأعزل ، وللآخر : السماك الرامح (٢) النافحة : ذات الريح الطيب .

ماشئت من فضل عميم إن سَقَى أرْوَى ومَنٍّ ليس بالممنون(١)

أوشئت من دين إذا قدح الهدى أورى ودنيا لم تكن بالدون

وَرَدَ النسيمُ لها بنشر حديقة قد أزهرت أفنانها بفنون

و إذا حبيبة أم يحيي أنجبت فلها الشفوف على عيون العِينِ

يعنى بحبيبة أم يحيي عَيْنَ ماء بتلمسان من أعذب المياه وأخفها ، وكانت جارية بالقصور السلطانية ، ولم تزل إلى الآن منها بقية آثار ورسوم ، والبقاء لله تعالى وحده .

للتلاليسى فى مدح تلمسان

وممن مدح تلمسان الحاجُّ الطبيبُ أبو عبد الله محمد بن أبى جمعة الشهير بالتلاليسى رحمه الله تعالى ، إذ قال :

سقى الله من صوب الحيا هاطلا وَبْلاَ ربوع تلمسان التى قدرها استعلى

ربوع بها كان الشباب مُصَاحبى جررت إلى اللذات فى دارها الذيلا

فكم نلت فيها من أمان قصية وكم مَنَحَ الدهرُ الضنين بها النيلا

وكم غازلتنى الغيد فيها تلاعبا وكل عذول لا أطيع له قولا

وكم ليلة بتنا على رغم حاسد ندير كؤسَ الوصل إذ بالصفا تُملاَ

وكم ليلة بتنا بصفصيفها الذى تسامى على الأنهار إذ عدم المثلا

وكدية عشاق لها الحسن ينتهى يعود المسن الشيخ من حسنها طفلا

نَعَمْ ، وغدير الجوزة السالب الحجا نعمت بها طفلا وهمت بها كهلا

ومنه ومن عين أم يحيى شرابنا لأنهما فى الطيب كالنيل بل أحْلَى

وعبادها ما القلب ناسٍ ذِمامه به روضة للخير قد جعلت حِلاًّ

به شيخنا المذكور فى الأرض ذكره أبو مدين أهلا به دائما أهلا

---

(١) من ليس بالممنون : عطاء لامنة فيه ولا تنغيص ، أوعطاء لا ينقطع .

(٢) قصية : بعيدة ، ومنح : أعطى ، والضنين : البخيل

(٣) تملا : أصله تملأ — بالهمز — فسهل الهمزة بقلبها ألفا

لها بهجة تزرى على كل بلدة ... بتاج عليها كالعروس إذا تُجْلَى
فياجنة الدنيا التى راق حسنها ... لحازت على كل البلاد به الفضلا
ولاعجب أن كنت فى الحسن هكذا ... وموسى الإمام المرتضى فيك قد حَلَّا
ولاحت لدينا فيك منه محاسن ... كأن سناها حاجب الشمس إذ جلى
مطاع شجاع فى الوغى ذو مهابة ... حسام على الباغين فى الأرض قد سُلَّا
كريم حليم حاتمى نواله ... سعيد حميد يصدق القول والفعلا
له راحة كالغيث ينهلُّ وَدْقُها ... وصارم نصر مرهف الحد لا فُلَّا[(١)]
هو الملك الأرقى هو الملك الرضا ... هو الملك الأسنى هو الملك الأعلى
ومَنْ هذه الأوصافُ فيه تجمعت ... حقيقا على كل المعالى قد استولى
إمام حَبَـاه الله ملـكا مؤزرا ... فلا ملك إلا لعـزته ذلا
من الزاب وافانا عزيزا مظفرا ... يجر من النصر المَنُوط به ذيلا[(٢)]
بدت لمليك الغرب شدة بأسه ... وإنعامه للمعتفين وما أولى
فبَادَرَهُ بالصلح خوف فواته ... وسالمه إذ كان ذاك به أولى
فكان بحمد الله صلحا مُهنَأً ... به طابت الدنيا وجزنا به السبلا
له فى المعالى رتبـة لا ينالها ... سواه وكُتْبٌ فى فضائله تتلى
أطاعته كل الأنام تبادرت ... فيا سعد من وافى ويا ويح من وَلَّى
أحُسَّاده موتوا فإن قلوبكم ... بجمر الغضى مما بها أبدا تصلى[(٣)]
لقد جبر الله البلاد بملكه ... به ملئت أمناً ، به ملئت عدلا
فلا زال هذا الملك فيه مخلدا ... وصارمه الأمضى وخادمه الأعلى

ومما مدحت به تلمسان قولُ الإمام الصوفى أبى عبد الله محمد بن خميس الذى قدمنا

---

(١) ينهل : ينسكب ، والودق : ماء المطر ، والصارم : السيف القاطع ، ومرهف الحد : مرققه ومحدده ، و « لافلا » دعاء له بأن يبقى على السلامة

(٢) ناطه به : علقه (٣) تصلى : تحرق

لابن خميس ذكره فى هذا الكتاب وبعض ما يتعلق به ، وذكرنا أيضاً فيما مر بعض أمداحه لها :

فى مدح تلمسان

تلمسان جادتك السحاب الروائح وأرْسَتْ بِوَاديك الرياحُ اللواقح (١)
وسح على ساحات باب جيادها مُلِثٌّ يصافى تربها ويصافح
يطير فؤادى كلما لاح لامع وينهل دمعى كلما ناح صادح (٢)
ففى كل شفر من جفونى مائح وفى كل شطر من فؤادى قادح
فما الماء إلا ما تسحُّ مدامعى ولا النار إلا ما تُجِنُّ الجوانح (٣)
خليلى لا طيف لعلوة طارق بليل ولا وجه لصبحىَ لائح
نظرت فلا ضوء من الصبح ظاهر لعينى ولا نجم إلى الغرب جانح (٤)
بحقكما كُفَّا الملام وسامحا فما الخل كل الخل إلا المسامح
ولا تعذلانى واعذرانى فقلما يرد عنانى عن عُلَية ناصح
كتمت هواها ثم بَرَّحَ بى الأسى وكيف أطيق الكتم والدمع فاضح
لساقية الرومى عندى مزية وإن رغمت تلك الرواسى الرواشح
فكم لى عليها من غدوٍّ وروحة تساعدنى فيها المنى والمنائح
فطرف على تلك البساتين سارح وطرف إلى تلك الميادين جامح
تحَارُ بها الأذهان وهى ثواقب وتهفو بها الأحلام وهى بوارح
ظباء مغانيها عَوَاطٍ عواطف وطير مجانيها شوادٍ صوادح
تقتلهم فيها عيون نواظر وتبكيهمُ منهم عيون نواضح
على قرية العباد منى تحية كما فاح من مسك اللطيمة فائح
وجاد ثَرَى تاج المعارف ديمة تغص بها تلك الربا والأباطح

(١) لواقح : جمع لاقحة ، والمراد أنها تحمل لقاح النبات ، وفى القرآن الكريم : « وأرسلنا الرياح لواقح »
(٢) الصادح : المغنى ، وأراد الطير
(٣) تجن الجوانح : تخفى وتكتم
(٤) جنح للغروب : مال

إليك شعيب بن الحسين قلوبُنا ... نوازعُ لـكنَّ الجسوم نوازح[1]
سعيت فما قصرت عن نيل غاية ... فسعيك مشكور وتجركَ رابح
نسيت وما أنسى الوريط ووقفة ... أنافح فيهـا روضَهُ وأفاوح
مطلا على ذاك الغدير وقد بدت ... لإنسان عينى من صَفاهُ صفائح
أماؤك أم دمعى عشية صَدَّقت ... عليـةُ فينا ما يقول المـكاشح
لئن كنت ملآ نا بدمعىَ طافحا ... فإنىَ سـكران بحبك طافح
و إن كان مُهْرِى فى تلاعك سائحا ... فذاك غزالى فى عبابك سابح
فراح أتى ينصبُّ من رأس شاهق ... بمثـل حلاه تستحث القرائح
أرق من الشوق الذى أنا كاتم ... وأصفى من الدمع الذى أنا سافح
أما وهَوَى من لا أسميه إننى ... لعرضى كما قال النصيحُ لناصح
أبعد صيامى واعتكافى وخلوتى ... يقال فلان ضيق الصدر بائح
لبعت رشادى فيـه بالغى ضلة ... وكم صالح مثلى غـدا وهو طالح
وأىُّ مقام ليس لى فيـه حاسد ... وأى مقال ليس فيـــه مادح
ألا قُلْ لفرسان البلاغة أسرجوا ... فقد جاءكم منِّى المـكافى المكافح
أيخمل ذكرى عنـدهم وهو نابه ... ويغمط شجوى عندهم وهو شائح؟
بدور إذا جن الظلام كوامـل ... وأُسْـدٌ إذا لاح الصباح كوالح
تركتك سوق البز لا عن تهاون ... وكيف وظبيى سانح فيك بارح؟
وإنى وقلبى فى ولائك طـــامع ... وناظر وَهْمِى فى سماطك طامح
أيا أهل ودى والعشير مؤمن ... أتقضى ديونى أم غريمىَ فالح
وهل ذلك الظبى النصاحى للذى ... يقطع من قلبى بعينيـه ناصح

---

(١) نوازع : مائلات ، تقول « نزع فلان إلى كذا » تريد أنه مال إليه ، ونوازح : مفترقة متباعدة .

كنيت بها عنه حياء وحشمة ووجه اعتذارى فى القضية واضح

وتلمسان هذه هى مدينتنا التى عُلِّقت بها التمائم ، وقد نزلها من سلفنا عبد الرحمن ابن أبى بكر المقَّرى بن على صاحب الشيخ أبى مدين ، الذى دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين ، وهو الأب الخامس كما سبق فى ترجمة أخبارهم ، وهى من أحسن مدائن المغرب ماء وهواء حسبما قال ابن مرزوق :

* يكفيك منها ماؤها وهواؤها *

حديث عن تلمسان

وقال الكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون فى كتابه « بغية الرواد ، فى أخبار بنى عبد الواد ، وأيام أبى حمو الشامخة الأطواد » بعد كلام فى شأن البربر ، ما صورته : ودار ملكهم وسط بين الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسن ، كلمة مركبة من « تلم » ومعناه تجمع ، و « سن » ومعناه اثنان : أى الصحراء والتل فيما ذكره شيخنا العلامة أبو عبد الله الأبلى رحمه الله تعالى ! وكان حافظا بلسان القوم ، ويقال « تلمشان » وهو أيضاً مركب من « تلم » ومعناه لها ، و « شان » أى لها شأن ، وهى مدينة عريقة فى التمدن ، لَدْنَة الهواء[1] ، عذبة الماء ، كريمة المنبت ، اقتعدت بسفح جبل ، ودُوَيْنَ رأسه بسيط[2] أطول من شرق إلى غرب ، عروسا فوق منصة ، والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين ، ويطل منها على فحص أفْيَح[3] معد للفلاحه تشق ظهوره الأسلحة عن مثل أسنمة المهارى[4] ، وتبقر فى بطونه عند تدميث الغمائم عن مثل بطون العذارى ، وبها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة ، والصروح الشاهقة ، والبساتين الرائقة ، مما زخرفت عروشه ، ونمقت غروسه ، ونوسبت أطواله وعروضه ، فأزرى بالخورنق ، وأخجل الرصافة ، وعبث بالسَّدير ، وتنصب إليها من عَل أنهار من ماء غير آسن ، تتجاذبه أيدى

---

(١) لدنة الهواء : أراد أنها طيبة الهواء معتدلته لا هو بالحار ولا بالبارد

(٢) أراد بالبسيط الأرض المنبسطة الممتدة فى سهولة (٣) أفيح : واسع

(٤) المهارى : النوق ، واحدها مهرية ، المنسوبة إلى مهرة بن حيدان .

المذانب[1] والأسراب المكفورة خلالها ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات بالقصور وعلية الدور والحمامات ، فيفعم الصهاريج ، ويفهق الحياض ، ويسقى ريعهُ خارجها مغارس الشجر ومنابت الحب ، فهى التى سحرت الألباب رُوَاء ، وأصبت النُّهَى جمالا ، ووجد المادحون فيها المقال فأطالوا وأطابوا ، إلى أن قال : فأنا أنشد ساكنها قول ابن خفاجة لاستحقاقها إياه عندى :

ما جنة الخلد إلا فى منازلكم   وهذه كنت لو خيرت أختار
لا تَتَّقُوا بعدها أن تدخلوا سقراً   فليس تُدْخَلُ بعد الجنة النار

وتوسطت قطرا ذا كُوَر عديدة تعمرها أمشاج البربر والعرب مَرِيعة الجنبات ، منجبة للحيوان والنبات ، كريمه الفلاحة ، زاكية الإصابة ، فربما انتهت فى الروح الواحد منها إلى أربعمائة مد كبير ، ثم أطال فى ذلك ابن خلدون المذكور بما يوقف عليه فى الكتاب المذكور .

ومما ينسب للسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى فى وصفها ما صورته :

لسان الدين يصف تلمسان

تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت فى موضع شريف ، كأنها ملك على رأسه تاجه ، وحواليه من الدوحات حَشَمه وأعلاجه ، عبادها يدها وكهفها كفها ، وزينتها زيانها ، وعينها أعيانها ، هواها المقصور بها فريد ، وهواؤها الممدود صحيح عتيد ، وماؤها بَرُود صَرِيد ، حجبتها أيدى القدرة عن الجنوب ، فلا نحول فيها ولا شحوب ، خزانة زرع ، ومسرح ضَرْع ، فواكهها عديدة الأنواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع ، وبرانسها رقاق رفاع ، إلا أنها بسبب حب الملوك ، مطمعة للملوك ، ومن أجل جمها الصَّيْدَ فى جوف الفرا ، مغلوبة للأمرا ، أهلها ليست عندهم الراحة ، إلا فيما قبضت عليه الراحة ، ولا فلاحة ، إلا لمن أقام رسم

---

(١) المذانب : جمع مذنب — بوزن منبر — وهو مسيل الماء إلى الأرض ، وهو أيضاً الجدول يسيل عن الروضة بمائها إلى غيرها .

الفلاحة ، ليس بها لسع العقارب ، إلا فيما بين الأقارب ، ولا شطارة[1] ، إلا فيمن ارتكب الخطارة ، انتهى .

وقد كنت بالمغرب نويت أن أجمع فى شأنها كتابا ممتعا أسميه « بأنواء نيسان ، فى أنباء تلمسان » وكتبت بعضه ، ثم حالت بينى وبين ذلك العزم الأقدار ، وارتحلت منها إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتد الرِّواق ، فشغلت بأمور الإمامة والفتوى والخطابة وغيرها ، ثم ارتحلت بنية الحجاز ، وجعلت إلى الحقيقة المجاز ، وها أنا ذا إلى الآن فى البلاد المصرية ، وفى علم الله تعالى مالا نعلم ، والتسليم لأحكام الأقدار أسلم ، والله تعالى يختم لنا بالحسنى بجاه نبيه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم .

تقلبات المؤلف فى البلاد

وبها ولدت أنا وأبى وجدى وجد جدى ، وقرأت بها ونشأت إلى أن ارتحلت عنها فى زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف ، ثم رجعت إليها آخر عام عشرة وألف ، ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة وألف ، إلى أن ارتحلت عنها للمشرق أواخر رمضان سنة سبع وعشرين وألف ، ودخلت مصر برجب من عام ثمانية وعشرين وألف ، والشام بشعبان عام سبعة وثلاثين وألف ، وأبتُ منها إلى مصر أواخر شوّال من العام ، وشرعت فى هـذا المؤلف بالقعدة من العام .

ترجمة الشيخ أبى مدين

وقد تخرّج بتلمسان من العلماء والصلحاء مالا ينضبط ، ويكفيها افتخارا دَفْنُ ولىّ الله سيدى أبى مدين بها ، وهو شعيب بن الحسين الأندلسى ، شيخ المشايخ ، وسيد العارفين ، وقدوة السالكين ، قال الشيخ أبو عبد الله محمد

(١) الشطارة — بفتح الشين — الخبث ، وتقول « شطر فلان — من باب ضرب — شطارة ، فهو شاطر » وذلك إذا أعيا أهله خبثا .

ابن التلمسانى فى كتابه « النجم الثاقب ، فيما لأولياء الله تعالى من المناقب » : كان الشيخ سيدى أبو مدين فردا من أفراد الرجال ، وصدرا من صدور الأولياء الأبدال ، جَمع َالله له علم الشريعه والحقيقة ، وأقامه ركن الوجود هاديا وداعيا للحق ، فقصد بالزيارة من جميع الأقطار ، واشتهر بشيخ المشايخ ، وذكر التادلى وغيره أنه خرج على يده ألف شيخ من الأولياء أولى الكرامات ، وقال أبو الصبر كبير مشايخ وقته : كان أبو مدين زاهدا فاضلا عارفا بالله تعالى ، خاض بحار الأحوال ، ونال أسرار المعارف ، خصوصا مقام التوكل ، لا يُشَق غبَاره [1] ، ولا تجهل آثاره ، قال التادلى : كان مبسوطا بالعلم ، مقبوضا بالمراقبة ، كثير الالتفات بقلبه إلى الله تعالى حتى ختم له بذلك ، أخبرنى مَنْ شهد وفاته أنه رآه فى آخر الرمَق يقول : الله الحق ، وكان من أعلام العلماء ، وحفاظ الحديث ، خصوصا جامع الترمذى ، وكان يقوم عليه ، ورواه عن شيوخه عن أبى ذر ، وكان يلازم كتاب « الإحياء » ويعكف عليه ، وترد عليه الفتاوى فى مذهب مالك فيجيب عنها فى الوقت ، وله مجلس وعظ يتكلم فيه ، فتجتمع عليه الناسُ من كل جهة ، وتمر به الطيور وهو يتكلم فتقف تسمع ، وربما مات بعضها ، وكثيرا ما يموت بمجلسه أصحابُ الحب ، تخرّج عليه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال ، وكان شيخه أبو يعزى يثنى عليه جميلا ، ويخصه بين أصحابه بالتعظيم والتبجيل ، قرأ بفاس بعد قدومه من الأندلس على الشيخ الحافظ أبى الحسن بن حرزهم ، وعلى الفقيه الحافظ العلامة أبى الحسن بن غالب ، وذكر عنه أنه قال : كنت فى أوّل أمرى وقراءتى على الشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو معنى حديث قنعت به وانصرفت لموضع خال خارج فاس أتخذه مأوى للعمل بما فُتح به على ، فإذا خلوت به تأتينى

---

(١) لا يشق غباره : لا يلحق ولا يدرك ، وأصله أن الفرس السريع إذا سار أثار غبار الأرض ، فإذا كانت الخيل التى تجرى وراءه لاتشق غباره فهى لا تدركه من باب الأولى ، فهذه العبارة كناية عن هذا .

غزالة تأوى إلى وتؤنسنى ، وكنت أمرُّ فى طريقى بكلاب القرى المتصلة بفاس ، فيدورون حول ، و يبصبصون[(١)] لى ، فبينما أنا يوما بفاس إذا برجل من مَعارفى بالأندلس سلم على ، فقلت : وَجبت ضيافته ، فبعت ثوبا بعشرة دراهم ، فطلبت الرجل لأدفعها له ، فلم أجده هنالك ، فحليتها معى ، وخرجت لخلوتى على عادتى ، فمررت بقريتى ، فتعرض لى الكلاب ، ومنعونى الجواز ، حتى خرج من القرية مَنْ حال بينى و بينهم ، ولما وصلت لخلوتى جاءتنى الغزالة على عادتها ، فلما شمتنى نفرت عنى ، وأنكرت على ، فقلت : ما أتى على إلا من أجل هذه الدراهم التى معى ، فرميتها ، فسكنت الغزالة ، وعادت لحالها معى ، ولما رجعت لفاس جعلت الدراهم معى ، ولقيت الأندلسى ، فدفعتها إليه ، ثم مررت بالقرية فى خروجى للخلوة ، فدار بى كلابُهَا و بصبصوا[(١)] على عادتهم ، وجاءتنى الغزالة فشمتنى من مفرقى لقدمى ، وأنست بى كعادتها ، و بقيت كذلك مدة ، وأخبار سيدى أبى يعزى ترد على ، وكراماته يتداولها الناس وتنقل إلى ، فملأ قلبى حبه ، فقصدته مع جماعة الفقراء ، فلما وصلنا إليه أقبل على الجماعة دونى ، و إذا حضر الطعامُ منعنى من الأكل معهم ، و بقيت كذلك ثلاثة أيام ، فأجْهَدَنى الجوع[(٢)] ، وتحيرت من خواطر ترد على ، ثم قلت فى نفسى : إذا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهى فى المكان ، فقام ، ومرغت وجهى فقمت وأنا لا أبصر شيئا ، و بقيت طول ليلتى باكيا فلما أصبح دعانى وقربنى ، فقلت له : يا سيدى ، قد عميت ولا أبصر شيئا ، فمسح بيده على عينى ، فعاد بصرى ، ثم مسح على صدرى ، فزالت عنى تلك الخواطر ، وفقدت ألم الجوع ، وشاهدت فى الوقت عجائب من بركاته ، ثم استأذنته فى الانصراف بنية أداء الفريضة ، فأذن لى ، وقال : ستلقى فى طريقك الأسد فلا يَرُعْك فإن غَلَبَ خوفُه

---

(١) بصبص الكلب والظبى والبعير : أى حرك ذنبه ، وإنما يفعل ذلك عند الأنس وقصد التملق ، ولهذا قالوا « تبصبص فلان » وهم يريدون معنى تملق .

(٢) أجهدنى الجوع : أورثنى الجهد والمشقة والتعب .

عليك فقل له : بحرمة يدنور إلا انصرفت عنى ، فكان الأمر كما قال ، فتوجه الشيخ أبو مدين للشرق وأنوارُ الولاية عليه ظاهرة ، فأخذ عن العلماء ، واستفاد من الزهاد والأولياء ، وتعرف فى عَرَفة بالشيخ سيدى عبدالقادر الكيلانى ، فقرأ عليه فى الحرم الشريف كثيرا من الحديث ، وألبسه خرقة الصوفية ، وأودعه كثيرا من أسراره ، وحلاه بملابس أنواره ، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ، ويعده أفضل مشايخه الأكابر .

وعن بعض الأولياء قال : رأيت فى النوم قائلا يقول : قل لأبى مدين : بُثَّ[1] العلم ولا تُبَال ، ترتع غدا مع العوالى ، فإنك فى مقام آدم أبى الذرارى ، فقصصتها عليه فقال لى : عزمت على الخروج للجبال والفيافى[2] حتى أبعد عن العمران ، ورؤياك هذه تعدل بى عن هذا العزم ، وتأمرنى بالجلوس ، فقولك « ترتع غدا مع العوالى » إشارة لحديث « حلق الذكر مراتع أهل الجنة » والعوالى : أصحاب عليين ، ومعنى قوله « أبى الذرارى » أن آدم أعطى قوّه على النكاح وأمر به ، ولم يجعل له قوّة على كون ذريته مطيعين مؤمنين ، وكذا نحن أعطانا الله العلم وأمرنا ببثه[1] وتعليمه ، ولا قدرة لنا على كون أتباعنا موفقين .

وكان يقول : كراماتُ الأولياء نتائج معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم ، وطريقتنا هذه أخذناها عن أبى يعزى بسنده عن الجنيد عن سَرِى السقطى عن حبيب العجمى بالسند إلى رب العزة جل جلاله .

وعن العارف عبد الرحيم المغربى قال : سمعت سيدى أبا مَدْين يقول : أوقفنى ربى عز وجل بين يديه وقال لى : يا شعيب ماذا عن يمينك ؟ قلت : يارب عطاؤك ، قال : وعن شمالك ؟ قلت : يا رب قضاؤك ، فقال : يا شعيب قد ضاعفت

---

(١) بث العلم : انشره على الناس

(٢) الفيافى : الصحارى ، وكأن واحدها فيفاة .

لك هذا ، وغفرت لك هذا ، فطوبى لمن رآك أو رأى من رآك .

وعن سيدى أبى العباس المرسى : جُلْتُ فى ملكوت الله تعالى ، فرأيت سيدى أبا مدين متعلقا بساق العرش وهو يومئذ أشقر أزرق ، فقلت له : وما علومك ؟ وما مقامك ؟ فقال : علومى أحد وسبعون علما ، وأما مقامى فرابع الخلفاء ، ورأس السبعة الأبدال .

وسئل رضى الله عنه عما خصه الله تعالى به ، فقال : مقامى العبودية ، وعلومى الألوهية ، وصفاتى مستمدة من الصفات الربانية ، ملأت علومه سِرِّى وجهرى ، وأضاء بنوره برى وبحرى ، فالمقرب من كان به عليما ، ولا يسمو[1] إلا من أوتى قلبا سليما ، الذى يسلم مما سواه ، ولا يكون فى الوعاء إلا ما جعل فيه مولاه ، فقلب العارف يسرح فى الملكوت بلا شك (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) .

وسئل عن الحياء ، فقال : أوّله دوام الذكر ، وأوسطه الأنس بالمذكور ، وأعلاه أن لا ترى شيئاً سواه .

واختلف أهل مجلسه : هل الخضر[2] ولى أم نبى ؟ فرأى رجل صالح منهم معروف بالولاية النبىَّ صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فقال صلى الله عليه وسلم : الخضر نبى ، وأبو مدين ولى .

وذكر التادلى وغيره أن رجلا جاءه ليعترض عليه ، فجلس فى الحلقة ، فأخذ صاحبُ الدولة فى القراءة ، فقال له أبو مدين : أمهل قليلا ، ثم التفت للرجل ، وقال له : لم جئت ؟ فقال : لأقتبس من نورك ، فقال له : ما الذى فى كمك ؟ قال له : مصحف ، فقال له : افتحه واقرأ فى أوّل سطر يخرج لك ، ففتحه وقرأ أوّل

---

(١) لا يسمو : لا يرتفع ويعلو قدره

(٢) هو الرحل الصالح صاحب موسى عليه الصلاة والسلام .

سطر فإذا فيه (الذين كذبوا شعيبا كأنْ لَمْ يَغْنَوْا فيها ، الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين) فقال له أبو مدين : أما يكفيك هذا ؟ فاعترف الرجل ، وتاب ، وصلح حاله .

وذكر صاحب الروض عن الشيخ الزاهد أبى محمد عبد الرزاق أحد خواص أصحابه قال : مر شيخنا أبو مدين فى بعض بلاد المغرب ، فرأى أسدا افترس حمارا وهو يأكله ، وصاحبُه جالس بالبعد على غاية الحاجة والفاقة[1] ، فجاء أبو مدين وأخذ بناصية[2] الأسد ، وقال لصاحب الحمار : أمسك الأسد واذهب به واستعمله فى الخدمة موضع حمارك ، فقال له : يا سيدى أخاف منه ، فقال : لا تخف ، لا يستطيع أن يؤذيك ، فمرّ الرجل يقوده والناسُ ينظرون إليه ، فلما كان آخر النهار جاء الرجل ومعه الأسد للشيخ وقال له : يا سيدى هـذا الأسد يتبعنى حيث ذهبتُ ، وأنا شديد الخوف منه ، لا طاقة لى بعشرته ، فقال الشيخ للأسد : اذهب ولا تعد ، ومتى آذيتم بنى آدم سلطتهم عليكم .

ومن مشهور كراماته أنه كان ماشيا يوما على ساحل ، فأسره العدوّ ، وجعلوه فى سفينة فيها جماعة من أسرى المسلمين ، فلما استقر فى السفينة توقفت عن السير ، ولم تتحرك من مكانها ، مع قوّة الريح ومساعدتها ، وأيقن الروم أنهم لا يقدرون على السير ، فقال بعضهم : أنزلوا هـذا المسلم فإنه قسيس ، ولعله من أصحاب السرائر عنـد الله تعالى ، وأشاروا له بالنزول ، فقال : لا أفعل إلا إن أطلقتم جميع مَنْ فى السفينة من الأسارى ، فعلموا أن لا بد لهم من ذلك ، فأنزلوهم كلهم ، وسارت السفينة فى الحال .

ومن كراماته أنه لما اختلف طلبة بجاية فى حديث « إذا مات المؤمن أعطى

---

(١) الفاقة : الفقر .

(٢) ناصيته : رأسه .

نصف الجنة » وأشكل عليهم ظاهره : أيموت مؤمنين يستحقان كل الجنة ، فجاؤا إليه وهو يتكلم على رسالة القُشَيرى ، فكاشفهم فى الحال بلا سؤال ، وقال لهم : المراد أنه يعطى نصف جنته هو ، فيكشف له عن مَقْعده ليتنعم به ، وتقر عينه ، ثم النصف الآخر يوم القيامة .

وكان أولياء وقته يأتونه من البلدان للاستفتاء فيما يعرض لهم من المسائل .

وذكر تلميذه الصالح سيدى عبد الخالق التونسى عنه أنه قال : سمعت برجل يسمى موسى الطيار يطير فى الهواء ويمشى على الماء ، وكان رجل يأتينى عند صَدْع الفجر فيسألنى عن مسائل لا يفهمها الناس ، فوقع ليلة فى نفسى أنه موسى الطيار الذى سمعت به ، وطال على الليل فى انتظاره ، فلما طلع الفجر نقر الباب رجل ، فإذا هو الذى يسألنى ، فقلت له : أنت موسى الطيار ؟ فقال : نعم ، ثم سألنى وانصرف ، ثم جاءنى مع رجل آخر فقال لى : صلينا الصبح ببغداد ، وقدمنا مكة فوجدناهم فى صلاة الصبح ، فأعدنا معهم ، وجلسنا حتى صلينا الظهر ، وأتينا القدس فوجدناهم فى الظهر ، فقال لى صاحبى هذا : نعيد معهم ، فقلت : لا ، فقال لى : ولم أعدنا الصبح بمكة ، فقلت له : كذلك كان شيخى يفعل ، وبه أمرنا ، فاختلفنا وأتيناك للجواب ، فقال أبو مدين : فقلت لهم : أما إعادة الصبح بمكة فلأنها بها عين اليقين ، وببغداد علم اليقين ، وعين اليقين أولى من علم اليقين ، وصلاتكم الظهر بمكة ـ وهى[1] أم القرى ـ فلذلك لا تعاد فى غيرها ، قال : فقنعا به وانصرفا .

وكان استوطن بجاية ويقول : إنها معينة على طلب الحلال ، ولم يزل بها

---

(١) « أم القرى » من ألقاب مكة المكرمة وورد هذا اللقب فى القرآن الكريم وذلك قوله تعالى (ولتنذر أم القرى ومن حولها) ولقبت بذلك لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، أو لأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ، أو لأنها أعظم القرى شأنا ، وقال فيها بعض الذين جاوروا البيت فيها :

فمن يلق فى بعض القريات رحلة فأم القرى ملقى رحالى ومنتابى

يزداد حاله على مر الليالى رفعة ، ترد عليه الوفود وذوو الحاجات من الآفاق ، ويخبر بالوقائع والغيوب ، إلى أن وَشَى به بعضُ علماء الظاهر عند يعقوب المنصور ، وقال له : إنا نخاف منه على دولتكم ، فإن له شبَهاً بالإمام المهدى ، وأتباعه كثيرون بكل بلد ، فوقع فى قلبه ، وأهمه شأنه ، فبعث إليه فى القدوم عليه ليختبره ، وكتب لصاحب بجاية بالوصية به والاعتناء ، وأن يحْمَل خير محمل ، فلما أخذ فى السفر شق على أصحابه ، وتغيروا ، وتكلموا ، فسكتهم وقال لهم : إن منيتى [1] قربت ، ولغير هذا المكان قدرت ، ولا بد لى منه ، وأنا شيخ كبير ضعيف ، لا قدرة لى على الحركة ، فبعث الله تعالى مَنْ يحملنى إليه برفق ، ويسوقنى إليه أحسن سوق ، وأنا لا أرى السلطان ولا يرانى ، فطابت نفوسهم ، وذهب بؤسهم ، وعلموا أنه من كراماته ، فارتحلوا به على أحسن حال ، حتى وطئوا به حَوْزَ تلمسان [2] ، فبدت له رابطة العباد ، فقال لأصحابه : ما أصلحه للرقاد ، فمرض مرض موته ، فلما وصل وادى يسر اشتد به المرض ، ونزلوا به هناك ، فكان آخر كلامه : الله الحق .

وتوفى رحمه الله تعالى سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، فحمل إلى العباد ، مدفن الأولياء الأوتاد ، وسمع أهل تلمسان بجنازته ، فكانت من المشاهد العظيمة ، والمحافل الكريمة ، وفى ذلك اليوم تاب الشيخ أبو على عمر الحباك ، وعاقب الله تعالى السلطان ، فمات بعده بسنة أو أقل .

ونقل المعتنون بأخباره أن الدعاء عند قبره مستجاب ، وجربه جماعة ، وقد زرته مئين من المرات ، ودعوت الله تعالى عنده بما أرجو قبوله .

وقد أطال فى ترجمته التادلى فى كتابه « التشوّف ، لرجال التصوّف » وقد

---

(١) المنية : الموت ، وهى فعيلة من « منى الله الشىء يمنيه — بوزن رماه يرميه إذا قدره وهيأ أسبابه ، أى مقدرة ، والتاء ليست للتأنيث لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث ، ولكن التاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية .

(٢) الحوز — بالفتح — الناحية ، وبيضة الملك ، والطبيعة .

أفردها ابن الخطيب القسمطيني بتأليف سماه « أنس الفقير » .

ومن كلامه : من رزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم ، ومن اشتغل بطلب الدنيا ابتُلِيَ فيها بالذل ، ومن لم يجد من قلبه زاجرا فهو خراب

وقوله : بفساد العامّة تظهر ولاة الجور ، و بفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين المفتاتون

وقوله : من عَرَف نفسه لم يغترَّ بثناء الناس عليه ، ومن خدم الصالحين ارتفع ، ومن حرمه الله تعالى احترامهم ابتلاه الله بالمقت من خَلْقه ، وانكسار العاصى خير من صولة (١) المطيع

وقوله : من علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق فى مشاهدة الحق .

وسئل عن المحو (٢) والشيخ ، فقال : المحو من شهدت له ذاتك بالتقديم ، وسرك بالاحترام والتعظيم ، والشيخ مَنْ هداك بأخلاقه ، وأيدك بإطراقه ، وأنار باطنك بإشراقه ، إلى غير ذلك من كلامه النير ، وهو بحر لا ساحل له .

وله نظم كثير مشهور بأيدى الناس ، ومما ينسب له قوله :

بكت السحاب فأضحكت لبكائها	زهر الرياض وفاضت الأنهار
وقدَا قبلت شمس النهار بحلة	خَضْرا ، وفى أسرارها أسرار
وأتى الربيع بخيله وجنوده	فتمتعت فى حسنه الأبصار
والورد نادى بالورود إلى الجنى	فتسابق الأطيار والأشجار (٣)
والكأس ترقص والعقار تشعشعت	والجوّ يضحك والحبيب يُزار (٤)

---

(١) الصولة — بالفتح — السطوة والقدرة والقهر .

(٢) المحو — بفتح فسكون — هو إسقاط إضافة الوجود إلى الأعيان ، وفسره الشيخ محى الدين بأنه « رفع أوصاف العادة » وقيل : إزالة العلة .

(٣) الورود : مصدر ورد يرد ، وأصل معناه إتيان الماء للسقيا .

(٤) العقار — بالضم — الخمر ، سميت بذلك لأنها تعقر عقل شاربها ، وتشعشعت : مزجت .

والعود للغيد الحسان مجاوب والطار أخفى صوته المزمار[1]
لا تحسبوا الزمر الحرام مرادنا مزمارنا التسبيح والأذكار
وشرابنا من لطفه ، وغناؤنا نعم الحبيب الواحد القهار
والعود عادات الجميل ، وكأسنا كأس الكياسة ، والعقار وَقَارُ
فتألفوا وتطيبوا واستغنموا قبل الممات فدهركم غدار
والله أرحم بالفقير إذا أتى من والديه فإنه غفار
ثم الصلاة على الشفيع المصطفى مارَنَّمَتْ بلغاتها الأطيار

وإنما ذكرت ترجمة سيدى الشيخ أبى مدين للتبرك به ، ولكونه شيخَ جدى ، فأنا فى بركته لقول جدّى : إنه دعا له ولذريته بما ظهر قبوله ، ولأنا ذكرنا فى هذا التأليف كثيرا من أنباء أبناء الدنيا ، فأردنا كفارة ذلك بذكر الصالحين ، والله الموفق بمنه وكرمه ، آمين .

(١) الغيد : جمع غيداء ، وهي الناعمة .

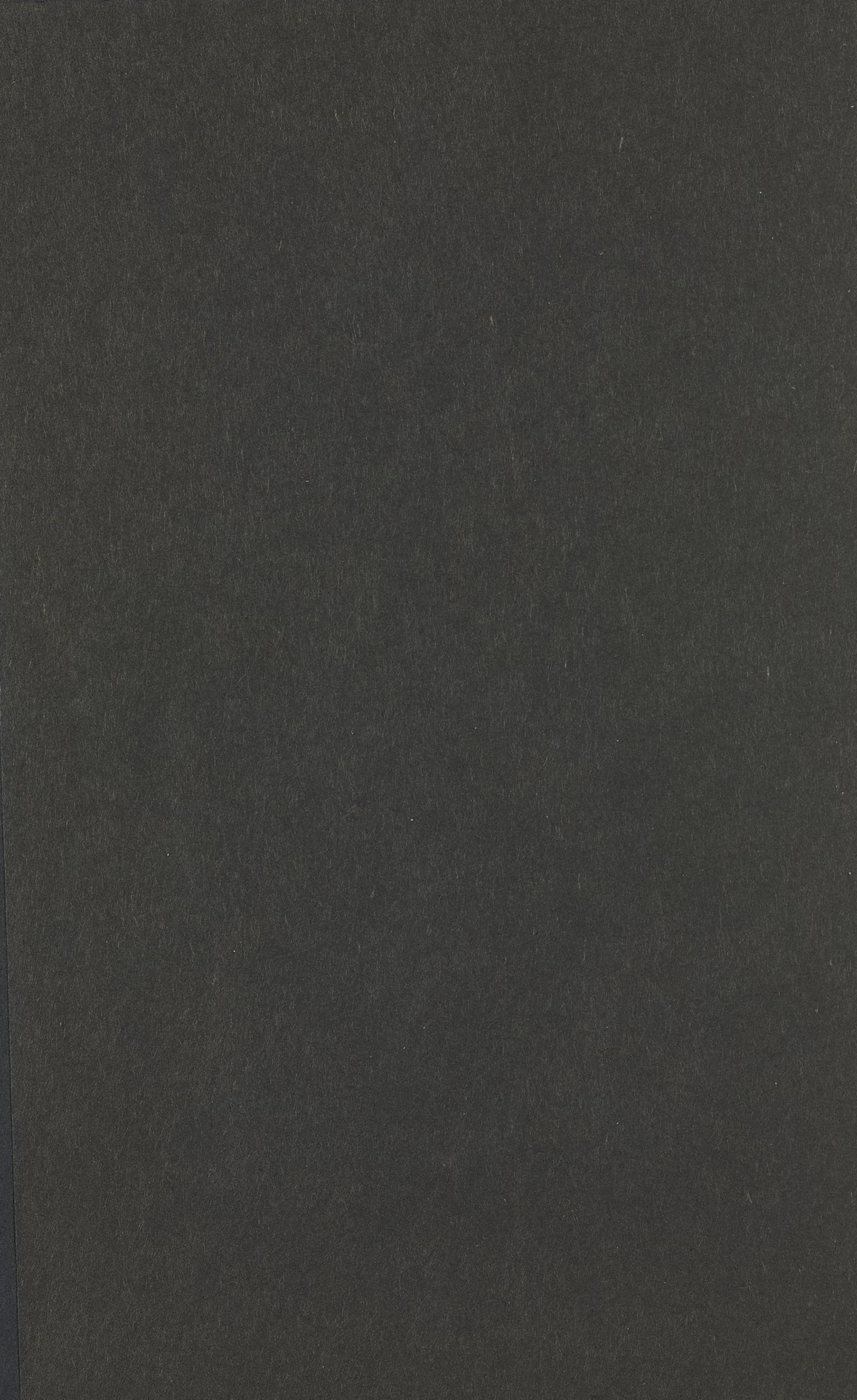
قد تم — بمعونة الله تعالى ، وحسن توفيقه — الجزء التاسع من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، والتعريف بوزيره لسان الدين ابن الخطيب » للشيخ أحمد بن محمد المقَّرى ، التلمسانى ، ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء العاشر مفتتحا بقول المؤلف « الباب السابع ، فى ذكر بعض تلامذته » نسأل الله أن يعين على إكماله ، بمنه وكرمه ! آمين .

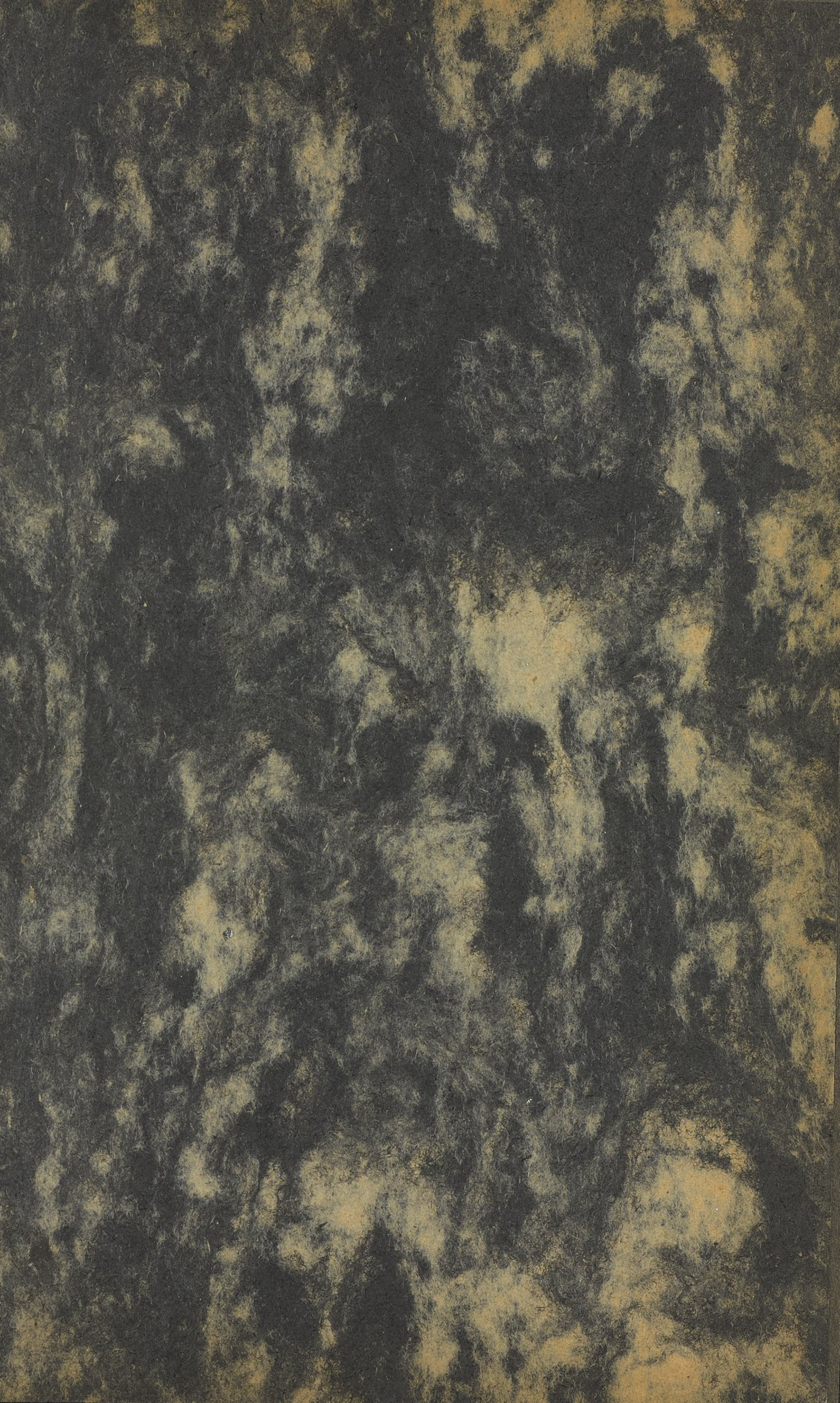
فهرس الجزء التاسع

من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب »

للشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى

تم فهرس الجزء التاسع من كتاب «نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب» والحمد لله تعالى أولا وآخرا، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه






COLUMBIA UNIVERSITY
0026814340

